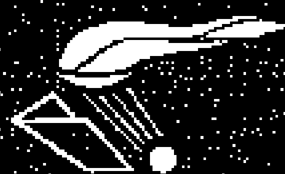
مَملكةُ الصَّعَاليك

جورجي كنعان



دار الطليعة - بيروت

مَملكةُ الصَّعَاليك

الطبعة الأولى، أيار ٢٠٠٠

مَملكةُ الصَّعَاليك

جُورجي كَنعان

دارُ الطّليعة للطّباعة وَالنشر
بيروت

حضرة السري(*) النبيل الأستاذ رياض صادق المحترم

عبّرت عن همّي المجتمعي في رسالتي الأولى اليكم (كتاب بثور في جلد التاريخ). واسمحوا لي أن أعبّر اليوم عن الهم ذاته الذي يملأ حياتي ويغمس في صحني، لأني عرفتك واحداً من قلائل خصّهم الله بمواهب العقل والنطق والافهام. وهؤلاء هم أندر من حبّات اللؤلؤ في خضم الأمواج البشرية المتلاطمة في نصف الكرة الغربي، بالاضافة طبعاً الى الأمواج البشرية المتلاطمة بين المحيط والخليج.

قد يكون مدهشاً أن تصادف في هذا الزمن الرديء، فئة من اليهود، قد صحا وعيهم، وبتعبيرهم «الكثيرون منّا فتحوا عيونهم»، مما أدّى الى «اهتزاز إيمانهم بصدق الصهيونية» ـ (معاريف ١٥/ ١٠/ ١٩٧٤). وربما الى «الكفر بمبادئ الصهيونية» ـ (دافار ١٨/ ١٠/ ١٩٧٤). والى تعميق الشكّ في نفوسهم «بحقهم في هذا البلد» ـ (معاريف ٢٥/ ١٠/ ١٩٧٤). فأدركوا أن «وجودهم في أرض فلسطين هو وجود استعماري» كما يقول البروفسور الاسرائيلي يعقوب تالمون (هآرتس ٣٠/١١/١٩٧٣). و «أن كل أقوال زعمائهم عن حقهم وارتباطهم التاريخي بأرض اسرائيل، هي أقوال عقيمة» ـ (تموروت. نيسان ١٩٧٧). و «أن عداء العرب لا ينبع من العطش الى الدماء. فقد قال آرثر روبين إنه ليس من المتوقّع أن يتصرّف العرب خلافاً لتصرّف أي شعب في التاريخ: التخلّي عن ملكيتهم لبلدهم، والاعتراف بأفضلية الحق الديني والتاريخي، من خلال تقبّل ديانة القادمين لأخذه منهم» ـ (تالمون المرجع السابق).

وأدركوا أن «هناك شعباً يعيش منذ مئات السنين في هذه الأرض. ومثل

(*) السري: السيد الشريف السخي.

هذه الظروف يجعل من اسرائيل دولة محتلة، بنظر الكثيرين في اسرائيل نفسها، ويجعل من حركة تحرير فلسطين، حركة تحرير قومية» ـ هآرتس ٢/ ١/ ١٩٧٢.

وأدركوا «أن كل شعب ذي أرض سيقاتل استعمار أولئك الغرباء عن عرقه، القادمين من الخارج» ـ هآرتس ٣١/ ٣/ ١٩٨٠.

وأدركوا أكثر من ذلك وأبعد، ولكن التعبير عن مشاعرهم قليل ونادر لأنه يقوّض الأسس التي تقوم عليها الحركة الصهيونية. وقد تفلت من ألسنتهم تعابير، فتأتي مشحونة بدهشة مشوبة بسخرية، كقول أحدهم «الغريب أن بعض المسؤولين، كموشيه شمير، يظهر على شاشة التلفزيون ويعلن أن لليهود حقّاً في أرض اسرائيل أكثر من العرب، مع أن هؤلاء يقيمون هنا منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، وبصورة متواصلة. أي كلام هذا؟! إنه يثير الغضب حقّاً» ـ هآرتس ١٥/ ٣/ ١٩٧٤.

وأدركوا أيضاً ما أثبته المؤرخون المستنيرون، ومفاده أن عرب فلسطين كانوا متجذّرين في أرض فلسطين قبل الفتح الاسلامي. فهم الأحفاد الأصلاء للكنعانيين والفلسطينيين الذين فتح التاريخ عينيه عليهم وهم متجذّرون في فلسطين، يعمّر كل مجتمع أرضه ويضع أسس حضارته. يقول المفكر الانجليزي المستنير ج.م.ن. جيفرز «لقد استوطن الكنعانيون فلسطين منذ عصور ما قبل التاريخ. وكنعانيو فلسطين والساحل السوري كانوا في الأساس احدى الموجات التي تدفّقت من الصحراء العربية. وعندما جاء العرب المسلمون في الموجة الأخيرة (الاسلامية) انصهروا مع سكان فلسطين الأقدمين. ومن الطبيعي أن عرب فلسطين اليوم (القرن العشرين بعد ميلاد يسوع الناصري) هم أحفاد تلك الأقوام أو المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخاً وحضارة منذ بداية التاريخ. ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن جذورهم في هذه الأرض هي الجذور عينها التي نشأ منها التاريخ في حدّ ذاته» ـ (كتابه: فلسطين الحقيقة).

ويعلن الأستاذ الكبير السير جيمس فريزر قائلاً «إن الفلسطينيين المعاصرين الناطقين بالعربية هم أحفاد الأقوام أو المجتمعات التي امتلكت فلسطين منذ بداية التاريخ. وظلّت أقدامهم ثابتة في الأرض منذ تلك العصور. وقد توالت عليهم موجات الغزو المتعاقبة التي طغت على بلادهم ولكنها لم تنجح في القضاء عليهم» ـ (جيفرز المرجع السابق).

ويقول اليهودي المستنير المتحرّر من عقد الصهيونية، موشيه منوحن، «نعرف من خلال التوراة أن الكنعانيين استطنوا فلسطين منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة. وأن أغلب العرب الفلسطينيين (والحقيقة كل) الذين يعيشون اليوم في الخيام والأكواخ في مخيّمات خارج حدود وطنهم، يتحدّرون من هؤلاء الكنعانيين» ـ (كتابه: انحطاط اليهودية).

وأدركوا أيضاً وأيضاً، حين قارنوا الوضع التاريخي للعرب في فلسطين. بالوضع التاريخي لليهود فيها، ما أدركه وأثبته المؤرخون المستنيرون والمفكرون الانسانيون، كالمفكر الانجليزي الحرّ النبيل، جيفرز، ومفاده «أن امتلاك الكنعانيين والفلسطينيين لهذه الرقعة من الأرض (فلسطين) قد بدأ قبل خمسة آلاف سنة. ولم ينقطع عنها في يوم من الأيام حتى يومنا هذا. إنه أقدم امتلاك على ظهر الأرض، وأشدّه رسوخاً في التربة. في حين أن الدولة اليهودية المزعومة قامت وتألقت وطنطنت بمقدار عمر برغشة، ثم تلاشت».

وأدركوا، وأدركوا، وصاروا يعون حقيقة جوهرية، مفادها أن روّاد الحركة الصهيونية، وبالتعاون مع زعماء القوى الامبريالية، صنعوا «حقاً» بقوة القاهر، وضعف المقهور، وبتغافل الأقوام والأمم. وأن العرب قصّروا في إحياء حقّهم الموءود، أو على الأقل، إجلاء وجهه المطموس.

وباختصار، إن ما ألمحت إليه (من تفتّح عيونهم) قد يكون مدهشاً. ولكن المدهش حقّاً وفعلاً أن يبقى العرب مقصّرين حتى اليوم في إحياء حقّهم الموءود، أو إجلاء وجهه المطموس.

ولعلّ الأبلغ دهشة والأشد تأسّفاً وتحسّراً، أن يجهل المفكرون والمؤرخون فينا (بله العامة) المخطط المدروس الذي تنفّذه أقلام معيّنة، وتوجّهه حركة معيّنة، الرامي، بخطوطه العريضة، الى زعزعة انتماء الفلسطيني التاريخي، بهدف ابقاء المجتمع الفلسطيني كتلاً بشرية غير فاعلة. والى الحقد على دوره الحضاري والفكري القديم والوسيط، والتقليل من أهميته. والى اقحام فكرهم ودورهم التاريخي، واعطائه الأهمية بعد تهديم ما سبقه وما عاصره وما كان أساساً له يفوقه عمقاً وبعداً.

تمثّل هذا المخطّط، في جانب منه، بظاهرة الدراسات التوراتية، المدهشة بوجهيها المتناقضين. الظاهر أنها دراسات تاريخية علمية وموضوعية ورصينة

وجادة و . . . والباطن أنها عملت، وما فتئت، بعزم واصرار مدهشين على تجاهل تاريخ فلسطين، أو طمسه أو محوه، أو على الأقل تغييبه أو استبعاده، على اعتبار أن هذا «التاريخ» يزعزع الأسس التي يقوم عليها تاريخ إسرائيل القديمة، وينقض المقوّمات التي تتألف منها الدراسات التوراتية، وبالتالي يحكم على المشروع الصهيوني بالفشل والانهيار.

وفي المقابل انحصر اهتمام المؤرخين التوراتيين بتاريخ إسرائيل القديمة. وتمّ تصوير ذلك التاريخ وفهمه على أنه منبع الحضارة الغربية، ومصدر الديانة التوحيدية. ومن الواضح أن الهالة الكبرى التي يحيط بها الأكاديميون والمؤسسات والحكومات تاريخ اسرائيل القديمة، تجعل هذا التاريخ يبدو وكأنه هو تاريخ العالم المتحضّر. وأن التواريخ الأخرى كلها تدور في فلكه.

ومن الطبيعي أن هذا التركيز الشديد على تاريخ اسرائيل القديمة، هو محاولة مشحونة بالقدرة والعزيمة والتصميم، لغرس جذور اسرائيل القديمة في الأرض، والتأكيد على أن دولة اسرائيل الحديثة هي استمرار لـ «المملكة القديمة».

وعمل المؤرخون التوراتيون، في الوقت ذاته، على «تقليص تاريخ فلسطين قبل المسيح، الى تلك القصص التوراتية التي تحكي عن الوجود العبراني فقط. وجعلوا من «العهد القديم» مصدر المعرفة التاريخية» كما تقول الأميركية المستنيرة غريس هالسل. يقول المؤرخ التوراتي جورج سميث «إن فلسطين لا تملك تاريخاً خاصاً بها، باعتبار الغرب الأوربي والاميركي. إن تاريخها هو تاريخ اسرائيل الذي هو بدوره تاريخ الغرب». ويرى سميث «أن الثقافة والتاريخ الخاصين بالمجتمعات الأصلية لا يتمتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي. وهذه النظرة تمثّل نظرة الأوربيين جميعاً».

ومثل هذا الرأي كان للمؤرخ التوراتي م.نوت. يقول «إن التاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود، أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ اسرائيل».

وهذا الانطباع عينه مغروس بقوة في أذهان الغربيين الذين يرون أن «اسرائيل حلّت في الماضي محل فلسطين. وحلّ التاريخ الاسرائيلي محل التاريخ الكنعاني». وعلى هذا الاعتبار أيضاً «لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد سكان ما قبل التاريخ. وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك شيء اسمه تاريخ

فلسطين» كما يقول المؤرخ كيت وايتلام.

والمؤسف أن الدراسات الفلسطينية، خاصة التي صدرت عن مركز الأبحاث ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، ركّزت على الفترة الحديثة في محاولة لإثبات الهوية القومية الفلسطينية، والوصول الى تأسيس دولة خاصة بهم. أما تاريخ فلسطين القديم فقد تمّ التنازل عنه لمصلحة الغرب والصهيونية ودولة اسرائيل الحديثة. وهذا التنازل من أكبر الأخطار التي تهدّد الوجود القومي الفلسطيني، لأنه يؤيد الحجّة الأساسية للصهيونية وهي «العودة» الى «دولة الآباء والأجداد».

وهذه الحجّة قائمة على اعتبار أن هذه الأرض هي الوطن التاريخي لبني اسرائيل. وهذه «الرابطة التاريخية» بين (الشعب) اليهودي وأرض فلسطين، هي التي تجعل من اليهود مشتتين أو منفيين عن (أرضهم). وهي التي تنكر على الفلسطينيين حقهم بالوجود على أرضهم. وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية.

وفي ظل هذه «الرابطة التاريخية» يصبح الاستعمار الأستيطاني هو عودة (الشعب) اليهودي الى «أرضه التاريخية». ويذوب الفلسطينيون، وتصبح مطالبهم أمراً هامشياً وتافهاً، أو يصبحون مجرّد سكان مؤقتين في هذه الأرض، لا بد من طردهم أو إبادتهم.

لهذه الأسباب وغيرها، وهي كثيرة، يصرخ كاتب هذا البحث، في كل ما كتب، استفظاعاً للغفل أو التغافل، ورفضاً للجهل أو التجاهل، يصرخ لأن فلسطين تتعرّض الى ما يشبه المحو من التاريخ اسماً ومجتمعاً وحضارة، بفعل هذا السيل الزاخر من التواريخ التقليدية لاسرائيل التي هيمنت على الدراسات التوراتية. منذ بداية القرن العشرين.

يصرخ لأننا لا نعاني من تزوير التاريخ وتشويه الحقائق، بقدر ما نعاني من الجهل في التاريخ، والغفلة عن رؤية الحقائق الصراح. ومن هنا يرى أن الكتابة في تاريخ فلسطين القديم ضرورية لتحرير القارئ العادي من الأحكام المقرّرة التي رسّختها في ذهنه الأيديولوجيات المقدسة، ومن دوائر التصديق التي يدور في متاهاتها على غير برهان. ويرى أيضاً أن إشهار سيف الكتابة التاريخية، العقلية والمنطقية، في زمن التبشير بالأيديولوجيات المقدسة، هو عمل مقدس.

وللأسباب عينها نرى من الضروري إنشاء مؤسسة تعمل على تكوين صندوق تعاضدي بهدف تجميع تراث فلسطين المبعثر في جامعات ومتاحف العالم لصالح مكتبة ما في أرض فلسطين. ولإلقاء الضوء ساطعاً على مسألة ابراز الجانبين الحقوقي والحضاري، المجهولين أو المغفلين أو المطموسين، لأن الصراع مع «أولاد العمومة» كما ينعتهم العرب المغفّلون، هو صراع حضاري وطويل.

هذا هو الهمّ الذي يملأ حياتي ويغمس في صحني. وإذا كان لنا، يا أستاذ رياض، أنت وأنا، وكل من يتعاون معنا، أن يولونا فضل المساهمة في هذا العمل الجليل (إحياء الحق الموءود، أو على الأقل إجلاء وجهه المطموس)، فلتكن مساهمتنا في جانب واحد منه، أعني تحرير تاريخ فلسطين من شبكة الدراسات التوراتية، وتأمين موقع لهذا التاريخ في الخطاب الأكاديمي والاذاعي، وفي الوسط الاجتماعي، الغربيين المشحونين بالأيديولوجيا اليهودية التي غرستها في الذهنية الغربية شبكة الدراسات التوراتية. وبورك بمن استنار فأنار.

العبد الفقير

جورجي كنعان

مقدمة

لماذا الكتابة في مملكة الصعاليك ؟

لأن الأسفار التي تحكي سير أولئك الصعاليك هي أسفار مقدسة، متأصّلة في الفرد المسيحي، المؤمن بمفهومنا الديني المعاصر، وفي الفرد غير المؤمن. ولا تزال حتى اليوم (مستهل القرن الواحد والعشرين بعد ميلاد يسوع الناصري ـ عصر الرقي الفكري والتقدم العلمي والتكنولوجيا المذهلة) تفعل فيهما معاً في مجالات عديدة ومختلفة. والواقع أن وجدان الفرد في نصف الكرة الغربي، يتغذّى منذ نشأة الفرد، بأسفار اليهود على قدر معيّن وبشكل من الاشكال، في أي مجتمع وأي وسط وأي حضارة. ولا يزال الفرد في المجتمعات الغربية يحمل في وجدانه طبيعة دينية، سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن. ومن الممكن تفسير الكثير من تصرفاته على أساس العقلية الدينية (الميثولوجية) التي اكتسبها عبر العصور.

ويروّج لأسفارهم ويدعو لها أنصار لهم من أصحاب العقول المعطّلة والأذهان المخصيّة، خاصة طوائف الانجيليين والمعمدانيين والدهريين والمتجدّدين والسبتيين وشهود يهوه، وسائر الفرق والطوائف المتفرعة من البروتستانتية أو المنشقّة عنها. هؤلاء جميعاً وكثيرون غيرهم من شتى الطوائف ومختلف النزعات، جعلوا همّهم في الحياة الدعوة في صفوف عامة المجتمع، الى تقبّل دعوات الصهيونية المضمّنة في أسفارها المقدسة وغير المقدسة.

ولأن المسيحيين الغربيين، خاصة البروتستانت، يعتبرون أسفار اليهود هي الوثيقة الوحيدة والهامة في تاريخ الشرق المتوسطي، أو هي المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية.

وإذا كان التاريخ يصنع الانسان، فإن القصص الميثولوجية والمفاهيم الدينية التي ينشأ عليها ويؤمن بها الانسان، هي التي تفعل فيه وتحدّد له شخصيته وترسم معالمها. وهي التي تشكّل الخلفية الاعتقادية (أقول مؤكداً: الاعتقادية) التي ينهض على أساسها السلوك الاجتماعي والسياسي والعسكري و.. وتصاغ على أساسها السياسات التي تحدّد مصائر الكثير من الأقوام والأمم.

ولأن المملكة اليهودية القديمة، والتاريخ الذي ركّبه المؤرخون الغربيون لها وللصعاليك الذين قاموا على أمرها، هما وحدهما اللذان يبرّران الحق في امتلاك أرض فلسطين، واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً أو استمراراً لمملكة الصعاليك القديمة.

ولعل أهم الدواعي والضرورات التي اقتضت دراسة مملكة الصعاليك، هو أن الايديولوجيا اليهودية تشكّل الأساس في مفاهيم المؤرخين التوراتيين، وفي عقائد الكنائس الأصولية، وجزءاً مهماً من جوهر طقوسها. ولما كانت المجتمعات الأوربية والأميركية تعتنق ايديولوجية الأصولية المسيحية، والايديولوجيا اليهودية في أساسها، فإن اليهودية المعاصرة (الصهيونية) اليوم في أوج ازدهارها وجبروتها. والواقع أنه لم يسبق لليهود على مدى التاريخ أن احتلّوا المركز التقريري الخطير في مصائر أقوام وأمم كثيرة كالذي يحتلونه اليوم. والمدهش أن الاستخذاء تجاه اليهود الأقوياء هو وباء العصر، يسري الآن مخترقاً العديد من الحواجز العصيّة التي ليس أقلّها، وإنما ليس أكبرها، حاجز الفاتيكان.

والمؤسف أن حكايات أولئك الصعاليك مغروسة في وجدان المجتمعات التي تأخذ بالديانات التاريخية. ونحن لا نطالب برفضها أو باقتلاعها على اعتبار أنها قصص ميثولوجية. فمثل هذا الطلب صعب أو قل إنه مستحيل. ولكننا ننادي بفهمها، واخضاعها لاحكام العقل وايديولوجية المنطق.

وختاماً، قد يتهمني القارئ بأني أشبعت البحث قولاً وأتخمته تكراراً. وقد يستغرب ما تعرّضت له أو ينكره عليّ. مهلاً ففي الأزمات المصيرية يبدو التأكيد على انارة ناحية في مسيرة التاريخ، ظلّت معتمة، أو حرص القائمون على الأمر في كل عصر أن تبقى معتمة أو غامضة أو مبهمة، نوعاً من الكشف للمجهول. ويبدو تثبيت بعض القيم والمفاهيم من الخطر والشأن أكبر من إخراج المعجزة

ومن إلحاح الخبز اليومي. بلى أكرر وأكرر لأن دعوتي في مؤلفاتي الأخيرة «تاريخ الله» و «تاريخ يهوه» و «الأصولية المسيحية» و «محمد واليهودية»، لاخصاب الأذهان المخصيّة وتفعيل العقول المعطّلة. ولتنقية تراث سوريا الطبيعية من عمليات التزييف الهائلة، وتحريف الحقائق التاريخية، وقعت على آذان صمّاء أو في أرض حجرية. كما أن سعيي جاهداً أن أجعل من البحث التاريخي محاولة لفهم الحقيقة التاريخية، قوبل بفهم غائب أو مغيّب، وبعقل عاطل أو معطّل، وبتفكير مشلول أو مهزوم. أو لأن العيون التي مرّت على كلماتي هي عيون رمداء، أو عيون تقيّة مسبلة مطمئنة الى أيمانياتها، تغرق في قراءة نصوص مشربة بمصل القداسة. أو لأن ما عرضته من نصوص تتميّز بقدسية مثبطة للفكر، وقف في حلوق كثيرين من المفكرين والباحثين و «العلماء»، لم يقووا على لفظه ولا على ابتلاعه.

يبقى عليّ أن أشير الى سؤال، قد يحور في بعض الأذهان، وقد يعتبره آخرون مأخذاً على الكاتب:

ـ ما علاقة فاتحة الكتاب «مفهوم السلام في الذهنية اليهودية» بموضوع الكتاب؟.

من جهتي أرى العلاقة وثيقة، لأن الجماعة يعتبرون اسرائيلهم الحديثة هي إحياء أو إعادة تجديد لاسرائيلهم القديمة. وإذا كانت اسرائيل القديمة قد ظلّت كياناً مصطنعاً، غرسة غريبة في المنطقة، لأن مجتمعات الأرض لم توفّر لها لحظة سلام، فإنهم اليوم يشعرون بحاجتهم الى السلام كحاجتهم الى الهواء، كما يعبرون. لأن السلام وحده هو الذي يجعل من اسرائيل الحديثة كياناً طبيعياً، وليس مصطنعاً. وبالسلام وحده لن تبقى اسرائيل غرسة غريبة في المنطقة، كما يعبّرون أيضاً.

مفهوم السلام في الذهنية اليهودية

من الواضح أن ما عقد وما سيعقد من اتفاقات بين الفلسطينيين والدول العربية من جهة، وبين الكيان الصهيوني من جهة ثانية، يمثّل تحوّلاً تاريخياً مذهلاً في مجرى الصراع العربي الصهيوني. فللمرة الأولى يوقّع أصحاب الأرض، وبالحري ممثّلوهم أو زعماؤهم، اتفاقاً تعاقدياً مع الكيان الاسرائيلي الذي زرعته الصهيونية العالمية في أرضهم، بدعم ومساندة القوى الامبريالية. اعترفوا فيه بشرعية وجوده، وجرى التنازل عن حقّ أصحاب الأرض في الأرض. كما جرى التسليم بحق الكيان الصهيوني في الوجود وفي الأمن. وجرى القبول بالمشروع الصهيوني فكرة وهجرة واستيطاناً واحتلالاً وتشريداً.

إن ما عقد وما سيعقد من اتفاقات قلب جوهر الصراع الفلسطيني - الصهيوني رأساً على عقب، فعوضاً من أن تكون اسرائيل مجرد واقع لا يمكن انكاره أصبح وجودها حقاً مشروعاً. وعوضاً من أن تكون القضية الفلسطينية حقاً تاريخياً، انقلبت الى مجرّد واقع لا يمكن انكاره(١). فقط لأن «السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين» كما قال الرئيس المصري انور السادات في خطابه المشهور في الكنيست الاسرائيلي (الأحد ٢٠/ ١١/ ١٩٧٧).

يضاف الى ذلك أن ما عقد وما سيعقد من اتفاقات بين الكيان الصهيوني والدول العربية، سيتيح للحركة الصهيونية فرصة تاريخية فريدة ونادرة لتحقيق هدفها: تثبيت الكيان الصهيوني - اسرائيل في منطقة الشرق المتوسطي حائزاً على الاعتراف والأمن. ولتحقيق تطلّعاتها الى السيطرة على ثروات العالم العربي وخيراته ومصادره الطبيعية وطاقاته البشرية، وتسخيرها في خدمة الاهداف الصهيونية. وبالتالي التغلغل الاقتصادي في المنطقة العربية وامتداداتها الآسيوية والافريقية.

ومن الواضح أن «الاعتراف العربي بشرعية الدولة اليهودية، والتسليم بها» كما يقول حانوخ بارطوف (معاريف ٢٢/١١/١٩٧٧) و «الاعتراف الكامل بوجودها وبشرعيتها، هو بمثابة جائزة لا تقدّر بثمن» كما يقول عضو الكنيست أوري افنيري (هاعولام هازيه ٢٣/١١/١٩٧٧).

لماذا؟. لأن اسرائيل ظلت تستهدف في استراتيجيتها، منذ ما تمّ انشاؤها عام ١٩٤٨، انتزاع الاعتراف بها من دون أي تغيير في جوهرها ومنهجها وأهدافها. ولأن اليهود لن يبقوا «على خطّ النار مع العرب» كما كان يعبّر رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي، خروتشوف. «وسيتقلّص سفك دماء اليهود بشكل كبير من غير أدنى شك» كما يقول الزعيم الروحي لحزب شاس، الحاخام اللتواني شاخ[٢]. ولأن «اسرائيل لن تبقى غرسة غريبة في المنطقة، يتطلّع العالم العربي الى اقتلاعها. بل ستصبح دولة تقبل بوجودها الدول العربية، وتقيم معها علاقات سياسية واقتصادية وتربوية وانسانية أيضاً. ومهما يحصل في المستقبل فإن هذه الحقيقة لا يمكن اعادتها الى الوراء. ومهما تكن نوعية العلاقات بين اسرائيل والشعوب العربية، فإن هذه العلاقات لن تعود الى ما كانت عليه في الماضي. ولن يكون بوسع أي دولة عربية تجاهل حقيقة أن العالم العربي تقبّل اسرائيل عضواً في أسرة شعوب المنطقة» كما يقول أوري افنيري أيضاً (هاعولام هازيه ٢٠/٩/١٩٧٨).

ومن الواضح أن السلام «انجاز تاريخي» كما صرّح رئيس حكومة اسرائيل، ايغال ألون[٣]. وأنه «سيغيّر مسار التاريخ اليهودي ايجابياً» كما صرّح رئيس حزب العمل الاسرائيلي شمعون بيريس (معاريف ٢٢/٩/١٩٧٨). و«أن السلام سيفتح أمام الشعب اليهودي فرصاً جديدة. ونعقد الأمل فيه على هجرة مستجدة الى أرض اسرائيل» كما قال بيريس أيضاً في الكنيست الاسرائيلي، وبعد ثلاثة أيام من تصريحه الأول (معاريف ٢٦/٩/١٩٧٨). و «أن السلام سيخلق تطوّراً عظيماً في بلدنا» (اسرائيل)، كما صرّح رئيس حكومة اسرائيل مناحيم بيغن، مضيفاً «إن أياماً عظيمة تنتظرنا»[٤]. و«أن السلام سيفتح أمام اسرائيل آفاقاً جديدة في الشرق الاوسط من الناحيتين الجغرافية السياسية والاستراتيجية» كما كتب مندوب اسرائيل السابق لدى الأمم المتحدة، حاييم هيرتسوغ. مضيفاً «ان اسرائيل ستخرج من عزلتها في اجزاء مختلفة من العالم. كما أن الاهتمام

بالاستثمارات سيزداد» ـ (معاريف ١٩/ ٩/ ١٩٧٨) وأن «السلام سيؤدي، باعتبار بوعز عفرون، الى ازدهار اقتصادي ضخم لكل الطبقات. كما سيؤدي الى انفراج كبير في النواحي الاقتصادية كافة. وستتدفّق علينا مبالغ ضخمة من أموال النفط التي تبحث عن سبل للاستثمار. وسيبدأ المقاولون ورجال الأعمال والفنّيون والعمال المهنيون الاسرائيليون يعملون في السعودية والكويت ومصر والسودان والاردن. ومع تبدّد الخوف من الحرب، وتخفيف الضغط الاقتصادي، ستتدفّق علينا استثمارات من أوربا والولايات المتحدة. وستبدأ هجرة يهودية حقيقية من دون حاجة الى مبعوثين من الوكالة اليهودية لتشجيعها. وسيتوقف النزوح أيضاً. ولماذا ينزح الاسرائيليون الى نيويورك بحثاً عن مكان آمن من الحرب، وعن فرص اقتصادية، ما دام الخوف من ذلك قد انتفى هنا. وفتحت أمامهم مجالات اقتصادية ضخمة في جميع انحاء المنطقة. ولن نضطر الى الخوف الدائم على ابنائنا في الجيش الاسرائيلي. ونستطيع السفر لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في الاهرامات أو في زحلة بلبنان» ـ (يديعوت احرونوت ٢٠/ ١١/ ١٩٧٧). وأن «السلام ضروري جداً لاسرائيل، ونحن بحاجة الى السلام كحاجتنا الى الهواء، لأن وضعنا الاقتصادي من سيّء الى أسوأ، ولأن النزوح عن البلد يزداد، ففي عام ١٩٧٧ مثلاً كانت نسبة النزوح مماثلة لنسبة الهجرة» كما يقول الوزير الاسرائيلي يغئيل هوروفيتس (معاريف ٢/ ١/ ١٩٧٨). «ومن دون سلام لن يكون لنا وجود» كما عبّر المؤرخ الاسرائيلي يعقوب تالمون (هآرتس ٧/ ١٢/ ١٩٧٣). و «من دون تسوية سلمية لن يكون لنا مستقبل في هذا البلد (فلسطين) كما عبّرت رئيسة وزراء اسرائيل غولدا مئير (اقتباس تالمون في هآرتس ٧/ ١٢/ ١٩٧٣).

* * *

ومن الواضح أيضاً أن الولايات المتحدة الأميركية تندفع، بعد سقوط المعسكر الاشتراكي، وزوال السند العملاق لدول العالم الثالث المستقلة والنامية، في طريق المغامرة والفاشية، محقّقة بعدواناتها مستوى جديداً من الارهاب لم تبلغه من قبل، يتمثّل بسياستها الجديدة التي تعود بالعالم الى أساليب الاستعمار الكولونيالي القديم، والاحتلال الفج الصريح، والتهديد بالمدافع والاساطيل الحربية. والتي لا تتورّع، لتحقيق أهدافها، عن استخدام

أساليب الابادة الجماعية، وقتل الألوف من المدنيين عمداً، والخروج عن كل معيار انساني وأخلاقي.

والواقع أن كل عدوانات أميركا لم تكشف من قبل السياسة الأميركية الجديدة، بهذا الوضوح والعراء، كما كشفتها حروبها الأخيرة (حرب الخليج مثلاً). فقد فضحت محاولات الامبريالية الأميركية استغلال الظروف الجديدة لمزيد من النهب للعالم الثالث الغني بثرواته، والمنهوب سلفاً حتى القاع. ويأتي على رأس هذه الثروات الثروة البترولية المستخرجة والمختزنة، والتي تتوقف من دونها آلة الغرب الصناعي وما بعد الصناعي، وترسانته العملاقة التي توسّعت حتى شملت بسوقها العالم كله، عن طريق شركاتها متعددة الجنسيات، وفوق الجنسيات. وهي تتطلّع الى المزيد من التوسع والانتشار في غير ما حدود.

لم يكن تحرير الكويت سوى ذريعة، لم تكن تستدعي كل هذا الحشد الهائل من القوة العسكرية التي لم يسبق لها مثيل. والتحالف الامبريالي الأطلسي وتوابعه العميلة. كما لم يكن هذا يبرّر التدمير الشامل للعراق، شعباً وبنية أساسية وصناعية، فضلاً عن كافة المرافق الحيوية والحياتية.

لقد كان الهدف الأميركي الأطلسي الصهيوني المدبّر، بعيداً عن تحرير الكويت، انتهاز الفرصة المؤاتية لتدمير العراق نفسه، كقوة عربية اقتصادية وعسكرية نامية، من بلدان العالم الثالث المتخلّف، تتطلّع الى الخروج من طوق التخلّف، وامتلاك أسباب التكنولوجيا الحديثة، بما يهدّد بخلل في ميزان القوى في المنطقة المشمولة بالحماية والرعاية الأمريكيتين، بين الدول العربية واسرائيل، أيّاً كان الخطأ من جانب العراق.

وكان المقصود من حرب الخليج، بما انطوت عليه من فظائع وبشاعات، أن تكون درساً لا ينسى لبلدان العالم الثالث وشعوبه، ولكل من تحدّثه نفسه بالتمرّد على «النظام العالمي الجديد» الذي رسمته أميركا وحلفاؤها الأطلسيون. درساً لكل من يراوده الأمل، أو يتطلّع الى اللحاق بركب الحضارة، واكتساب التكنولوجيا الحديثة المتطوّرة، والتنمية المستقلة والتقدّم. إنه درس أبعد بكثير مما انطوت عليه غزوة ١٩٦٧ بالنسبة للأمة العربية. كانت غزوة ١٩٦٧ نكسة وتراجعاً. أما هذه الحرب فهي حكم بالاعدام على العالم الثالث في شموله. وأنه مقضي عليه بالتخلّف والتبعيّة الى الأبد. ولا يجوز له التفكير في عبور

الهوّة المتزايدة الاتساع في الثروة أو في استخدام التكنولوجيا. والرضى بمصيره في الموت بالمجاعات التي تحصد الملايين في أثيوبيا والصومال والسودان وليبريا والموزامبيق وانجولا وبعض بلدان أميركا اللاتينية. وتقدّر اللوموند ديبلوماتيك عدد الافريقيين المهيئين للموت بالسيدا وحدها في العقدين القادمين بسبعين مليوناً[٥].

وعلى الجانب الآخر ـ العالمي كان رونالد ريغن، رئيس الولايات المتحدة الأميركية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) قد وضع لادارته منذ البداية، هدف الهيمنة، وازاحة القوى العالمية المناوئة التي أسماها «دولة الشر». وقد تحقق لخلفه جورج بوش (١٩٨٩ ـ ١٩٩٣) حلم سلفه بانهيار المعسكر الاشتراكي، وتفكّك الاتحاد السوفياتي. وكان ذلك يعني سنوح الفرصة التاريخية أمام الامبريالية الأميركية، والتي خرجت قوية متضخمة، لتحقيق حلمها القديم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، حلم الهيمنة المنفردة، وزعامة العالم «الحر» بلا منازع، وفرض نظامها الجديد الذي يجعل منها القوة الاعظم في العالم، والتي لا يقف أمام قوتها شيء.

ومنذ بداية أزمة الخليج ظلّ بوش لا يكف عن ترديد دعوته الى اقامة «النظام العالمي الجديد». وقد اثبتت أحداث حرب الخليج بأجلى بيان أن النظام العالمي الجديد يعني الزعامة المنفردة لاميركا في العالم الرأسمالي بمجموعه، فضلاً عن توابعه، التي سميت في حرب الخليج بـ «دول التحالف». وبعبارة أخرى فرض الهيمنة الأميركية المطلقة على مصائر العالم. وقد عبّرت عن ذلك بصدق اللوموند ديبلوماتيك، بقولها إن انهيار الاتحاد السوفياتي حرم العالم من الحماية ضد نزعة المغامرة الأميركية.

إن الامبريالية الأميركية «الفيل المتشرد في السياسة الدولية»[٦] لا تريد عالماً متعدّد القوى، ولا تريد أوربا موحّدة ذات سطوة وكلمة. فهي تخشى أن تزاحمها على هذه الزعامة أو تستقل عنها في سياساتها. كما لا تريد المنافسة مع العملاقين الاقتصاديين الصاعدين: المانيا واليابان، أو تحديهما للزعامة الأميركية بأي شكل من الاشكال. ومن هنا كان في مقدمة أهداف حرب الخليج، أن تسيطر الولايات المتحدة الأميركية على منابع النفط ـ شريان الحياة لأوربا وخاصة المانيا واليابان بالذات، لاخضاع الجميع لارادتها وزعامتها المنفردة،

و «نظامها العالمي الجديد»[٧]. وأن تصل الى سوق الاستهلاك الواسعة للشركات الأميركية. وأن تصبح الدول العربية في موضع الاعتماد على صناعة الأسلحة الأميركية وحدها. وأن تتحقق الرغبة الأميركية من الانظمة العميلة في تحويل مواطنيها الى أجهزة تتلقى الأخبار (كالترانزستور)، في الوقت الذي يزداد جهلها الفكري والاجتماعي، وتتعمّق غفلتها السياسية. وأن تفهم تلك الأنظمة مع مجتمعاتها أن السلام الروماني يعني خضوع الأمم لسيطرة روما لتعيش في سلام تفرضه جيوشها، تماماً كما يتصور القوم في واشنطن اليوم، السلام الأميركي.

* * *

ومن الواضح أيضاً وأيضاً أن أهمية الشرق الاوسط الاستراتيجية، وثرواته الاقتصادية، وامتيازاته السياسية، كانت في صلب الاستراتيجية الانجليزية منذ بدأت القوى الامبريالية الكبرى تستعمر العالم. وقد عبّر عنها وزير خارجية بريطانيا، اللورد بلفور، بقوله، وهو يسلّم للصهاينة صكاً بتمليكهم بلداً لم تكن من ممتلكاته، «لا يهمّنا النظام الذي نضعه ولا القرار الذي نتخذه بغية الاحتفاظ ببترول الشرق الاوسط. فمن الأمور الأساسية أن يبقى هذا البترول في متناول يدنا»[٨].

والواقع أن أرباب المشروع الصهيوني، من امبرياليين وصهاينة، لم يهدفوا الى استغلال الرقعة الجغرافية الصغيرة التي يقوم عليها المشروع. أو استغلال أهالي البلد الأصليين هناك، وإنما رموا منذ البداية الى تهيئة الظروف الملائمة للنفوذ الى المناطق العربية المجاورة وادخالها في فلك الامبريالية، وبالتالي استغلال ثرواتها وأسواقها.

صحيح أن أرض فلسطين كانت، باعتبار الاستعماريين الأوربيين والأميركيين، أكثر أجزاء الأرض العربية ملاءمة لاقامة القاعدة الامبريالية عليها. وكانت باعتبار الجماهير الأوربية والأميركية، وباعتبار اليهود طبعاً، «أرض اسرائيل التاريخية». ولكنها كانت خطوة على طريق استكمال المشروع الامبريالي - الصهيوني، الذي يعتبر نجاحه بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية، نجاحاً لأهم استثماراتها الاستراتيجية. ومن هذا المنطلق تنظر الولايات المتحدة الى المشروع الصهيوني من زاوية قيمته كقاعدة عسكرية متقدمة تهيّء للاستعمار

الغربي الظروف لفرض هيمنتها السياسية على المنطقة العربية، وبالتالي استغلالها اقتصادياً.

وصحيح أن الولايات المتحدة الأميركية دائبة على تثبيت نفوذها في المنطقة العربية، بتثبيت ودعم ركيزتها الأساسية فيها: المشروع الصهيوني الذي صيغ على أساس أن يكون قاعدة متقدمة للامبريالية الأوربية والأميركية. وصحيح أن للمشروع الصهيوني ولزارعيه في أرض فلسطين، أهدافاً متعددة. وأن مبرّر بقاء اسرائيل هو استمرارها في انجاز المشروع وتحقيق الأهداف، ومنها مثلاً:

ـ التركيز على مناهضة التيارات التقدمية في المجتمعات العربية. والتصدّي لأي حركة قومية، سورية كانت أم عربية، على اعتبار أن مثل هذه الحركة هو النقيض الأساسي للنفوذ الامبريالي في المنطقة. وفي المقابل ترسيخ واقع التفسّخ والتبعيّة في العالم العربي. وتفتيته الى عدد من الدول أو التجمعات العرقية والطائفية.

ـ فتح باب المنطقة على مصراعيه أمام تزايد الوجود العسكري والاقتصادي الأميركي، المباشر وغير المباشر.

ـ حماية منابع النفط في الخليج العربي، وخطوط نقله البحرية الى الغرب.

وصحيح أن اسرائيل ظلّت تنتظر منذ قيامها اليوم الذي «تصبح فيه قاعدة استراتيجية حيوية للولايات المتحدة الأميركية في المنطقة» كما يقول المعلّق الاسرائيلي يوئيل ماركوس (هآرتس ١٩٧٩/٢/٢٣).

وصحيح أن «موقع اسرائيل الجغرافي القريب استراتيجياً من حقول النفط، يحتّم ضرورة التنسيق مع الولايات المتحدة بشأن مكانهما في المعركة العالمية التي بدأت بشأن مصادر النفط في الشرق الاوسط» كما يقول المعلق الاسرائيلي الياهو سلبيتر (هآرتس ١٩٧٩/١/١).

ولكن، يضيف سلبيتر، «اسرائيل المحاطة بأعداء من جميع النواحي، لا يمكن لها أن تكون قاعدة استراتيجية، بل يمكن أن تكون، في أفضل الأحوال، حاملة طائرات».

ومن هنا، أكرّر من هنا، رأى القائمون على الأمر في الكيان الصهيوني «ضرورة انخراط اسرائيل في المنطقة العربية، والعمل على توفير العناصر الكفيلة بتحقيق هذا الانخراط» كما يقول المعلّق الاسرائيلي دان بابلي (دافار ٢١/١١/

١٩٧٧). إذ «لا يكفي أن يكون للدولة اليهودية وجود شرعي، بل ان عليها أن تندمج في محيطها العربي، وأن تفرض نفسها على وجدان المجتمعات العربية وذهنيّتها»(٩) كما يقول عضو الكنيست الاسرائيلي موشيه سنه. ولذلك فـ «إن التقارب والتفاهم المتبادل بين اسرائيل والعرب ضرورة موضوعية لدولة اسرائيل. ولن تستطيع اسرائيل أن تؤدي المهمة التي تمليها عليها طبيعتها، على نحو مناسب، ما دامت هذه الضرورة لم تتحقق في الواقع»(١٠).

يضاف الى ذلك أن لاسرائيل أطماعها الخاصة. فهي تطالب بحصّتها في ثروة المنطقة المنهوبة، بصورة مباشرة، مقابل الدور الاقتصادي الذي تؤديه في اطار شبكة العلاقات الاقتصادية الدولية التي تحركها الامبريالية. وهي تطمع في أن تلعب الدور الذي طالما حلمت به، وهو دور الوكيل العام للاحتكارات الدولية المتعدّدة الجنسيات داخل الوطن العربي. وفي النهاية تهدف الى اعادة بناء الصورة الاقتصادية للمنطقة، بالاضافة الى الصورة السياسية، للوصول الى وضع تتمتّع فيه بتفوّق تكنولوجي ذاتي يعطيها قوة أكبر ومردوداً اقتصادياً أعلى، وهيمنة سياسية مستمرة(١١).

ومن هنا فإن التحالف العضوي والمصيري بين اسرائيل والامبريالية لا يعني أنّ تصورهما لطبيعة العلاقة بينهما، هو واحد. فالعلاقة من وجهة نظر الامبريالية هي علاقة باحدى أدواتها، وبالتالي فإن المساعدات الاقتصادية والعسكرية تبقى محكومة بما يكفل أن تستمر في تأدية دورها كأداة عسكرية ضاربة، على اعتبار أن الدور العسكري الذي تقوم به الآلة العسكرية الصهيونية، في عملية اخضاع المنطقة لسيطرة الولايات المتحدة الأميركية، هو جوهر الوجود الصهيوني أو جوهر المشروع الامبريالي. ولكن لاسرائيل طموحاً كبيراً يتجاوز حدود الدور الذي حدّدته لها الامبريالية: أن تؤدي دورها المرسوم من موقع الشريك للامبريالية وليس من موقع الأداة. وانتقالها الى موقع الشريك أمر تحدّده قدراتها الاقتصادية والقاعدة الصناعية التي تبنيها(١٢).

وقدرات اسرائيل الاقتصادية أمر لا يحدّده المردود الذي يعود عليها من الخدمات التي تؤدّيها في المنطقة للدول الامبريالية التي تغدق عليها المساعدات، على اعتبار أن الوظيفة العسكرية للكيان الصهيوني هي مصدر الدخل الأساسي لهذا الكيان. لأن هذا المصدر لا يمكن أن يبقى مستمراً الى

الأبد أو على الأقل الى أمد طويل حتى وإن استمرت الوظيفة، ولأن هذا المردود بات سالباً بحكم الارتفاع المثير للتضخم نتيجة المساعدات الخارجية، والحجم الاقتصادي المحدود لاسرائيل. وإنما تحدّده فرصة الوصول الى الاسواق والمصادر العربية، فهي وحدها تمكّن اسرائيل من تخفيف اعتمادها على مساعدات الولايات المتحدة، والحدّ من نفقاتها العسكرية، وتوسيع قاعدتها الاقتصادية، واعادة توزيع نشاطاتها الانتاجية بشكل يؤدي الى أرباح اقتصادية أكبر لمجتمعها(١٣).

وفرصة الوصول الى الاسواق والمصادر العربية أمر تحدّده مقومات الاستعمار الجديد التي تقوم على الروابط الاقتصادية التي تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلّل الى اقتصاد البلاد، وتنمية فئات اجتماعية موالية لها، وبث التفرقة والشقاق على أسس قومية أو اقليمية أو طائفية أو قبلية أو..

فمن المعروف أن الدولة اليهودية امتداد عنصري للغرب الاستعماري في قلب العالم العربي. قاعدة استراتيجية وحيدة لا غنى عنها في منطقة حسّاسة من العالم تفتقر الى الاستقرار، مليئة بثروات طبيعية، لا غنى للعالم الحر، العالم المتمدن عنها. ومن هنا كان رفع الامبريالية الغربية فوق اسرائيل مظلة حماية بالغة الشراسة والتصميم، ممعنة في العنف الدموي، درءاً لأي خطر أو شبهة خطر يمكن أن يتهدّدها أو ينتقص من وضعها كقوة اقليمية عظيمة.

ولكن الصهيونية، كنظام متشعّب ذي فروع عدة، سياسية وتنظيمية وعملية للبورجوازية اليهودية الكبيرة الملتحمة مع الأوساط الاحتكارية في الولايات المتحدة وفي بقية الدول الامبريالية، تريد اقامة نوع من الدولة الاستعمارية، تفرض سيطرتها على المنطقة كلها اقتصادياً على الأقل. وتعمل كشريك صغير للامبريالية العالمية، تخدمها وتستفيد منها. تريد لاسرائيل أن تكون شريكاً في استغلال البترول العربي، وأن تكون قاعدة لتصديره ومركزاً لتصنيعه. تستقر فيها صناعة بتروكيميائية ضخمة تغطي احتياجات المنطقة كلها.

فالى جانب دور اسرائيل كأداة للاستعمار، توجد اسرائيل كدولة استعمارية. وبقدر ما تنجح في دورها في خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى، بقدر ما تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة.

وبما أن اسرائيل تسعى الى السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي، فليس

من الضروري، ولا الممكن، أن تمتد بالفعل دولة اسرائيل سياسياً من الفرات الى النيل، لتستكمل عناصر الاستعمار الاستيطاني بتوفير اتساع الرقعة الجغرافية، واليد العاملة الرخيصة. وإنما يمكن أن تكون اسرائيل في حدود اقليمية معقولة، قاعدة صناعية، تسيطر اقتصادياً على المنطقة المحيطة بها دونما حاجة الى احتلالها عسكرياً.

وهكذا قامت فكرة التكامل الاقتصادي للشرق الاوسط على أساس أن تكون اسرائيل قاعدته الصناعية، وتكون الاقطار العربية مورد المواد الخام الأولية، وسوق تصريف المنتجات الصناعية. فالصناعة في اسرائيل في أمسّ الحاجة الى المواد الأولية التي تنتجها البلاد العربية، تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الأموال الاستعمارية الضخمة التي تستطيع تعبئتها. وتقدّر المصادر أن نصف البرامج الاقتصادية الاسرائيلية مموّل من الخارج.

وبعد غزوة ١٩٦٧ استطاع الرأسمال الأميركي أن يزحف وراء الدبابات الاسرائيلية، فيدخل مناطق لم يكن يحلم بها. وما زالت اسرائيل في أول الطريق. غاية الطريق هي اقتحام الاسواق العربية كلياً، وتحويل المنطقة الى كيان اقتصادي واحد، ولن يهم عندئذ أين تمرّ الحدود، حسب نظرية موشيه دايان.

ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن اقتحام الاسواق العربية أمر يحدّده السلام، لا الحرب. فالسلام يوفّر لاسرائيل فرصاً ذهبية لتحقيق أهدافها، لا توفّرها القوة العسكرية، إذ أنهم توصّلوا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ الى قناعة مفادها أنهم غير قادرين بالقوة العسكرية على اخضاع العالم العربي لسيطرتهم الاقتصادية. وقد عبّر عن هذه القناعة المعلّق الاسرائيلي يسرائيل طل بقوله «لقد افترضنا دائماً، وما زلنا نفترض، أن ليس في قدرتنا أن نفرض ارادتنا على العالم العربي بوسائل عسكرية» - هآرتس ١٩/١٠/١٩٧٩.

وهكذا تغلّب في أذهانهم خيار التغلغل الاقتصادي الذي يكون بالسلام، على خيار التوسّع الاقليمي الذي يكون بالحرب. فالسلام وحده يكرّس بقاء اسرائيل، ويفتح أمامها أبواب العالم العربي بثرواته وموارده الطبيعية والبشرية الهائلة. ومن هذا المنطلق عمد رجال الصناعة ووزارة المالية في اسرائيل، منذ

بدأت بوادر السلام تلوح في الأفق السياسي، الى اعداد «خرائط سلام» اقتصادية. (يديعوت احرونوت ١٩/١٢/١٩٧٧). واعداد الخطط والمشاريع التي يمكن أن تبادر اسرائيل الى تنفيذها بمفردها أو بالمشاركة مع دولة أو دول عربية. فقد أشار مثلاً عضو الكنيست يوسف روم في جريدة معاريف (٢٤/١١/١٩٧٧) الى «مشروعات قومية مشتركة كمحطّات الطاقة الذرية ومشروع تحلية مياه البحر». وقال وزير المال سمحا ارليخ «إننا نعدّ المشروعات للتعاون الاقتصادي من مثل منطقة تجارة حرّة على غرار السوق الأوروبية المشتركة، واستغلال للطاقة والري والزراعة بصورة مشتركة، واستغلال مشترك للمناجم، وصناعات مشتركة» ـ معاريف ٢٠/١١/١٩٧٧.

واهتمت الأوساط الاقتصادية الاسرائيلية بمسألة استغلال الثروات الطبيعية في البلاد العربية من ضمن اطار التعاون الاقتصادي المحتمل. وفي هذا المجال كتب دافيد هوروفيتس في دافار (٢/١/١٩٧٨) يقول «إن اسرائيل تستطيع ضمن اطار التعاون مع جاراتها استغلال البوتاس والبروم في البحر الميت. واستخراج الفوسفات من النقب. ومن المرجّح أن سيناء تختزن ثروات معدنية هائلة. وكذلك بالامكان التعاون مع الاردن لاستغلال ثروات البحر الميت». واعتبر هوروفيتس أن هناك الكثير من المواد الخام المهملة في البلاد العربية. «ويمكن اقامة مشارع مشتركة تندمج فيها الثروات الطبيعية العربية، والخبرة الاسرائيلية، ورؤوس الأموال العربية والاجنبية».

وأعلن رئيس نقابة المهندسين ايل‌حنن «إن الدول العربية تمتلك مناجم ومصادر طبيعية ضخمة. وان اسرائيل تمتلك الخبرة والتكنولوجيا المتطوّرة. والتعاون بين اسرائيل وجاراتها من شأنه أن يحدث المعجزات في الشرق الأوسط» ـ دافار ٢٠/١٢/١٩٧٧.

واقترح عالم الذرة الاسرائيلي، شمعون يفتاح، على حكومة اسرائيل «أن تدرس اقتراحاً لاقامة مركز ذرّي مشترك بين اسرائيل ومصر في صحراء سيناء. ومن الممكن أن يضم المشروع مفاعلات ذرية لانتاج الكهرباء، ومرافق كبيرة لتحلية مياه البحر، ومشروعاً اقليمياً لانتاج الوقود الذري. ذلك وغيره من أجل تحويل مشروع رعنان فايتس الى حقيقة، وهو اقامة ١٧٠ مستوطنة جنوبي البلد» ـ معاريف ٩/١٢/١٩٧٧.

والحقيقة الواضحة كالشمس في رائعة الضحى أن الاطماع الصهيونية في الأرض العربية وثرواتها، من نفط ومياه وبحار وأنهار ومعادن ومواد خام ويد عاملة، هي أطماع لا حدود لها. فالمخططات التي وضعها الاستعمار العالمي بوجهيه القديم والجديد، للسيطرة على خيرات المنطقة العربية، جاء الاستعمار المتمثّل في الصهيونية العالمية، وقاعدتها اسرائيل، لينفّذها بالتدريج، ومرحلة بعد أخرى، تبعاً للظروف السياسية والأوضاع الاقتصادية[١٤]. ومن هنا بدأت اسرائيل، منذ لاحت في الأفق تباشير السلام، بوضع المخططات التي تضمن لها النفوذ الاقتصادي الشامل، والنفوذ التكنولوجي الكامل، كي تدعم تفوّقها العسكري في المنطقة وتكمّله، وكي تبسط سيطرتها من دون منازع على كل جوانب الحياة في المنطقة. فهي مصمّمة على المشاركة في الموارد المصرية، وبالتحديد في أربعة منها: الزيت والغاز والماء والقطن. وهي تنوي المشاركة في مشاريع كثيرة، منها مثلاً:

- بناء خزانات زيت مشتركة، وبناء مصاف مشتركة.
- اقامة مشاريع مشتركة لتجميع الغاز الذي يحرقه المصريون حالياً.
- مدّ خط أنابيب للنفط بين السويس وايلات.

وفي الوقت ذاته يشغلها التطلّع الى استغلال النيل والليطاني. والتطلّع الى الثروات البترولية العربية. والى جعل الكيان الصهيوني مركزاً للصناعة والخدمات بالنسبة الى المنطقة بأسرها. ومن الواضح أن ارتباط اسرائيل بالرأسمالية العالمية يفسّر طموحها الى أن تصبح مركزاً للاستثمارات في المنطقة، وأن تفتتح أسواقاً جديدة لتصريف منتوجاتها، وأن تمكّن الاقتصاد الاسرائيلي من استغلال مزايا ذلك الخزّان الضخم من اليد العاملة الرخيصة الكلفة التي تلبّي متطلّبات الصناعة الاسرائيلية[١٥].

ومما يدعو الى التأمّل أن نوعية مستوردات المشرق العربي تتطابق مع نوعية البضائع التي تتخصّص اسرائيل بتصديرها. وأن النقص في اليد العاملة الذي يعاني منه الاقتصاد الاسرائيلي قد ازداد سوءاً، خصوصاً من ناحية العمال غير المهرة. وستشكل الزيادة المتوقعة في الصادرات الى الاسواق العربية ضغطاً عالياً في السوق العمالية، خصوصاً على العمال غير المهرة. فاسرائيل تستقطب اليوم أكثر من مائة ألف عامل فلسطيني من الضفة والقطاع، «قدّموا لاسرائيل قوة عمل

أسيرة ومستعمرة، تحكمها في زمن لم يعد فيه استعمار»[١٦]. ومن الحتمي أن يزداد هذا الطلب بارتفاع، امكانات التدفق التجاري. وستغزو اسرائيل أسواق العمل العربية التي تتمتع باحتياطي كبير من العمال. فخبرة اسرائيل في الأراضي المحتلة، والدور الريادي الصناعي الذي تحلم به وتخطط له سترجمهما اسرائيل الى طلب فعّال قوي على اليد العاملة العربية[١٧]. وهذا التصوّر حدا ابراهام جافيتز وايلياهو كنوفسكي على التصريح بأن المستقبل سينجلي عن ثلاثة ملايين يهودي كأسياد (أفندية) على ٣٥ مليون عامل عربي. (يديعوت احرونوت ٩/١٠/١٩٧٨).

وأيضاً من الواضح أن اسرائيل تعمل على ترسيخ مفهوم «الحدود المفتوحة كلياً للمواطنين وللبضائع بين اسرائيل والدول العربية»، كما عبّر رئيس حكومة اسرائيل، اسحق رابين (دافار ١١/١١/١٩٧٦). ومفهوم «الحدود المفتوحة» يعني ثقافياً التلاقي الفكري بين المجتمعين اليهودي والعربي. ويعني اقتصادياً فتح الأسواق العربية للسلع الأجنبية من غربية واسرائيلية. ومن الطبيعي أن فتح الأسواق العربية أمام زحف السلع الاسرائيلية هو الفرصة الوحيدة التي تسمح لاسرائيل بتجاوز وضع اقتصاد القلعة المحاصرة، المعتمد على التمويل الأجنبي والمساعدات الخارجية. وتسمح لها أيضاً بحل مشكلاتها الاقتصادية على حساب جيرانها. من ذلك مثلاً أن الأراضي التي احتلتها اسرائيل في غزوة حزيران ١٩٦٧ كانت خزاناً لتصريف السلع الاسرائيلية، وأسواقاً مغلوبة على أمرها، استعملتها اسرائيل لحل مشكلاتها الاقتصادية. ففي عام ١٩٧٥ مثلاً فاقت صادرات اسرائيل الى الأراضي المحتلة، صادراتها الى أي دولة أخرى. فقد بلغت نحو ٣٦٦ مليون دولار مقابل ٣٠٧ مليون دولار قيمة الصادرات الاسرائيلية الى الولايات المتحدة الأميركية[١٨].

ومن هنا فإن السلام، في المفهوم الصهيوني، يعني انخراط الدولة اليهودية في اقتصاديات المنطقة عبر اقامة سوق شرق أوسطية مشتركة، وتعاون اقليمي يعتمد على الخبرة والتكنولوجيا الاسرائيلية، والأموال العربية والغربية، والثروات الطبيعية العربية[١٩]. وقد عبّر عن هذا المفهوم المعلق الاسرائيلي دان بابلي بقوله «في عصر السلام سيكون في الامكان تطوير مشاريع اقتصادية اقليمية تجتمع فيها أموال الدول الغنية، والخبرة التكنولوجية المتطورة المتوفرة لدى

اسرائيل، والطاقة البشرية الوفيرة في الدول العربية الغنية بالسكان» ـ دافار ٢١/ ١٩٧٧/١١.

ومن المتوقع لـ «السلام» أن يوفّر لاسرائيل الفرصة الذهبية كي تصبح مركزاً للتمويل والتأمين في الشرق الاوسط. فمن الممكن أن تتحوّل، مع حلول السلام، أموال النفط العربية الى أسواق اسرائيل المالية. وأن تحصل اسرائيل على القسم الأكبر من السوق العربية في مجال خدمات التأمين» كما يقول المعلق الاسرائيلي موشيه مندلبوم (هاتسوفيه ١٩٧٨/٦/٢٢).

ومن المتوقع لـ «السلام» أن يحقّق مطامع اسرائيل في أن تلعب الدور الذي طالما حلمت به، دور الوكيل العام للاحتكارات الدولية المتعددة الجنسيات داخل الوطن العربي. وضرب محاولات التكامل الاقتصادي بين الدول العربية، وتحويل العرب الى مجرّد أيد عاملة ومستهلكين للانتاج الاسرائيلي. وفي هذه الحالة «سيفقد الاقتصاد العربي مميزاته وخصائصه، ويلحق بذيل الاقتصادي الاسرائيلي. وسيحكم على تطوّره بالعجز والشلل» كما يقول المعلّق جيفري أرونسون[٢٠].

ومن الجلي لذوي البصائر النافذة أن اسرائيل، بارتباطها العضوي بالولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية، وبدعم المنظمات والهيئات اليهودية والدولية الأخرى، لها، ستضع ما لديها من خبرة وامكانيات في خدمة تأمين تدفق البترول العربي الى الغرب. وضمان استمرار الهجرة اليهودية الى اسرائيل. واحتكار التقدم التكنولوجي في المنطقة، والتسلّل الى بعض أو كل اجزاء الوطن العربي.

ومن المتوقّع لـ «السلام» أن يؤدي الى تغلغل رؤوس الأموال الاجنبية في اقتصاديات الدول العربية بشروط أكثر ملاءمة من رؤوس الأموال الوطنية. والى تشريع أبواب العالم العربي في وجه الهيمنة الأوربية والأميركية. وقد عبّر عن «الاحتمالات الاستراتيجية بالنسبة الى الغرب» الجنرال حاييم هيرتزوغ، بقوله «إنها رائعة، وهي تفتح آفاقاً جديدة تماماً» ـ (معاريف ١٩٧٨/٩/١٩).

ومن المتوقع لـ «السلام» أن يؤدي أيضاً الى محو كل خطوة تقدمية حقّقها العرب خلال نضالهم الطويل. والى القضاء على كل حركة قومية ثورية في المنطقة. والى تمزيق الأمة العربية وتقطيع أوصالها، والحيلولة دون تحقيق ذاتها

وبناء مستقبلها الحضاري الذي تؤهلها له امكاناتها. والى ابقائها تابعة، للامبرياليتين الأوربية والأميركية، خاضعة لارادتهما، وواضعة كل ثرواتها في خدمتهما.

وسيكون تركيز اسرائيل في ظلّ السلام على مناهضة التيارات التقدمية في المنطقة، وعلى منع مجتمعاتها من التقدّم والفلاح، وعلى تفتيت التكامل القومي وزعزعة الانتماء التاريخي. وبالقدر الذي تنجح اسرائيل بالوقوف في وجه أي عامل تكامل أو توحّد عربي، سواء أكان سياسياً أم اجتماعياً أم اقتصادياً. وتنجح في التعامل مع العرب كفرقاء ممزّقين، ضعفاء ومغلوبين، وفي اخماد النهضة العربية، وفي اعادة بناء الصورة الاقتصادية للمنطقة، بقدر ما تنجح في تأمين شروط استمرارها.

ومن المتوقّع لـ «السلام» أن يجعل من العلاقات بين اسرائيل والدول العربية، علاقات طبيعية. والعلاقات الطبيعية وحدها هي التي تجعل من اسرائيل كياناً طبيعياً وليس مصطنعاً. وبالسلام تنال اسرائيل الشرعية، وتنهي حالة الحرب والعداوة، وتفتح أقنية المواصلة والاتصال بأقل ثمن أو من دون ثمن. واذا كان «السلام سيشترى بثمن غال» كما يقول رئيس حكومة اسرائيل وزعماؤها، فإن هذا الثمن، كما يقول عضو الكنيست أوري افنيري، «هو من عملات لم نكن نملكها في أي وقت. فنحن لا ندفع من أموالنا، ولا من ثرواتنا القومية» ـ هاعولام هازيه ١٩٧٨/٩/٢٠.

ولعل أهم ما يأمله الاسرائيليون ويرجونه من «السلام» أن يحرّر «الشعب المحاصر» في اسرائيل ـ هآرتس ١١/ ٣/ ١٩٧٥.

وأن يخرج اسرائيل من «الغيتو المسيّج» ـ هآرتس ٢٦/ ٥/ ١٩٧٤.

وأن يريح الاسرائيليين من «حمل أسلحتهم ليلاً ونهاراً» ـ معاريف ٦/ ١/ ١٩٧٥.

وأن يقتلع الانطباع من الذهن الغربي بأن «مصير اليهود في اسرائيل معسكر وحصن» ـ دافار ٢٢/ ٤/ ١٩٦٨.

وأن يزول عن صدور الاسرائيليين كابوس «الهلع الموهوم، ترافقه هستريا جماعية» الذي كان «يعمّ كل سكان الجزء الجنوبي من البلاد (اسرائيل)، لأن شخصاً ما أبلغ باللاسلكي أنه شاهد (مخرّبين)» ـ هآرتس ١٩٧٨/٥/١٢.

وأن تنتفي من حياة اليهود «شائعة بأن جماعة من (المخرّبين) دخلوا القدس. فتسري كالنار في الهشيم، وتدفع بالآباء الى المدارس بسرعة مذهلة لاعادة أبنائهم الى البيوت» ـ هآرتس ٢٦/ ٥/ ١٩٧٤.

وأن ينزاح عن صدور الاسرائيليين كابوس «الخوف من العمليات» و «آثار الأقدام» الذي كان يؤدي في الماضي الى «توقّف الدراسة في كافة مؤسسات التعليم في المستوطنات اليهودية في انحاء الجليل الغربي وفي مدارس عكا. والى اغلاق الملاهي، والغاء مباراة لكرة القدم في نهاريا، والى مغادرة السيّاح القلائل الذين كانوا فيها» ـ دافار ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٤.

وبعد حلول «السلام» لن يفرض «حظر تجوّل شامل على نحو ربع سكان الدولة، في قلب البلاد، خشية أن يكون (مخرّب) يتجوّل في المنطقة» ـ هآرتس ١٢/ ٥/ ١٩٧٨.

ولن تُكتشف آثار ثلاثة مناضلين فلسطينيين «بالقرب من موشاف شومرة في الجليل الغربي، فتؤدّي الى اعلان حالة التأهّب في المنطقة، والى وضع المستوطنات في حالة تأهّب، والى اصدار التعليمات الى المدارس والمؤسسات باتخاذ كافة الاحتياطات» يديعوت احرونوت ٧/ ٥/ ١٩٧٤.

وفي ظلّ «السلام» لن «يكون هناك (مخرّبون) يدبّون الهلع والرعب في اسرائيل بأسرها» ـ هآرتس ١٩/ ٤/ ١٩٧٤.

ولن يكون هناك آثار أقدام تؤدي الى «عمليات تفتيش واسعة. والى الاستعانة بطائرات مروحية وطائرات استكشاف خفيفة. والى انارة المنطقة طوال الليل بقنابل مضيئة مما أدّى الى نشوب حرائق في الغابات واندلاع النار في حقل للقطن» ـ دافار ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٤.

ولن يكون هناك «خمسة من (المخرّبين) يزرعون الارتباك والرعب في مناطق شاسعة. ويعطّلون الحياة في المدن والقرى. ويشلّون الحركة السياحية. ويبحث عنهم منذ أكثر من اسبوع آلاف الجنود والرجال من حرس الحدود والشرطة والحرس المدني» ـ معاريف ٢٠/ ١٠/ ١٩٧٤.

ولن تكون هناك عمليات للثوار الفلسطينيين «تدب الذعر في أحياء القدس الجديدة: نبي يعقوب، وغيلا، وراموت. فينزوي السكان في منازلهم عند

حلول الظلام، ويمتنع آباء كثيرون عن ارسال ابنائهم الى وسط المدينة في المساء» ـ معاريف ٦/ ٢/ ١٩٧٥.

وباختصار، لن يهجس الاسرائيلي، بعد حلول السلام، بالخشية من وجود ثائر فلسطيني. ومن يتملّكه الذعر من آثار أقدام، أو من شائعة بوجود مقاتلين فلسطينيين. ولن يضطر الجيش الاسرائيلي الى «اقامة أجهزة انذار حول المستوطنات، واغلاقها بالأسيجة والالغام. والى استكمال شبكة دفاع تشمل أسيجة واضاءة وابراج حراسة ومراقبة الطرق بواسطة كاميرات تلفزيونية. والى نشر الحرّاس المسلّحين على الاسطح» ـ معاريف ٢٣ و٣١/ ١٢/ ١٩٧٤.

وفي ظلّ «السلام» لن تبقى «اسرائيل قلعة عسكرية» كما يقول البروفسور هربرت مركوزة (هآرتس ٢/ ١/ ١٩٧٢). ولن تبقى «أحد الحصون أو القلاع الأمامية، الصليبية» كما يقول رئيس حزب العمل ورئيس حكومة اسرائيل، شمعون بيريس (اسرائيل دايجست ٢٨/ ٦/ ١٩٦٨).

تمهيد

لماذا الكتابة في تاريخ اسرائيل القديمة؟

لا نظن أن تاريخ قوم أو جماعة من البشر نال من الاهتمام، وكُتب فيه من المجلدات، مثلما نال، وكُتب في، تاريخ هؤلاء القوم أو الجماعة.

والسؤال الذي قلما يخطر في بال أو يهجس في خاطر: لماذا نال تاريخ هؤلاء القوم (بني اسرائيل) كل هذا الاهتمام؟. ولماذا حظي بهذه الأطنان من المؤلفات؟.

أولاً، لأن أضخم (عدداً) ديانة تاريخية (المسيحية) تبنّت تاريخ بني اسرائيل، واعتبرته «عهداً قديماً» (بين الله وبين آباء الجماعة اليهودية)، لـ «عهد جديد» (بين الله وبين أتباع الديانة الجديدة ـ المسيحية). وبالتالي اعتبرته مقدساً.

وثانياً، لأن أصحاب هذا التاريخ (بني اسرائيل) استطاعوا، بالقداسة التي أضفيت على تاريخهم، أن يلجموا أتباع الديانة التاريخية الثانية (المسيحية)، وأن يعطّلوا عقولهم، حتى بات المفكّرون منهم والمؤرخون والاعلاميون والمبشرون الدينيون (بله العامة فهم أشبه بالقطعان في حظائر رجال الدين أو الحكام) يتسابقون الى الزعيق من على منابرهم، أو الى رفع شعاراتهم، أو الى التبشير بمزاعمهم وادعاءاتهم التي أصبحت لكثرة التكرير والترديد على درجة عظيمة من القوة. وفي المقابل أصبح الالتزام بالحق والحقيقة، لكثرة الضمور والتشويه، على درجة عظيمة من التحريف.

وثالثاً، لأن تاريخ بني اسرائيل المقدس أدّى الى خلق قضية، لعلّها أندر وأخطر القضايا التي عرفها التاريخ. قضية وضع فيها البحّاثة والمؤرخون

المعاصرون لها، في الغرب والشرق، من الدراسات ما يوازي مكتبة قائمة برأسها.

ولكن الطريف أو المدهش أو المؤسف (لا فرق) أن البحّاثة والمؤرخين الذين تناولوا هذه القضية في مؤلفاتهم الكثيرة والمتعدّدة، تغافلوا أو تجاهلوا أو تعاموا عن الجانب الرئيسـي في هذه القضية. أعني به تاريخ الجماعة وأثره المباشر في خلق القضية. وعلاقة الجماعة بالأرض ـ موضوع القضية.

ومن هذا المنطلق كانت رغبة الباحث، كاتب هذه السطور، أن يوضح، من وجهة نظر ملتزم بالقضية الفلسطينية، مؤمن بصدقها وعدالتها وانتصارها المحتم، مؤيد للنضال الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني ـ الامبريالي، أن يوضح للجماهير المغفلة المؤمنة بالكتاب المقدس، والتي تربو على نصف البشرية، أن «كتاب المسيحيين المقدس» ليس «صك اليهود» المقدس لملكية فلسطين منذ ما يزيد على ٣٥٠٠ سنة، كما يقول بن غوريون[٢١]. وتأخذ بقوله جماهير مغفلة تزيد على النصف من سكان هذا الكوكب. وإنما هو «صك الفلسطينيين». ولكن، ماذا تعمل لهذه الجماهير المعطّلة العقول، المخصيّة الأذهان، الفارغة الأدمغة كجرار الفخاري؟. وماذا تعمل للإعلام الغبي في العالم العربي؟. وللجماهير العريضة في الغرب والشرق، المسوقة بعصا الدين من غير أن يكون لها أدنى دراية بما يتضمّنه كتابها المقدس المترسخ في أعماق القناعات ايماناً وشريعة؟.

وكان تركيز الباحث الشديد على قضية الأرض، لأن قضية فلسطين في الذهن الغربي، ليست قضية أرض، اقتلعت الصهيونية العالمية، بدعم ومساندة الامبريالية الأوربية والأميركية، منها شعبها، وأعطتها لمجموعات بشرية لا رابط يجمع بينهم غير الدين. جمعوهم من أربعة أطراف المعمورة وأطلقوا عليهم صفة الشعب. وإنما هي قضية حدود آمنة، حرية ملاحة، واعتراف متبادل، علاقات اجتماعية واقتصادية، و. . وتوطين اللاجئين الفلسطينيين في هذه الدولة أو الدول، وفي هذه البقعة أو تلك من الأرض، على اعتبار أن أرض فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية»، «أرض الميعاد»، أرض «الشعب المختار»، أرض «مملكة اسرائيل» التي يحفظ أخبارها ويتغنى بـ (أمجادها) ما يزيد على النصف من سكان هذا الكوكب.

ولأن قضية فلسطين، في المفهوم الغربي، ليست قضية صراع شعب فلسطين في استرداد أرضه وحقوقه على هذه الأرض، مع الصهاينة الذين سطوا على أرضه وشرّدوه في المخيّمات داخل أرض فلسطين أو في الدول العربية المجاورة، أو في ما وراء البحار والمحيطات. وإنما هي قضية صراع بين دول ذوات سيادة قومية. ولذلك فإن المثقف الغربي يفهم أن الصراع الدائر في الشرق المتوسطي هو صراع بين اسرائيل كدولة قومية ذات سيادة، وبين مجموعة من الدول العربية تريد القضاء على اسرائيل أو تطمع في رقعة من «أرض اسرائيل».

رابعاً، لأن الباحث يرمي الى تبصير الجماهير والقيادات السياسية والفكرية والاجتماعية، في الغرب والشرق، بخفايا الحقائق التي لا تملك تلك القيادات والجماهير الوقت اللازم أو الجرأة الضرورية أو العقل المستنير للنفاذ الى جوهرها، أو على الأقل، الوقوف عليها.

واذا كان قد فُرض علينا، بحكم واقع الضمور في وعينا، والتعطيل في عقولنا، أن نخضع لقيادات لم تُمدّ ولم تؤهّل للتعامل مع الحقائق الكبرى. فليس أقل من واجب المفكّر المستنير أن يُشعل الضوء في دروب السائرين في الظلمة الذهنية الحالكة. وأن يصير بمثابة الناقوس الذي يدقّ مذكّراً بالخطر الذي يدقّ الأبواب في الزمن الرديء. وليس أقل من التزام القيادات أن تُبصر وتتأمّل في الفكر المطروح رفضاً أو قبولاً. ومن التزام الأفراد، حكاماً ومحكومين، أن يعرفوا كيف يُصغون أو يقرأون، ويعون ما يُقدّم على طبق الفكر من درر أو أصداف.

واذا كان هناك عدوّ يعيش بيننا، ولو في جزء من الأرض العربية. ويتعامل معنا من منطلق الاحتكاك اليومي والتبادل التجاري والثقافي و. . فليس أقل من أن نعرف هذا العدو ماضياً وحاضراً. وأن نقف على الخطوط الكبرى في ايديولوجيته واستراتيجيته. وأن ننتقل في مواجهتنا مع العدو من حيّز المهاترة والتدجيل، الى حيّز الرصد والتفكير. وأن نُحيي العنصر المكبوت في أدمغتنا، والمدحور، المقهور، المضطهد في مجتمعاتنا ـ التفكير. وأن نرفع سلاح العقل والعلم والوعي المعرفي الذي يفوق في أهميته السلاح المادي في صراعنا الحضاري والطويل مع العدو الصهيوني.

خامساً، لأن الأبحاث التي صدرت في القرن العشرين، معبّرة عن وجهة

النظر الفلسطينية، اقتصرت على الفترة الحديثة من تاريخ فلسطين، في محاولة لالقاء الضوء على ما عاناه الشعب الفلسطيني في الغزو الصهيوني من قهر وعنصرية ونفي وتشريد وابادة و.. ولاثبات هوية الفلسطينيين القومية. وركّزت على مسألة الصراع مع الحركة الصهيونية في خلقها لدولة اسرائيل تخطيطاً وتنفيذاً.

ولم يؤدِّ نمو الحركة الوطنية الفلسطينية الى بعث الماضي الفلسطيني القديم، وإنما اقتصر المؤرخون، في تعبيرهم عن وجهة النظر الفلسطينية، على الماضي الفلسطيني القريب، أي تاريخ فلسطين، منذ الفتح الاسلامي في القرن السابع الميلادي. أما تاريخ فلسطين القديم منذ بداية التدوين (الالف الثالث ق.م.) حتى الفترة الرومانية، فقد تغافل عنه أولئك المؤرخون، أو تنازلوا عنه لمصلحة الغرب ودولة اسرائيل الحديثة، كما يقول المؤرخ كيث وايتلام(٢٢). وبذلك بقي وقفاً على المؤرخين الصهيونيين والمتعاطفين معهم. فعبثوا به وأشبعوه تزويراً وتشويهاً، كما يقول وايتلام أيضاً.

وهكذا كان ماضي فلسطين، وما فتيء، موضع اهتمام الدراسات التوراتية التي سيطرت عليه وتحكّمت به، وأعادت تشكيله بالصورة التي تخدم أهداف الصهيونية. ولعل أهم ما حقّقوه في الصورة المشكّلة أنهم أخضعوا تاريخ فلسطين للنص التوراتي. ولكن أي نص؟. النص المبتسر والمشوّه والمضلّل. وأسندوا للجماعة مايسمونه فترة «الجذور» الاسرائيلية في أرض فلسطين. وفترة تأسيس الدولة اليهودية في العصر الحديدي. وعملوا على توسيع وتمديد تاريخ اليهود في فلسطين. وكثيرون منهم جهدوا في صقله وتنضيره حتى صار تاريخ اليهود في فلسطين، باعتبارهم طبعاً، هو تاريخ الحضارة الانسانية. وفي المقابل عملوا عن وعي أو من غير وعي. عن قصد أو من غير قصد، على تغييب تاريخ فلسطين أو تقليصه أو محوه. وكثيرون منهم عملوا على تشويهه وتزييفه وتزويره. فصار القارئ العادي في الغرب والشرق لا يعرف عن تاريخ فلسطين غير ما يقصّه كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). والمدهش أو المستغرب أن المعلومات التي يتلقّاها ويختزنها في ذهنه، مشوّهة ومزوّرة ومزيّفة ومبتسرة ومضلّلة. وأصبحت الدراسات التي تتناول تاريخ اسرائيل القديمة مهيمنة في الأسواق الفكرية في الغرب الأوربي والأميركي، لدرجة يُنظر إليها وكأنها تمثّل

الصورة الكاملة في لوحة الشرق المتوسطي وحضارته.

وبذلك تشكّلت ظاهرة غريبة ومدهشة، اخترت أن أطلق عليها صفة الغفلة أو التغافل، العماية أو التعامي، والجهالة أو التجاهل، تجذّرت في ذهنية مجتمعات تربو على نصف البشرية، مفادها أن اليهود المنتشرين في مختلف أرجاء العالم، «عادوا ويعودون» الى «أرضهم التاريخية»، لاعادة تجديد الوطن القومي الذي كان لهم في أرض فلسطين منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام. وأصبح التأييد والدعم للصهيونية كأيديولوجية وحركة، عنصراً أساسياً في الثقافة السياسية والمجتمعية الغربية. وصارت المفاهيم اليهودية الدينية والسياسية والاجتماعية، والايديولوجيا الصهيونية التي تؤكد على ضرورة تجميع اليهود في «وطنهم التاريخي - أرض اسرائيل»، مترسّخة في الذهنية الغربية.

سادساً، لأن الكتابة في أقدس قضيّة عرفها التاريخ (قضية فلسطين)، ونشر الكتابة في مجتمعات، الذهن فيها مخصيّ والعقل معطّل والوعي أمي أو مشلول. مجتمعات، يقال ان لها ثقافة ومفاهيم تاريخية، ولكنّ ثقافتها مشوّهة، ومفاهيمها التاريخية مزيّفة. مجتمعات، الفرد فيها ضائع بين أصوات السماء وأصوات المنابر والمحاريب. محجوز وراء سدود منيعة من الميثولوجيات الغيبية، المحروسة بأشرس الأرباب وأشرس التعاليم والاوهام. مجتمعات ضلّلها الكتاب المقدس، فاستعبدها لحساب الصهيونية وجيّشها لتحقيق مآرب الصهيونيين. مجتمعات تأخذ بالاشكال والطقوس، وبالمفاهيم التقليدية التي تخطّاها الفكر في تطوّره التاريخي والاجتماعي. وتغفل عن الجوهر في القيم والفضائل والمفاهيم الاجتماعية والانسانية. مجتمعات، أصبحت وسائل الاعلام فيها على درجة عظيمة من القوة. وصار الالتزام بالحقيقة على درجة عظيمة من التحريف. فخضعت الجماهير فيها لقواعد الثقافة السائدة التي جعلت منها أدوات تحرّكها وسائل الاعلام، أو أدمغة مشلولة وضيّقة الأفق، لا تفهم بغير لغتها وغير تفاسيرها، ولا تسمع من يتحدث بغير لسانها. مجتمعات، يندر أن تصادف فيها من مسح الغشاوة عن بصيرته، ورفع اصبعيه عن أذنيه، وتحرّر من اغلال الاعتياد والانقياد، وأخضع كل شيء، مهما قدم عهده أو عظمت حرمته، لمحك التحليل الدقيق والنقد المحكم. مجتمعات، تخضع الجماهير فيها لقواعد الثقافة السائدة. والطريف أو المدهش أو المؤسف، أن الأسس والأطر

العامة لهذه الثقافة هي أسس وأطر يهودية، يذرّ دعاتها ومبشّروها غبار الاستجهال في أدمغة العالم الغربي الذي يعكف على سبر الخفيّات والنفاذ الى أسرار الذرّات. مجتمعات، تدرك اليهودية العالمية مدى جهلها لتاريخ هذه الأرض (سوريا الطبيعية ومن ضمنها فلسطين)، ولذلك تعمل، وبمهارة فائقة، على المحافظة على هذا الجهل، وعلى اذكاء الشعور العدائي. تشير الكاتبة الاميركية شيلا راين مثلاً الى هذا الشعور على المستوى الرسمي، بقولها «إن العداء الأميركي الرسمي للوطنية الفلسطينية يبلغ حدّاً من البغضاء يكاد يعصى على الفهم»[٢٣]. ويشير الأب فورست الى هذا الشعور على مستوى الجماهير أو المجتمعات، بقوله «كنت معادياً للعرب، ومناصراً لاسرائيل مثل أي فرد في المجتمعات الغربية. وحين أتذكّر ما تلقّيناه في المدرسة عن الحروب الصليبية، وما قرأناه في القصص عن العرب القذرين، العرب الماكرين، العرب النهابين، أدرك مقدار ما أُخضعنا له من إعداد سيء. وأعتقد أنني في عدائي للعرب كنت صورة عن الغربيين قارئي الصحف الذين يؤمنون بتعاليم الكنيسة عن طيبة قلب ونيّة حسنة. وكان لدي نزعاتي الموالية لاسرائيل والمناهضة للعرب. فاليهود كانوا بالنسبة لي شعب الله المختار، والقدس مدينتهم المقدسة، وفلسطين أرضهم المقدسة. وإنها لعلامة على فضل خاص من الله أن اليهود، بعد قرون من التشرّد، استطاعوا العودة الى أرض آبائهم. وبدا أمراً معقولاً وجيداً أن الشعب الذي عاش فوق هذه الأرض، وهم العرب الرحّل الذين يتنقّلون من مكان الى آخر على ظهور الحمير والجمال، يجب أن يترك أرضه لهؤلاء اليهود. لقد ورثت هذه الأفكار من كنيستي ومن مدرسة يوم الأحد». ويضيف الأب فورست «وحين اكتشفت البون الشاسع في ما بين القصة الحقيقية وبين ما سمعته وقرأته في الغرب، أحسست أن الصحف ووسائل الاعلام الأخرى التي وثقت بها، قد ضلّلتني وخدعتني. ولا أزال أحسّ أنها تخدعني حين أقرأ ما فيها من افتتاحيات ورسائل القراء. أو حين استمع الى واعظ بروتستانتي، يشرح بعد أن يكون قد قام برحلة مجانية الى اسرائيل، كيف أن ارادة الله قد قضت بأن تأخذ اسرائيل فلسطين»[٢٤]. ومن الواضح كالشمس في رائعة الضحى أن الأب فورست يتكلم بلسان الجماهير الأوربية والأميركية جميعها.

هذه الثقافة هي التي أدت الى ايقاظ اليهود على الفكرة القومية، والى

شحنهم بمفهوم «أرض اسرائيل التاريخية»، والى تشجيع الصهاينة ومساندتهم ودعمهم في عملية انشائهم للدولة اليهودية.

إن الكتابة في قضية فلسطين، ونشرها في أوساط هذه المجتمعات. وفي هذا الزمن الرديء الذي تسود فيه الظلامية الذهنية، وتطغى الأشكال المتجدّدة للفاشية والعنصرية والانتهاك الصارخ لحقوق الانسان. وصارت الكتابة فيه لدى قسم كبير من المتثقّفين نوعاً من العهر الفكري والاجتماعي والسياسي. إن الكتابة في قضية فلسطين في مثل هذه الأجواء وهذه المجتمعات، لهي عمل مقدس، لأننا لم نشهد في تاريخ الانسانية حتى اليوم (نهاية القرن العشرين)، أغزر من المادة التي فرزتها الأقلام الصهيونية لاغراق الفكر العالمي بمعادلات وشعارات ليست صحيحة، ولكنهم يدأبون في ترديدها لكي يستمر تصديقها وتلقينها بشكل آلي. لم نشهد في تاريخ الانسانية حتى اليوم أغزر من المادة التي فرزتها الأقلام الصهيونية لتمويه عملية استعمار عادية. أكرّر لتمويه عملية استعمار عادية.

مجلّدات من المزاعم

قلت إننا لم نشهد في تاريخ الانسانية حتى اليوم أغزر من المادة التي فرزتها الأقلام الصهيونية لتمويه عملية استعمار عادية. ولاغراق الفكر العالمي بمعادلات وشعارات ليست صحيحة، ولكنهم يدأبون في ترديدها لكي يستمر تصديقها وتلقينها بشكل آلي. وإليك نماذج من هذه المادة التي تملأ المجلدات.

لمن الأرض؟.

بداهة يدرك القارئ أن «الأرض» موضوع السؤال أو التساؤل هي أرض فلسطين، على اعتبار أن هذه «الأرض» وحدها من بين أراضي الأقوام والأمم جميعها، تجسّدت في قضيّة، وقضيّة فريدة في التاريخ، فنحن لا نعرف في التاريخ أن شعباً اقتُلع من أرضه بالقمع والتّرهيب ورعب الابادة. وجيء بأفراد من قوميات شتّى، ومن مختلف بقاع المعمورة، لا رابط يجمع بينهم غير المعتقد الديني. فزرعهم أصحاب المشروع في أرض فلسطين، وأطلقوا عليهم صفة الشعب.

والمؤسف الى حدّ الاختناق أن هذا الانتهاك الصارخ للحقوق الانسانية لم يُثر أي سخط أو احتجاج لدى الأقوام والأمم الأوروبية والأميركية. ولم يؤدّ الى اتخاذ الخطوات الفعّالة لازالة الظلم ورفع الغبن. والأدهى أن تلك الأقوام والأمم أعارت سمعها للطرف الذي اقترف الاثم والعدوان، وأسبغت عليه كل مظاهر العطف ومقوّمات التأييد. وفي الوقت ذاته صمّت عن أصوات الضحايا.

وفي تقديري أن هذا السؤال أو التساؤل «لمن الأرض؟» جديد، لم يسبق أن خطر في بال باحث، أو نال أي قدر من الاهتمام، مع أن القضيّة التي صنعها

هذا السؤال سُوّدت فيها أطنان الكتب، واستُهلكت في محاولة حلّها أعمار أجيال.

يبدو أن العرب تغافلوا عن الردّ لما في أخلاقهم من تسامح، أو لما في وعيهم من ضحالة، أو لما في أذهانهم من قصر نظر، أخلاقي أو غير أخلاقي. والذين شمّروا للسؤال قصّروا في الردّ، وقصّروا في وضع القضيّة في اطارها الصحيح.

لقد وقف الردّ العربي عند الصهيونية كحركة عنصرية استعمارية استيطانية، انبثقت من عصر الاستعمار والامبريالية الأوربية التاريخي، وتوجّهت الى الدول العظمى لتتحالف وتتعاون معها من أجل تحقيق مصالح مشتركة. وارتبط قيامها، وهي لما تزل فكرة أو مشروعاً، بالمطامع الاستعمارية والمصالح الاستراتيجية والمنافسات على الاسواق والطرق التجارية. وتمكّنت بما امتلكت من موارد، وما تحكّمت به من مراكز نفوذ سياسية ومالية ودعائية، وبتحالفها مع القوى الاستعمارية في العالم، من أن تنشئ دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، وتمدّها بمختلف الطاقات والامكانات، وتعبّئ لها ضروب الدعم والمساندة، حتى تمكنت من اغتصاب أرض فلسطين واحتلالها، وتشريد سكانها واضطهاد من بقي منهم في الأرض.

ووقف الردّ العربي أيضاً عند المجتمع والدولة في اسرائيل، اللذين صُنعا صنعاً كتطبيق مباشر وصريح لأيديولوجية عنصرية فاشية (الصهيونية)، أتيح لها فرصة التطبيق والتحقيق في ظروف معيّنة، مستمدة فلسفتها ومثلها ومبادئها من مفكري الصهيونية في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. ثم غرست في أرض غريبة (فلسطين) وفي وسط محيط مقطوعة الصلة به.

وقف عند هذه التجربة الفريدة في عصرنا، والتي تتلخّص في انشاء مجتمع ودولة (اسرائيل) انشاء، وفي أرض مجتمع ودولة أخرى (فلسطين)، استناداً الى فلسفة مقطوعة الصلة بتاريخ المجتمع الفلسطيني وطبقاته وصراعاته وتناقضاته الداخلية، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية[٢٥].

ووقف الردّ العربي عند مجتمع استيطاني إجلائي، خُطط ورُسم منذ البداية طبقاً لفلسفة وأيديولوجية غريبتين عن واقع المجتمع الفلسطيني القائم. ثم انشئ نتيجة الهجرات من الخارج. وعلى أساسه أُقيمت دولة استيطانية، عنصرية

وفاشية من حيث الصيغة والمضمون.

صحيح أن المعالجة العربية للموضوع كانت مفيدة وضرورية، ولكنها لم تكن وافية. فقد وقفت عند الحقيقة الاستيطانية الاستعمارية، حقيقة اسرائيل كدولة استعمارية، كامتداد وموقع متقدّم للامبريالية. وتركّزت الدراسات على الصهيونية فكرة وتطوراً، وعلى اسرائيل الحديثة مجتمعاً ودولة واستراتيجية. (انظر مثلاً الابحاث التي أصدرها مركز الابحاث الفلسطيني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت).

* * *

أما الردّ الصهيوني فكان واضحاً منذ عقود من الزمان، ومن أول صهيوني الى آخر صهيوني: أن أرض فلسطين هي «أرض الآباء» «أرض الاجداد» «أرض الأسلاف» «أرض اسرائيل التاريخية» و «أرض المملكة اليهودية». وأن «صلوات العودة الى أرض الآباء والأجداد ظلّت على كل لسان يهودي»[٢٦].

نبدأ بروّاد الفكر الصهيوني: يهودا القلعي (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨) حاخام الطائفة اليهودية في يوغوسلافيا، ظلّ يحثّ المتنفّذين في الطائفة اليهودية على الطلب الى رؤساء الدول كي «يسمحوا لنا بالرجوع الى إرث آبائنا وأرض أجدادنا»[٢٧].

والحاخام الالماني موسى هس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) قدّم في كتابه «روما والقدس» ١٨٦٢ حلاً لما يسمّى «المشكلة اليهودية» على أساس «بعث الأمة اليهودية في أرض أجدادنا». وظلّ طوال حياته ينادي بـ «حقّ الشعب اليهودي الذي لا يُنكر في ملكية أرض اسلافه»[٢٨].

والحاخام الروسي بيرتز سمولنسكن (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) ظلّ يؤكد على أن «اليهود شعب منذ البداية». وهذا الاعتقاد ظلّ راسخاً في صدورهم «حتى بعد أن دمّرت مملكتنا وشردنا من أرضنا»[٢٩].

والحاخام الروسي ايليعازر بن يهودا (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣) ظلّ يوجّه النداء تلو النداء «الى قلوب اليهود: أرض آبائنا بانتظارنا، فلتعد بقية شعبنا الى أرض الأجداد»[٣٠].

داعية صهيوني آخر هو اليهودي الروسي موسى ليلنبلوم (١٨٤٣ ـ ١٩١٠) كان من الأعضاء البارزين والعاملين في جمعية «أحباء صهيون». ظلّ طوال حياته يدعو «للاستيطان في أرض اسرائيل» ويؤكد على «بذل الجهود لاحياء اسرائيل

في أرض الأجداد». أصدر عام ١٨٨٤ كراساً بعنوان «بعث اليهود في أرض آبائهم»[٣١].

واليهودي الالماني، مؤسس الحركة الصهيونية، تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) قال في كتابه «دولة اليهود»: «فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكننا نسيانه». وطالما أعرب عن شعوره بأن «فلسطين هي الوطن التاريخي لليهود، وان اسمها سوف يجذب الشعب اليهودي بقوة»[٣٢]. جاء في رسالته الى آل روتشيلد (١٥/٦/١٨٩٥) قوله «إن فلسطين هي المهد القديم لشعبنا». وفي رسالته الى قيصر المانيا (٢٥/٥/١٨٩٨) قال «إن لليهود حقاً تاريخياً في أرض فلسطين». وأشار الى «البلاد التي كانت لآبائنا» في خطابه أمام القيصر ذاته في فلسطين (٢/١١/١٨٩٨). كما أشار في رسالته الى يوسف الخالدي الى «أرض اليهود التاريخية»[٣٣].

واليهودي الروسي ميخا بيرديشفسكي (١٨٦٥ ـ ١٩٢١) قال «إن ماضينا هو الذي يمنحنا الحق التاريخي»[٣٤].

والحاخام الروسي ابراهام اسحق كوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) قال «إن أرض اسرائيل جزء من جوهر وجودنا القومي». ودعا الى «التعلّق بأرض اسرائيل»، والى «اعتبار يهودية أرض اسرائيل هي الخلاص بعينه»[٣٥].

واليهودي الروسي جوزف برنر (١٨٨١ ـ ١٩٢١) دعا الى «اعادة اليهود الى وطنهم»[٣٦].

واليهودي البولوني يعقوب كلاتزكين (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) قال في احدى مقالاته «نحن أمة في بلاد الشتات، ولكننا نعمل من أجل بعث شعبنا ولغتنا في وطننا»[٣٧].

والحاخام الروسي سموئيل موهيليفر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨) بعث برسالة الى المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في بال (١٨٩٧) ناشد فيها المؤتمرين الرجوع «الى وصايا التوراة لتبرير مشروعات الاستيطان اليهودي في فلسطين، واعتماد التوراة كأساس لحركة الاحياء اليهودي في أرض الآباء»[٣٨].

واليهودي الالماني مارتين بوبر (١٨٧٨ ـ ١٩٦٥) دعا الى «حياة جديدة في أرضنا»[٣٩].

واليهودي الفرنسي ادموند فليغ (١٨٧٤ ـ ١٩٦٣) تحدث في كتابه «لماذا

أنا يهودي؟» ١٩٢٧ عن «تربة الأجداد» و «أرض الآباء اليهودية»[٤٠].

والزعيم الصهيوني الأميركي لويس براندیس (١٨٦٥ ـ ١٩٤١) دعا في مقالته «المسألة اليهودية» عام ١٩١٥ الى «عودة اليهودي الى أرض آبائه». وقال «إن الصهيونية تهدف الى تمكين اليهود من العيش في أرض أجدادهم». وتحدث عن «المهاجرين اليهود من روسيا ورومانيا للاقامة في أرض آبائهم»[٤١].

والحاخام الصهيوني الاميركي ابا هيلل سيلفر (١٨٩٣ ـ ١٩٦٣) تركّز فكره الصهيوني على أساس المزاعم التاريخية. قال إن الحل الوحيد لما يسمى بـ «المسألة اليهودية» هو «اعطاء اليهود قاعدة قومية في وطنهم القومي والتاريخي». ودعا الى «الاعتراف بصلتنا التاريخية بتلك البلاد (فلسطين)، وبتأكيد حقنا في اعادة بناء وطننا القومي». «وبسبب الصلات التاريخية للشعب اليهودي مع هذا البلد (فلسطين) اتخذت حكومة الانتداب (انجلترا) على عاتقها اعادة تشكيل فلسطين كوطن قومي يهودي. وتعهّدت بتسهيل الهجرة اليهودية وتوطين اليهود فيها»[٤٢].

ودعا البرنامج الذي صدر عن المؤتمر الصهيوني الأول (بال ١٨٩٧) الى انشاء «وطن قومي لليهود في فلسطين» على اعتبار أن هناك «رابطة تاريخية» تشدّ اليهود الى تلك الأرض.

ومنذ بداية النشاط الصهيوني كان الزعماء الصهيونيون يعملون على اثارة المشاعر الدينية في نفوس اليهود، التي تشكّل حافزاً قوياً يدفعهم للانضمام الى موجات الهجرة «للصعود الى أرض اسرائيل». وعملوا على تنفيس هذه المشاعر في مجريين يصبّان في بركة واحدة: الأول هو أن فلسطين «أرض اسرائيل التاريخية». والثاني رؤيا الخلاص المسيائي. ودولة اسرائيل هي أداة لتحقيق هذه الرؤيا، وخلاص الشعب اليهودي.

وقد بادر الزعماء الصهيونيون، منذ مطلع عهدهم التنظيمي الى الاعراب عن ضرورة تبرير هجرتهم الى فلسطين على أساس الرابطة التاريخية. وكانت العبارات التي تتردّد في مقالاتهم وتصريحاتهم الرسمية، مقرونة بصفات الاقتناع والتصميم والتأكيد، هي «أرض الآباء» «أرض صهيون» «أرض اسرائيل التاريخية» «العودة الى الوطن» و.. ففي كانون الثاني ١٩١٥ بعث الوزير البريطاني اليهودي هربرت سموئيل بمذكرة الى رئيس الحكومة البريطانية، جاء في الصيغة الأولى

منها قوله «إن الوقت قد حان لارجاع اليهود الى الأرض التي تربطهم بها صلات قديمة قدم التاريخ نفسه». واختتم المذكرة بقوله «لقد انتج العرق اليهودي بفلسطين طيلة خمسة عشر قرناً، القضاة والجنود». وجاء في الصيغة المعدلة التي جرى توزيعها على أعضاء الوزارة البريطانية في آذار ١٩١٥ «هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور في العالم البروتستانتي على فكرة ارجاع الشعب العبراني الى الأرض التي أعطيت ميراثاً له»(٤٣).

وفي شباط ١٩١٦ أصدر فرع الاتحاد الصهيوني البريطاني كتاباً بعنوان «الصهيونية: مشكلات وآراء» قدّم له ماكس نورداو بمقال قصير جاء فيه «إن فلسطين هي الوطن التاريخي لآبائهم». وأكّد فيه على «تحقيق الاحياء القومي على التربة التاريخية لأرض اسرائيل»(٤٤).

وفي ربيع ١٩١٦ تقدم المعلّق الاستراتيجي لصحيفة المانشستر غارديان، هربرت سايدبوثام (١٨٧٢ ـ ١٩٤٠) بمذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية، جاء فيها «إن الشعب اليهودي الصغير والموهوب لا يحتاج إلا لوطن أجداده كي يعطي العالم كنوزاً كالتي اعطاها الاغريق القدماء»(٤٥).

وجاء في مقالة صدرت باسم حركة الشبيبة التابعة للمنظمة الصهيونية الاميركية (١٩١٧) قول الكاتب «هناك في أرضنا سوف نضع أيدينا في تضافر واتحاد على كل شبر كان يخصّنا في الماضي: من صيدا الى سوكوت، ومن تدمر الى أورقاصديم. ومن البحر المتوسط الى البحر الأحمر، ومن الفرات الجبار الى الصحراء المترامية الأطراف»(٤٦).

وفي مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس ١٩١٩ تقدم وفد المنظمة الصهيونية بمذكرة ناشد فيها الاعضاء «الاعتراف بحق اليهود التاريخي في أرض فلسطين»(٤٧).

وفي الثاني من آذار ١٩١٩ انعقد المؤتمر اليهودي الأميركي ورفع مذكرة الى الرئيس ولسون جعل عنوانها «الحق اليهودي بفلسطين»، مذكّراً فيها بأن فلسطين هي «الوطن التاريخي لليهود»(٤٨).

وفي عام ١٩١٩ أصدر الكابتن نورمان بنتويتش، الذي جاء مع القوات البريطانية من مصر الى فلسطين، كتاباً بعنوان «فلسطين اليهود»، أعلن في مقدمته

أنه يهدف الى التعريف ببعث الشعب اليهودي، واحياء أرض اسرائيل التاريخية»[٤٩].

وفي العام ذاته أصدر آرثر روبين كتاباً حول «بناء أرض اسرائيل»، عمد فيه الى رسم الحدود التاريخية والطبيعية والاقتصادية لأرض فلسطين: «في الشرق تفرض علينا وجهة النظر التاريخية ضم كل من مؤاب وعمون القديمتين، واللتين كانتا في ما مضى جزءاً من الدولة اليهودية»[٥٠].

وفي عام ١٩٤٦ أعلنت منظمة «التوراة والعمل» في مؤتمرها السنوي الثامن عشر دعوتها لانشاء «دولة يهودية ضمن الحدود التاريخية»[٥١].

وحين دار الحديث في أروقة الأمم المتحدة عن التقسيم سارعت منظمة الارغون الى رفع مذكرة في ايلول ١٩٤٧ انتقدت فيها مشروع التقسيم. جاء فيها «إن أرض اسرائيل لا يمكن تقسيمها ولا يجوز، فشرقي الاردن يؤلف جزءاً لا يتجزأ من وطننا الأم»[٥٢].

وقد أشار «اعلان استقلال اسرائيل» عشية الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ الى أن يهود العالم يشكّلون شعباً واحداً، وأن هدف الصهيونية هو اعادتهم الى «أرضهم التاريخية». جاء في مقدمة الاعلان «انعقد المؤتمر الصهيوني الأول عام ٥٦٥٧ عبرية (١٨٩٧م) بدعوة من تيودور هرتزل، الأب الروحي للدولة اليهودية، وأعلن المؤتمر حق الشعب اليهودي في تحقيق بعثه القومي في بلاده الخاصة به». وجاء في الفقرة الثانية من الاعلان قولهم «واعترف وعد بلفور الصادر في ١٩١٧/١١/٢ بهذا الحق. وأكّد عليه أيضاً صك الانتداب المقرّر في عصبة الأمم، وهي التي منحت موافقتها العالمية على الصلة التاريخية بين الشعب اليهودي وبين أرض اسرائيل، واعترافها بحق الشعب اليهودي في اعادة بناء وطنه القومي». وأشار الاعلان الى «سعي اليهود جيلاً بعد جيل مدفوعين بهذه العلاقة التاريخية، الى اعادة ترسيخ أقدامهم في وطنهم القديم». وجاء في الاعلان أيضاً أن «أرض اسرائيل مهد الشعب اليهودي. هنا تكوّنت هويته الروحية والدينية والسياسية. وهنا أقام دولته للمرة الأولى»[٥٣].

والالتزام العقائدي بالتوسّع لانشاء اسرائيل الكبرى في «أرض اسرائيل التاريخية» لا يقتصر على الزعماء والقادة السياسيين والاحزاب، بل ان الدولة ذاتها تعلن في وثائقها الرسمية عن خططها وأهدافها بالتوسع. ففي الكتاب

السنوي لحكومة اسرائيل لعام ١٩٥٥ أعلنت الدولة الاسرائيلية عن التزامها الرسمي بالسياسة التوسعية بالقول «إن خلق الدولة الجديدة لا ينتقص بحال من الأحوال، من اطار الحدود التاريخية لأرض اسرائيل». وفي مقدمة الكتاب عينه عبّر بن غوريون عن هذا التوجّه بقوله «إن الدولة قد انشئت في جزء من أرض اسرائيل التاريخية». وأضاف «إن انشاء الدولة لا يقلّل من المجال التاريخي لأرض اسرائيل»[٥٤]. وفي مقالته «اسرائيل والدياسبورا» علّق على قانون العودة بقوله «هو قانون الديمومة التاريخية والاستمرار للصلة القائمة بين شعبنا وأرض اسرائيل»[٥٥].

وهذه المقولة ظلّت على لسان بن غوريون، ففي منتصف تشرين الثاني ١٩٥٥ قال في الكنيست «إن اسرائيل لا تطمع في الحصول على بوصة واحدة من الأرض الاجنبية، ولا تسمح لأحد أن يسرق بوصة واحدة من أرضها. ولا بد من تحرير ما تبقّى من أرض اسرائيل الخاضعة لسيطرة أجنبية في مستقبل الأيام، وضمّها الى الأراضي المحرّرة لتتكامل أرض الوطن القومي اليهودي»[٥٦].

وبعد غزوة حزيران ١٩٦٧ راح بن غوريون يبالغ في اثارة المشاعر الدينية في نفوس اليهود، واستغلالها في الدعوة الى مقولته رغبة في شحن الاذهان بها. ففي احدى جولاته في الضفة الغربية قال «لما كان عندنا كتاب التوراة، ونحن أهل الكتاب، يصبح لدينا أرض التوراة، أرض القضاة والآباء في القدس والخليل وأريحا وجوارها». وأضاف «إن سلسلة الجبال الواقعة غربي نهر الاردن تقع في صميم التاريخ اليهودي» - جيروسالم بوست ١٠/٨/١٩٦٧.

وقد عبّر عن هذه المقولة الصهيونية في معرض ردّه على «الذين يتردّدون في استرجاع حدودنا التاريخية» مشيراً الى انتفاء التطابق بين الدولة والأرض والشعب، قال «تتألف كل دولة من الأرض والشعب. واسرائيل لا تشذ عن هذه القاعدة، غير انها لم تأت مطابقة لأرضها، فقد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل التاريخية»[٥٧]. وقال في كتابه الآخر «إن لليهودي، اينما كان، حقاً مقدساً بالعودة الى وطنه القديم - أرض اسرائيل. هذا الحق الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً، ومن غير انقطاع، بتاريخه وبتراث أجداده»[٥٨].

ومنطق الربط بين الأرض والشعب ينقله بن غوريون أحياناً الى منطق

المقابلة أو التشبيه، ففي مقابلة مع جريدة لوموند الفرنسية (١٦/ ٤/ ١٩٦٩) قال «اسرائيل هي أرض أسلافنا، وهي تمتد على جانبي الاردن. القدس عاصمتنا منذ آلاف السنين، وهي لنا كما أن باريس للفرنسيين ولندن للانجليز».

ويرى بن غوريون أن العقيدة اليهودية لا تتمثل في الايمان بالتوحيد فحسب، وإنما تلازمها دوافع قومية اقليمية هي التي أدت الى ارتباط اليهود ارتباطاً روحياً عميقاً بأرضهم القديمة، حتى اثناء اقامتهم في المنفى»[٥٩].

وظل بيغن يشدّد طوال حياته على ما يسميه «الحق التاريخي لشعب اسرائيل في أرض اسرائيل» ـ (معاريف ٢/ ٣/ ١٩٧٧). وظلّت معزوفته الايديولوجية[٦٠] منذ الأربعينات توقع على ما يسمى «العلاقات التاريخية بين اليهود وأرض اسرائيل» على زعمه. معبّراً في كل مناسبة عن التزامه بـ «المهمة التاريخية في توريث الأجيال اللاحقة ميراث الاجداد بتمامه» ـ (جيروسالم بوست ٨/ ٢/ ١٩٨١).

جاء في مذكرة رفعتها حركة الارغون بزعامة بيغن، الى الجمعية العامة للأمم المتحدة، «إن تقسيم أرض اسرائيل عمل غير شرعي. إن هذا البلد الذي لم يزل الموطن الأبدي لشعبنا، لوحدة واحدة تاريخياً وجغرافياً واقتصادياً. أليس من العبث أن يكون حكم السامرة والجليل في أيدي غير اليهود؟. إن اسماء هذه الأراضي نفسها لتدل على أصحابها الحقيقيين. وهل يقلّ عن ذلك عبثاً ألاّ تكون أورشليم، مدينة داود، عاصمة لدولتنا؟»[٦١].

وبعد تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧) على مشروع تقسيم أرض فلسطين الى كيانين سياسيين: دولة يهودية الى الغرب من نهر الاردن، ودولة عربية الى الشرق من نهر الاردن، أعلن بيغن رفضه لمشروع التقسيم، طالباً أن تكون فلسطين كلها تحت السيادة اليهودية. قال «إن الوطن اليهودي أي المنطقة التي تشمل ضفتي الاردن، هي كيان جغرافي وتاريخي كامل. وتقسيم هذا الوطن اجراء غير قانوني. ومن واجب هذا الجيل أن يعيد الى السيادة اليهودية تلك الأجزاء من الوطن التي سلخت واخضعت لحكم أجنبي»[٦٢].

وبعيد الاعلان عن قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ قال بيغن «تجزئة الوطن عمل غير شرعي، لن نعترف به أبداً. وتوقيع المؤسسات والافراد على اتفاق

التقسيم باطل، ولن يقيّد الشعب اليهودي. القدس كانت وستظل عاصمتنا الى الأبد. أرض اسرائيل سوف تعود الى شعب اسرائيل برمتها والى الأبد»[٦٣].

وقد التزم حزب الليكود في ظلّ قيادة بيغن، صيانة «ميراث الأجداد الثابت» في «انحاء أرض الوطن»[٦٤]. جاء في بيان للحزب «إن حق الشعب اليهودي في أرض اسرائيل حق أبدي لا نزاع فيه.. وإن لاسرائيل الحق في السيادة على يهودا والسامرة وقطاع غزة»[٦٥].

وفي ١٩٧٠/١١/٨ عقد حزب حيروت مؤتمره القطري العاشر، افتتحه مناحيم بيغن بخطاب عرض فيه الخطوط الرئيسية لمشروعه، ومنها «الاعتراف بالحق التاريخي لشعب اسرائيل في أرض اسرائيل» ـ دافار ١٩٧٠/١١/٩.

وفي خطاب ألقاه في الكنيست (حزيران ١٩٧٧) أكّد على معزوفته الايديولوجية مراراً في الصيغة والمضمون، قال «إنني أعود وأؤكد اننا لا ننتظر من أحد أن يطلب من أجلنا الاعتراف بحقنا في الوجود على أرض آبائنا». وقال «أرض اسرائيل هدية الآباء». وأضاف «للشعب اليهودي حق تاريخي أزلي في أرض اسرائيل التي هي أرض آبائنا». وبعد أن انتهى بيغن من القاء خطابه قدّم النقاط الأساسية لسياسة حكومته، ومنها: للشعب اليهودي حق تاريخي خالد وغير قابل للطعن في أرض اسرائيل، أرض الأجداد» ـ دافار ١٩٧٧/٦/٢١.

وفي ندائه الى الشعب المصري بعد اعلان الرئيس السادات عن عزمه التوجّه الى اسرائيل، قال: «يجب أن تعلموا بأننا عدنا الى أرض آبائنا» ـ جيروسالم بوست ١٩٧٧/١١/١٣.

وفي ردّه على الرئيس السادات الماثل أمامه في الكنيست (الأحد ٢٠/١١/١٩٧٧) عرض بيغن معزوفته الايديولوجية بشيء من التفصيل والتأكيد، قال «إننا لا نؤمن بالقوة، بل نؤمن بالحق، وبالحق فقط». وأضاف «إن الشعب اليهودي عاد الى وطنه التاريخي». وأكّد على أن «الشعب اليهودي في بلده ـ أرض اسرائيل». وتحدث عن «الرابطة بين شعبنا وبين هذا البلد». وبلاغة المحامي وشهادة المؤرخ قال «لقد عدنا الى وطننا. فالرابطة بين شعبنا وبين هذا البلد أبدية». وبنشوة المحاضر المعتز بحضارته قال «في هذا البلد أقمنا حضارتنا» ـ معاريف ١٩٧٧/١١/٢١.

وفي خطاب ألقاه في الكنيست يوم ١٩٧٧/١٢/٢٨ عرض بيغن مشروعه

للسلام بقوله «تتمسّك اسرائيل بحقّها ومطلبها في السيادة على يهودا والسامرة وقطاع غزة». وأضاف «لقد قلت هذا الكلام على مسمع من رئيس الولايات المتحدة كارتر، وعلى مسمع من الرئيس المصري السادات. لنا الحق بالسيادة على هذه المناطق من أرض اسرائيل. إنها أرضنا وهي بالحق ملك للشعب اليهودي» ـ هآرتس ٢٩/ ١٢/ ١٩٧٧.

وفي البرنامج الأميركي Meet The Press المتلفز خاطب بيغن الجمهور الأميركي في ٢٥ نيسان بقوله «إن المرء يستطيع أن يضم أرضاً أجنبية، لكنه لا يستطيع أن يضم أرض بلده. فاليهودية والسامرة جزءان من أرض اسرائيل التي ولدت فيها أمتنا. هنا ملك ملوكنا، وهنا جاء أنبياؤنا برؤيا السلام الدائم، فكيف نستطيع ضمّها»[٦٦].

ورئيس الحكومة الآخر، اسحق شمير، مثل سلفه بيغن، يرفض مصطلح «ضم» يهودا والسامرة وقطاع غزة الى اسرائيل، «لأن المرء لا يستطيع أن يضم إليه ما هو ملك له» ـ دافار ٢٤/ ٦/ ١٩٨٤.

وينطلق الوزير الاسرائيلي ايغال الون، من مبدأ «حق الشعب اليهودي التاريخي» في استيطان «أرض اسرائيل»[٦٧].

ومثله يفعل الوزير حاييم بارليف، يقول «إن لاسرائيل حقوقاً تاريخية في مدينة الخليل» ـ دافار ١٢/ ٢/ ١٩٨٥.

أما الوزير أريئيل شارون فقد ظلّ يؤدي على مذبح الصهيونية واجب التعظيم لـ «الحق التاريخي» على زعمه: «نحن لم نأخذ شيئاً من الآخرين. نحن نبني مناطقنا ونزرعها. هذا لنا»[٦٨].

والملاحظ أن الصهيونيين ظلّوا منذ مطلع عهدهم التنظيمي يعربون عن ضرورة تبرير وجودهم في أرض فلسطين على أساس الحق، وليس المنّة. فحين عكف مؤسس الحركة الصهيونية على صياغة المفهوم الرسمي لبراءة الاستيطان التي ينبغي الحصول عليها، رأى ضرورة استناد الاتفاق المرجو مع الدولة العثمانية، الى مبدأ الحقوق التاريخية، وليس مجرّد السماح للاستعمار الاستيطاني الصهيوني بترسيخ أقدامه في أرض فلسطين. وراح الزعماء الصهيونيون من بعده يؤكدون على «الحق التاريخي»، لا حقّ القوة أو الغزو، على اعتبار أن «الحق التاريخي» و «الروابط التاريخية» أشدّ تأثيراً وأجدى قانونياً

من أي عملية استعمارية، سواء أكانت عادية أم غير عادية. فرئيس دولة اسرائيل، عازر وايزمن، مثلاً ظلّ يشدّد على «حقنا التاريخي، لا حقّ القوة»(٦٩). وكان الوزير موسى دايان يؤكّد على أن «اسرائيل موجودة في الأراضي [المحتلة] بالحق لا بالغزو»(٧٠). وقبلهم جميعاً كان الارهابي جابوتنسكي يجاهر منذ عام ١٩٢٨ بـ «حق الشعب اليهودي التاريخي الذي لا يقبل الجدل في أرض اسرائيل»(٧١).

ولعل أكثر الداعين الى «الحق التاريخي»، والمؤكدين عليه، هو رئيس حكومة اسرائيل، مناحيم بيغن، وحزب الليكود الذي يقوده. ومن رجال الدين نتوقّف فقط عند الحاخام تسفي يهودا كوك. فهذا الاشكنازي رائد سياسة متطرفة تركّز على أمر واحد هو «حق الشعب اليهودي في السيادة على كل شبر من أرض اسرائيل التاريخية، سيادة مطلقة ومن دون أية قيود». وفي حكمه أن شرق الاردن والجولان وباشان (منطقة جبل الدروز في سوريا) هي كلّها أجزاء من «أرض اسرائيل التاريخية»(٧٢).

والطريف أن هذا الحاخام الاشكنازي المتطرّف اندفع في الضفة الغربية بعد غزوة حزيران ١٩٦٧ يصرخ «كل هذه الأراضي لنا، قطعاً لنا. إنها تخصّنا وحدنا، ولا يمكن أن تنقل للآخرين. من الواضح والأكيد أن لا مناطق عربية أو أراضي عربية هنا. إنها أراض اسرائيلية فقط.. الارث الدائم لاسلافنا، وقد جاء الآخرون (العرب) اليها وبنوا عليها في غيابنا، ومن غير اذن منا»(٧٣).

وفي المؤتمر الذي نظّمه تجمّع غوش ايمونيم (أي تجمّع المؤمنين) قال الحاخام كوك «أقول لكم بصراحة إن هناك خطراً في التنازل عن أي جزء من أرضنا المحرّرة. لا فتوح هنا، ونحن لا نحتل أراضي أجنبية. إننا نعود الى بيتنا، الى ارث أسلافنا. لا أرض عربية هنا»(٧٤).

وهذا التجمّع (غوش ايمونيم) يطالب باعادة فرض السيادة اليهودية على جميع الأراضي التي كانت خاضعة للملك داود»(٧٥). والواقع أن «الكثيرين من الاسرائيليين يتوقون الى بعث مملكة داود بكل أمجادها» كما يقول بول(٧٦).

و «للشعب اليهودي»، كما أعلن حزب تحيا، «غاية واحدة هي احياء الأمة اليهودية في أرضها التاريخية»(٧٧).

وللحركة الصيهونية غاية واحدة أيضاً هي «تجميع الشعب اليهودي في وطنه

التاريخي ـ أرض اسرائيل» كما أعلن المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون في بسطه أهداف الصهيونية المعاصرة في ما صار يعرف ببرنامج القدس الذي أقره المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون الذي انعقد في القدس عام ١٩٥١[٧٨]. «ولقد كان جوهر الحركة الصهيونية دائماً هو أن أرض اسرائيل التاريخية هي لجميع الشعب اليهودي»[٧٩].

بعد أسابيع قليلة من غزوة حزيران ١٩٦٧ كتب الروائي الاسرائيلي عاموس عوز مقالة في صحيفة دافار أكّد فيها على الفكرة التي تشغل بال اليهودي وهي أنهم أصحاب أرض فلسطين، قال «عندما كنت طفلاً علّمني بعض معلمي أنه بعد تدمير معبدنا وتشتيتنا من بلدنا، جاء غرباء الى ما كان إرثاً لنا ودنّسوه»[٨٠].

ووضع عوز كتابين في صورة مقابلات وأحاديث في المقاهي والبيوت والشارع مع عمال وفلاحين ومثقفين، وضح له في كثير من الاجابات التي دونها، أو التي لم يدوّنها، الفكرة عينها التي تشغل بال اليهودي وهي أنهم أصحاب الأرض، يقول واحد ـ لسان حال الفرد اليهودي في فلسطين المحتلة «نحن اليهود نعتقد أن أرض اسرائيل ملك لنا»[٨١]. ويقول آخر «باسم ملايين اليهود الذين سيعودون الى بلدهم، يحق لاسرائيل أن تقيم حيث تشاء على أرض أجدادها، في يهودا والسامرة وغزة»[٨٢].

وفي أواسط عام ١٩٦٧ نشرت مجلة «الازمنة الحديثة» الصادرة في باريس عدداً من المقالات (العدد ٢٥٣) تعكس وجهتي النظر العربية، والصهيونية. والمدهش في الموضوع أن الكتّاب الصهاينة حاولوا أن يُلهبوا من جديد الدواعي الايديولوجية التي تلهم سلوك اليهود المتطرّفين، وذلك بالتركيز على المفاهيم التي هي في لبّ الايديولوجية الصهيونية، وعلى العبارات المعبّرة عن هذه المفاهيم، من مثل «حق اليهود التاريخي» و «أرض اسرائيل التاريخية» و «موطن اليهود التاريخي» و «أرض اسرائيل مهد الشعب اليهودي» و «ارث اسلافنا» و . . .

ر. ج. زفي فيربلوفسكي، عميد كلية الآداب القديمة في الجامعة العبرية في القدس، تحدث في مقالته عن «الصلة المدهشة التي تشد بني اسرائيل الى أرض اسرائيل». وأكّد كسائر الصهاينة على «أن دولة اسرائيل ليست قائمة على حق الاستيلاء، بل على حق تاريخي». وقال «إن شعب اسرائيل مستعد للقتال

والموت في سبيل ما يعتبره المركز الحاضر لتاريخه».

شموئيل اتينغر، استاذ التاريخ اليهودي الحديث في الجامعة العبرية في القدس، قال «إن انبعاث شعب اسرائيل على أرضه غدا عنصراً رئيسياً في الفكر الديني والاجتماعي اليهودي».

ي. حركبي، ضابط في الجيش الاسرائيلي، قال «إن الموقف القومي يرتكز على الحق التاريخي الذي يربط اليهود بأرض اسرائيل. وإن القيم الثقافية التي نمّاها الشعب اليهودي طيلة اقامته في وطنه الأم، أكسبته الحقوق على بلاد اسرائيل».

شمعون بيريس، وزير ورئيس حكومة اسرائيل، قال «إن دولة اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يبعث نشوءها استقلالاً سياسياً وقومياً كان موجوداً في المنطقة الجغرافية نفسها منذ حوالي الألفي سنة». وأضاف «إن دولة اسرائيل قد انشئت على قسم من أرضها التاريخية».

موشيه سنه، عضو الكنيست، قال «إن الشعب اليهودي عاد الى وطنه التاريخي».

مئير يعري، عضو الكنيست، قال عن نفسه إنه «يعتنق التطلّع الصهيوني الذي يعمل على تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي». وقال «إن الصهيونية ليست شيئاً آخر سوى النضال من أجل التحرر الوطني لشعب وضحت معالم حقه في وطنه، وطن أجداده».

وبعد، قد يتهمنا القارئ بأننا أطلقنا لقلمنا العنان في عرض هذه النماذج من التصريحات ـ المزاعم التي تبرّر، باعتبار الصهاينة ومشايعيهم، الحق في امتلاك أرض فلسطين، واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً واستمراراً للدولة اليهودية القديمة. وقد امتدّ بنا النَّفَس ونحن لم نخرج عن صفحات قليلة من صفحات كتبهم وجرائدهم. ولو مضينا في سبيلنا الى آخر ما جاء فيها لأحرجنا القرّاء وأخرجناهم عن موقفهم. والواقع ان ما ذكرناه إن هو إلاّ نماذج من التصريحات ـ المزاعم التي تملأ المجلدات. ولئن أتينا بشواهد أخرى من مثل هذه التصريحات، ليطولن الكلام ويتجاوزن هذا التمهيد حصّته من الكتاب.

المهم أن القلم جرى كل هذا الجري من غير أن ينتابه فتور أو وناء، ليعلم القارئ انّا احتملنا كل هذا العبء من أجل القاء بقعة من الضوء على شواهد من

المزاعم التاريخية التي يبوّقون بها على رؤوس الملأ، ويجهرون بها في المجالس، ويدافعون عنها في المجامع، ويدعمونها في الأندية، حتى استطاعوا أن يقنعوا المجتمعات الأوربية والأميركية بأن مطالبهم وأهدافهم تشكّل قضية انسانية عادلة، تستمد ماء الحياة من تربة دينية خصبة ومن «حق تاريخي». وهم يستمرون في ترديدها لكي يستمر تصديقها وتلقينها بشكل آلي. «وبتزايد اعتياد العالم على هذا المفهوم (الاشارات المتكرّرة الى أرض اسرائيل التاريخية) يكون الأمر أفضل له ولنا جميعاً» كما يقول الحاخام تسفي يهودا كوك[٨٣]. لأن هذا «المفهوم» يطبع في ذهن المتلقّي حقيقة لا يمحوها أي رأي مخالف ولو دعمه أربابه بكل ما في حقل الدفاع من شواهد وأدلة وبراهين ووثائق.

وهذه النماذج من المزاعم والادعاءات الصهيونية، وما يملأ المجلدات من أمثالها، ظلّت تتردّد منذ أحقاب في كتب التاريخ وغيرها. وظل الصهاينة ومشايعوهم يبوّقون بها عبر وسائل الاعلام جميعها. وفي المنتديات والكنائس والجامعات و.. حتى صدّقها العالم، وأخذ بها المفكّرون والمؤرخون والاعلاميون ورجال الدين والسياسة، ووثقوها في كتبهم أو خطبهم. وبات الرأي العام العالمي في مجموعه أو في غالبيته الساحقة، يؤمن بها أو يأخذ بها على اعتبار أنها حقائق أو أدلة تاريخية منيعة لا يتيسّر نقضها. وأضحى يتعاطف مع اسرائيل ويغتفر لها كل جريمة حتى ولو كانت ابادة مجتمع أو طرده من وطنه وملاحقته في كل مكان.

واذا كانت الذهنية اليهودية قد ظلّت مشحونة بفكرة «أرض اسرائيل التاريخية». وظلّ الفكر اليهودي غنياً بالحديث عنها. واذا كانت هذه الفكرة قد رافقت الحركة الصهيونية منذ تأسيسها عام ١٨٩٧، وظلّت الهيئات الصهيونية على اختلافها ترفعها شعاراً علنياً صريحاً. فإن المثير أو المدهش في الموضوع أن هذه الفكرة انطلقت أيضاً من مصادر غير يهودية (مسيحية). ولعل الأبلغ إثارة والأشد دهشة أن هذه المصادر أعلنت عن الفكرة قبل تلفّت اليهود صوبها بمئات السنين. من ذلك مثلاً أن المبادئ التي أخذت بها حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر، جاءت تشدّد على مسألة بعث اليهود في «أرضهم القديمة». وأن المسيحيين في أوربا، وخاصة في انجلترا، وأميركا الى حد ما، ظلّوا يصرّون منذ مستهل عصر الاصلاح الديني البروتستانتي، على النظر الى

فلسطين كـ «ملك لليهود»[٨٤]. وساد الاعتقاد بين البروتستانتيين أن اليهود المشتتين في أرجاء العالم سيجمعون من جديد في فلسطين للاعداد لعودة المسيح المنتظر.

ولما كان كتاب التوراة (العهد القديم) قد أصبح مصدر المعلومات التاريخية في الذهن البروتستانتي، وبالتالي صار أكثر الكتب شيوعاً بين عامة البروتستانت، فقد اقتصر تاريخ فلسطين على القصص التوراتية. وأخذ الاوربيون تلك القصص كمادة تاريخية لا مجال للشك في صحتها. ولما كان التعليم الذي يتلقّاه معظم الناس يتكوّن أساساً من قراءة الأدب التوراتي، أو قل إن التوراة كانت هي المادة الرئيسية في المنهج التعليمي، فقد أخذت الأجيال اللاحقة تعتبر فلسطين الوطن اليهودي، فلا هجرة غير هجرة ابراهيم، ولا وجود لمملكة غير مملكة داود، ولا ثورة غير ثورة المكابيين. وهكذا ظلت فلسطين، باعتبارها أرض الشعب المختار، ماثلة في الذهن البروتستانتي. وأصبح الربط بين أرض فلسطين وأهل الكتاب هو السمة البارزة في الصلوات والطقوس والشعائر الدينية البروتستانتية.

وفي ذلك العصر ظهر الاهتمام بتحقيق النبوءات التوراتية المتعلّقة بنهاية الزمان. وساد الاعتقاد بين البروتستانتيين بأن اليهود المشتتين سيجمعون من أربعة أطراف الأرض، في الأراضي المقدسة، تمهيداً لعودة المسيح المنتظر. وتجذّر في صدور العامة الايمان بأن المسيح المنتظر سيقيم بعودته مملكة الله في الأرض التي ستدوم ألف عام. ومن الطبيعي أن عودة اليهود كأمة الى الأراضي المقدسة هي، باعتبارهم طبعاً، مقدمة لـ «العصر الألفي السعيد». وهكذا راج الاهتمام باليهود في صفوف البروتستانت، وعمّت الدعوة لعودتهم الى الأراضي المقدسة، أو بعثهم قومياً في «أرضهم التاريخية»، على اعتبار أن هذا «البعث» أو «العودة» هو التحقيق الواقعي للنبوءة التوراتية. ولقيت فكرة البعث اليهودي في «أرض أجدادهم» ـ فلسطين رواجاً كبيراً وقبولاً واسعاً في انجلترا البيوريتانية. واشتدّ تجذّر هذه الفكرة في أذهانهم الى درجة أصبحت اعادة اليهود الى «أرضهم التاريخية» ضرورة حتمية. ولعلّ العامل الأكبر الذي دفع بريطانيا البيوريتانية الى الاهتمام ببعث بني اسرائيل في «أرضهم المقدسة» ـ فلسطين هو سيطرة كتاب «العهد القديم» على أذهان البريطانيين بعد سيادة حركة

الاصلاح الديني البروتستانتي.

ومن الدعاة الذين ظهروا في ذلك العصر:

توماس برايتمان (١٥٦٢ ـ ١٦٠٧) الذي يعتبر الأب الروحي لعقيدة بعث اليهود التي شاعت في بريطانيا. كتب عن الانبعاث اليهودي مؤكّداً «أن اليهود كشعب سيعودون ثانية الى وطن آبائهم الأولين»[٨٥]. كان له أتباع كثيرون، لعل أشهرهم عضو البرلمان الانجليزي، المستشار القانوني لملك انجلترا، هنري فنش، الذي وضع عام ١٦٢١ كتاباً تحت عنوان «البعث العالمي الكبير»، قال في مقدمته «إن الله سيجمعكم من كل الأماكن التي تفرقتم فيها، وسيعيدكم الى وطنكم». وعبّر فيه عن النبوءة بـ «عودة اليهود الى أرضهم القديمة»[٨٦].

وكان فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر من المؤيدين المتحمّسين لاعادة اليهود الى «أرضهم القديمة» مثل جون لوك (١٦٣١ ـ ١٧٠٤) الذي يقول في كتابه «تعليقات على رسائل القديس بولس»: «إن الله قادر على جمع اليهود في وطنهم». ومثل اسحق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) الذي تنبأ في كتابه «ملاحظات حول نبوءات دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتي» بأن «اليهود سيعودون الى وطنهم». وكان القس البروتستانتي جوزف برستلي (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) (كيميائي اكتشف الاوكسجين) من المؤمنين بأن الله «سيجمعكم ويعيد توطينكم في وطنكم ـ أرض كنعان»[٨٧].

وفي عام ١٧٩٠ دعا اسقف ساند بروك، ريتشارد بير، الى أن «تكون هذه الجزيرة (بريطانيا) في طليعة الدول التي ستنقلكم الى وطنكم»[٨٨]. وفي عام ١٨٠٠ نشر جيمس بشينو كتابه «عودة اليهود.. أزمة جميع الأمم»، طالب فيه «حكام هذه البلاد (بريطانيا) باستخدام نفوذهم لدى الباب العالي للتخلّي عن هذا الجزء من الأرض الذي طُرد منه اليهود، واعادته الى أصحابه الشرعيين»[٨٩].

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر أسفر الواقع السياسي في انجلترا عن ظهور جيل جديد من المسيحيين المتصهينين، نذكر منهم: اللورد شافتسبري (١٨٠١ ـ ١٨٨٥) الذي كتب مقالة دعا فيها الى «تقديم العون الى اليهود كي يعودوا الى بلادهم القديمة» على اعتبار أن «الوطن القديم للشعب القديم»[٩٠]. وفي كانون الثاني ١٨٣٣ تلقّى وزير الخارجية البريطانية اللورد بالمرستون (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥) مذكرة من أمين سرّ البحرية البريطانية، هنري إنّس، موجهة

الى دول شمال أوربا وأميركا البروتستانتية، «تطالب الحكام الاوربيين بأن يحذوا حذو كورش» ويسمحوا لليهود بالعودة الى أرض آبائهم»[٩١]. وبعد خمسة أشهر ظهرت مقالة بعنوان «سوريا ـ بعث اليهود» أشار كاتبها الى «ضرورة توطين اليهود في أرض آبائهم، وبحماية الدول الخمس»[٩٢]. وفي عام ١٨٨٠ نشر عضو البرلمان، وزير الخارجية البريطاني، لورنس أوليفانت (١٨٢٩ ـ ١٨٨٨) كتابه «أرض جلعاد» قال فيه «على انجلترا أن تعمل على تطوير موارد فلسطين الزراعية عن طريق اعادة توطين الجنس الذي تملّكها أولاً قبل ٣٠٠٠ عام»[٩٣].

ومن هذا الجيل المتصهين في انجلترا نذكر الروائية الانجليزية جورج إليوت التي تقول في روايتها «دانئيل ديروندا»: «إن أرض اسرائيل ظلت مرتبطة بشعب اسرائيل»[٩٤]. ونذكر القس جيمس باركس الذي رأى أن «الأمل في الخلاص يكون بدعوة الشعب اليهودي للعودة الى وطنه»[٩٥]. ونذكر المعلّق هربرت سايدبوتام الذي كتب مقالات متعدّدة في مانشستر غارديان، جاء في احداها «ليس لفلسطين وجود قومي أو جغرافي مستقل إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم. انها تُعدّ وطناً بالنسبة لليهود فقط»[٩٦].

ومن الضروري التذكير بأن رئيس وزراء بريطانيا، لويد جورج، ظلّ طوال حياته متأثراً بـ «الكتابات المقدسة التي ألفها منذ طفولته، والتي تتنبأ بعودة الشعب اليهودي الى الأراضي المقدسة»[٩٧]. كما ظلّ وزير خارجية بريطانيا، اللورد بلفور، يؤكد على «الاعتراف بالحق اليهودي التاريخي في أرض فلسطين»[٩٨]. ويعتبر اليهود منفيين عن وطنهم[٩٩].

وفي المانيا نشر بول فيلجنهاوفر كتابه «أخبار سعيدة لاسرائيل» عام ١٦٥٥ أكد فيه على اعتقاده بـ «عودة اليهود الدائمة الى وطنهم»[١٠٠].

وفي السويد نشر انديرس كيمب كتابه «أخبار اسرائيل السارة» عام ١٦٨٨ قال فيه «إن اسرائيل هي صاحبة الحق في امتلاك أرض كنعان الى الأبد»[١٠١].

وفي الدانمارك حثّ هولجر باولي ملوك أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة لتحرير فلسطين والقدس من الكفّار، وتوطين اليهود وارثيها الشرعيين[١٠٢].

وفي فرنسا نشر سكرتير نابليون الثالث، ارنست لاهران، كتابه «المسألة الشرقية ـ اعادة بناء الأمة اليهودية» عام ١٨٦٠ حثّ اليهود فيه على الاتحاد

والتقدّم لشراء أرض أجدادهم». وكان نابليون الأول، في حملته على الشرق ١٧٩٩ قد خاطب اليهود في بيانه المشهور على أنهم «ورثة فلسطين الشرعيون».

ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح الاعتقاد بالانبعاث اليهودي يشكّل جانباً مهماً من اللاهوت البروتستانتي الأميركي. واحتل الايمان بالمسيح المنتظر وبالعصر الألفي السعيد مكاناً بارزاً في الذهن الأميركي[١٠٣]. فالرئيس وودرو ويلسون (١٩١٣ ـ ١٩٢١) الذي نشأ على التعاليم البروتستانتية، كان يشعر بأن «من واجبه العمل والمساعدة على اعادة الأرض المقدسة لأهلها»[١٠٤]. وفي ٣١ آب ١٩١٨ بعث الرئيس ويلسون برسالة الى زعيم الصهيونية الأميركية، الحاخام ستيفن وايز، مصادقاً بشكل رسمي على وعد بلفور[١٠٥].

وبعد أن وافق الرئيس ويلسون على وعد بلفور أخذ خلفاؤه في الرئاسة يُلزمون أنفسهم بالموقف الصهيوني. ومنذ ذلك الحين أخذ كل رئيس يعبّر عن تعاطفه مع الحركة الصهيونية، ويسلّم بأطماعها في فلسطين. وقد عبّر الرئيس هاردنج عن موقفه بوضوح في الأول من حزيران ١٩٢١ بقوله «إنهم سيعادون يوماً الى وطنهم القومي التاريخي»[١٠٦]. وفي ايار من عام ١٩٢٢ عبّر كذلك عن تأييده الشديد لصندوق انشاء فلسطين بقوله «يسعدني أن أعبّر عن موافقتي وتعاطفي القلبي مع جهود انشاء صندوق فلسطين، من أجل اعادة فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي»[١٠٧].

وكان الرئيس ترومان (١٩٤٥ ـ ١٩٤٩) يؤمن بالتبرير التاريخي لوطن قومي يهودي[١٠٨]. فخلفيته المعمدانية وتربيته الانجيلية جعلتاه يشدّد على وجوب عودة أو اعادة اليهود الى صهيون. وكان كأي عضو من أعضاء المؤتمر المعمداني الجنوبي، شديد الحماس للصهيونية، مؤيداً المطالب الدينية والتاريخية لليهود في أرض فلسطين.

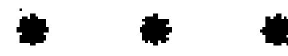
أما جيمي كارتر (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) المولود من جديد حسب الطقوس الانجيلية، فقد تركت تربيته البروتستانتية ونشأته الانجيلية أثراً بالغاً في ثقافته وقناعاته. وقد عبّر عن خلفيته الأصولية في كلمته أمام الكنيست الاسرائيلي في آذار ١٩٧٩ بقوله «إننا نتقاسم معاً تراث التوراة». وكان يرى أن دولة اسرائيل هي أولاً وقبل كل شيء، «عودة الى الأرض التوراتية التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين»[١٠٩].

واتخذ الكونغرس الأميركي في حزيران ١٩٢٢ قراراً بالغ التأييد لاقامة وطن قومي يهودي في أرض فلسطين، تبناه رئيس لجنة العلاقات الخارجية هنري لودج بدعوته «اليهود الراغبين في العودة الى الأرض التي كانت مهداً لهم»[١١٠].

وفي الشهر عينه من سنة ١٩٢٢ حذا مجلس النواب حذو مجلس الشيوخ، فأصدر قراراً مشابهاً تبناه عضو الكونغرس هاملتون فش، شدّد على وجوب «تمكين الشعب اليهودي من اعادة انشاء وطن قومي في أرض آبائه»[١١١].

أما الدعاة فكثيرون، وكثيرون جداً، منهم القس هال ليندسي الذي قال «ربما يمتلك الشعب اليهودي من جديد أرض وطنه»[١١٢]. والقس جيري فالويل الذي قال «إن فلسطين ملك لليهود»[١١٣].

ولعل أشهر الدعاة في هذا الباب المبشر الانجيلي وليم بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥) الذي يُنعت بـ «المموّل والرحّالة العالمي، وبطل صهيون البارز، الذي كان ينفق الملايين على التبشير»[١١٤]. وكان ينعت اليهود بـ «الورثة». وقد بلغت الجهود التي بذلها بلاكستون من أجل «البعث اليهودي في أرض الآباء» ذروتها في الاسترحام الذي قدّمه في الخامس من آذار ١٨٩١ الى الرئيس الأميركي بنيامين هاريسون، ووزير خارجيته، والذي جاء فيه «لماذا لا نعيد فلسطين لليهود؟ ـ إنها وطنهم وهي ملكهم»[١١٥].



وخلاصة القول يلاحظ القارئ أن أول ما عني به اليهود من أسباب نشر دعاوتهم في تملّك أرض فلسطين، هو السعي في احياء ما يسمّونه «الرابطة التاريخية» و «الحق التاريخي». وقد اتقنوا استخدام هذا السلاح ايّما اتقان حتى توصّلوا الى اقناع العالم الغربي بأن موجاتهم الزاحفة الى فلسطين بغية انتزاع هذه البلاد من أيدي أصحابها الشرعيين، ليست موجات غازية أو استعمارية، وإنما هي جموع من المشرّدين، أخرجتهم سلسلة الاضطهادات من بلادهم، وها هم يعودون إليها ثانية، مواطنين عائدين الى منازلهم الحقيقية في أرض اسرائيل التاريخية.

والملاحظ أيضاً أن استخدام الذرائع التوراتية يأخذ أهمية جديدة في هذه المرحلة من تاريخ الدولة الصهيونية، التي يمكننا أن نسميها مرحلة الصهيونية

العسكرية. ففي وقت تنفق اسرائيل أكثر من سبعين بالمائة من ميزانيتها على آلتها العسكرية، ويكون هدف هذه الآلة المعلن بلسان وزير الدفاع، شارون، وبحسب مشروع الحركة الصهيونية، ليس الدفاع عن اسرائيل، وإنما لتفتيت الدول العربية في المنطقة. فإن نصوصاً توراتية تُلتمس من أجل تبرير التوسع الدائم في أراضي الدول المجاورة لفلسطين، وتبرير مناهج الدولة في تنفيذ المذابح ونشر الارهاب.

وقد دأب قادة اسرائيل وزعماء الصهيونية على المجاهرة في التصريح بأن كل احتلال هو مجرّد مرحلة على طريق الوصول الى نشر سلطة الدولة اليهودية على كامل «أرض اسرائيل التاريخية». وأن دولة اسرائيل الصغرى هي مجرّد مرحلة على طريق الحركة الصهيونية الماضية نحو تجسيد ذاتها في امبراطورية تضم يهود العالم ضمن «الحدود التاريخية لأرض اسرائيل».

والطريف في الموضوع أن «الروابط التاريخية» تحوّلت، لكثرة الترديد والتكرير، الى «حق تاريخي»، فحجة تتمتّع بالصفة القانونية، وبالتالي أصبحت المزاعم الصهيونية من بدائه الأمور، وأضحى سكان ما يزيد على نصف الكرة الغربي، يحسبون المزاعم الصهيونية على مقدار بديهي من الصحة بحيث لا تحتاج معه الى ردّ أو تفنيد أو مناقشة.

وبعد، فهذه نماذج من مزاعم اليهود والمسيحيين المتهوّدين في الغرب الأوربي والأميركي، التي تملأ المجلّدات. وقبل أن نتصفّح المصدر الوحيد، أكرّر المصدر الوحيد، (التوراة) الذي يستمدّون منه هذه المزاعم، وإليه يستندون، أرى من الضروري، ايماناً بجدوى عرض الحقيقة، القاء بقعة من الضوء على الأقوام التي فتح التاريخ عينيه عليها وهي متجذّرة في تراب فلسطين، وعلى حضاراتها. وعلى الأقوام الأخرى في سوريا الطبيعية التي احتك بها بنو اسرائيل أو عاشوا في ظلّها، وعلى حضاراتها، لأن «معلومات الغربيين عن هذه المنطقة مستمدة بصورة تامة من الكتاب المقدس»[١١٦]، كما تقول الكاتبة الأميركية المستنيرة غريس هالسل. والأدهى أن هذه «المعلومات» مشوّهة ومزوّرة ومزيّفة.

ولأن الغربيين «قلّصوا تاريخ فلسطين قبل المسيح الى تلك القصص التوراتية التي تحكي عن الوجود العبراني فقط. وجعلوا من «العهد القديم»

مصدر المعرفة التاريخية»[117]، كما تقول هالسل أيضاً.

ولأن «فلسطين لا تملك تاريخاً خاصاً بها باعتبار الغرب الأوربي والأميركي. إن تاريخها، باعتبار المؤرخ جورج سميث[118] مثلاً، هو تاريخ اسرائيل، وهذا بدوره هو تاريخ الغرب. ومن الطبيعي، يقول كيت وايتلام، أن تغييب تاريخ فلسطين يعني تغييب السكان من هذه الأرض»[119].

ويرى سميث «أن الثقافة والتاريخ الخاصّين بالمجتمعات الأصلية (يقصد المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخاً وحضارة قبل أن يتسلل بنو اسرائيل الى الأرض) لا يتمتّعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي. وهذه النظرة تمثّل نظرة الأوربيين جميعاً»[120].

ولأن «الكتابة عن فلسطين، تاريخاً وحضارة، لا تنسجم مع اتجاهات واهتمامات البحوث العلمية في الغرب».

ولأن «الدراسات الغربية تشير الى المنطقة على أنها فلسطين. ولكنها لا تشير مطلقاً الى السكان على أنهم فلسطينيون.

إن ما يقدم لنا، يقول وايتلام، هو وصف الأرض. أما سكانها فمجهولون أو غير موجودين»[121].

ولأن تاريخ فلسطين مستبعد عن الدراسات التاريخية في الجامعات الغربية. مغيّب عن الموضوعات الاكاديمية. فلقد أسكتته الدراسات التوراتية المهيمنة، استبعدته، أو قل إنها أنكرت وجوده[122].

ولأن الغربيين لا يعرفون شيئاً عن تاريخ العرب أو عن ثقافتهم، كما يقول الأب فورست[123]. ولأن قلة من الناس تعرف شيئاً عن ماضي العرب العظيم، كما يقول المؤرخ الفذ، المستنير، جيفرز[124].

ولأن لفظة «فلسطين» وصلت الينا عن طريق الاسرائيليين، مرادفة للفظة «بربري»، كما يقول جيفرز أيضاً.

فلسطين في التاريخ

تقع فلسطين في الطرف الجنوبي الغربي من سوريا الطبيعية. لم تكن يوماً وحدة سياسية أو جغرافية. اعتبرتها المصادر الكلاسيكية (هيرودتس مثلاً في القرن الرابع ق.م.) بأنها القسم الجنوبي من سوريا.

هذه القطعة من سوريا الطبيعية، الفريدة في موقعها الجغرافي والحضاري والتراثي، تشكّل جسراً بريّاً بين قارتين: اسيا وافريقيا، وبين محيطين، فهي من جهة الغرب على الساحل الشرقي للمتوسط، ومنه الى الأطلسي. وهي من جهة الجنوب الشرقي على خليج العقبة، فالبحر الأحمر، ومنه الى المحيط الهندي. ولهذا التقت فيها طرق التجارة البريّة والبحرية منذ أقدم العصور. وفيها التقت أيضاً الجيوش المتحاربة، خاصة جيش فراعنة مصر وجيوش ممالك حوض النهرين. وكان من الطبيعي أن تتأثر بحضارات المجتمعات التي التقت فيها قوافلها للتجارة، أو جيوشها للحرب.

كانت فلسطين مهداً لحضارة الانسان العاقل من عصور ما قبل التاريخ. كما كانت بؤرة اشعاع حضاري، استفادت من الحوار بين الحضارات ومن تمازج الثقافات الرفيعة عبر آلاف السنين. ولهذا تعتبر، في مجال التاريخ الحضاري، مركزاً هاماً من مراكز الحضارة الانسانية. واليها يتجه مؤرخو الحضارات الغربيون لبحث أصول هذه الحضارة، كما يقول البرايت[١٢٥].

اجتمع بالمواطنية في هذه الأرض الكنعانيون من ضفة الأردن الى البحر المتوسط، والفلسطينيون في الساحل الغربي الجنوبي في مدنهم المشهورة: يافا وغزة واشقلون واشدود، والأراميون في الشمال الشرقي لنهر الاردن حتى دمشق عاصمتهم.

والى الشرق من نهر الاردن قامت ممالك عمون ومؤاب وأدوم ومديان. فمؤاب الى الجنوب الشرقي من البحر الميت. من مدنهم ديبون، أرنون، حولون، بيت ماعون، وحشبون. ومديان على التخوم الغربية للبادية العربية حتى خليج العقبة. وأدوم في صحراء النقب، كان لها ميناء في منطقة ايلات الحالية. عاصمتها بصرى، ومن مدنهم أزيون. والى الشرق من القدس (٦٠ ميلاً) كانت مملكة عمون، عاصمتها ربّة (عمان الحالية). كان العمونيون يسكنون بيوتاً حجرية محاطة بأسوار من الألف السادس ق.م. وقد دلّت الابحاث والآثار المكتشفة على أن الأنصاب والصوامع الحجرية الضخمة التي بقيت آثارها في جبال عمان، كانت قد أقيمت كهياكل على مشارف الجبال وعند عيون الماء. ومن الآثار المكتشفة في عمان ضريح منقور في الصخر فيه مجموعة نفيسة من الأواني الفخارية ومن الأختام.

وحوالي القرن الثامن ق.م. بدأت مجموعات بشرية بالتسرّب من البادية العربية الى المشارف الشمالية من منطقة الحجاز. وفي القرن السادس ق.م. تشكّلت منهم موجة استقرت في الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء، والى الشرق من نهر الاردن، عرفت باسم الانباط. وفي القرن الخامس ق.م. كان لهم مملكة عاصمتها «سلع»، أطلق عليها اليونانيون صفة بترا أي الصخرة. بلغت درجة رفيعة من الحضارة.

امتدت سلطة الانباط من قاعدتهم البتراء الى النواحي المجاورة فبسطوا نفوذهم على سيناء وحوران ووادي القرى والحجر ومؤاب والبلقاء وأرض مديان وأعالي الحجاز. واشتهرت مدن لهم بالاضافة الى العاصمة «البتراء» مثل اذرع وجرش والكرك والشوبك ومدائن صالح والعلا وصلخد ومأدبا. وقد زهت البتراء في ختام القرن الرابع ق.م. وظلت قرابة أربع مائة سنة تشغل مركزاً مهماً على طريق القوافل بين العربية الجنوبية وبين ثغور البحر الأبيض المتوسط.

اتسعت مملكة الانباط سياسياً في أواخر القرن الأول ق.م. فشملت الجنوب السوري من النقب الى دمشق. كما وصلوا الى سوريا المجوّفة (البقاع). أما امتدادها تجارياً فقد تجاوز هذه الرقعة الى موانئ البحر المتوسط وموانئ مصر وساحل البحر الأحمر. ووصلوا غرباً الى ايطاليا وشرقاً الى موانئ الجزيرة العربية وربما الى الهند.

كتب ديودور الصقلي (٦٣ ق.م. ـ ١٤م) عن الأنباط أواخر القرن الرابع ق.م. وألمّ سترابو (٥٨ ق.م. ـ ٢١ م) في جغرافيته في القرن الأول ق.م. بجوانب من أوضاعهم الاجتماعية. ومما قاله فيهم إنهم شعب ديمقراطي تسود بينهم علاقات اجتماعية سليمة لدرجة أنهم لا يحتاجون الى رفع دعاوى أو اقامة محاكم[١٢٦]. وقال إن مساكن الانباط من الحجر، ومدنهم غير محاطة بالأسوار بسبب من حالة الأمن والسلم السائدة في بلادهم.

وهذه المجتمعات الفلسطينية لم تنفصل يوماً عن المجتمعات التي عمرت المنطقة الطبيعية الواحدة الممتدة من حوض النهرين (دجلة والفرات) الى البحر الأبيض المتوسط. ومن حدود الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً الى أطراف البحر الأحمر جنوباً، والتي اصطلح على تسميتها منذ أواسط الألف الأول ق.م. سوريا. والتي سمّاها المؤرخ الأميركي برستد في بداية القرن العشرين «الهلال الخصيب». فهي تتشابه في ما بينها الى حدّ يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم الى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية[١٢٧]. وهي تؤلف كتلة واحدة، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد، والتحدّث بألسن لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد.

والسؤال: ما هو هذا الأصل الحضاري التاريخي الواحد؟.

المعروف أن هذه الأرض لم تُعرف قديماً باسم جغرافي أو سياسي معين (كمصر مثلاً). بل كانت المنطقة الواحدة منها تُعرف باسم المجتمع المتوطّن فيها. فأرض سومر للسومريين، وأرض أكاد للأكاديين، وأرض أشور للأشوريين، وأرض كنعان للكنعانيين، وأمورو للأموريين، وبلاد آرام للآراميين، وهكذا.

ولما كانت نظرية الأسر اللغوية تفترض وحدة الأصل العرقي للمجتمعات الناطقة بألسن من أسرة واحدة، تساءل العلماء والباحثون عن الوطن أو الأرض الأم التي انطلقت منها الأقوام التي تفرّعت وتوزّعت في مختلف أقاليم سوريا الطبيعية، ثم شكّلت مجتمعاتها في بداية التاريخ. وأبدوا في ذلك آراء كثيرة، ومتناقضة أحياناً.

وأخيراً تركّزت آراء كثير من الدارسين حول شبه الجزيرة العربية[١٢٨]، كمركز بشري قديم، انطلقت منه موجات بشرية قدّرها المؤرخون بخمس موجات. قد تكون الموجة الأولى حدثت في الألف الخامس أو الرابع ق.م. (الموجة الأكادية). وكانت الموجة الأخيرة في سنة ٦٣٦م وهي الموجة الاسلامية. فالمعروف أن البحر يحيط بالصحراء العربية من جهات ثلاث. وعندما كان عدد السكان يزيد عن قدرة الأرض على إعالتهم، كانوا يميلون الى البحث عن مجال حيوي متيسّر في السهول والوديان المترامية الى الشمال من الصحراء.

ويرى المختصّون بدراسة تاريخ الشرق المتوسطي القديم أن المجموعات البشرية الفائضة ظلّت تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية على شكل موجات متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة، تتوزّع في البيئة السورية الطبيعية التي تمتد بين مرتفعات وادي النهرين الشرقية وبين البحر الأبيض المتوسط غرباً. ومن الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً الى البحر الأحمر جنوباً. وكانت الموجة اللاحقة تتأثر بالتراث الحضاري للسابقة وتنصهر معها في بوتقة حضارية واحدة. وفي هذه القاعدة الحضارية كان التفاعل الاجتماعي والفكري والاقتصادي يأخذ مجراه الطبيعي[١٢٩]. وفي هذا المجرى تدفّقت تيارات حضارية فاض اشعاعها على آسيا الصغرى وحوض المتوسط ووصل الى المحيط الأطلسي.

والمجتمعات التي كوّنتها تلك الموجات تتشابه في ما بينها الى حدّ يكفي لتبرير الفرض القائل إنها انتشرت من موطن مشترك قديم الى البلاد التي استوطنتها في العصور التاريخية. وهي تؤلف كتلة واحدة، ليس باجتماعها في صعيد جغرافي واحد، والتحدّث بألسن لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها أيضاً في أصل حضاري تاريخي واحد.

وعلى أي حال لا يعنينا هنا تحديد الموطن الأصلي لهذه الأقوام، لأن مثل هذا البحث يرجع بنا بعيداً الى ما قبل التاريخ، وتكون نتائجه فرضية وموضع شك. ثم إن وحدة الأصل ومنشأ الأقوام القديمة وتنقّلاتها يخرج من نطاق العلم. المهم أن التاريخ فتح عينيه مع بدء التدوين حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. على هذه الأقوام متوطّنة في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها، يعمّر

كل قوم أرضه ويضع أسس حضارته. ومن يدري كم من الزمن مرّ عليها وهي متجذرة في تراب هذه الأرض قبل بدء التاريخ؟.

سومر

لسنا هنا بصدد البحث في أصل السومريين أو جنسهم ولغتهم، فقد أفرد المؤرخون المختصّون الفصول الطوال لهذا الموضوع، ولكنهم اختلفوا بغالبيتهم في تحديد جنس السومريين وتعيين موطنهم الأول. وربما كان الدافع الذي حدا المؤرخين الى البحث في جنس السومريين وفي تحديد موطنهم الأول هو اختلاف لغتهم عن لغات (والأصح ألسن) الأقوام التي كوّنت حضارة الهلال السوري الخصيب.

والواقع أن أصل السومريين لا يزال محوطاً بالغموض بالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها المؤرخون في هذا المضمار. ولم يتمكن أي آثاري أو مؤرخ من إرجاعهم بصورة أكيدة الى غصن من أغصان الأقوام القديمة. يقول المؤرخ ول ديورانت «ليس في وسعنا أن نعرف السلالة البشرية التي ينتمون إليها، أو الأصل الذي تحدّروا منه أو البقعة الجغرافية التي احتضنتهم إبّان نشأتهم الأولى رغم ما قام به البحاثة وعلماء الآثار من جهود في هذا المجال»[١٣٠]

وباختصار، مهما يكن أصل السومرين، والأرض التي نزحوا عنها قبل بداية التاريخ المدوّن، فإن هؤلاء الروّاد في تاريخ الحضارة الانسانية ظهروا في فجر التاريخ متوطّنين في البطاح المترامية في رأس الخليج الصحراوي وهم يعمّرون أرضهم ويبنون حضارتهم من قبل أن يعرفوا الكتابة في الألف الثالث ق.م. ويدوّنوا تاريخاً لهم وللعالم الذي عرفوه.

فالسومريون في أرض سومر (السهول الرسوبية في الجزء الأدنى من حوض النهرين) سبقوا التاريخ المدوّن، أو قل بعبارة كريمر إن «التاريخ يبدأ في سومر»[١٣١]. وقد انشأوا في ذلك المنبسط الفسيح القريب من ساحل البحر حيث يلتقي النهران برأس الخليج الصحراوي، أنشأوا قبل الألف الرابع ق.م. مدناً عامرة: أور (المقيّر) لارسا (سنكرة) لاغاش (سبرلا) نبّور (نفر) أريدو (أبو شهرين) أوروك (الوركاء)، وغيرها من أسماء عريقة كانت في عهد ازدهارها مدناً عامرة مشرقة بالحضارة والعمران. وثقافتهم التي اكتشفت آثارها في كيش وجمدت نصر وشورباك وأور، تعود الى الألف الخامس ق.م.[١٣٢].

أكاد

ذكرنا أن المؤرخين يميلون بغالبيتهم الى الاعتقاد بأن الصحراء العربية فاضت في فترات من الدهر بما زاد من سكانها نحو سهول سوريا الطبيعية وودبان أنهارها حيث كانوا يستقرون في المناطق الخصبية. فقبل الأزمنة التاريخية التي اتفق المؤرخون على تحديدها بالألف الرابع ق.م. كانت المجموعات البشرية الفائضة تنساب من الصحراء العربية ومن البادية السورية الى الهلال الخصيب حيث تستقر وتتكاثر. ومع الأيام تكوّنت منها مجموعة شكلت في ما بعد دولة أكاد. لم يكن بين الاكاديين والسومريين حدود واضحة، وإن كان من المفهوم أن سومر تعني القسم الجنوبي من حوض النهرين، بينما تقع بلاد أكاد الى الشمال من سومر.

وقد اختلط الاكاديون بالسومريين الذين كانت حضارتهم مزدهرة في الألف الثالث ق.م. في وادي النهرين الأسفل. وتفاعلوا معهم وأخذوا عنهم الكثير من وجوه حضارتهم الرفيعة كبناء البيوت وزراعة الأرض وبعض الصنائع والفنون والقراءة والكتابة. واستوعبوا الصور الاجتماعية والادبية والفنية لتلك الحضارة. وتأثروا بالتراث السومري: لغة وآداباً وعلوماً، فاستوعبوه وتمثلوه. ثم انتظموا في جماعات صار لها كيانها الاجتماعي والسياسي.

لقد عاش هذان المجتمعان ضمن شراكة تفاعلية خيّرة، فتمّ بينهما انصهار وتفاعل. «وليس صحيحاً كما كنا نتوهم منذ سنوات أن المحن التي ألمّت بتلك المنطقة كانت ناتجة عن مفارقة أو تناقض بينهما»(١٣٣). واذا كان الأكاديون قد قضوا على وجود السومريين السياسي، فانهم لم يقضوا على وجودهم الحضاري. والواقع ان حضارة السومريين كانت حيّة فاعلة طبعت الأكاديين بطابعها، فظلت الثقافة سومرية الشكل والمضمون، وظلت المدارس والمعاهد في سومر وأكاد تستخدم اللغة السومرية والآداب السومرية قاعدة أساسية في منهج التعليم. وظل التراث السومري منبعاً اغترفت منه الأقوام التي جاءت بعدهم.

وبعد، أياً كان شكل الاختلاط أو الاندماج بين المجتمعين، يظل أكيداً أن امتزاجهما أعطى ثماراً خارقة على الصعيدين الاثني والثقافي. وأدى الى نهضة خلاّقة نتج عنها تطوّر الكتابة وتدوين ملاحم وآداب، وتوحيد مجتمعات مختلفة

ضمن أطر ثقافية واحدة، أصبحت غاية النخبة المثقفة عند مجتمعات البيئة الواحدة.

أشور

يمكن أن نميّز في منطقة النهرين قسمين طبيعيين. سهول رسوبية في الجنوب، وحزون مرتفعة في الشمال تتصل بسفوح الهضاب التي تشقّها روافد دجلة، وتنتهي بالجبال الشرقية والشمالية التي تعتبر حدوداً طبيعية.

يبدو أن مجموعات من الموجات البشرية المتسرّبة من البادية السورية وصلت الى الحزون الشمالية من بلاد النهرين، فاستقرت في الأرض وأسّست مدناً عديدة عرفت باسم أشور. متى وصلوا الى الحزون الشمالية؟. لا ندري. المهم أننا نجدهم يستوطنون منطقة أعالي دجلة منذ بداية التاريخ المدوّن (الألف الثالث ق.م.). ويبرعون في التجارة حتى لنراهم يؤسّسون محطّات تجارية ومستعمرات في أقاصي بلاد الأناضول في أواخر الألف الثالث ق.م. وأوائل الألف الثاني ق.م.

أنشأ الاشوريون مملكة تطوّرت الى امبراطورية كانت الأمجد في تلك العهود. فقد بسطت أشور سلطانها في فترات طويلة من تاريخها على سوريا الطبيعية بكاملها من الخليج الصحراوي الى جبال طوروس، ومن الشاطئ السوري الى قوس الصحراء. وكان لهذه الامبراطورية أبعد الأثر في تاريخ الشرق المتوسطي اقتصادياً وسياسياً وحضارياً.

أمورو

يطلع التاريخ في الألف الثالث ق.م. على المجتمع الأموري في سوريا الوسطى والشمالية، يعمّر أرضه ويبني حضارته. ويبدو أو من المرجّح برأي كثير من الدارسين أن سكان حوض النهرين الأدنى هم الذين أطلقوا على هذا المجتمع لقب «أمورو» أي بلاد الغرب. كما أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم «بحر أمورو العظيم».

كان لهم عدد من المدن ـ الممالك مثّلت دوراً هاماً في التاريخ، مثل ماري (تل الحريري) على الفرات الأوسط، وايسين ولارسا في الحوض الجنوبي من وادي النهرين، ويمحاض (حلب) وايبلا في تل مارديخ، وألالاخ بين حلب

وانطاكية، وقطنة (المشرفة) على بعد ثمانية أميال الى الشمال من حمص، وقادش (تل النبي مند) على بعد ثمانية أميال الى الجنوب الغربي من حمص، وغيرها.

اندفع الاموريون في جهات سوريا الاربع، فوصلوا سوريا الغربية. ومن مدنهم على ساحل سوريا الشمالي «عمريت». وقد سيطروا على بعض مدن الكنعانيين، وهدّدوا حدود مصر من جهة فلسطين. وحوالي ٢١٠٠ ق.م. بلغ نفوذهم بابل، فعملوا على توحيد سومر وأكاد في مملكة واحدة يمكن تسميتها مملكة بابل. ثم امتد الى الشمال ليشمل أشور أيضاً. فحوالي ١٨٣٠ ق.م. أعلن سومو أبوم الأموري نفسه ملكاً على بابل. ثم ضمّ الى مملكته، بعد انتصاره على ملك أشور، سيبار وكيش. ومن السلالات الأمورية الأولى في بلاد أشور سلالة شمشي هدد (١٨١٤ ق.م.)[١٣٤].

كنعان

لا يهمّنا البحث في أصل الكنعانيين وإن كان المؤرخون قد أجمعوا على القول إنهم هاجروا من البادية السورية واستقروا في مناطق متفرقة من سوريا الغربية. ثم أصبحوا مع الزمن مجتمعاً زراعياً يعيش في مدن صغيرة تحميها الجدران الحجرية العالية[١٣٥].

يذهب المؤرخ أوتو ايسفلد الى القول إن موطن الكنعانيين الأصلي هو شبه جزيرة سيناء، أو البادية العربية المجاورة، التي يُعتقد أنهم قدموا منها حوالي ٣٠٠٠ ق.م. وحلّوا في المواقع التي عرفت باسمهم في العصور التاريخية. ويخصّص جورج كونتينو صفحات كثيرة لـ «مهد الكنعانيين»، ولا يتردّد في ارجاع أصلهم الى ما قبل التاريخ. أما المؤرخ الكلاسيكي فيلون الجبيلي فيزعم أن الفينيقيين (الكنعانيين) أصيلون في موطنهم. وأن بلادهم هي مصدر الناس والآلهة والثقافة الانسانية كلها. ويعيّن هيرودتس موطنهم الأصلي على الساحل الارتيري. ويذهب سترابو[١٣٦] الى القول بوجود معابد ومدائن على خليج البصرة شبيهة بالمعابد والمدائن الفينيقية. ويثني بلايني على كلامه. ويقول جوستين إن الفينيقيين بعد أن أجلتهم الزلازل عن موطنهم الأصلي حطّوا رحالهم في بادئ الأمر عند البحيرة السورية (البحر الميت)، ومن بعد على ساحل المتوسط.

والسؤال: متى هاجروا من البادية الى المناطق الخصبة في سوريا؟. لا ندري. وليس لدينا أي دليل على هجرتهم من مكان ما في التاريخ القديم الى هذه الأرض. وربما وُجدوا على شاطئ سوريا الغربية وجبالها من عصور ما قبل التاريخ. فالمجتمع لا يوجد فجأة، وإنما يعبّر عن وجوده التاريخي عندما ينشط عسكرياً وسياسياً وحضارياً. وهناك ما يكفي من الأدلة والبراهين على استقرار الكنعانيين في سوريا الغربية قبل التاريخ المدوّن. وهم الذين أسّسوا حضارة الساحل السوري وحضارة فلسطين القديمة.

والواقع أن التنقيبات التي أجريت الى الآن (١٩٩٩) في بعض المواقع أثبتت أن بعض المدن الكنعانية كأريحا وبيت شان وجازر ومجدو وأورشليم وجبيل وأوغاريت، تسبق التاريخ. وقد أرجع علماء الآثار مدينة أريحا الى ما قبل الألف السابع ق.م. وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال قائمة حتى اليوم[١٣٧]. وتدل الآثار المكتشفة في أوغاريت على أن المدينة كانت مأهولة منذ ما قبل الألف السابع ق.م. وأن ثقافتها ترجع الى ما قبل التاريخ[١٣٨].

أرام

إن بداية التاريخ الارامي غامضة، فليس ثمة وثيقة تطلعنا على نشأة الاراميين. وكل ما يمكننا قوله إنهم تسرّبوا من البادية السورية الى الهلال الخصيب مثلهم مثل الموجات التي سبقتهم. ويبدو أنهم كانوا في بداية ظهورهم على مسرح التاريخ قبائل رحّلاً، تتفق تحركاتهم وتحركات البدو الدائمة في مواسم معيّنة من أطراف الصحراء الى المراعي المحيطة بها. وقد توزّعت هذه القبائل بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م. في أقاليم الهلال الخصيب، من الخليج الصحراوي حتى فلسطين[١٣٩]، راحلة أحياناً بحثاً عن أرض أكثر خصباً وأرحب متسعاً، أو مستقرّة في إقليم ما مؤسّسة إمارة أو مملكة.

لم يتضح وجودهم السياسي إلا بعد ضعف أو تفكك الامبراطورية الأمورية، أو بعد تقلّص نفوذها حوالي ١٥٠٠ ق.م. ففي القرن الخامس عشر ق.م. بدأت الممالك والامارات الارامية تأخذ دورها السياسي، فكان لهم في الجزء الشمالي من بلاد النهرين عدد من التجمّعات الكبيرة (أرام النهرين. فدان

ارام). أخذ بعضها شكل الدول الصغيرة أو المدن ـ الممالك، لعل أهمها دولة بيت عديني التي كان مركزها في تل برسيب على الفرات الأعلى، ودولة بيت بخياني التي كان مركزها في غوزانا (تل حلف).

وبعد سيطرتهم على بابل حوالي ١٠٥٠ ق.م. توغّلوا جنوباً فكوّنوا امارة بيت يكيني. ثم كان لهم إمارة بين بابل وبين رأس الخليج الصحراوي عرفت باسم «كلد». وقد أدّى الكلدانيون دوراً بارزاً في حضارة بلاد ما بين النهرين.

وفي الشمال الغربي أسّس الاراميون عدداً من المدن ـ الممالك مثل مملكة ياعودي، كانت عاصمتها «سمائيل» بين انطاكية ومرعش، (تقوم عليها الآن بلدة زنجرلي التركية). ودولة أغوشي الى الجنوب من حلب. وكان لهم عدد من المدن المزدهرة مثل أرفاد وكركميش (جرابلس).

وفي سوريا الجنوبية كان لهم عدد من الامارات والممالك مثل آرام بيت رحوب في وادي الليطاني الأوسط، وارام بيت صوبا في البقاع، وأرام معكة في الجولان، وامارة جشور بين اليرموك ودمشق، وفي دمشق كان لهم مملكة عظيمة.

وقد انتشرت حضارة الاراميين التجارية انتشاراً واسعاً، وتركت وراءها مؤثرات خلدت مع الأيام. وقد توصّل حضريوهم الى اشغال المناصب العالية في الدولة البابلية الثانية، ومن ثم في الدولة الفارسية.

الأسس الحضارية في هذه الأرض

اذا كان علماء التاريخ قد اختلفوا حول مهد الجنس البشري، فانهم لم يختلفوا حول المهد الذي نشأت فيه الحضارة البشرية. وقد اتفقوا على أن المهد الذي توصّل فيه الانسان الى أقدم الاكتشافات وأعظمها خطورة وأبعدها أثراً في تقدم الحضارة، هو البقعة الممتدة من حوض النهرين (دجلة والفرات) الى البحر الأبيض المتوسط. ومن حدود الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً الى أطراف البحر الأحمر جنوباً، والتي اصطلح على تسميتها منذ أواسط الألف الأول ق.م. سوريا.

في هذه البيئة تكوّن في وقت مبكّر وعي الانسان، وتكوّنت حوافزه ومقومات اجتماعه وقابليات انفعاله بالطبيعة حوله. فكان له قدرة فائقة على الافادة مما قدّمته له الطبيعة. وكانت دوافعه لتكوين الحضارة تتجذّر وتتشعّب في حقول النشاط الانساني سائرها. وقد بلغت ما بلغته من التطوّر في نواحي الحياة جميعها وفي مجالاتها على اختلافها. فقبل التاريخ المدوّن كان للانسان القديم في هذه الأرض خطوات فعّالة في صنع حياته المستقرة. وحين تحرّر عقله من اهتمامات المعيشة بدأ يستجيب لمحرّضات الطبيعة، مستخدماً كل ما تقدمه له من امكانات لتحسين وجوده. فعرف منذ الألف السابع ق.م. مثلاً أن يبني المنازل بالحجر ويكسو الجدران بالطين، ويصنع الادوات المختلفة من الفخّار، مما وفّر له المجال لتنمية الشؤون الرفيعة في سائر مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسياسية. وفي أدوار لاحقة، وقبل التاريخ المدوّن أيضاً، آلف الحكومات المدنية ذوات الدوائر المنظمة، وأنشأ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. وبدأ بتكوين أو بوضع الأسس لحياته السياسية والاجتماعية، وبالتالي تكوين معالم حضارة بلغت شأواً عالياً من النضوج

والتفوّق قبل بداية العصر التاريخي. وشكّلت الأصول الأولى للحضارة الانسانية في مجالاتها المادية والمعنوية.

النقلة الخطيرة في حياة الانسان

أجمع المؤرخون والعلماء على القول إن الأقوام القديمة في سوريا الطبيعية كانوا أسبق الأقوام الأخرى في العالم القديم في الانتقال من مرحلة الصيد والبحث عن الجذور التي تجود بها الطبيعة، الى مرحلة الاستقرار، وما استتبع الاستقرار من تربية الحيوانات واستنبات التربة، وكل ما يدخل في نطاق الرعي والزراعة. وهذا التحوّل من عهد جمع القوت الى عهد انتاج القوت حداه الى تخطّي إمكانياته المحدودة، والبحث عن إمكانيات أوسع وأشمل، مما أدّى الى قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية تمثّل في العملية الانتاجية التي أضحت لأول مرة (حوالي الألف الثامن ق.م.) هي العامل الجديد في المجتمع الانساني المتحضّر. فقد أوضحت المكتشفات التي تمّ العثور عليها في أرض فلسطين، أن الانسان القديم استقر في هذه الأرض منذ الألف التاسع ق.م. وعرف الزراعة وبعض أدواتها، وكان منتجاً للغذاء. ويمكننا أن نجد آثار هذه المرحلة في كهوف جبل الكرمل وفي مواقع أخرى من أرض فلسطين، كما يقول غوردون تشايلد[١٤٠]. ومن الطبيعي أن الاستقرار في الأرض هو العامل الذي قضى به الانسان في هذه الأرض على القلق والخوف، والأداة التي بدأ بها نشاطه الحضاري والتجاري.

والواقع أن خطوته الجديدة في ميداني الزراعة وتربية الحيوانات كانت بمثابة ثورة في حياته الاقتصادية والاجتماعية. فقد دفعت به الى الاستقرار في الأرض وانشاء المساكن وتكوين القرى. والاستقرار أدّى الى تجميع الاختبارات المتشابهة وانتقالها بشكل تقاليد حضارية من مكان الى آخر ومن جيل الى آخر. وهذا التطوّر من مرحلة رعوية بدائية الى أخرى زراعية أكثر تركيباً، كان في فترة مبكرة تسبق الألف التاسع ق.م. وقد استطاعت التجمّعات البشرية الأولى في القرى الزراعية أن تحقّق الوحدة بين أفراد المجموعة الواحدة، وتعطي لحياتهم مغزى وأهمية في اطار التطوّر البشري، لا سيما وأن القرية هي القاعدة الأساسية لحضارتنا الحديثة.

ومن الواضح، كما يرى المؤرّخ جاك كوفان[١٤١]، أن سلّم ذلك الارتقاء

وعناصره ظهرا أولاً في الشرق المتوسطي القديم (سوريا الطبيعية). ويرى المؤرخ ر. بريدوود[١٤٢] أن المنطقة التي شهدت نشاطاً حضارياً مثيراً للاهتمام خلال الفترة التي تمت فيها القفزة نحو انتاج القوت وتأسيس القرى الزراعية، كانت تشمل البلاد المحاذية للشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. والممتدة شرقاً الى حوض النهرين. ففيها نضج قبل أي مكان آخر في العالم جملة متكاملة من التحوّلات. وفيها تمت النقلة الخطيرة في حياة الانسان من مرحلة الالتقاط والصيد الى مرحلة الاستقرار والبدء بالزراعة وإنشاء القرى وإقامة التنظيمات المستقرة. ومن الطبيعي أن الاستقرار أساس الحضارة فهو الذي يمكن من انشاء وسائل الري والزراعة والحصاد والخزن. ويتبع الاستقرار تنظيم المجتمع واشتراع القوانين من أجل حماية التنظيم. ويرى المؤرخ أرنولد توينبي[١٤٣] أن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وتقنية تشذيب قطع كبيرة من الحجارة ونقلها، قد عرفت لأول مرة في المنطقة الممتدة من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط الى حوض النهرين. ومنها انتقلت الى بعض مناطق العالم القديم بالاقتباس أو بالتجارة.

ومن المؤكد، يضيف توينبي، أن الزراعة وتربية الحيوان كانا أهم الاكتشافات البشرية حتى يومنا هذا، ذلك أنهما لم يخسرا من قيمتهما كأساس اقتصادي للحياة البشرية حتى في الأزمنة والأمكنة التي يبدو وكأن التجارة والصناعة قد تغلّبتا عليهما.

وهكذا كان الانسان القديم في أقاليم سوريا الطبيعية أسبق من غيره في بقاع العالم الأخرى، تطوّراً من مخلوق يعيش على ما يجمعه من القوت أو ما يصطاده من الطيور والحيوانات، الى انسان ينتج طعامه ويختزنه، مما وفّر له نوعاً من الحياة المستقرة ومجالاً لجمع الثروة وزيادة عدد السكان. وعندما تحرّر عقله من اهتمامات المعيشة راح ينمّي خبراته بمغالبة عوامل الطبيعة حوله كغزارة الأمطار وفيضان الأنهار، مكتسباً مهارات جديدة في استثماره الأرض. وبدأ يفكر في استغلال ما تقدمه له الطبيعة من امكانات لتحسين ظروف حياته، وبالتالي الى الانصراف الى تنمية الفنون والشؤون الرفيعة في الحياة. فحين كان الانسان القديم مستقراً في مساحب الوديان في منطقة حوض النهرين مثلاً، استرعى انتباهه ازدياد منسوب المياه في بعض الأوقات، وتهديدها للانسان

القاطن بجوارها. ثم انحسار المياه بعد حين من الزمن، وتكرار هذه الظاهرة عاماً بعد عام. وقد عبّر أرنولد توينبي عن هذه الظاهرة بالقول إنها كانت تحدّياً للانسان الذي اضطر الى مجابهة هذا التحدي أو الردّ عليه بمحاولة التحكّم في البيئة، وهو ما يسمى بنظرية التحدي والردّ Challenge and response. وفي محاولته الرد على تحدي الطبيعة عمل جاهداً على التحكم في البيئة: ردّ المياه المتدفقة أو تحويلها بمختلف الوسائل: إنشاء السدود وإقامة الجسور وشق القنوات ورفع الحواجز وغير ذلك.

ويوم كان الانسان القديم مستقرّاً في أرض فلسطين بدأ بالسيطرة على البيئة، فقطّع الحجارة وحفر الترع ونقر الآبار الصخرية وتوصل الى الينابيع العميقة ونكش التربة وحسّن الادوات التي استخدمها. واعتمد على تفوّقه العقلي منذ عهد مبكر، في وقت لم يكن الانسان القديم في أي بيئة أخرى قد توصّل الى ما توصل إليه الانسان القديم في فلسطين. من ذلك مثلاً أن الحضارة النطوفية (نسبة الى وادي النطوف في شمال غربي القدس ـ الموقع النموذج لهذه الحضارة) بدأت مع بداية العصر الحجري الوسيط (١٢٠٠٠ ق.م.). وقد دلّت الآثار المكتشفة كالمعاول وشفرات المناجل المصنوعة من الصوّان البركاني وغيرها، على اشتغالهم بالزراعة في وقت مبكر يسبق الألف الثامن ق.م. وربما كانوا مع معاصريهم في الشمال السوري أول من مارس الزراعة في العالم. وليس لدينا أي دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر المبكر، كما يقول المؤرخون وعلماء الآثار[١٤٤].

ويرجّح علماء الآثار أن النطوفيين كانوا أول من استعمل أداة الحصاد المعقدة ـ المنجل. وقد انبعثت منهم معرفة زراعة الحنطة والشعير، ومعرفة أداة الحصاد ـ المنجل على شكل دوائر كانت تتسع شيئاً فشيئاً، فوصلت مصر وبلاد النهرين، وبلغت شواطئ البلطيق والبحر الشمالي حوالي ٢٥٠٠ ق.م.

ولعل النطوفيين، بالإضافة الى تعميمهم معرفة زراعة الحبوب وصنع المناجل واستخدامها، كانوا أول من خطا الخطوة الأولى نحو توفير البذور وخزنها وحمايتها من الحشرات والقواطع وبذرها في الوقت الملائم.

والجدير بالذكر أن زراعة العنب والتين والزيتون وغيرها من الاشجار المثمرة كانت كثيرة ومتقدمة في بلاد كنعان. ومنذ الألف الثالث ق.م. كانت

معاصر الزيتون والعنب في فلسطين مصنوعة بمنتهى الدقة والاتقان.

والخلاصة إن الانسان القديم في سوريا الطبيعية عرف في وقت مبكر جداً (الألف الثامن ق.م.) أن يستفيد من موارد الطبيعة للزراعة أو لبناء المساكن أو لصنع الأسلحة وغير ذلك من الأدوات. وهذا الالتفات الى موارد الطبيعة كان تعبيراً عن حسّ الانسان في هذه الأرض بوجوده الانساني القادر على البدء بنشاط حضاري. فعندما تمّ له الاستقرار الذي نشأ عن زراعة الأرض تحرّر من الشعور بالقلق والخوف الذي يرافق المترحّلين المشرّدين الباحثين عن طعام أو مأوى. وانفسحت له مجالات التطور، فتقدم في فنون اكتساب العيش وفي بناء المدن وفي تحصيل المعارف. وبدأ بتكوين أو وضع الأسس لحياته السياسية ـ الاجتماعية والاقتصادية. وتحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الانشاء والابداع. ونمت في وجدانه مشاعر المحبة وعواطف التضحية نحو الغير، التي تطوّرت مع الزمن الى ميول تديّن وأعراف أخلاق ونوازع نحو المطلق. وعبّر عن مشاعره وعواطفه نحو الآخرين بعلاقات اجتماعية هي في رأس كل تقدم حضاري. كما أدّى استقراره أيضاً الى تطوير العقل، والى تطوير اللغة التي وصلت الى درجة الاتقان في العصر الحجري الوسيط. وبالتالي الى تكوين معالم الحضارة الانسانية التي بلغت مرحلة من النضوج والتفوّق قبل بداية العصر التاريخي.

عنوان الثورة التكنولوجية

لم تكن المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية أقل مهارة في الصناعة منها في الزراعة. ولعل أهم الصناعات التي برع فيها الانسان القديم منذ استقر في هذه الأرض، هي صناعة الأواني الفخارية التي عرفها منذ عهد مبكر جداً قد يسبق الألف السابع ق.م. ولعلها الصناعة الأولى في التاريخ البشري. وتكمن أهميتها في تحريرها الانسان من الاعتماد على مواد الطبيعة وحدها.

عرف الكنعانيون صنع الفخار في الألف السادس ق.م. مما أحدث انقلاباً في أحوالهم المعيشية. وبدت مصنوعاتهم بأشكال متعددة وزخارف متنوعة. وقد ساعدت كثرة الأواني المكتشفة (اكتشف العلماء في جيزر مثلاً أدوات فخارية متنوعة من جرار وأكواب وصحون) وتنوّع صناعاتها وأشكالها في اعطاء المؤرخ مادة أثرية ضخمة تعينه في دراسة التطورات الصناعية في العصور المختلفة،

وبالتالي تقويم أزمنة تلك العصور.

كان لاختراع دولاب الخزاف أثر عظيم في تطور الحضارة. فنفعه لم يقتصر على تحسين صناعة الخزف، وإنما أصبح في ما بعد النموذج لصنع عجلة العربة. واختراع العجلة كان فجراً جديداً في عالم الصناعة، فقد أسفر هذا الاختراع عن إمكانات صنع آنية خزفية مستديرة، وعن صنع عربات مختلفة الأنواع تسير على عجلات، وعن تقدم في صناعة النسيج والحياكة، وفي صنع الآلات المعدنية. وكانت العجلة سبباً في إنشاء شبكات للمواصلات البعيدة براً وبحراً. والعجلات التي وصلتنا من المقابر الملكية في أور تمتاز بتصميم فنّي على شيء من الدقة والتعقيد.

وراجت صناعة النسيج في ارجاء سوريا الطبيعية (اكتشف علماء الآثار في أريحا آلة تشير الى معرفتهم صناعة النسيج منذ عصور مبكّرة). والمتأمّل لدقة أنسجتهم وزخرفتها يشهد على لباقة نسّاجها وذوقهم الفني الرفيع. وقد اشتهرت الأنسجة البابلية في جهات العالم القديم، يرغبها الملوك والأمراء. واشتهرت ايبلا بتصنيع الصوف والكتان. وكثيرة هي النصوص التي تفيد توزيع المنسوجات داخل مملكة ايبلا وخارجها مصدّرة الى المناطق التي وقعت تحت النفوذ السياسي والتجاري لمملكة ايبلا.

حقق الكنعانيون شهرة واسعة في صناعة النسيج، لا سيما نسيج الأرجوان المصبوغ باللون الأرجواني المستخرج من المرّيق (Murex). فقد كان في شواطئ صور وصيدون قدر كبير من أصداف المرّيق. كان الكنعانيون يستخرجون منه صباغاً ارجوانياً. وقد كانت عملية استخراج نقط قليلة من المحار عملية شاقة ومرهقة تتطلّب مهارة فائقة، ومهارة كذلك في استعمالها كمادة في صبغ النسيج[١٤٥]، حتى أن فئة قليلة جداً من الاغنياء كانت تستطيع أن تدفع ثمنه. ولذلك راج المثل: «ولد في الأرجوان». وقد كانت هيلانة طروادة وكليوبترا مصر وأباطرة الرومان يتفاخرون بلبس الأرجوان. والثياب الكهنوتية التي يلبسها الكرادلة الكاثوليك وبطاركة الكنائس الشرقية هي استمرار لهذا التقليد الكنعاني القديم.

عرف السوريون القدماء صناعة المعادن في وقت مبكر (الألف الخامس ق.م.) وادركوا خطورة شأنها وإمكاناتها العظيمة. وراح كل مجتمع بحسب

توفّر هذه المادة وتطوّر قدراته العقلية، يصنع منها الأدوات والآلات مستعيضاً بها عن الأدوات الحجرية البدائية التي استخدمتها الأجيال السابقة. وقد أدى اكتشاف المعدن الى حركة انقلابية أدت الى رفع الحضارة من مستوى الحجر الى المعدن. وأصبح الانسان بعد اكتشاف المعدن وادراك خواصه على عتبة عصر جديد استمر الى يومنا هذا.

يعتبر موقع تليلات الغسول (في شمال شرقي البحر الميت) أهم مراكز التعدين في العصور القديمة. وقد أصبح اسم المكان نموذجاً لحضارة الكالكوليت (العصر الحجري النحاسي ٤٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م.) في بلاد الغرب.

عرف السوريون القدماء النحاس الطري في وقت مبكّر (البرايت مثلاً يحدّد ظهور النحاس في فلسطين حوالي ٤٥٠٠ ق.م.). وضربوا بسهم وافر في التعدين وصناعة النحاس والبرونز والفولاذ. واهتدوا الى الجمع بين النحاس والقصدير. فقد جعل الأموريون مثلاً رؤوس حرابهم النحاسية وخناجرهم وسكاكينهم أكثر صلابة بواسطة التطريق ثم بالمزج مع القصدير. وأقدم الخناجر البرونزية في فلسطين يعود الى ٢٥٠٠ ق.م. وقد ظهر تحليل العلماء لفأس يرجع تاريخها الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، أن السوريين القدماء كانوا يعرفون مزج الحديد مع عناصر أخرى لتكوين الفولاذ. واكتشف علماء الآثار في جبعة (في فلسطين) محاريث ومناجل حديدية تعود الى الألف الثالث ق.م. وكان استعمال البرونز شائعاً في المدن الكنعانية في الألف الثالث ق.م. أيضاً مما يدل على مدى سيطرة الكنعاني على بيئته. وكانوا السبّاقين في صناعة التعدين الى انتاج الاسلحة وأدوات الزينة. وكان بينهم صنّاع مهرة طرقوا النحاس وصبّوه في قوالب وأشكال. كما صنعوا تماثيل لمعبوداتهم.

يتحدث هوميروس كثيراً في الالياذة عن الشهرة التي كانت لمصنوعات صيدون، لروعة صنعتها وفخامة اتقانها، فيذكر مثلاً «الثياب التي صنعتها النساء الصيدونيات باتقان بالغ». وفي الملحمة وصف لكأس من مصنوعات صيدون جاء فيه «كأس مزيج من الفضة صنعها باتقان الصيدونيون الماهرون يتجسّد فيها الفن وتفوق لروعتها جميع آنية الأرض»[١٤٦].

وحوالي القرن التاسع ق.م. استعمل الاشوريون خاتماً لمهر سبائك الفضة. وكان لمهر القطع ذوات الأوزان الموحّدة أثر كبير في تسهيل التجارة،

الى أن تمّ ابتداع العملة المعدنية حوالي القرن الثامن ق.م.

ويكفي للدلالة على مهارتهم الصناعية أن تستشهد ببعض ما عثر عليه المنقبون في قبورهم، خاصة الملكية، من تحف فنية تشهد على تقدمهم الرائع في حقل الصناعات اليدوية، ولا سيما الحفر في الأبنوس، وأنواع المعادن المختلفة، التي تعود الى نهاية الألف الرابع ق.م. وقد استدل العلماء من دراستها على أن صنّاعها كانوا يعرفون عمليات خلط المعادن ولحامها وصقلها وطرقها وترصيعها. ففي مقابر أور الملكية مثلاً، التي يرجع تاريخها الى ٤٠٠٠ سنة ق.م. عثر المنقبون على أوان من الذهب تنم عن ذوق فني رفيع في الصنع والصقل.

وباختصار، اذا كان تدجين النباتات والحيوانات قد أصبح لحمة الحياة البشرية وسداها في العصور القديمة، فإن اختراع التعدين هو عنوان الروعة التكنولوجية للانسان. وقد كان له آثار قوية على أحوال الانسان الاقتصادية والاجتماعية، وعلى التفاعل بين الانسان وبين المحيط الحيوي ـ المكان الوحيد الصالح لعيشه.

توسيع وتمديد لمساحة العالم

ازدهرت التجارة في أقاليم سوريا الطبيعية على اختلافها، خاصة في بابل، نظراً لافتقار الاقليم الى المواد الخام اللازمة للحضارات الناضجة، كالأحجار يرفع بها البابلي أعمدة للهياكل والقصور، والصخور الديورية والرخام ينحتها تماثيل للمعبودات والملوك، والأحجار الكريمة يصنع منها الأختام، والأخشاب، خاصة أخشاب الأرز، والحديد والنحاس والذهب يصنع منها أدواته وأسلحته وحليّه. وتتجلّى آثار المهارة التجارية البابلية في ما وصلنا من آلاف الالواح المدوّن عليها المعاملات التجارية المتنوعة. والكثير منها وثائق وعقود تشهد على التقدم العظيم في الحياة التجارية، وعلى النشاط الجم فيها. كما تشهد على النظام القانوني الدقيق الذي كان ينظم المعاملات. وقد عثر المنقبون في أماكن متفرقة من بلاد النهرين على أختام يستدل منها على ازدهار العلاقات التجارية بين بابل وبين كل من مصر والهند[١٤٧]. ومن الطبيعي أن ازدهار التجارة البابلية ترك تأثيره البالغ على تطور الحضارة.

وقد تضمّنت الألواح المكتشفة في ايبلا عدداً كبيراً من النصوص التي تشير الى علاقات المملكة التجارية الناشطة مع كثير من مدن الشرق المتوسطي. ويعتبر هذا النشاط التجاري دلالة واضحة على ما بلغته البلاد عهدئذ من الازدهار.

وفي الشاطئ السوري تحرّر الكنعانيون في وقت مبكر من تاريخ الحضارة، قياساً الى غيرهم من أقوام الأرض، من قوى الطبيعة ورعب الغيب. والتاريخ الحضاري يشهد بأن هذا التحرر هو الشرط الضروري والقاعدة الأولى لانطلاقة أي شعب في طريقه لتذليل مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها. والواقع أن شعورهم بالسيادة على الطبيعة جعلهم يستخفون بالمجهول ويغامرون في البحار البعيدة، فكانوا بحارة ذوي مهارة فائقة، رصدوا المظاهر الفلكية وراقبوا نظام الرياح وفحصوا التيارات البحرية. ومن الممكن اعتبارهم في علمهم بشكل الأرض وطرق البحار ومهاب الرياح وفن الملاحة والاهتداء بالنجوم في عصرهم (الألف الثاني ق.م.) أوسع تبسّطاً وأكثر مراساً وأوفر جناناً في وجه العواصف من أهل القرن الخامس عشر ب.م.

وكان لهم خبرة هندسية عظيمة في صناعة السفن، فقد ابتكروا السفن ذوات الطبقات المتعددة المجاذيف، وطوّروا مقدمات السفن لشق الأمواج. وهذا الاختراع أو التطور العظيم الذي وصلوا إليه يدل على تقدمهم في التقنية، إذ يتطلّب الانضباط في الحركة والتوقف، وهو ما يعادل بتقنيته الاختراعات التقنية المعاصرة(١٤٨).

تميّز الكنعانيون بالنشاط التجاري داخلياً وخارجياً، مما دفع بالقوم الى تنظيم قوافل التجارة وشق الطرق ومدّ الجسور وبناء السفن وانشاء المستعمرات وتنظيمها، والى وضع الأسس والقواعد واصدار التعليمات والقوانين الضرورية لضبط شؤونها.

يُضاف الى ذلك أنهم عرفوا بصبرهم ودبلوماسيتهم الحكيمة اللبقة، وسهولة انسجامهم مع كل العقليات والشعوب والمدنيات. وقد أولعوا بحب المعرفة واكتشاف المجهول، فالفوا المخاطر تنقلهم سفنهم الى العوالم الجديدة وتأتيهم بالمعادن الثمينة التي كانت محط انظارهم. فمن مملكة أوغاريت الكنعانية جرى الاتصال بأجزاء العالم القديم: بلاد النهرين والأناضول وحوض

المتوسط الغربي ومصر. وجرى التبادل سلعاً وفكراً ودبلوماسية. ومن جبيل التي كانت مركزاً تجارياً واقتصادياً عالمياً، كانت السفن الكنعانية تمخر عباب البحر حاملة معادن طوروس وأخشاب لبنان وصناعات مدن الساحل الزجاجية والفخارية وأرجوانها وصباغها وآنيتها ومجوهراتها، ومنذ الألف الثاني ق.م. كانت صور وصيدون أغنى مدينتين في العالم، أنشأت تجارتهما شبكة عالمية جعلت منهما محور الحركة الاقتصادية العالمية. وقد بسط الصوريون سلطانهم على قبرص وصقلية وكريت ومالطة، وأسّسوا المراكز التجارية في هذه الجزر من مثل ميناء فينكس في جزيرة كريت (القرية)، ومدينة كيتيوم Kitiom أو سيتيوم Citium التي أسسها الصيدونيون في قبرص. ويبدو أن هذه المدينة بلغت من الشهرة حداً جعل كتّاب التوراة (العهد القديم) يطلقون اسمها على الجزيرة بأكملها (chethim أو Kittim) من باب اطلاق اسم الجزء على الكل. ثم توغلت أساطيلهم التجارية في الجانب الغربي من المتوسط الذي كانوا يعتبرونه بحيرة كنعانية برؤوسه وخلجانه وشطآنه جميعها، لا ينازعهم فيه منازع.

لقد صيّر الكنعانيون البحر من أول نشاط انساني فيه، بحيرة كنعانية. وكانت جزره في نظر الملاحين الكنعانيين مراكز تأهّب ومنازل استجماع للقوى التي ستنطلق الى مرتميات الرحلات البعيدة. ومنذ الألف الثاني ق.م. أخذ الكنعانيون يستقرون في نقاط كثيرة من الساحل المتوسطي ليضمنوا لتجارتهم منافذ جديدة. وبفضل دأبهم وذكائهم وحسن معرفتهم للطرق البحرية. ولاستقامتهم ومرونتهم في التعامل التجاري، تمكنوا من أن يصمدوا في وجه المخاطر، وأن يوفّروا لتجارتهم الأسواق البعيدة التي لم يبلغها أحد سواهم. وهكذا وسّعوا حدود العالم المعروف يومئذ، وتجاوزوا الشواطئ المتوسطية ليستقروا على تخوم العالم الغربي. وكانت علاقاتهم مع الشعوب التي عرفوها أو احتكوا بها علاقات مسالمة رغم الاختلاف في اللغة والتباين في العادات والتقاليد.

كانت التجارة الكنعانية مع اليونان في غاية النشاط والازدهار. وكان اليونانيون يعجبون بالأثاث الكنعاني المطعّم بالعاج. ويؤخذون بالصحون البرونزية أو الفضية المزينة بالنقوش والرسوم، ويتباهون بالألبسة الكنعانية المصنوعة من الصوف أو الكتان. ولا يزال اللفظ الآرامي «كتان» في اليونانية

Kiton. وهو اللفظ عينه في أخوات الأرامية: الأشورية والكنعانية والعربية. وفي هذه المناسبة نذكر من بين الألفاظ اليونانية المأخوذة عن الكنعانية مثلاً لفظ «ذهب»، فهو في الكنعانية «خ ر و ص»، وفي الأشورية «خ و ر ا ش»، وفي اليونانية Krysos.

كان اليونانيون يستوردون من المدن الكنعانية الساحلية الأقمشة المصبوغة بالأرجوان. وقد احتكر الكنعانيون صناعة الصبغة الأرجوانية التي استخرجوا مادتها من حيوان بحري رخوي يكثر بالقرب من شواطئهم[١٤٩]. وقد اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الجميلة الزاهية التي كنّ يصبغن بها ما برعن في تطريزه من الأقمشة. وكان التجار الكنعانيون ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذي يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى من حبوب وخمور ومنسوجات وحجارة كريمة، الى موانئ البحر الأبيض المتوسط. وكانت سفنهم تعود مثقلة بالرصاص والذهب من شواطئ البحر الأسود الجنوبية. وبالنحاس وخشب السرو والغلال من قبرص. وبالعاج من افريقيا. والقصدير من بريطانيا.

والطريف أن سفن الكنعانيين كانت تطوف في المتوسط وعلى صواريها تخفق أشرعة صبغ قماشها باللون الأرجواني. وحين كانت الواحدة من هذه السفن تطلّ على الشواطئ الاغريقية كان الأغارقة يتراكضون هاتفين: فينيكس، فينيكس.. (أحمر، أحمر).

فـ «فينيقيا» صفة في اللغة الاغريقية تعني «أحمر». وقد اطلق قدامى الاغريق هذه الصفة على السفن والملاحين والتجار القادمين إليهم من الساحل الكنعاني. وشاعت الكلمة في تلك البلاد حتى صارت السفن الكنعانية ومن فيها لا تعرف إلاّ بالصفة «فينيقيا». فالمصطلح (الفينيقيون) يعود الى اليونانيين، وهو مشتق من اللفظ الاغريقي Phoinix الذي يعني الأرجوان.

والملاحظ أن استعمال اللقب اقتصر على الغربيين. أما الكنعانيون أنفسهم فقد اتخذوا اسم «كنعان» لوطنهم. ويبدو أن لفظ «كنعان» مشتق من كنع Kn' الذي يعني الأرجوان أيضاً، بالاستناد الى النصوص التي اكتشفت في نوزي Nuzi (في القسم العلوي من الجزيرة السورية) إذ ورد فيها لفظ Ki-naḫ-ḫu الذي يعني الأرجوان[١٥٠].

دار الكنعانيون حول الساحل الافريقي الغربي حتى وصلوا الى سيراليون.

واكتشفوا جزر الكناري، كما اكتشفوا رأس الرجاء الصالح قبل أن يكتشفه فاسكودي غاما بنحو ألفي عام. وفي ذلك يقول هيرودتس «ولما أقبل الخريف نزلوا الى البر، وزرعوا الأرض وانتظروا الحصاد، وعندما حصدوا الحب أقلعوا بسفائنهم مرة أخرى. وفي السنة الثالثة من تجوالهم في البحر وصلوا الى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقل»(١٥١) ـ (جبل طارق). ويقول المؤرخ الايطالي موسكاتي «ولعل أطول رحلة بحرية قام بها البحارة الكنعانيون كانت الدوران حول القارة الافريقية حوالي ٦٠٠ ق.م. فقد انطلقوا من البحر الأحمر باتجاه الغرب. وما يثبت صحة هذه الرواية أن الشمس كانت على يمين الملاحين عندما اجتازوا ليبيا»(١٥٢). وابحروا شمالاً حتى وصلوا الى القنال الانجليزي، فحوالي ٤٥٠ ق.م. مثلاً انطلق حميلكو من قرطاجة، فأبحر حول اسبانيا حتى وصل الى الجزر البريطانية.

وكانوا في تجوالهم ينشئون محطات تجارية أصبح بعضها مدناً عظيمة. ويساهمون في تنمية الحضارة في المناطق التي يصلون إليها. وفي أواخر القرن الحادي عشر ق.م. كان للكنعانيين عشرات المدن والمراكز التجارية على شواطئ المتوسط الجنوبية(١٥٣). وكان لهم في مصر مراس عدة. وقد أشار هيرودتس الى وجود حي في مدينة ممفيس طبعه الصوريون باسمهم هو «الميدان الصوري»(١٥٤). أما مرتكزهم على شاطئ المتوسط الجنوبي فكان مدينة قرطاجة، ربيبة صور ومنافسة روما في السيطرة على المتوسط، والتي ظلت أعظم مدن العالم ردحاً من الزمن(١٥٥).

ويبدو أن العتيقة Al'atiqa (Utica) هي أقدم مستعمرة كنعانية في شمال افريقيا. وحين وضعوا أسس المستعمرة الثانية اطلقوا عليها اسم «القرية الحديثة» Qart-hadašt ـ (قرطاجة) تمييزاً لها عن الأولى «العتيقة».

وكان لهم في اسبانيا الجنوبية وفي الجزر المتوسطية وعلى الشواطئ الايطالية عشرات المدن والمراكز التجارية أيضاً، منها مثلاً ترشيش وقادش في اسبانيا، وطرسوس وكورنثوس في اليونان، ومرسيليا في فرنسا.

وهكذا نرى أن الملاحة الكنعانية التي نجمت عن شروط جغرافية وتاريخية ـ سياسية، حتّمت على الكنعانيين التوسع عبر المتوسط، وتأسيس سلسلة من المراسي أو محطات النزول أو المراكز التجارية، تفصل في ما بينها مسافات

منتظمة لتكون مراسي تناسب أسفارهم الطويلة، مثل قرطاجة، نورا، بيثيا، موتيا، قادش، وموغادور[١٥٦].

المهم أن ما وصلنا من شهادات كثيرة من المؤرخين الكلاسيكيين يؤكد على المدى الحضاري الواسع الذي بلغه الكنعانيون في تلك العصور المبكرة من تاريخ الحضارة الانسانية. ديودورس الصقلي مثلاً يقول «كان نجاحهم عظيماً. وقد دفعتهم التجارة التي ملكوا زمامها في العالم القديم، الى اقامة المستعمرات في صقلية وفي ما جاورها من الجزر، وفي ليبيا وسردينيا وايبريا»[١٥٧]. أما المؤرخ الاغريقي سترابو فقد شهد لمستعمرات صور الكثيرة، فكتب يقارنها بصيدون قائلاً «لئن كان اسم صيدون قد ورد كثيراً على ألسنة الشعراء، فهوميروس مثلاً لم يذكر صور، فإن لصور من المستعمرات المنتشرة في ليبيا (افريقيا) وفي ايبريا وبعد أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، ما يجعل لاسمها مجداً أكثر من جميع أشعار العالم». ويؤكد سترابو في بحثه أن الكنعانيين كانوا قد سيطروا على ايبريا وليبيا واسبانيا قبل زمن هوميروس وحرب طروادة. ويقول عن قادش «إن الجزيرة غدت الأكثر شهرة بين الجزر جميعها رغم أنها واقعة في نهاية الأرض»[١٥٨].

ومن المؤرخين المحدثين ول ديورانت الذي يقول «لقد أقام الكنعانيون حاميات لهم في نقاط منيعة على ساحل البحر المتوسط، ظلت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، في قادش وقرطاجة ومرسيليا ومالطة وصقلية وسردينيا وكورسيكا، وفي انجلترا البعيدة أيضاً. واحتلوا قبرص وميلوس ورودس. ونقلوا الفنون والعلوم من مصر وكريت والشرق المتوسطي ونشروها في اليونان وفي افريقيا وايطاليا واسبانيا. وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية. وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية»[١٥٩].

اجتاز الكنعانيون بمراكبهم أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، وأقاموا مستعمرات على شاطئ الأطلسي مثل قادش وليكسوس Lixus وبذلك شقوا الحجب التي كانت تفصل بين العالم القديم المعروف وبين العالم المجهول وراء البحار. ولا مراء بأن اكتشاف المحيط الأطلسي يعدّ انتصاراً من أعظم الانتصارات وأبعدها أثراً في تطور الحضارة. يقول المؤرخ جاك بيرن «لقد كان اكتشاف أميركا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بداية عصر جديد في

تاريخ أوروبا. وقبله كان اكتشاف الكنعانيين للغرب في القرن الحادي عشر ق.م. بداية عصر جديد في تاريخ العالم»[١٦٠]. ويقول ديودور الصقلي (القرن الأول ق.م.) «إن الفينيقيين الدائبين من قديم الدهر على خوض البحار استقرت جاليات منهم على شواطئ ليبيا (افريقيا) وغرب أوروبا، فأحرزوا مكاسب طائلة وثروات واسعة شدّدت عزائمهم على طلب المزيد، وسوّلت لهم الابعاد بمراكبهم عن أعمدة هرقل، والضرب في عرض هذا البحر المحيط المسمى أوقيانوس. إلاّ أنهم قبل التورّط في مهالكه ومغوياته أنشأوا لهم في قارة أوروبا مدينة سموها قادش على شبه جزيرة قريبة من أعمدة هرقل. وأقاموا لهرقل هيكلاً عظيماً كانوا يتقرّبون إليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين. وما زال هذا الهيكل الى عهدنا اليوم قبلة المصلّين والمتعبّدين، يؤمه الكثير من أعيان الرومان يرفعون إليه ادعيتهم ويحملون إليه نذورهم.

ويضيف ديودور الصقلي «واتفق لجماعة من الفينيقيين المقيمين في هذا البلد أنهم ركبوا البحر يتفقّدون سواحل ليبيا بعيداً عن أعمدة هرقل، إذ هبت عليهم ريح عاصفة شديدة لم يملكوا معها أمرهم، وقذفت بهم الى أقصى المحيط. وبعدما لبثوا أياماً منقادين لسلطان العاصفة اذا بهم عند ساحل جزيرة مترامية الأطراف في عرض الأوقيانوس وقد بقي سرّ هذه الجزيرة العظيمة أو «الأرض الجديدة» مكتوماً في صدورهم وضاع بضياع ملكهم وزوال سلطانهم»[١٦١].

ويعكس الأدب اليوناني القديم صورة مشرقة عن مهارة الفينيقيين (الكنعانيين) في مختلف شؤون الحياة. فهوميروس مثلاً يتحدث عن محبتهم للتجارة واتقانهم لأصولها. ويشير الى رحلة حنون وراء أعمدة هرقل وطوافه حول افريقيا ووصوله مع بحارته الى جزر التنك (بريطانيا) والى غيرها. ويتحدث المؤرخ جان مازل عن أمير البحر القرطاجي (حنّون) الذي خرج من قرطاجة في الربع الأول من القرن الخامس ق.م. على رأس أسطول كبير، ينير بمصابيح سفنه ظلمات البحر ومجاهله[١٦٢]. والمؤسف أن تفاصيل تلك الرحلات وأهدافها كانت تعتبر سراً، وأن ما جاءنا عنها جاء كله نقلاً عن اليونان بعد أن محا الحقد الأوروبي مدينة قرطاجة من على وجه الأرض محواً تاماً.

ويروي هيرودتس عن التجار القرطاجيين خبراً طريفاً مفاده أنهم كانوا

برحلاتهم التجارية يجتازون أعمدة هرقليس الى بلاد آهلة بالسكان، فإذا ما بلغوها أخرجوا من مراكبهم ما حملوه من السلع وصفّوه على طول الشاطئ ثم عادوا الى مراكبهم يوقدون النار. فإذا ما سطع دخانها ورآه أهل تلك البلاد أقبلوا بما معهم من التبر فوضعوا منه الى جانب السلع ما يحسبونه وافياً بثمنها ثم يبتعدون. وعندما ينحدر القرطاجيون ثانية ينظرون الى مقدار التبر الذي وضعه أهالي البلاد لهم. فإذا وجدوه موازياً لقيمة بضائعهم أخذوه وانصرفوا، وإلاّ عادوا الى المراكب يرقبون الزيادة. فيقبل الأهالي ثانية ويزيدون، ولا يزال ذلك دأبهم الى أن يرتضي الفريقان. فلا القرطاجيون يمسّون الذهب قبل أن يعدل سلعهم، ولا الأهالي يرفعون السلع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب(١٦٣).

والواقع أن فضل الكنعانيين الأكبر على شعوب حوض المتوسط القديمة هو في فتحهم أبواب هذا البحر على المحيط الأطلنطيكي. وقد كان اكتشاف الكنعانيين للاطلنطيكي ودخولهم «بحر الظلمات» لأول مرّة في التاريخ، توسيعاً وتمديداً لمساحة العالم، ظهرت نتائجهما بعد قرون وقرون في اكتشاف كولومبس لأميركا»(١٦٤).

والجدير بالذكر أن التجارة الكنعانية ظلت الى وقت متأخر (القرن السادس ق.م.) في ازدهار عارم وعلى نشاط جمّ استأثر بإعجاب أنبياء بني اسرائيل، فراحوا يصفون تلك التجارة وصفاً مسهباً رائعاً على الرغم من كل ما يكنّونه من حقد دفين وكراهية عمياء لكل ما هو كنعاني. فيشير زكريا مثلاً الى صور التي «بنت حصناً لنفسها، وكوّمت الفضة كالتراب، والذهب كطين الأسواق ٩ : ٣». ويشير أشعيا الى صور «التي منذ الأيام القديمة قدمها. صور المتوّجة، التي تجارها رؤساء ومتكسّبوها كرام الأرض ٢٣ : ٧». ويتحدث حزقيال ٢٧ عن صور «تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة. تخومك في قلب البحور. بناؤوك تمّموا جمالك. عملوا كل ألواحك من سرو سنير. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوا لك سواري. صنعوا من بلّوط باشان مجاذيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم في البقس من جزائر كتّيم. كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الأسمانجوني والأرجوان من جزائر اليشة كانا غطاءك. أهل صيدون وأرواد كانوا ملاّحيك. حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك. شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلاّفوك. جميع سفن البحر وملاّحوها كانوا فيك ليتاجروا

بتجارتك.. ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ياوان وتوبال وماشك هم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك.. بنو ددان تجارك. جزائر كثيرة تجار يدك. أدّوا هديّتك قروناً من العاج والأبنوس. أرام تاجرتك بكثرة صنائعك. تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرّز والبوص والمرجان والياقوت... دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك... وددان وياوان قدّموا غزلاً في أسواقك. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك. تجار شبا ورعمة هم تجارك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك. حرّان وكنّة وعدن تجار شبا وأشور وكلمد تجارك. سفن ترشيش قوافلك لتجارتك، فامتلأت وتمجّدت جداً في قلب البحار.. عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين. بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض».

وبعد، أعتقد أن الذي يُشبع الشعوب ويُغني الملوك هو صاحب رسالة انسانية أخلاقية حضارية. للعطاء مفهوم أخلاقي من حيث هو فعل محبة، ومفهوم انساني من حيث هو تعاون، ومفهوم حضاري من حيث هو تفوّق. المتفوّق وحده يعطي ويعرف أنه يعطي، وقد كان عطاء الكنعانيين كبيراً وشاملاً.

النهضة العمرانية

بدأ البابلي القديم عملية البناء بالتعرّف الى أهمية الطين كمادة يمكن تشكيلها على هيئة كتل طينية متراصة تكون حائطاً وبالتالي منزلاً. وهكذا كان الطين المجفّف بفعل حرارة الشمس حقيقة عظيمة الأهمية في حياة البابليين. ويعتبر هذا الانجاز استغلالاً ناجحاً للبيئة. وحين اهتدوا الى صناعة الآجر توسّعوا في عمليات البناء به نظراً لقلة الاحجار في بيئتهم[١٦٥].

ويبدو أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية أتقن منذ الألف الثامن ق.م. عملية بناء الجدران المستقيمة التي تلتقي بعضها مع بعض بزوايا قائمة. وعمل على تسليح الجدار الطيني بالخشب. ولعل أهم الاكتشافات التي تلفت الانتباه هو أن سكان فلسطين القدماء توصّلوا في العصر النطوفي (الألف الثامن ق.م.) الى بناء المساكن منذ فجر ذلك العصر. بنوا مساكنهم بالحجر وبلّطوها بالحجر. كما استعملوا وسائل دفن متقدمة في أماكن مخصّصة لذلك. وقد عثر جان

بيرو[١٦٦] عام ١٩٥٦ على آثار مثل هذه المساكن في حفريات قرب بحيرة الحولة. كما عثرت المنقّبة كاثلين كينيون تحت الطبقة النيوليتية في أريحا على آثار مماثلة[١٦٧]. واكتشف علماء الآثار في مجدو وأريحا وعاي ولخيش وبيت شان وشكيم. بقايا منازل ومعابد ومصانع وشوارع ومجار للمياه[١٦٨]. وقد حدّد الاشعاع الكربوني لهذه المكتشفات تاريخاً قدّر بحوالي ٨٠٠٠ سنة ق.م.

وفي فلسطين أيضاً تمّ تدعيم المنازل بأعمدة من الحجارة أو الخشب منذ العصر النطوفي (٨٥٠٠ ق.م.) وعمل الكنعانيون على اكساء الجدران بطبقة من الطين، وعلى فرش أرضية المسكن بالحجارة والطين. وتدل الآثار المكتشفة على ما كان لهم من نظام واسع للمجاري وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة في المدن. وعلى ما أقاموه من مرافق ثابتة خارج نطاق المساكن مثل المواقد المحفورة والأحواض المنقورة في الصخور.

وفي الألف السادس ق.م. تطور فن العمارة في مختلف أقاليم سوريا الطبيعية تطوراً كبيراً، باستخدام الأحجار من مختلف الأنواع والأحجام. وهذه الصناعة احتاجت الى عدد كبير من العمال الاخصائيين لتعدّد أنواعها وطرق صناعتها. واحتاجت أيضاً الى عمليات تنظيمية هامة لاستغلال المحاجر ونقل الأحجار. ورافق فن العمارة تطوّر مهم تمثّل في ظهور الأبنية الكبيرة والواسعة، وفي الباحات التي تتقدم البيوت.

كان الكنعانيون ماهرين في قطع الحجارة الضخمة، وفي تشييد القصور والمعابد والحصون. ويعتقد علماء الآثار أن مباني جبيل التي ترجع الى أكثر من ستة آلاف سنة ق.م. تعتبر أقدم أبنية حجرية في العالم[١٦٩]. وقد توصّل الانسان القديم في الجنوب السوري الى بناء المساكن بالحجر منذ الألف الثامن ق.م. ومن أكمل وأجمل ما تركه لنا الانسان المتفوّق في سوريا الجنوبية مدينة أريحا بطابعها العمراني المتقدم. فلقد أثبتت الحفريات الآثارية أن أريحا كانت منذ الألف السابع ق.م. مدينة جيدة البناء ومحاطة بأسوار حجرية[١٧٠] بسماكة ثلاثة أمتار وبارتفاع يزيد على أربعة، تدل على القوى البشرية الضخمة التي أقامتها، وعلى السلطة المركزية المتطورة القادرة على القيام بهذا العمل وتنظيمه. بالاضافة الى خندق يحفظ المياه حول السور. والانجازان يشهدان على ما توصّل إليه الكنعانيون من تنظيم اجتماعي واداري. وأظهرت الحفريات أيضاً آثار

برج ضخم مستدير يصعد من جوفه درج متقن الصنعة يدل على رقي واسع في الفن المعماري.

كانت مدن الكنعانيين حصينة ومحاطة بالأسوار بشكل عام. فقد شيّد اليبوسيون مثلاً حصناً عظيماً حول أورشليم، اكتشفت عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينيون عام ١٩٦١ بقاياه بحذاء السفح الشرقي لجبل القدس، واكتشفت أيضاً بوابة له بالقرب من عين جيحون. وفي أورشليم أيضاً اكتشف المهندس البريطاني تشارلز وارين عام ١٨٦٧ سرداباً يبدأ عند فتحة في الصخر داخل المدينة، ويهبط بميل معيّن مسافة ما ثم ينزل بزاوية عمودية للوصول الى المياه التي تنقل عن طريق سرداب أفقي آخر من عين جيحون[١٧١]. وفي مدينة جازر (في الجنوب السوري أيضاً) عثر المنقبون على بقايا سور قطعت حجارته بأدوات حادة وهذّبت قليلاً. وكان للسور أبراج يبلغ ارتفاع الواحد منها اثني عشر قدماً.

واللافت في مدن الكنعانيين هو المباني المؤلفة من أكثر من طبقة. يقول سترابو «كانت البيوت في صور وفي ارواد تتألف من عدة طوابق. وكانت بيوت صور أعلى من بيوت روما. وقد انتقل هذا الطراز من المباني الى أوروبا عن طريق قرطاجة التي كانت البيوت فيها لا تقل عن ست طبقات[١٧٢].

وأنشأ الكنعانيون القلاع وما يرافقها من تحصينات دفاعية ومشاريع هندسية لدرء الخطر في وقت الحصار. ومن بقايا تلك المشاريع التي لا تزال آثارها ماثلة للعيان، النفق الطويل (٢١٩ قدماً) في بلدة جازر (الواقعة على بعد ٣٥ كم الى الشمال الغربي من أورشليم) للوصول الى نبع ماء على عمق حوالي مائة قدم، يهبط إليه الانسان بواسطة مدرّج مكون من ٨٠ درجة. وأنشأ الكنعانيون مشروعاً آخر من هذا القبيل في أورشليم.

كان المهندسون الكنعانيون يتمتعون بمهارة فنية عالية في بناء السدود والجسور، وما بقايا السدود في ارواد وصور وصيدون إلاّ دليل واضح على مآثر الكنعانيين العمرانية. وقد أنشأوا المرافئ الكثيرة في موطنهم (ساحل المتوسط الشرقي) وفي المستعمرات الكثيرة التي أقاموها في جزر المتوسط وعلى سواحله.

وكان لدى الكنعانيين خبرة هندسية عظيمة في صناعة السفن. وقد أشار هيرودتس الى هذه البراعة وما تمتاز به من تقنية ودقة ملاحظة. فالتقنية مثلاً

تجلت في صنع مقدمات السفن لشق الأمواج والثبات فوق السفينة أثناء العواصف العاتية في عرض المحيطات. وفي ابتكار طبقات متعددة للمجاذيف في السفينة. وكان الكنعانيون أبرز من استخدم طاقة الرياح في الأسفار البعيدة.

وفي سوريا الشرقية شيّد البابليون معابدهم بحجارة مستوردة من الأقطار النائية. وأقاموها على تلال عملاقية مصطنعة من الآجر تعرف بالزقورات (مفردها زقورة Ziqqurat أي القمة المرتفعة). وهي تشبه البرج. وتتألف غالباً من سبع طبقات تؤلف شكلاً هرمياً متدرج الجوانب. فكأنها سلالم ترتفع في وحدة قائمة. والطبقات مزيّنة بالتماثيل والمنحوتات. وهذه الهياكل العظيمة المشيّدة على جبال عملاقية مصطنعة تشهد على ما وصلت إليه شعوب حوض النهرين في وقت مبكر من تاريخ الحضارة، من تنظيم معقّد وادارة دقيقة ومعرفة هندسية هائلة.

وقد ابتدع الانسان القديم في سوريا الطبيعية الأشكال الأولى للقباب والعقود والأعمدة في تشييد المنازل والمعابد. فكانت المداخل المعقودة مألوفة في أور منذ أواسط الألف الرابع ق.م.[١٧٣]. وعثر المنقبون على مجرى مائي معقود في أطلال نيبّور يعود تاريخه الى الألف الثالث ق.م. وكانت العقود والقباب والأعمدة معروفة في هياكل وقصور أوغاريت وجبيل وأريحا وغيرها من الحواضر الكنعانية، قبل هذا التاريخ بوقت طويل. وكان في صيدون وصور مثلاً كثير من المعابد العظيمة والهياكل الضخمة. وقد أشار هيرودتس الى معبد ملكارت في صور، ولم يتمالك دهشته أمام عمودين قائمين على مدخله، الأول من الذهب الخالص والثاني من الزمرد[١٧٤].

وأنشأ البابليون نظاماً واسعاً للمجاري وتصريف الفضلات من الاحياء المأهولة في المدن[١٧٥]. كما أن الكنعانيين أنشأوا في بيوتهم مصارف للمياه، وهذا شيء فريد في ذلك الزمن البعيد[١٧٦].

يُضاف الى ذلك أن المنقبين كشفوا عن كثير من مخططات المدن العامة وتنظيماتها المعمارية، منها مثلاً مخطط قديم لمدينة نيبّور عثر عليه المنقبون منقوشاً على رقيم طيني يعتبر أقدم رسم تنظيمي لمدينة في العالم[١٧٧].

ورغم أن ماضي هذه الأرض لا يزال سجيناً تحت أنقاض التراب. ورغم قسوة عوامل الطبيعة وبربرية الانسان اللتين أضاعتا معالم العمران التي أنجزها

الانسان القديم في سوريا الطبيعية، فإن بعضاً من المظاهر المعمارية الضخمة التي خلّفتها مدنيات سوريا الطبيعية، لا يزال واضحاً للعيان حتى الوقت الحاضر. أوغاريت مثلاً في الساحل السوري، وماري في الشمال السوري التي تكشفت عن ثروة آثارية مذهلة: المنحوتات والرسوم الجدارية والمكتبة الملكية التي كانت تضم عشرات الآلاف من الألواح الكتابية في مختلف فنون الأدب والعلوم والمعارف الانسانية. أما قصر ماري فيعتبر درة العمارة الشرقية القديمة، تبلغ مساحته هكتارين ونصف الهكتار، ويضم حوالي ٣٠٠ غرفة وباحة. ومن هنا نفهم دوافع ملك أوغاريت الذي أرسل ابنه الى ماري ليأخذ فكرة عن القصر وينقل الى والده صورة عنه.

والخلاصة إن الآثار المكتشفة في مناثر سوريا الطبيعية تدل على وجود نهضة عمرانية منذ ما قبل الألف الرابع ق.م. تشمل هندسة المدن واقامة الهياكل وتشييد القصور وشق الأقنية ورفع السدود. هذه المنشآت العمرانية وأمثالها تدل على هندسة هائلة وتنظيم معقّد وادارة دقيقة في المجتمعات التي اقامتها[١٧٨].

(أشرنا الى الوجوه الحضارية الأخرى، كالانظمة الاجتماعية، والمدارس، والعلوم، والفنون، واللغة، والكتابة، والتراث، في مؤلفينا السابقين «تاريخ الله» و «محمد واليهودية»).

اسرائيل في التوراة

عرفنا أن تاريخ بني اسرائيل ـ التوراة (العهد القديم) هو المصدر الوحيد الذي يستمد منه الصهيونيون مزاعمهم، وإليه يستندون في دعاوتهم. وهو الوثيقة الوحيدة، أكرّر الوثيقة الوحيدة، التي يبرّرون بها عمليات السطو والاستيلاء على أرض فلسطين. ومن هذا المنطلق وضعنا للفصل عنوان «اسرائيل في التوراة»، ولم نضع «اسرائيل في التاريخ»، كما فعلنا في الفصل السابق ـ «فلسطين في التاريخ»، لأننا لا نجد ذكراً لاسرائيل ومملكتها وملوكها وأنبيائها و. . في غير كتاب التوراة. أما المصادر التاريخية المعروفة، والمكتشفات الآثارية، والنصوص والنقوش التي أنارتنا بها منائر الأرض التي تحرك فيها بنو اسرائيل أو استوطنوا بعض نواحيها، فتخلو من أي اشارة الى بني اسرائيل وأنبيائهم وملوكهم وحضارتهم و. .

وفي المقابل وضعنا للفصل السابق عنوان «فلسطين في التاريخ»، لأن فلسطين كانت مهداً لحضارة الانسان العاقل منذ عصور ما قبل التاريخ. وكانت في العصور التاريخية مركزاً هاماً من مراكز الحضارة الانسانية. ولذلك يتجه مؤرخو الحضارات الغربيون الى منائرها الحضارية المكتشفة كأورشليم وأريحا وجيزر وغزة واشقلون وعقرون ومجدّو وغيرها لبحث أصول هذه الحضارة، كما يقول البرايت.

وقلنا إن أول ما عني به اليهود من أسباب نشر دعاوتهم في تملّك أرض فلسطين، هو السعي في إحياء ما يسمّونه «الرابطة التاريخية» و «الحق التاريخي». وقد اتقنوا استخدام هذا السلاح ايما اتقان، حتى توصّلوا الى اقناع العالم الغربي بأن موجاتهم الزاحفة الى فلسطين ليست موجات غازية أو استعمارية، وإنما هي جموع من المشرّدين، أخرجتهم سلسلة الاضطهادات من

بلادهم، وها هم يعودون إليها ثانية، مواطنين عائدين الى منازلهم الحقيقية في «أرض اسرائيل التاريخية».

وقلنا إن قادة اسرائيل وزعماء الصهيونية دأبوا ويدأبون على المجاهرة في التصريح بأن كل احتلال هو مجرّد مرحلة على طريق الوصول الى نشر سلطة الدولة اليهودية على كامل «أرض اسرائيل التاريخية». وأن دولة اسرائيل الصغرى هي مجرد مرحلة على طريق الحركة الصهيونية الماضية نحو تجسيد ذاتها في امبراطورية تضم يهود العالم ضمن «الحدود التاريخية لأرض اسرائيل».

وذكرنا نماذج، أقول نماذج، من التصريحات ـ المزاعم التي تملأ المجلدات. والتي دأبوا ويدأبون في ترديدها لكي يستمر تصديقها، وبالتالي يستمر تلقينها بشكل آلي.

والآن دعونا نتصفّح معاً المصدر الوحيد، أكرّر المصدر الوحيد (التوراة)، الذي يستمدّون منه مزاعمهم، وإليه يستندون في دعاوتهم. وبعبارة أوضح:

ما هي قصة «أرض اسرائيل التاريخية؟».

الوثيقة الوحيدة بين أيدينا في ظهور جماعة بني اسرائيل على مسرح التاريخ، وفي مسألة غزوهم بعض مرتفعات أرض فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. وتأسيس مملكة في البقعة التي استوطنوها، تنحصر في كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). فلم يرد لهم أي ذكر في المصادر التاريخية المعروفة. وما كشف عنه التنقيب من آثار ونصوص ونقوش في مصر وسوريا الطبيعية، لا يشير من قريب أو بعيد، الى حكاية ابرام، وهجرته من «أور» (في الشمال السوري) الى أرض كنعان (في جنوبي سوريا) حوالي القرن الثامن عشر ق.م. ثم الرحيل الى مصر، والعودة منها الى أرض كنعان. ولا أدلة تاريخية عليها. وللمؤرخين آراء مختلفة حول هذه الحكاية. ولسنا هنا بصدد مناقشة الحوادث التاريخية الداخلة في صلب الحكاية أو الآراء المتعلّقة بها. ولا يوجد في الوثائق المصرية أية معطيات تشير الى اقامة بني اسرائيل في مصر. وليس هناك أي دليل على خروج جماعي لبني اسرائيل من مصر بقيادة موسى أو غيره. حتى ان عالماً شديد الحرص على انقاذ [تاريخية] التوراة، كالأب دي فو، يقر، شأن المؤرخين سائرهم، بأن «لا وجود في أي أثر، خارج التوراة، لأي اشارة الى

الآباء العبريين، أو الى اقامتهم في مصر، ثم خروجهم منها. أو الى غزو أرض كنعان. ومن المشكوك فيه أن تكتشف نصوص جديدة تنقض ما ذهبنا إليه».

ويضيف الأب دي فو «زد على ذلك أن ما اكتشف عام ١٨٨٦ من وثائق تناهز الأربعمائة في تل العمارنة ـ العاصمة التي انشأها الفرعون أمينوفيس الرابع (اخناتون) Akhenaton (١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق.م)، تتضمّن مراسلات الفرعون مع أمراء فلسطين وسوريا، ومعلومات جديرة بالاهتمام عن المدن ـ الدول في أرض كنعان. ولكننا لا نجد فيها أي ذكر أو اشارة لاسرائيل»[١٧٩].

فماذا تقول هذه الوثيقة ـ التوراة في مسألة «أرض اسرائيل التاريخية» ـ الشعار الذي يرفعه الصهاينة في وجه العالم. فيوثقه المؤرخون والباحثون في مؤلفاتهم، وتنقله وسائل الاعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة و.. ولا أحد يسأل: كيف، وأين، ومتى، ولماذا؟. أو قل لا أحد يتجرّأ على طرح السؤال، غفلة أو تغافلاً، جهلاً أو تجاهلاً، أو.. أو.. (والبقية بعد أو تأتي في ذهن القارئ المستنير. أما القارئ العادي فلا شأن لنا به. فما أقل الذين يقرأون، وما أكثر الذين لا يفهمون أو لا يعون ما يقرأون).

يسرد محرّر سفر التكوين التوراتي في الفصول العشرة الأولى، أنساب بني نوح. وينتهي الفصل الحادي عشر بذكر تارح ـ الحفيد التاسع في سلسلة أحفاد سام بن نوح. «وهذه مواليد تارح. ولد تارح ابرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران في أرض ميلاده في أور الكلدانيين.. فأخذ تارح ابرام ابنه ولوطاً بن هاران وساراي كنته امرأة ابرام، وخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان. فأتوا الى حاران وأقاموا هناك.. ومات تارح في حاران. سفر التكوين ١١: ٢٧ ـ ٣٢». «فأخذ ابرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران، وخرجوا ليذهبوا الى أرض كنعان. فأتوا الى أرض كنعان. واجتاز ابرام في الأرض الى مكان شكيم الى بلّوطة مورة... وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض.. ثم نقل من هناك الى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته. وله بيت ايل من المغرب وعاي من المشرق.. ثم ارتحل ابرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب. وحدث جوع في الأرض، فانحدر ابرام الى مصر ليتغرّب هناك. سفر التكوين ١٢: ٥ ـ ١٠».

ثم «صعد ابرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان لديه، ولوط معه، الى

الجنوب.. وسار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل، الى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت ايل وعاي.. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض.. وسكن ابرام في أرض كنعان.. أما لوط فنقل خيامه الى سدوم. تك ١٣: ١ ـ ١٢».

يقول المحرّر «لم تلد ساراي امرأة ابرام. وكان لها جارية مصرية اسمها هاجر.. فأخذت ساراي هاجر جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام في أرض كنعان، وأعطتها لابرام زوجها زوجة له. فدخل ابرام على هاجر فحبلت.. وولدت له اسماعيل. تك ١٦: ١ ـ ٤».

وانتقل ابرام من هناك الى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرّب في جرار.. فقال أب ملك، ملك جرار الفلسطيني، لابرام: هوذا أرضي قدّامك، اسكن في ما حسن في عينيك. تك ٢٠: ١ ـ ١٥».

«حبلت سارة وولدت لابراهيم ابناً في شيخوخته.. دعا اسمه اسحق.. وحدث في ذلك الزمان أن أب ملك وفيكول رئيس جيشه كلّما ابراهيم قائلين: الله معك في كل ما أنت صانع. فالآن احلف لي بالله ههنا انك لا تغدر بي ولا بنسلي وذريتي. كالمعروف الذي صنعت اليك تصنع إليّ والى الأرض التي تغرّبت فيها. فقال ابراهيم أنا أحلف.. وتغرّب ابراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة. تك ٢١».

وماتت سارة في قرية اربع التي هي حبرون في أرض كنعان.. فكلّم ابراهيم بني حتّ قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم، اعطوني ملك قبر لأدفن ميتي من أمامي. فأجاب بنو حث قائلين: في أفضل قبورنا ادفن ميتك، لا يمنع أحد منا قبره عنك. فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض وقال: التمسوا لي من عفرون بن صُوحَر أن يعطيني مغارة المَكْفيلة التي له في طرف حقله.. فأجاب عفرون الحثي: الحقل وهبتك اياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها. فسجد ابراهيم لشعب الأرض. تك ٢٣: ٢ ـ ١٢».

وحين «شاخ ابراهيم.. قال لعبده.. استحلفك بالرب أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل الى أرضي والى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق. فقام العبد وذهب الى ارام النهرين.. وأتى

برفقة بنت بتوئيل الارامي، اخت لابان الارامي، من فدان ارام، زوجة لاسحق. تك ٢٤». فولدت له عيسو ويعقوب.

وحين شاخ «اسحق دعا ابنه يعقوب قائلاً: لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم اذهب الى فدان ارام الى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك. تك ٢٨: ١».

فذهب يعقوب الى فدان ارام وتزوج من ابنتي خاله، لابان الارامي، ومن جاريتيهما، فولدن له اثني عشر ابناً. وبعد مضي عشرين سنة عليه راعياً لأغنام خاله في فدان ارام، «قام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال ليجيء الى اسحق أبيه الى أرض كنعان. تك ٣١: ١٧». «فأتى الى مدينة شكيم التي في أرض كنعان. تك ٣١: ١٨». «ثم رحل يعقوب (اسرائيل) ونصب خيمته وراء مجدل عدر. تك ٣٥: ٢١». ثم «جاء الى اسحق أبيه الى قرية اربع التي في حبرون حيث تغرّب ابراهيم واسحق. تك ٣٥: ٢٧». «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان. تك ٣٦: ١». ثم قام بنو يعقوب (اسرائيل) «وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوا في أرض كنعان، وجاؤا الى مصر. تك ٤٦: ٦». وفي مصر «قالوا لفرعون جئنا لنتغرّب في الأرض، إذ ليس لغنم عبيدك مرعى لأن الجوع شديد في أرض كنعان. تك ٤٧: ٤».

ويستهل المحرّر سفر الخروج بقوله «وكان عدد الراحلين الى مصر سبعين نفساً». وهؤلاء (السبعون نفساً) «أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً. وامتلأت الأرض منهم. . فقال ملك مصر لشعبه: هوذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا». (هذا الكلام لا يقبله عقل. واذا سألت أو تساءلت: ولكن كيف تقبله عقول أكثر من ألفي مليون مؤمن؟. فالجواب سهل وبسيط، هو أن عقول القطعان البشرية المؤمنة بهذا الكتاب، أو التي تمحضه الاحترام والتقديس، هي عقول عاطلة أو معطّلة، غافلة أو مغفلة. صفها بما شئت).

ورداً على هذا التوالد والنمو والتكاثر «استعبد المصريون بني اسرائيل بعنف. ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية. سفر الخروج ١: ١٣». مما مهّد أو كان مبرّراً لظهور موسى. أو قل إن الأحبار الذين حرّروا التوراة في السبي البابلي هم الذين أرادوا لموسى أن يظهر في هذه المرحلة من تاريخ الجماعة.

لا يعنينا في مجال هذا البحث موسى النبي، ولا موسى(*) الذي ما برح اسمه وأصله يثيران الجدل الشديد بين الباحثين وعلماء التاريخ، وإنما يهمنا موسى المشرّع، وموسى القائد الفذ، الصلب الارادة، الفولاذي العزيمة، الذي كان واسع الطموح السياسي لبناء دولة، مملكة، أمة. فاختار لتحقيق طموحه بعض الاسرائيليين المستعبدين في مصر (على رواية التوراة)، الذين كانوا ينتظرون الاشارة من أي قائد ينقذهم مما هم فيه من هوان واستعباد، أو قل من الشعور بالهوان والاستعباد.

كان موسى نموذجاً للرجل العظيم. ولو أننا جرّدنا سيرته من الملامح المعجزة التي تتجمّع عادة حول ذكرى الابطال الشعبيين، فاننا نجد أن ما روي عنه في التاريخ العبري المبكر، صحيح في ما يبدو. وربما كان موسى واعياً لامكانياته الكبيرة، فقد كان عظيم الطموح، قوي التصميم، بعيد الهمة.

لعل أول سطر في سيرة موسى هو صفة التعصّب والعنصرية، التي خلعها على أتباعه وجعلها فريضة دينية، لا تقوم دنياهم ولا تستقيم حياتهم من دون اتباعها وتنفيذها. يخبرنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) أن موسى، حين كان في مصر، «رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً. فالتفت الى هنا وهناك،

(*) الواقع أننا لا نملك أية معلومات عن موسى غير ما يقدّمه لنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) مع أننا لا نستطيع أن نقطع بيقين بصدد هذه المعلومات. فالتوراة دُوّنت، كما هو معروف، في بابل في القرن السادس ق.م. أي بعد موسى بثمانية قرون وهذا على افتراض أن موسى شخصية تاريخية وأنه عاش في القرن الرابع عشر ق.م.
يرى المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفوس (٣٧ ـ ٩٣م) أن موسى كان مصرياً. وكان قائداً في الحملة المصرية على بلاد الحبشة. وفي الحملة تزوج من أميرة حبشية. ويرى الفيلسوف اليهودي الاسكندري فيلون (٣٠ ق.م. ـ ٤٠م) أن موسى كان مصرياً. ويؤيد بعض البحّاثة المحدثين هذا الرأي. فديورانت مثلاً ينقل في «قصة الحضارة» أدلة تثبت أن موسى كان مصرياً، وقد أنجبته عام ١٥٣٧ ق.م. الأميرة حتشسبوت (الملكة حتشسبوت في ما بعد ١٥٠١ ـ ١٤٧٩ ق.م.). وسيغموند فرويد أيضاً يرى في كتابه «موسى والتوحيد» أن موسى كان مصرياً.
وهناك تعليقات كثيرة لباحثين محدثين عن موسى الشخصية الاسطورية التي تكمن وراءها شخصية قوية، برز كمنقذ بين الاسرائيليين المستعبدين في مصر على رواية التوراة. انظر مثلا: - A. Lods, Israel, London 1932.

ورأى أن ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني واذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟. سفر الخروج ٢: ١١ ـ ١٣».

فموسى العنصري حين رأى العبرانيين يتخاصمان، سأل المذنب عن سبب ضربه صاحبه. ولكنه عندما رأى المصري والعبراني يتخاصمان، سرعان ما دفعه تعصبه الأعمى وعنصريته الحاقدة الى قتل المصري، قبل أن يوجّه سؤالاً أو يعرف السبب الذي دفع الواحد الى ضرب الآخر.

وعندما «سمع فرعون هذا الأمر طلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون الى أرض مديان. خروج ٢: ١٥» (في الجنوب الشرقي من سوريا). وهناك آواه رعوئيل كاهن مديان وراعيها، بمروءة كنعانية، سورية، عربية، صافية. احتضنه وأزال عنه مشاعر الخوف، وأسكنه في بيته برحابة صدر وسعة. وزوجه من ابنته (خروج ٢: ٢١). وعاش موسى في بيته الى حين عودته الى مصر.

ذكرنا في مؤلفينا السابقين «تاريخ الله» و «محمد واليهودية» أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية آمن بقيمة مطلقة، قدرة معنوية، روحية، تعلو على الانسان. أعطاها صفة وليس اسماً. وأن الصفة «العالي» التي أطلقها الاكاديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، تطوّرت صيغتها على ألسنة مجتمعات هذه الأرض الى ايل ـ إله ـ الله. وتحوّلت في الألف الأول ق.م. في مفهوم مجتمعات سوريا الوسطى والجنوبية الشرقية، الى اسم.

يبدو أن موسى وعى هذا المفهوم ـ الصفة ـ الاسم (إله) في أرض مديان. وتوضّح في ذهنه مفهوم أن لكل جماعة من البشر (في عصره) إلهاً. وأن هذا الاله يسير على رأس الجماعة يرعاها ويحميها وينصرها، ويملّكها الأرض أيضاً.

عاد موسى الى مصر وراح يعمل بجهد لا يستكين على استمالة بني اسرائيل المستعبدين (على رواية التوراة)، دافقاً في وجوههم الوعود بالتحرير من المعاناة التي يكابدون، مشيعاً بينهم أن في السماء إلهاً أقوى من إله المصريين، وأن هذا الاله سوف يخلّص بني اسرائيل من حياة الذل والعبودية «ويصعدهم من أرض مصر الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبناً وعسلاً. الى مكان

الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سفر الخروج ٣: ٨».

وكأن موسى كان يعي أن سلطان الدين سبيل الى تحقيق سلطان الدنيا. وأن التأثير على الناس في ذلك العصر لم يكن ممكناً بغير هذه الطريقة. فأمر أتباعه أن يعتنقوا دينه، وفرضه عليهم فرضاً. وحين صار لكلامه فعل السحر في نفوسهم قادهم تحت جنح الظلام هرباً من مصر. وراح يضرب في التيه حيث حياة الحرية، يدرّب رجاله على القتال ويربّي فيهم جيلاً شاباً وقوياً يستطيع أن يغزو أرض كنعان التي عرف عنها، عندما كان في مديان، ما جعله يعود الى مصر ويقود جماعة بني اسرائيل لاحتلالها أو احتلال قسم منها. وبذلك صنع منهم مجموعة قومية، أمة. وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة. إذ نادراً ما تحدث الحركات الوطنية الدينية الكبيرة إلا بدافع قوة عظماء الرجال. أو انها قد لا تحدث على الاطلاق إلا بتأثيرهم. فالجماعة الشعبية تحتاج الى قائد. ومن دون القائد تنزع الجماعة الى التخريب. في الوقت الذي لا تملك سوى مقدرة ضئيلة على البناء. وقد لا تملكها على الاطلاق. ومن دون أفكار الرجال العظام أو أفعالهم، وتأثيرهم في من حولهم، ما كان لأمة عظيمة أن تبنى.

ويبدو أن موسى كان يدرك قيمة هذا الشُرَطي (الدين)، انطلاقاً من سطوة الدين على الانسان، في ضبط العامة أو الاتباع، وفرض نظام معيّن عليهم. ويدرك، ببعد نظره وثاقب بصره، أن النظام لا يقوم بغير دين. ولا تقوم للدولة قائمة بلا دين. وأن الدين يلعب في حياة المجموعة البشرية دور الاسمنت الاجتماعي.

المهم أن الجماعة الذين خرج بهم موسى من مصر، سرعان ما بدأوا بالشكوى والتذمّر عليه بعد خروجهم من مصر بقليل، وبالتحديد بعد ثلاثة أيام من الضرب في برية سيناء، فهم لم يجدوا الأرض التي وعدهم بها «الجيدة والواسعة» والتي «تفيض لبناً وعسلاً». وعلى النقيض من ذلك لم يجدوا ماء للشرب. يقول محرر التوراة «ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحرسوف وخرجوا الى برية شور، فساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء.. فتذمّر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟. سفر الخروج ١٥: ٢٢».

وفي الشهر الثاني للخروج ضربهم الجوع، فاشتدت أنّة الشكوى في صدورهم، وغلظت نبرة التذمّر في أفواههم، وحزّ في نفوسهم الندم والتحسّر على أيام الجلوس لدى قدور اللحم وأطباق الخبز الوفير حتى الشبع، في مصر. ففي اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من مصر، تذمّر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون في البرية، وقال لهما بنو اسرائيل: ليتنا متنا في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فانكما اخرجتمانا الى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. خروج ١٦: ٢١.

ويبدو أن التذمّر تطوّر الى تمرّد بعد السير الطويل في القفار الصحراوية، ومعاناة الجوع والعطش. ودبّ الرعب في صدر موسى من أن يتحوّل التمرّد الى ثورة تقضي عليه وعلى الأهداف التي يرمي الى تحقيقها من خروجه بالجماعة من مصر. ففي الفصل التالي يقول المحرر «ثم ارتحل كل جماعة بني اسرائيل من برية سين. . ونزلوا في رفيديم، ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا: اعطونا ماء لنشرب. . وتذمّر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش». فقال موسى في نفسه، وكأنه يعبّر عن خوفه من ثورة جياع تنقضّ عليه رجماً: «ماذا أفعل بهذا الشعب؟. بعد قليل يرجمونني. تث ١٧: ١ ـ ٤».

لم يكن لموسى، في مواجهة تمرّد الجماعة عليه، غير بذل الوعود بأن الاله الذي أعلن عن حضوره بينهم، سوف «يمطر لكم خبزاً من السماء. خروج ١٦: ٤». ويفجّر لكم من الصخرة ماء (خروج ١٧: ٦». «ويعطيكم لحماً فتأكلون، تأكلون لا يوماً واحداً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً، بل شهراً حتى يخرج من مناخركم. سفر العدد ١١: ١٨».

ولكنهم بعد أربعين سنة قضوها في التيه، شعروا بأن الوعود لا تشبع، والامنيات لا تغني من الجوع، «فبكوا وقالوا: من يطعمنا لحماً، قد تذكرنا السمك الذي كنّا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا. سفر العدد ١١: ٤ ـ ٦».

وهكذا ظلّوا يتحسّرون على خروجهم من مصر. «وأخذ قورح بن لاوي وداثان وابيرام ابنا ايلياب وأون بن فالت بنو رأوبين، يقاومون موسى مع أناس من بني اسرائيل، مئتين وخمسين، رؤساء الجماعة. . فاجتمعوا على موسى

وهرون وقالوا لهما: كفاكما، وما بالكما ترتفعان على الجماعة؟. عدد ١٦: ١ ـ ٣». ثم انبرى «داثان وابيرام فقالا لموسى: أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً لتميتنا في البرية. ثم تترأس علينا أيضاً ترؤساً. كذلك لم تأت بنا الى أرض تفيض لبناً وعسلاً، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم. فهل تقلع أعين هؤلاء القوم؟. عدد ١٦: ١ ـ ١٤». «وفي الغد تذمّر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون. عدد ١٦: ٤١».

ويضيف محرّر سفر الخروج «ثم أتى بنو اسرائيل الجماعة كلها الى برية صين. وأقام الشعب في قادش.. ولم يكن ماء للجماعة، فاجتمعوا على موسى وهرون، وخاصم الشعب موسى قائلين: لماذا أتيتما بنا الى هذه البرية، لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟. لماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا الى هذا المكان الرديء؟. ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان، ولا فيه ماء للشرب. عدد ٢٠: ١ ـ ٥».

ازاء هذا الواقع الجديد من اللوم الشديد، والتمرّد، والثورة، لم يجد موسى بدّاً من طرق أبواب الأرض التي وعدهم بها، آملاً فتحها، خاصة بعد أن بلغ الجيل الذي ولد في الصحراء أشده، وقوي عوده واشتد بأسه.

وكقائد مجرّب محنك رأى أن يطرق أبواب الأرض بالجواسيس. «فأرسل جماعة ليتجسّسوا أرض كنعان. قال لهم: انظروا الى الأرض والشعب الساكن فيها، أقوي هو أم ضعيف؟. قليل أم كثير؟. وما هي المدن التي هو ساكن فيها؟. أمخيّمات أم حصون؟. سفر العدد ١٣: ١٧ ـ ١٩».

«فصعد الرجال وتجسّسوا الأرض.. ثم رجعوا بعد أربعين يوماً.. وقالوا لموسى: حقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جداً.. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والاموريون ساكنون في الجبل. والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الاردن.. وقالوا لا نقدر أن نصعد الى الشعب لأنهم أشد منا.. وقد رأينا هناك الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد.. وهكذا كنّا في أعينهم. سفر العدد ١٣: ٢١ ـ ٣٣».

لقد وجدوا الأرض آهلة بسكانها الذين أسّسوا مدنها وقراها، وشادوا فيها القلاع والحصون، وأحيوا الأرض بالاغراس. فركب الخوف قلوب بني اسرائيل

واعتراهم الوجل، وتذكروا ما قاسوه من العذاب والجوع والقهر في صحراء سيناء. فكفروا بامنيات يهوه أو موسى المعسولة ووعوده البراقة، وراحوا يتغنّون بتمنّيات العودة الى مصر، «ورفعت الجماعة كلها صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمّر على موسى وعلى هرون جميع بني اسرائيل، وقالوا ليتنا متنا في أرض مصر.. ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف..؟. أليس خيراً لنا أن نرجع الى مصر؟. سفر العدد ١٤: ١ ـ ٣».

وعندما استبد بهم الطوى وأنهكتهم سياط الحرمان، فكّروا بخلع نير موسى عن رقابهم، فائتمروا «وقال بعضهم لبعض: نقيم رئيساً ونرجع الى مصر. سفر العدد ١٤: ٣».

أما موسى فكان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع تحقيق الجزء الثاني من مهمته، والذي ينطوي على قتال كثير، إلا اذا مات المتبرّمون من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مطعّم بروح القتال ومدرّب على الحرب. وأدرك أن ليس في الامكان تحويل أناس مستعبدين الى جماعة مقاتلة في أسابيع قليلة أو في أشهر. وأنه لا بد من روح جديدة تبعث فيهم وهو أمر يتطلّب وقتاً طويلاً.

وكان من العبث الاقدام على غزو كنعان من غير خطة سليمة. خطّة يمكن تنفيذها بسرعة، والوصول الى الهدف المنشود من دون انتكاسات. فقد كان اجتناب الانتكاسات أمراً مهماً، إذ أن الانكسار في المعركة كان يؤدي في الغالب الى فقدان الثقة بقيادة القائد. لذلك عزم موسى على الترحّل باتباعه في الصحراء مدة من الزمن (٤٠ عاماً) تكفي لتحويلهم الى جماعة مدرّبة على القتال، قادرة على الحرب.

وقد حاولوا أثناء تبدّيهم في صحراء سيناء، غزو كنعان من تخومها الجنوبية. إلا أن المحاولة باءت بالفشل، لأن الكنعانيين أرهبوهم بما في نفوسهم من اعتزاز، وما في قاماتهم من طول وقوة. ورروعوهم بما في حصونهم من منعة، وما في أراضيهم من ثروة، وبما حقّقوه في حياتهم من حضارة.

إن وصف الجواسيس للأرض وسكانها: «شعب معتز. والمدن حصينة، عظيمة جداً. هناك العمالقة والجبابرة. أرض تأكل سكانها» ينمّ عن شعور بني اسرائيل بالخوف والضعف: «كنا في أعيننا كالجراد» عن مقارعة هؤلاء الجبابرة الذين «كنا في أعينهم كالجراد» أيضاً.

يضاف الى ذلك أن إقليم كنعان الجنوبي كان محصّناً ومنظّماً تنظيماً قتالياً وسياسياً جيداً. فعندما «بكر بنو اسرائيل صباحاً وصعدوا الى رأس الجبل، نزل العمالقة والكنعانيون فضربوهم وكسروهم. سفر العدد ١٤: ٤٠ ـ ٤٥». فاضطروا الى التقهقر والالتفاف الى شرقي الاردن. ومن قادش أرسل موسى رسلاً الى ملك ادوم قائلاً: نحن في قادش، مدينة في طرف تخومك. دعنا نمر في أرضك. لا نمر في حقل ولا في كرم، ولا نشرب ماء بئر. لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك. فقال له ادوم: لا تمرّ بي لئلا أخرج للقائك بالسيف.. وأبى ادوم أن يسمح لاسرائيل بالمرور في تخومه. فتحول اسرائيل عنه. سفر العدد ٢٠: ١٧ ـ ٢١».

«ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن اسرائيل جاء في طريق اتاريم، حارب اسرائيل وسبى منهم سبياً. عدد ٢١: ١».

ثم «أرسل اسرائيل رسلاً الى سيحون ملك الأموريين قائلاً: دعني أمر في أرضك. لا نميل الى حقل ولا الى كرم ولا نشرب ماء بئر.. فلم يسمح سيحون لاسرائيل بالمرور في تخومه.. بل حارب اسرائيل. عدد ٢١: ٢٣».

«ثم تحوّلوا وصعدوا في طريق باشان.. فخرج عوج ملك باشان للقائهم سفر العدد ٢١: ٣٣».

قد تسأل: لماذا لم يسمح لهم هؤلاء الملوك بالمرور في أراضيهم؟. ألأنهم «شعب لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى. سفر العدد ٢٣: ٢٤». أم لأنهم، بتعبير بالاق بن صفور، ملك مؤاب، شعب «يلحس كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل. سفر العدد ٢٢: ٤». أم لأن ملوك كنعان شعروا بالحقد يغلي في نفوس بني اسرائيل، وبشهوة الانتقام تضطرم في صدورهم. وأدركوا أن هذه القبيلة الهمجية[١٨٠] مقبلة على حرب تحريم وابادة؟.

وبالفعل، بدأ الاسرائيليون، وهم على أبواب الأرض، ينفّذون في هجماتهم البربرية، حروب التحريم والابادة والافناء. وكأنهم كانوا يعبّرون، بالحروب الوحشية، عن ضراوة الحقد الذي يغتلي في صدورهم على المجتمعات الكنعانية التي قطعت شوطاً بعيداً في العمران والحضارة الانسانية. بينما عانوا من التسخير في مصر مدى أربعمائة سنة. وعاشوا جيلاً يتبدّون في

صحراء سيناء. سلاحهم الحقد والانتقام، وهمهم تدمير حضارة الأمم. لأن الشعور بالضعف، ومعاناة العبودية، والتخلّف، ترك في نفوسهم عقدة لا يحلّها غير التذبيح والتحريم وشرب دماء الأمم.

ثم «ارتحلوا من جبل هور، في طريق بحرسوف، ليدوروا بأرض أدوم. فضاقت نفس الشعب في الطريق. وتكلم الشعب على يهوه وعلى موسى، قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية؟. لأنه لا خبز ولا ماء. وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف. سفر العدد ٢١: ٥».

وهكذا عادوا الى الشكوى والتذمّر لأن الجوع والعطش أرهقاهم في البرية. ولأن آمالهم بالدخول الى أرض فلسطين قد تبدّدت. فلا بالغزو أفلحوا، ولا بالتذلّل والالتماس نالوا موافقة ملوك كنعان على المرور في أراضيهم.

وعندما كانت هذه القبائل الرحل من الرعاة الاجلاف، والمواشي الهزيلة العجاف، تقترب من تخوم الأرض، يسيل لعابها حين تشاهد المراعي الخضراء في فلسطين، فتخالها غنيمة سائغة لها بعد تيه السنين. ولكن سرعان ما كان اللعاب يجف حين ينقضّ أصحاب المراعي من مدنهم وقلاعهم، على المتسلّلين الضاوين. فيرتد هؤلاء الى الصحراء مرة. ويحاولون الثبات على تخوم المراعي مرة أخرى. مفضّلين الموت على العودة الى التيه المرعب أو الى الفراعنة القساة.

وهكذا ظلوا يطرقون أبواب الأرض، غزاة أو متسلّلين، زهاء مائتي سنة. وهنا نرى من الضروري القاء بقعة من الضوء على بعض معارك الغزو، وبعض عمليات التسلّل، اللتين انتهتا باستيطانهم في بعض مرتفعات فلسطين.

التسلّل

اذا كان بعض الممالك في فلسطين، كأدوم، وعراد، وسيحون، وباشان، قد صدّ بني اسرائيل الغزاة عن تخومه، ربما لأنه شعر بهم «شعباً لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى» و «يلحس الأرض كما يلحس الثور خضرة الحقل». ولم يسمح لهم بالاقتراب من تخومه، أو بالمرور في أراضيه. فإن ممالك أخرى في أرض فلسطين قد سمحت لهم بالمرور في أراضيها، وتسريح مواشيهم في مراعيها. أو إنهم تسلّلوا في غفلة عنها. أو إنها لم تأبه لتسلّلهم البطئ خلال مائتي سنة.

يقول محرّر التوراة (العهد القديم): «وأقام اسرائيل في شطيم. وابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب. فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن. فأكل الشعب، وسجدوا لآلهتهن. وتعلّق اسرائيل ببعل فغور. عدد ٢٥: ١ ـ ٣».

فمسائل اجتماعية مثل زنى بني اسرائيل مع بنات مؤاب، وسجودهم لآلهتهن، وتعلّقهم بمعبودهم بعل فغور، لا يمكن أن يتم في غزوة مثلاً، في ساعات أو في أيام، لأن مثل هذه الأمور الحياتية يحتاج الى مزيد من الاختلاط بين المواطنين والمتسلّلين. ومزيد من الوقت للالتقاء على مفاهيم معيّنة. ومزيد من التقارب في أحوال العيش وسبل الحياة. وهذا يعني أن بني اسرائيل الرعاة كانوا يتسلّلون ببطء وحذر، الى أرض كنعان، فينشأ بينهم وبين أصحاب الأرض بعض العلائق الاجتماعية، كما رأينا، ولعلّ أهمها تعلق الاسرائيليين بمعبودات مجتمعات الأرض، مما ينهض دليلاً على مدى سيطرة هذه المجتمعات على بني اسرائيل الغرباء، اللاجئين أو المتسلّلين. أو قل إن تعلّق الاسرائيليين بمعبودات أصحاب الأرض، يدلّ على مدى خضوعهم لأصحاب الأرض. وقد عبّروا عن هذا الخضوع بسجودهم لمعبودات هذه المجتمعات.

وكما سجدوا لمعبود مؤاب، بعل فغور، كذلك «عبدوا البعليم.. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها. تركوا يهوه وعبدوا البعل والعشتاروت. قض ٢: ١٢».

والواقع ان النصوص التي تعبّر عن تركهم لالههم (يهوه)، وتحوّلهم عنه الى معبودات مجتمعات الأرض، كثيرة جداً. يقول المحرّر «عبدوا البعليم والعشتاروت، وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة عمون وآلهة الفلسطينيين. وتركوا يهوه ولم يعبدوه. قض ١٠: ٦».

وفي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) شواهد عديدة على دخول بني اسرائيل الأرض على مجتمعاتها متغرّبين، مسالمين. والعيش بين أصحاب الأرض الذين أفسحوا لهم مجالاً للرعي في مروجهم والسكن في أراضيهم، مما مهّد لنشوء علاقات اجتماعية كالمصاهرة. يقول المحرّر «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم. وعبدوا آلهتهم. قض ٣: ٥».

ويضيف المحرّر «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في اسرائيل. وكل واحد

عمل ما حسن في عينيه. قض ٢١: ٢٥». «كان رجل لاوي متغرّباً في عقاب جبل افرايم. . فجاء الى مقابل يبوس، هي أورشليم، ومعه حماران، وسريته معه. وفي ما هم عند يبوس، والنهار قد انحدر، قال الغلام لسيده: تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه، ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل الى مدينة غريبة، حيث ليس أحد من بني اسرائيل هنا. .

فذهبوا الى جبعة التي لبنيامين. . وجلسوا في ساحة المدينة. ولم يضمّهم أحد الى بيته للمبيت. . واذا برجل شيخ جاء من شغله من الحقل عند المساء. فرفع عينيه ورأى الرجل المسافر في ساحة المدينة، فقال الرجل الشيخ: الى أين تذهب؟. ومن أين أتيت؟. فقال له: نحن عابرون من بيت لحم الى عقاب جبل افرايم. . وليس أحد يضمّني الى البيت. عندنا تبن وعلف لحميرنا، وأيضاً خبز وخمر لي ولأمتك وللغلام، ولا نحتاج الى شيء. فقال الرجل الشيخ: السلام لك، إنما كل احتياجك عليّ ولكن لا تبت في الساحة.

وجاء به الى بيته، وعلف حميرهم، وغسلوا أرجلهم، وأكلوا وشربوا. وفي ما هم يطيّبون قلوبهم، إذا برجال المدينة، رجال بني بلّيعال(*)، أحاطوا بالبيت قارعين الباب. . وكلّموا الرجل صاحب البيت، الشيخ، قائلين: اخرج الرجل الذي دخل بيتك، فنعرفه (أي نمارس اللواط به). فخرج اليهم الرجل الشيخ، صاحب البيت، وقال لهم: لا تفعلوا شرّاً بعدما دخل هذا الرجل بيتي. لا تفعلوا هذه القباحة. هوذا ابنتي العذراء وسريته، دعوني اخرجهما، فأذلوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم. وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح. فلم يرد الرجال أن يسمعوا له. فأمسك الرجل سريته وأخرجها إليهم. فعرفوها وتعلّلوا بها الليل كله. سفر القضاة ١٩».

لا نرى ضرورة، في مجال بحثنا، التعليق على هذا الجانب من أخلاق بني اسرائيل، ابّان تغرّبهم في أرض كنعان، في القرن العاشر ق.م. كما عرضه هذا النص. فقد ألقينا بقعة من الضوء على صفحة من كتاب أخلاقهم، في كتابنا «أمجاد اسرائيل في أرض فلسطين». وإنما يستوقفنا ما في النص من دلالات

(*) بلّيعال: صفة قبيحة للفجور والعهارة. فسّرت في هامش الفصل التاسع عشر من سفر القضاة، تخفيفاً لبشاعتها، بمعنى لؤماء.

بالغة الوضوح على نزعة بني اسرائيل العنصرية، وعلى مسألة تحلّلهم من المفاهيم الاجتماعية. وعلى نوايا مجتمعات كنعان الطيبة والصافية، في احتضان هؤلاء الرعاة المتغرّبين في أراضيهم.

الدلالة الأولى: أنه لم يكن ملك في اسرائيل، في تلك الأيام، لأن الاسرائيليين دخلوا الأرض على أصحابها متسلّلين ببطء، رعاة، متغرّبين. ينتجعون الكلأ والماء في أرض وفّر أصحابها الأمان لهؤلاء الرعاة، والمراعي لقطعانهم. فلم يكن في نفوسهم شعور بوحدة قومية تجمعهم، أو برابطة وطنية تشدّهم، بعضهم الى بعض. لم يجتمعوا، لأنهم لم يعرفوا معنى المجتمع. ولم تتوفر فيهم مقوماته. وبالتالي لم يكن فيهم ملك يؤلّف بينهم بحكمته ومحبّته، ويسوسهم بمجده وسلطانه. فكان كل واحد منهم يعمل ما حسن في عينيه، دون أن يمنعه وازع أخلاقي أو رادع اجتماعي. وتوزّعوا في الأرض تبعاً لتوافر الأمان والمراعي، ورضى أصحاب الأرض عنهم وقبولهم لهم.

الدلالة الثانية: أن هذا الرجل اللاوي المتغرب في جبل افرايم. وأن تجمّع بني بنيامين في جبعة التي لا تبعد غير أربعة أميال عن مدينة اليبوسيين ـ أورشليم التي «ليس فيها أحد من بني اسرائيل» كما يقول المحرّر، يعني أن الكنعانيين، بمحبتهم وتسامحهم وانفتاحهم على الأقوام والمجتمعات والمعتقدات جميعها، قد وفّروا الأمان والمراعي لهؤلاء الرعاة المتغرّبين في أراضيهم. مما هيّأ لرجل واحد مع عائلته أن يرحل من مكان الى آخر دون خوف أو حذر. وهيأ لقبيلة بنيامين أن تقيم في جبعة بين الكنعانيين، وعلى بعد أربعة أميال من أورشليم ـ عاصمة اليبوسيين.

وكانت حماية الكنعانيين لبني اسرائيل المتغرّبين في أرض كنعان، من النبل والأمانة والشهامة والسمو والرفعة والتضحية والفداء، الى حدّ دفعت بالشيخ الكنعاني الى تقديم ابنته العذراء الى رجال بنيامين المهاجمين، فدية للرجل اللاوي المتغرّب. ولا أظن أنك تجد انساناً آخر في أي بيئة ومن أي قوم، يقف مثل هذا الموقف الانساني المشحون بكل معاني النبل والشهامة والمروءة والتضحية والفداء، الذي وقفه هذا الشيخ الكنعاني. وفي المقابل لا أظن أنك تجد كائناً بشرياً آخر يقف مثل هذا الموقف المعبّر عن الأخلاق الملوّثة بالنذالة والسفالة والخسّة والوقاحة والزعارة، الذي وقفه رجال بنيامين المهاجمون.

الدلالة الثالثة: أن الشيخ الكنعاني الذي كان عائداً «من شغله في الحقل عند المساء» دعا الرجل اللاوي المتغرّب الى بيته بفيض غامر من الشعور الكنعاني بأن الانسان أخو الانسان، حيثما كان، وأياً كان جنسه ولونه ومعتقداته. أما بنو بنيامين فلم يخالط مشاعرهم أي احساس أخلاقي. وهجومهم في الليل على بيت الشيخ هو تجديف على الأمانة والمحبة والاخلاق الصافية، وكفر بكل القيم والمفاهيم الانسانية النبيلة.

الدلالة الرابعة: أن «الرجل اللاوي المتغرّب في عقاب جبل افرايم» رفض أن يميل الى أورشليم، باعتبار أنها «مدينة غريبة، وليس فيها أحد من بني اسرائيل». وفضّل، بدافع من عنصريته، المبيت في جبعة التي يقيم فيها بنو بنيامين - أحد اسباط اسرائيل. ولكن هذه النزعة العنصرية التي تدرّع بها اللاوي - الاسرائيلي، لم تحمه. أو قل إنها آذته، فلم يكترث به، أو يدعه للمبيت، أحد من بني قومه - البنيامينيين. وعندما آواه الشيخ الكنعاني الى بيته، بنبل وكرم وتسامح ومروءة وشهامة كنعانية صافية، هجم عليه البنيامينيون، في الليل، وفعلوا ما فعلوا.

فصول من قصة الغزو:

إن ما في كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) من نصوص كالتي رأيت، ينهض دليلاً على أن الاسرائيليين لم يدخلوا فلسطين فاتحين أو غزاة. وعلى افتراض أنهم دخلوا كذلك، فمن الصعب الاعتقاد بأن معارك الغزو والاستيلاء استمرت قرنين من الزمان.

ولكن ما في كتاب التوراة من وصف للمعارك وعمليات التجسّس، وهجومات الغدر والمباغتة، دليل آخر على أن بني اسرائيل، أو بعض أسباطهم، قد دخلوا الأرض غزاة. والغزوات التي قاموا بها، والتي لا يقصّها غير كتاب التوراة، هي أشبه بهجمات المرتزقة والصعاليك على القرى الآمنة المطمئنة، طمعاً بالمغانم التي يوفرها الغزو للمرتزقة. ومن الطبيعي أن هجمات الصعاليك والمرتزقة هي التي تستمر مائتي عام وربما أكثر، لأن لا غاية لها غير اكتساب المغانم. فقد يكون المغنم في هذه الغزوة أو تلك، وقد تكون الهزيمة في واحدة من الغزوات أو في غيرها.

واذا كان غزاة بني اسرائيل قد تمكّنوا من الاستيطان في بعض المرتفعات،

فلأن قراها الصغيرة لم تستطع التعاون في ما بينها، لوعورة المسالك، وصعوبة الاتصالات، وبعد القرى بعضها عن بعض، ولشعورها بالأمن والاطمئنان.

فعندما وصلت هذه الجموع الرعوية الجائعة الى تخوم الأرض، تحوّلوا الى قوّة مادية بشرية كاسحة وضاغطة وغير منضبطة. يستثير فيهم النوازع القتالية الانتقامية، لهيب الآمال الحاقدة المتحفّزة، وحقد البداوة الضامرة المشرّدة على الزرّاع المستقرين الآمنين والمتخمين.

وهكذا بدأوا يغيرون على القرى الآمنة المطمئنة، أو ينقضّون على المدن الكنعانية العامرة المتحضّرة، بضراوة وحشية شرسة. ينفّذون في انقضاضهم البربري حروب التحريم والابادة، وكأنهم كانوا يعبّرون بالعنف والشراسة عن ضراوة الحقد الذي يغتلي في صدورهم على المجتمعات الكنعانية التي قطعت شوطاً بعيداً في العمران والحضارة الانسانية. بينما عانوا من التسخير في مصر أربعمائة سنة. وعاشوا جيلاً يتبدّون في صحراء سيناء، سلاحهم الحقد والانتقام، وهمهم تدمير حضارة الأمم، لأن الشعور بالضعف ومعاناة العبودية والتخلّف، ترك في نفوسهم عقدة لا يحلّها غير التذبيح والتحريم وشرب دماء الأمم.

فعندما وصلوا الى تخوم أريحا «أرسل يشوع رجلين جاسوسين. . الى أريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب، واضطجعا هناك. فقيل لملك أريحا: هوذا قد دخل الى هنا الليلة رجلان من بني اسرائيل لكي يتجسّسا الأرض. فأرسل ملك أريحا الى راحاب يقول: أخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك. .

فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما وقالت: نعم جاء إليّ الرجلان ثم خرجا في الظلام. وأما هي فأطلعتهما على السطح ووارتهما بين عيدان كتان. سفر يشوع ٢: ١ ـ ٦».

وهكذا عرف الجاسوسان من راحاب الزانية منافذ المدينة ومداخلها السرية ونقاط الضعف فيها. فهجموا في هدأة الليل مباغتة وغدراً، «وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف. وأحرقوا المدينة بالنار. يشوع ٦».

أعتقد أن نجاح غزوتهم يعود الى عوامل، لعل أهمها:

١ ـ الجاسوسية.

٢ ـ حرب الابادة لايقاع الرعب في النفوس، وبالتالي دفع السكان الى الاستسلام للفرار. وهكذا كان دخولهم أرض فلسطين مصحوباً بمجازر وحشية وعمليات ارهابية. خذ مثلاً ما جاء في فصل واحد من سفر يشوع، من وصف لهجوماتهم البربرية على سكان الأرض الآمنين. يقول المحرّر «وأخذ يشوع مقيدة وحرّم ملكها وكل نفس بها، لم يبق شارداً.. ثم حارب لبنة وضربها بحدّ السيف وكل نفس بها، لم يبق شارداً.. ثم اجتاز يشوع الى لخيش.. وضربها بحدّ السيف وكل نفس بها.. ومن لخيش الى عجلون.. فحاربوها وضربوها بحدّ السيف، وحرّم كل نفس بها.. ومن عجلون الى حبرون.. فحرّمها وكل نفس بها، لم يبق شارداً.. ثم رجع يشوع الى دبير، وحاربها، وحرّموا كل نفس فيها، لم يبق شارداً. سفر يشوع ١٠».

وفي الفصل التالي يقول محرّر السفر إن يهوه (الرب) دفع ملك حاصور وملك مادون وملك شمرون وملك اكشاف، بيد اسرائيل، «فضربوهم حتى لم يبق شارد.. وحرّموهم، ولم تبق نسمة.. لأنه كان من قبل يهوه أن يشدّد قلوبهم حتى يلاقوا اسرائيل للمحاربة، فيحرّموا، فلا تكون عليهم رأفة، بل يبادوا كما أمر يهوه موسى. يشوع ١١».

وهكذا كانت عبارات من مثل «حرّم كل نفس» و «لم يبق شارداً» بمثابة القرار أو اللازمة في كل نشيد يمجّد عملية فتك وابادة. وكانوا في غزوهم لبعض مرتفعات فلسطين يرتكبون من الفظائع والأعمال الوحشية ما من شأنه أن يشيع الهلع والذعر في قلوب السكان. وقد جعلوا من الارهاب قواعد للغزو والاستيلاء وقوانين للسطو والسيطرة. وقد عبّرت راحاب عن القوانين التي وضعوها لغزو الأرض، بقولها «إن رعبكم قد وقع علينا. وجميع سكان الأرض قد ذابوا من أجلكم. لأننا قد سمعنا بما عملتموه بملكي الأموريين اللذين في عبر الأردن. سمعنا فذابت قلوبنا، ولم تبق روح في انسان بسببكم. يشوع ٢٤: ٩ ـ ١١».

وقد نقل الجاسوسان الى يشوع صيغة تعبير راحاب عن القوانين التي سرت بين سكان الأرض، وتركت في نفوسهم أعمق الفعل وأبلغ الأثر. قالا «قد ذاب كل سكان الأرض بسببنا. يشوع ٢: ٢٤».

والحقيقة أن أول من قرّر قانون اشاعة الهلع والذعر في نفوس سكان الأرض، هو ربهم (يهوه)، أو القائد الناطق باسم هذا الرب. فمذ كانوا على أبواب الأرض صاغ يهوه لموسى هذا القرار، بقوله «في هذا اليوم ابتدئ أجعل خشيتك وخوفك أمام وجوه الشعب تحت كل السماء. الذين يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك. تثنية ٢: ٢٥».

وطالما كان يهوه أو موسى الناطق بلسان يهوه، يردّد على أسماعهم هذا القانون، ليعمّق جذوره في صدورهم، وكي يعملوا على تطبيقه أنّى ذهبوا وكيفما اتجهوا. يقول «يهوه إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم. تثنية ١١: ٢٥».

وقد تمثلت مظاهر التطبيق في تذبيح وتحريم جميع من يظفرون بهم من أطفال وشيوخ ونساء. وفي تقتيل البقر والغنم والحمير بحد السيف. وفي تقطيع الأشجار وردم الآبار. ففي مدينة عاي، يقول محرّر السفر «ضربوها بحد السيف.. وحرّموا جميع سكانها. يشوع ٨: ٢٤ ـ ٢٦». وفي حاصور «ضربوا كل نفس فيها بحد السيف. حرّموهم، ولم تبق نسمة. وأحرقوا حاصور بالنار. يشوع ١١: ١١». وقد رأينا ما فعلوه بأريحا ومقيدة ولبنة ولخيش وعجلون وحبرون ودبير وسواها. أما في مؤاب فقد «هدموا المدن، وكان كل اسرائيلي يلقي حجرة في كل حقلة جيدة، حتى ملأوها، وطمّوا جميع عيون الماء، وقطعوا كل شجرة طيبة. سفر الملوك الثاني ٣: ٢٥».

عامل ثالث في نجاح غزواتهم هو وضع الخطط الناجحة، وإن كانت خطوطها من خداع، وأبعادها من غدر. فبعد أن دمّر يشوع أريحا (على رواية التوراة) «وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف. سفر يشوع ٦: ٢». «أرسل يشوع رجالاً من أريحا الى عاي.. قائلاً: اصعدوا تجسّسوا الأرض. فصعد الرجال وتجسّسوا عاي. ثم رجعوا الى يشوع وقالوا له: لا يصعد كل الشعب، بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف ويضربوا عاي. لا تكلّف كل الشعب لأنهم قليلون. فصعد من الشعب نحو ثلاثة آلاف رجل، وهربوا أما أهل عاي. فضرب منهم أهل عاي نحو ستة وثلاثين رجلاً.. فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء. سفر يشوع ٧: ٢ ـ ٥».

فماذا فعل يشوع؟.

«مزّق ثيابه وسقط على وجهه الى الأرض أمام تابوت يهوه (الرب) الى المساء هو وشيوخ اسرائيل، ووضعوا تراباً على رؤوسهم. وقال يشوع: آه يا سيد يهوه لماذا عبّرت هذا الشعب الأردن لكي تدفعنا الى يد الأموريين ليبيدونا. ليتنا ارتضينا وسكنّا في عبر الأردن. أسألك يا سيد: ماذا أقول بعدما حوّل اسرائيل قفاه أمام أعدائه؟.

فقال الرب ليشوع: قُم. لماذا أنت ساقط على وجهك. قد أخطأ اسرائيل، بل تعدّوا عهدي الذي أمرتهم به، بل أخذوا من الحرام، بل سرقوا، بل انكروا، بل وضعوا في أمتعتهم.. في وسطك حرام يا اسرائيل، فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم. سفر يشوع ٧: ٦ ـ ١١».

وهكذا وجد يشوع، أو الحبر الذي حرّر التوراة، كعادته مبرّراً لهذه الهزيمة. فادّعى أن أحد الرجال الغزاة «أخذ من الحرام،» أي من الغنيمة المخصّصة لبيت يهوه التي كانت محرّمة، أو تعتبر «حراماً» بالنسبة للجميع. «فحمي غضب الرب على اسرائيل. يشوع ٧: ١». وهزمهم أمام أهل عاي. أو قل إن يشوع أعاد سبب هزيمته (على عين الجماعة) الى غضب يهوه لأن المهاجمين «تعدّوا عهده، وأخذوا من الحرام». وهو يبغي من ذلك تحقيق هدفين: الأول جمع الذهب والفضة والأواني التي سرقها رجاله. والثاني ربط الهزيمة بغضب يهوه لكي يثبت إيمانهم بإلههم، وثقتهم به، واتكالهم عليه. وأنه ما دام معهم وراضياً عنهم فلن يُقهروا.

بدأ يشوع باستنباط بني اسرائيل لمعرفة السارق. فتقدم الرجل الذي «تعدّى عهد الرب وعمل قباحة في اسرائيل» وقال «حقاً إني قد أخطأت الى يهوه إله اسرائيل.. رأيت في الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومائتي شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً، فاشتهيتها وأخذتها. وها هي مطمورة في الأرض في وسط خيمتي. يشوع ٧: ٢٠ و٢١».

وهنا نفّذ يشوع حكم يهوه عليه. أخذه «وبنيه وبناته وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله.. فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار. يشوع ٧: ٢٣».

وعندها «رجع يهوه عن حمو غضبه.. وقال ليشوع: لا تخف ولا ترتعب. خذ معك جميع رجال الحرب واصعد الى عاي فقد دفعت بيدك ملك

عاي وشعبه ومدينته وأرضه. . فانتخب يشوع ثلاثين ألف رجل جبابرة البأس وأرسلهم ليلاً قائلاً: أنتم تكمنون للمدينة. . أما أنا وجميع الشعب فنقترب الى المدينة. ويكون حينما يخرجون للقائنا أننا نهرب قدامهم، فيخرجون وراءنا حتى نجذبهم عن المدينة. . وأنتم تقومون من المكمن وتملكون المدينة. يشوع ٨».

وهكذا نجحت الخطة التي لقّنها يهوه ليشوع، وسقطت عاي. فالحبر المحرّر لا يعيد سبب انهزامهم في الغزوة الأولى الى قلة عددهم، إذ هوّن الجاسوسان أمر اقتحام عاي بقولهما ليشوع «لا تكلف كل الشعب لأنهم قليلون، بل يصعد نحو ألفي رجل». وإنما يبرّر الانهزام بغضب يهوه عليهم لأن أحدهم أخذ من الحرام أي حصة يهوه ـ الكهنة.

أما في الغزوة الثانية فقد غيّر يشوع الخطة، إذ أخذ معه ثلاثين ألف رجل، ونصب كميناً للمدينة. ونسب الخطة الى يهوه ليزيد من ثقتهم به واتكالهم عليه، وليعمّق في نفوسهم الإيمان بأن نصرهم يعني رضى يهوه عنهم. وانهزامهم هو غضبه عليهم.

والأدهى من ذلك كله أن يهوه (الرب) لم يقضِ في الغزوة الأولى بأن تكون الغنائم محرّمة للرب، على نحو ما قضى في غزوة أريحا حين قال ليشوع «تكون المدينة وكل ما فيها محرّماً للرب. . وكل الفضة والذهب وآنية النحاس تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. يشوع ٦: ١٧». وإنما قضى، ولكن في الغزوة الثانية أي بعد أن دفع المسكين بالرداء الشنعاري حياته رجماً، ثمناً لانهزام رجال يشوع الذي ردّ الهزيمة الى الحرام في وسط الجماعة. قضى بأن تكون الغنائم من نصيب المهاجمين. قال «إن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. يشوع ٨: ٢».

عامل رابع في نجاح غزواتهم هو هجومهم مباغتة وغدراً على قرى آمنة مطمئنة. والنموذج الذي يقف شاهداً على هذا العامل خطّط له ونفّذه سبط الدانيين. يقول محرّر سفر القضاة: «أرسل بنو دان خمسة رجال. . لتجسّس الأرض. . فجاؤا الى لايش ورأوا الشعب الذين فيها ساكنين بطمأنينة كعادة الصيدونيين. مستريحين مطمئنين. وليس في الأرض مؤذ. وهم بعيدون عن الصيدونيين. وليس لهم أمر مع انسان».

ثم رجع الرجال الخمسة الى قبيلتهم وقالوا «لا تتكاسلوا عن الذهاب،

لتدخلوا وتملكوا الأرض. عند مجيئكم تأتون الى شعب مطمئن».

ويقول المحرّر إنهم «جاؤا الى لايش، الى شعب مستريح مطمئن. وضربوهم بحد السيف. وأحرقوا المدينة بالنار. ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون. ولم يكن لهم أمر مع انسان. سفر القضاة ١٨ : ٢ ـ ٢٧».

لقد أعطى محرّر التوراة بهذه الكلمات القليلة صورة عن حياة المجتمعات الكنعانية في جنوبي سوريا: العيش بطمأنينة، لأنه «ليس في الأرض مؤذ. ولم يكن لهم أمر (عداوة) مع انسان».

سقطت لايش «لأنها بعيدة عن صيدون. ولم يكن من ينقذ».

لماذا؟.

لأن سوريا الغربية والجنوبية خضعت في تاريخها القديم لمظاهر بيئتها وخصائص موقعها. شأنها شأن غيرها من مواطن الحضارات القديمة. وكان أوضح هذه المظاهر والخصائص تأثيراً فيها هو كثرة التنوع في تضاريسها، وقيام الفواصل الجبلية والحواجز الطبيعية فيها. فترتب نتيجة ذلك صعوبة اتحاد أهلها في وحدة قومية صريحة، خلال الغالبية العظمى من تاريخهم القديم. وتوزعت الوحدات السياسية والاقتصادية على هيئة دويلات صغيرة في مدن مستقلة، ذات حكومة وسيادة. تمتد من أوغاريت وارواد شمالاً، على طول الشاطئ، عبر جبيل وصيدون وصور، الى اشقلون وغزة في الجنوب. وكان من مدنهم الداخلية مدينة أريحا وجازر وأورشليم وشكيم وغيرها.

وعلى الرغم من المنجزات الحضارية العظيمة التي حققها الكنعانيون في الجزء الجنوبي من سوريا (فلسطين)، وعلى امتداد الساحل السوري، من صور جنوباً الى أوغاريت شمالاً، فإن طبيعة التكوين الجغرافي للأرض حرمتهم من تأسيس دولة متحدة قوية، كتلك الدول العظمى التي قامت في أحواض الأنهار الكبرى كالنيل والفرات. ورضي الكنعانيون بقدرهم. فأسسوا الممالك في مدنهم. ولم يطلبوا يوماً شيئاً غير العيش بسلام في بلادهم.

وهذه الممالك الصغيرة المتفرقة في فلسطين لم تتحد لمقاومة الغزو الاسرائيلي. كما لم تتحد لمقاومة غيره من الغزاة، ربما لأنها كانت قائمة على أساس نظام دولة المدينة. فقرى ومدن كنعان الجنوبية لم تأتها أي نجدة من صور وصيدون، أو من مدن الداخل. وهذا البعد والتفرّق هو الذي جعل بعض

مرتفعات فلسطين، مثل لايش، تسقط بالغزو الاسرائيلي. بالاضافة الى عامل الغدر الذي كان وسيلة فعّالة في نجاح غزواتهم.

والحقيقة أن ما في كتاب التوراة (العهد القديم) من تناقض في مسألة دخولهم الأرض، يجعلك في حيرة من أمر هذا الدخول: أبالغزو كان أم بالتسلل؟.

وصور التناقض كثيرة. خذ مثلاً منها ما عرضه المحرّر في أمر أورشليم. ففي الفصل العاشر من سفر يشوع يقول المحرّر إن أدون صدق ملك أورشليم «أرسل الى هوهام ملك حبرون وفرآم ملك يرموت ويافيع ملك لخيش ودبير ملك عجلون، يقول: اصعدوا إليّ فنضرب جبعون لأنها صالحت يشوع وبني اسرائيل..

فأرسل أهل جبعون الى يشوع.. يقولون.. اصعد الينا..

فأتى يشوع على الملوك الخمسة بغتة.. فأزعجهم يهوه (الرب) أمام اسرائيل، وبينما هم هاربون رماهم يهوه بحجارة عظيمة من السماء، فماتوا.

فهرب أولئك الملوك الخمسة واختبأوا في مغارة.. ولما انتهى يشوع من ضربهم ضربة عظيمة جداً، حتى فنوا.. قتل الملوك الخمسة وعلّقهم على خمس خشب».

فيشوع، كما يقول محرّر السفر، قتل ملك أورشليم مع الملوك الأربعة الآخرين. وأفنى جيش أورشليم مع جيوش أولئك الملوك.

ويعود المحرّر في الفصل الخامس عشر من سفر يشوع ليقول «أما اليبوسيون الساكنون في أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فسكن بنو يهوذا مع اليبوسيين في أورشليم الى هذا اليوم».

أي يوم؟.

طبيعي يوم كتابة التوراة اليهودية في السبي البابلي، ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد الى مستهل القرن الثاني بعد الميلاد تقريباً.

وفي الفصل الأول من سفر القضاة يقول المحرّر «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار».

وفي الفصل ذاته وبعد عشرة أسطر بالتحديد يعود المحرّر ليقول «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكنوا معهم الى هذا اليوم».

وبعد هذا التناقض الصارخ الذي يسقط فيه المحرّر، وفي فصل واحد، يعود في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة، ليقول «وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في اسرائيل، كان رجل لاوي متغرّباً.. فجاء الى مقابل يبوس، وهي أورشليم.. فقال له غلامه: تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل الى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني اسرائيل هنا». (تأمّل: ليس أحد من بني اسرائيل هنا في أورشليم).

حتى داود «ملك الملوك» لم يدخل أورشليم غازياً أو فاتحاً أو محارباً، كما سنلاحظ لدى بحثنا في سيرة داود في الفصل القادم.

صورة أخرى من صور التناقض الكثيرة التي يحفل بها كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم)، نجدها في مسألة مديان. يقول المحرّر «وكلّم يهوه (الرب) موسى قائلاً: انتقم نقمة من المديانيين.. فتجنّدوا على مديان، كما أمر يهوه، وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم: أوي وراقم وصور وحور ورابع. خمسة ملوك. وسبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم. سفر العدد ٣١: ١ ـ ١٠».

نفهم من هذا النص أن هجمة بني اسرائيل البربرية لم تُبقِ على حيّ في مديان. ولكن المحرّر نسي ما لفّقه في هذا الفصل من عمليات وحشية يقشعر لها الذهن، فقال في الفصل السادس من سفر القضاة «إن يهوه دفع بني اسرائيل ليد مديان سبع سنين» أي استعبد أهل مديان بني اسرائيل سبع سنين. ويضيف «فاعتزّت يد مديان على اسرائيل. وبسبب المديانيين عمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاير.. وذلّ اسرائيل جداً من قبل المديانيين».

وفي مسألة جازر صورة أخرى من صور التناقض الكثيرة في قصة الغزو الاسرائيلي لأرض فلسطين. يقول المحرّر «وضرب يشوع ملك جازر مع شعبه حتى لم يُبقِ لهم شارداً. يشوع ١٠: ٣٣».

وفي الفصل ١٦ من السفر ذاته يقول المحرّر «وبنو افرايم لم يطردوا الكنعانيين من جازر، فسكن بنو افرايم في وسط الكنعانيين الى هذا اليوم».

وهذه الحقيقة يقرّرها المحرّر في الفصل الأول من سفر القضاة بقوله

«وإفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر».

وفي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) صور كثيرة من التناقض في قصة الغزو الاسرائيلي لأرض فلسطين. من ذلك مثلاً ما يقصّه المحرّر في الفصل العاشر من سفر يشوع بقوله إن يشوع قتل ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيش وملك عجلون، وأفنى جيوشهم. ثم ضرب مقيدة وحرّم ملكها وكل نفس بها، لم يبق شارداً. وما فعله بمقيدة طبّقه في لبنة ولخيش وجازر وعجلون وحبرون ودبير وسواها. وفي الفصل الحادي عشر يقول «فلما سمع يابين ملك حاصور أرسل الى يوباب ملك مادون والى ملك شمرون والى ملك اكشاف، والى الملوك الذين في الشمال، في الجبل وفي العربة وفي السهل وفي مرتفعات دور غرباً. الكنعانيين في الشرق والغرب، والأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين في الجبل، والحويين تحت حرمون، فخرجوا هم وكل جيوشهم معهم شعباً غفيراً كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة، بخيل ومركبات كثيرة جداً. فاجتمع جميع هؤلاء الملوك وجاؤا لكي يحاربوا اسرائيل. . فضربهم الاسرائيليون حتى لم يبق لهم شارد. . حرّموهم ولم تبق نسمة. . وكل غنيمة تلك المدن، والبهائم نهبها بنو اسرائيل لأنفسهم. أما الرجال فضربوهم جميعاً بحدّ السيف حتى أبادوهم، لم يبقوا نسمة».

وفي الفصل الثاني عشر يقول المحرّر إن يشوع «ضرب كل أرض الجبل والسهل والعربة والسفوح والبرية والجنوب، الحثيون والاموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون». ثم يعدد الملوك الذين ضربهم يشوع فبلغوا واحداً وثلاثين ملكاً.

وفي الفصل التالي مباشرة (الثالث عشر) يقول المحرّر «وهذه هي الأرض الباقية: كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين. أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزّي والاشدودي والاشقلوني والجتي والعقروني، والعويين. كل أرض الكنعانيين، ومغارة التي للصيدونيين الى أفيق، الى تخم الأموريين، وأرض الجبليين».

وفي الفصل السابع عشر من سفر يشوع يقول المحرّر «ولم يقدر بنو منسّى أن يطردوا سكان بيت شان وقراها ويبلعام وقراها وسكان دور وقراها وسكان عين دور وقراها وسكان تعنك وقراها وسكان مجدّو وقراها».

وفي الفصل الأول من سفر القضاة يكرّر المحرّر ما حكاه في الفصل ١٧ من سفر يشوع «ولم يطرد منسّى أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان مجدّو وقراها».

ويضيف المحرّر في الفصل ذاته «وافرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر. وزبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلول. ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون واحلب واكزيب وحلبة وأفيق ورحوب. ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة».

وفي مستهل الفصل الثالث من سفر القضاة يعدّد المحرّر «الأمم الذين تركهم يهوه (الرب) ليمتحن بهم اسرائيل: أقطاب الفلسطينيين الخمسة، وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين».

وكنا قد أشرنا الى قول المحرّر إن بني يهوذا لم يقدروا على طرد اليبوسيين من أورشليم (يشوع ١٥ : ٦٣). وإن بني افرايم لم يطردوا الكنعانيين من جازر (يشوع ١٦ : ١٠).

وباختصار، لم يطرد بنو اسرائيل أحداً من أصحاب الأرض، بل «سكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم. وعبدوا آلهتهم. سفر القضاة ٣: ٥».

* * *

وعلى أي حال، سواء أكان دخولهم أرض فلسطين بالتسلّل أم بالغزو، فقد ضربوا خيامهم في بعض التلول، يتخذون من صخورها وشعابها حصوناً لهم وأسواراً. يقول محرّر التوراة «وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل، ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد. سفر القضاة ١ : ٢٠». وظلّوا محصورين في التلول والشعاب، يجتنبون هبوط السهول خوفاً من سكانها. يقول المحرّر «وحصر الاموريون بني دان في الجبل، ولم يدعوهم ينزلون الى الوادي. سفر القضاة ١ : ٣٤».

لم يعرفوا يوماً حياة الاستقرار في المرتفعات التي نصبوا خيامهم فيها. ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الأمن والطمأنينة، بعدما شعروا بتعصبهم الذميم وعنصريتهم الحاقدة. فعاش بنو اسرائيل فترة طارئة في تاريخ

أرض فلسطين لا تتجاوز القرنين والنصف بين كرّ وفرّ. وكانت التلول بين أخذ وردّ. «وظلّوا محاطين في المناطق التي تفرّقوا فيها بممالك أكثر قوة وأرقى مدنيّة وحضارة»[181]. وظلّوا في هذه الفترة الوجيزة خاضعين لأصحاب الأرض. فانضوت قبائل منهم تحت سلطة الكنعانيين والفلسطينيين. وتحوّل قسم آخر الى مرتزقة. وظلّوا جميعهم في حال من التبعية والعبودية لسلطة أصحاب الأرض. يقول محرّر التوراة «فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم، ملك أرام، ثماني سنين. سفر القضاة ٣: ٨». يعني استعبدهم ملك ارام. ويضيف المحرّر «وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة. سفر القضاة ٣: ١٤». واستعبدهم «يابين ملك كنعان الذي ضايق بني اسرائيل بشدة عشرين سنة. سفر القضاة ٤: ٣». واستعبدهم المديانيون «سبع سنين.. فعمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاير.. وذل اسرائيل جداً من قبل المديانيين. سفر القضاة ٦: ٢». «واستعبدهم الفلسطينيون وبنو عمون، فحطّموا ورضّضوا بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠: ٧».

وفي مرحلة أخرى من الفترة الطارئة التي عاشها بنو اسرائيل في أرض فلسطين. استعبدهم «الفلسطينيون أربعين سنة. القضاة ١٣: ١».

وهكذا عاش بنو اسرائيل الرعاة هذه الفترة القصيرة في أرض فلسطين، مستعبدين أو اتباعاً، يحطّون رحالهم ويضربون أطناب خيامهم في حمى مملكة من ممالك فلسطين، حتى اذا ما كشفوا عن وجههم القناع، فبانت عليه ملامح الغدر والكيد والحقد، استعبدتهم المملكة المجيرة أو نبذتهم خارج تخومها. وعاش بعضهم كمرتزقة في الأرض. وكثيراً ما كان المتسلّطون عليهم أو النافذون فيهم يتصارعون في ما بين بعضهم البعض طمعاً بالمغانم التي يكسبها مرتزقتهم في هجماتهم البربرية على بعض القرى الآمنة المطمئنة (لايش مثلاً)، أو في قطعهم الطرق على التجار والمسافرين.

وغالباً ما كان النافذ بين هؤلاء المرتزقة يتزعّم على جميع بني اسرائيل. وبلغة التوراة «يتسلّط الشارد على عظماء الشعب. سفر القضاة ٥: ١٣». فحين كان جدعون متسلّطاً عليهم نجح في غزواته وهجماته، مما هيّأ لمرتزقته وافر المغانم، «فقالوا له: تسلّط علينا أنت وابنك وابن ابنك. سفر القضاة ٨: ٢٢». (تأمل: حين هيّأ جدعون لمرتزقته وافر المغانم، قالوا له: تسلّط علينا أنت

وابنك وابن ابنك). فطمع جدعون بتصاغرهم أمامه وخضوعهم له، وطلب منهم ما غنموه في احدى الغزوات. قال «أطلب منكم أن تعطوني، كل واحد، أقراط غنيمته، لأنه كان لهم أقراط ذهب. ففرشوا رداء وطرحوا عليه، كل واحد، أقراط غنيمته.. فصنع جدعون منها أفوداً (ثوب مطرّز ومرصّع بالذهب) وجعله في مدينته في عفرة. وزنى كل اسرائيل وراءه هناك. قضاة ٨: ٢٤ ـ ٢٧». (تأمل: وزنى كل اسرائيل وراء جدعون).

«وكان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات. سفر القضاة ٨: ٣٠». (هكذا يفعل زعماء المرتزقة).

وبعد موت جدعون حاول ابنه «أب ملك» أن يتسلّط على مرتزقة أبيه. فنازعه اخوته السبعون. «فاستأجر أب ملك رجالاً بطّالين، طائشين. (تأمّل: استأجر، وهل تظن أن في اللغة صفة أدق تعبيراً عن المرتزقة من صفة البطالين الطائشين؟). فسعوا وراءه (تأمل: سعوا وراءه). ثم جاء الى بيت أبيه، في عفرة، وقتل اخوته سبعين رجلاً على حجر واحد. سفر القضاة ٩: ١٤». (هكذا يفعل المرتزقة والصعاليك: صراع في ما بين بعضهم البعض، حتى بين الأخوة).

وحين قتل أب ملك اخوته «سبعين رجلاً» اجتمع المرتزقة «عند بلّوطة النصب الذي في شكيم وجعلوا أب ملك ملكاً. سفر القضاة ٩: ٦». (تأمّل: اجتمع المرتزقة عند بلوطة وجعلوا أب ملك ملكاً).

«فترأس أب ملك على اسرائيل ثلاث سنين. قضاة ٩: ٢٢». حتى ثارت عليه فرقة من المرتزقة، هم مرتزقة «شكيم الذين شدّدوا يديه لقتل أخوته. فوضعوا له كميناً على رؤوس الجبال، وكانوا يستلبون كل من عبر بهم في الطريق. قضاة ٩: ٢٥». (تأمّل ما يفعل المرتزقة وقطاع الطرق: كمين على رؤوس الجبال، واستلاب كل من عبر بهم في الطريق).

قام على رأس هذه الفرقة «جعل بن عابد مع اخوته، قال: من هو أب ملك حتى نخدمه؟.. من يجعل هذا الشعب بيدي فأعزل أب ملك. قضاة ٩: ٢٦ ـ ٢٩». (يعني متى صار هذا الشعب مرتزقة بيدي أستطيع أن أعزل أب ملك).

ويضيف المحرّر «ولما سمع زبول (من مرتزقة أب ملك) كلام جعل بن

عابد، أرسل رسلاً الى أب ملك يقول: هوذا جعل بن عابد واخوته يهيّجون المدينة ضدك. فالآن قم ليلاً أنت والشعب الذي معك واكمن في الحقل..

فقام أب ملك وكل الشعب (المرتزقة) الذي معه ليلاً وكمنوا أربع فرق. فخرج جعل بن عابد.. فقام أب ملك والشعب الذي معه من المكمن. ورأى جعل الشعب، فقال لزبول: هوذا شعب نازل عن رؤوس الجبال. فقال له زبول: إنك ترى ظلّ الجبال كأنه أناس. فعاد جعل وتكلّم أيضاً قائلاً: هوذا شعب نازل من عند أعالي الجبال، وفرقة واحدة آتية عن طريق بلوطة العائفين. فقال له زبول: أليس هذا هو الشعب الذي رذلته، فاخرج الآن وحاربه. فخرج جعل وحارب أب ملك، فهزمه أب ملك، فهرب من قدّامه. وسقط قتلى كثيرون. قضاة ٩: ٣٠ ـ ٤٠».

ويضيف المحرّر في سيرة هذا المرتزق «فأقام أب ملك في أرومة.. وكان في الغد أن أب ملك نظر واذا الشعب يخرج من المدينة. فقام عليهم وضربهم. وأب ملك والفرقة (المرتزقة) التي معه اقتحموا ووقفوا في مدخل باب المدينة. وأما الفرقتان فهجمتا على كل من في الحقل وضربتاه. وحارب أب ملك المدينة، وأخذ المدينة وقتل الشعب الذي بها، وهدم المدينة وزرعها ملحاً. قضاة ٩: ٤١ ـ ٤٥».

ويضيف المحرّر متغنّياً بسيرة هذا المرتزق «وسمع كل أهل برج شكيم، فدخلوا الى صرح بيت ايل بريث. فأُخبر أب ملك أن كل أهل برج شكيم قد اجتمعوا. فصعد أب ملك الى جبل صلمون هو وكل الشعب (المرتزقة) الذي معه. وأخذ أب ملك الفؤوس بيده وقطع غصن شجر، ورفعه ووضعه على كتفه، وقال للشعب الذي معه: ما رأيتموني أفعله فأسرعوا افعلوا مثلي. فقطع الشعب (تأمل جيداً بمصطلح الشعب) أيضاً كل واحد غصناً وساروا وراء أب ملك. ووضعوها على الصرح، وأحرقوا عليهم الصرح بالنار. فمات جميع أهل برج شكيم، نحو ألف رجل وامرأة.

ثم ذهب أب ملك الى تاباص وأخذها (أي احتلها مرتزقته). وكان برج قوي في وسط المدينة، فهرب إليه جميع الرجال والنساء وكل أهل المدينة، وأغلقوا وراءهم، وصعدوا الى سطح البرج. فجاء أب ملك الى البرج وحاربه، واقترب الى باب البرج ليحرقه بالنار. فطرحت امرأة قطعة رحى على رأس أب

ملك، فشجت جمجمته. فدعا غلامه قائلاً: اخترط سيفك واقتلني لئلا يقولوا عني قتلته امرأة. فطعنه الغلام. ولما رأى رجال اسرائيل أن أب ملك قد مات، ذهب كل واحد الى مكانه. قضاة ٩: ٤٦ ـ ٥٥». (كما يفعل المرتزقة في كل عصر وبيئة: يتفرقون عندما يسقط قائدهم).

وحين قتل أب ملك تسلّط على غزاة بني اسرائيل الصعلوك «يفتاح الجلعادي الذي كان جبّار بأس، وهو ابن امرأة زانية. قضاة ١١: ١». يقول محرّر السفر في سيرة هذا الزعيم الجديد لمرتزقة بني اسرائيل «لما كبر بنو جلعاد طردوا يفتاح، وقالوا له: لا ترث في بيت أبينا لأنك ابن امرأة أخرى. فهرب يفتاح من وجه اخوته، وأقام في أرض طوب. فاجتمع اليه رجال بطّالون (مرتزقة) وكانوا يخرجون معه. قضاة ١١: ٣». (تأمّل في هذا النموذج البارز من صعاليك بني اسرائيل: يهرب من بيت أبيه ومن وجه اخوته. ويقيم في أرض طوب. فيجتمع إليه رجال بطّالون (مرتزقة) ويخرجون معه الى قطع الطرق أو غزو المجتمعات الصغيرة، وما يلي ذلك من سلب ونهب).

ولما قوي بأس يفتاح وازداد عدد مرتزقته «ذهب شيوخ جلعاد ليأتوا بيفتاح من أرض طوب، وقالوا له: تعال وكن قائداً لنا، فنحارب بني عمون. قضاة ١١: ٥». ويضيف المحرّر إن يفتاح «ضرب بني عمّون من عروعير الى مجيئك الى منّيت، عشرين مدينة، ضربة عظيمة. قضاة ١١: ٣٣».

يبدو أن يفتاح رمى من غزوته لبني عمون، كغيره من مرتزقة بني اسرائيل وصعاليكهم، الى السلب والنهب. والدليل على أخذنا بهذا الظن أن «منفلتي افرايم اجتمعوا وقالوا ليفتاح: لماذا لم تدعنا للذهاب معك (ليكون لنا نصيب في ما غنمتموه). نحرق بيتك عليك بنار. قضاة ١٢: ١». (تأمّل: يفتاح يضرب لبني عمّون عشرين مدينة. ومع هذا يخاصمه منفلتو افرايم لأنه لم يدعهم للذهاب معه. ويهدّدونه: «نحرق بيتك عليك بنار». ومن الواضح أن منفلتي افرايم هم صعاليك خرجوا من الاطار القبلي الذي يجمعهم، وانفلتوا كصعاليك في محيطهم. وهذه الصفة [منفلت] الذي يذكرها الكتاب المقدس هي أفضل الصفات تعبيراً عن الصعلوك). فما كان من يفتاح إلا أن «أخذ مخاوض الاردن لافرايم، وكان إذ قال منفلتو افرايم: دعوني أعبر، كان رجال يفتاح يقولون له: آأنت افرايمي؟. فإن قال لا، كانوا يقولون له: قل شِبُّولَت، فيقول سِبُّولَت،

ولم يتحفظ للفظ بحق. فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الاردن. فسقط في ذلك الوقت من افرايم اثنان واربعون ألفاً. سفر القضاة ١٢ : ٢٥. (تأمّل ماذا فعل رجال يفتاح بمنفلتي افرايم. وتأمّل العدد الذي ذبحه رجال يفتاح من اخوتهم بني افرايم، لا لشيء إلا لأن يفتاح لم يدعهم للذهاب معه في غزوته لبني عمون. وهذه القصة ذكّرتني بأحد جوانب الحرب اللبنانية الطائفية القذرة (١٩٧٤ ـ ١٩٩١) وهو جانب القتل بحسب الاسم أو الهوية أو الجنسية. وأنا شخصياً، واضع هذا البحث، كدت أكون واحداً من الضحايا الذين يربو عددهم على عشرات الآلاف إن لم يكن مئات الآلاف. وإليك القصة الطريفة: كنت أقود سيارتي في طريقي الى بيروت. فأوقفني حاجز مسلّح لطائفة معيّنة على أحد مداخل بيروت. قال أحد المسلحين: هويتك. وعندما رأى الاسم صرخ بوجهي: انزل الى الأرض، انبطح. فأخذت الأرض بوجهي. صعد أحدهم الى سيارتي وانطلق بها. واقتادوني في سيارة لهم واضعين على عيني عصابة. فصرخت وبكيت كالطفل وشعرت بأن دقائق تفصلني عن الموت. وقفت بنا السيارة وفتحت الأبواب، صرخ واحد: انزل. فقلت في نفسي وأنا أنوح كالطفل: الآن الى الموت. ولكنهم اقتادوني الى أحد المنازل ورفعوا العصابة عن عيني، فسرى في عروقي دبيب الحياة، وقلت في نفسي يبدو أن الجماعة لا يريدون قتلي. فتجرأت وسألت واحداً شعرت بأن في وجهه ملامح انسان: لماذا خطفتموني؟. وأضفت: طبعاً اسمي أو مذهبي أو طائفتي، ولكن اعلموا أن لا علاقة لي بهذا الاسم أو المذهب أو الطائفة، فعندما ولدت اتفق أبي وأمي على وسمي بهذا الاسم، وعندما شببت أخذت بما هم عليه من طائفة ومذهب، والاثنان: الاسم والطائفة لم اخترهما ولم آخذ بهما رغبة أو قناعة، وإنما أُلزمت بهما ولا قدرة لي على التحرّر منهما. ومن يستطيع منكم أن يتحرّر من ربقة الاسم والمذهب؟. فلماذا تفتكون بي لذنب لم أرتكبه؟.

وخلاصة القول أُنقذت أخيراً، لا بالمحاضرة الطويلة التي ألقيتها على مسامع المسلّحين في مسألة الاسم والمذهب اللذين يشمان جباهنا من غير أن يكون لنا رأي فيهما، واللذين كانا السبب المباشر في الفتك بعشرات الآلاف من الفقراء والأبرياء. وإنما أنقذني رجل فاضل من جماعة ثالثة كان واقفاً بالصدفة في المكان الذي اختُطِفْتُ فيه، فأسرع الى قائد في جماعته، وأسرع هذا الأخير

بدوره، وكان من حلف الجماعة التي اختطفني مسلّحوها، فأنقذني.

واذا كنت قد أُنقِذْتُ بهذه الصدفة الفريدة التي كانت أشبه بورقة حظ اكسبتني الحياة، فإني فقدت صديقين حميمين ومن طائفتين مختلفتين لم يسعفهما الحظ أو القدر بهذه الصدفة فقتلا. قتل كل منهما على أيدي جماعة من غير طائفته. والاثنان بريئان وطيّبان ونبيلان الى أبعد حدود البراءة والطيب والنبل، ولا أظن أنك تجد من يفضلهما في البراءة والخلق النبيل. قتلا بذنب نسبه اليهما الآخرون (الاسم والمذهب والجنسية) وألزموهما بحمله الى أن قُضي عليهما بالذنب الذي لا تجده إلا في المجتمعات المتخلّفة ذوات الاذهان المخصيّة والعقول المعطّلة والأدمغة الفارغة كجرار الفخاري.

والمؤسف الى حدّ الاختناق، أو المذهل الى حد الانبهار، أو المخجل الى درجة الاذلال، أن كثيرين قُتلوا في الحرب اللبنانية القذرة بحسب التلفّظ، كما قُتل اثنان وأربعون ألفاً من بني افرايم على زعم التوراة. من ذلك أن كثيرين كانوا يقعون، في اثناء الحرب اللبنانية القذرة، في شباك حاجز عائد لجماعة أو طائفة أخرى. فيضطر الفرد الذي سقط في شباك الحاجز الى انكار اسمه وطائفته أو الى تغييرهما، أملاً بالنجاة. وهنا كان رجال الحاجز يقدّمون إليه حبة من البندورة سائلين: ما هذه؟ فإن قال بَندورة كتبت له النجاة، وإن قال بُندورة سيق الى الذبح، أو بالعكس.

والخلاصة، ذبح مرتزقة يفتاح اثنين وأربعين ألفاً من اخوتهم بني افرايم، على التلفّظ بـ سِبُولَت بدلاً من شِبُولَت. وبعد ألفين وثمانمائة سنة ذبح اللبنانيون كثيرين من اخوتهم بني.. على التلفّظ بـ بُندورة بدلاً من بَندورة، أو بالعكس. فتأمّل الرقي والحضارة والعقل المستنير والخلق الانساني النبيل في المجتمع اللبناني في الربع الأخير من القرن العشرين).

نعود بعد هذا الاستطراد الى صاحبنا الصعلوك يفتاح الذي «قضى لاسرائيل ست سنين. قض ١٢ : ٧». والى غيره من الصعاليك «القضاة» الذين يأخذ بتاريخهم ما يزيد على ألف وخمسمائة مليون بشري من سكان هذا الكوكب. والأدهى أن هذا التاريخ مقدس باعتبار هذه الجماهير الغفيرة من العقول المعطّلة والاذهان المخصيّة والأدمغة الفارغة كجرار الفخاري.

ولعل سيرة الصعلوك شمشون هي من أندر السير في تاريخ هؤلاء

الصعاليك، القوّاد، الأبطال، الرؤساء، الملوك، الانبياء، الذين تسلّطوا على بني اسرائيل أو «قضوا» لهم. فشمشون «كان نذيراً من البطن، وهو يبدأ يخلّص اسرائيل من يد الفلسطينيين. قض ١٣: ٥». فكيف خلّصهم؟.

يقول المحرّر إن شمشون أحب امرأة «من بنات الفلسطينيين» لأن «الفلسطينيين في ذلك الوقت كانوا متسلّطين على اسرائيل. قض ١٤: ١ ـ ٤». (تأمّل في هذه العبارة: كان الفلسطينيون في ذلك الوقت متسلّطين على اسرائيل. أقول تأمّل، لأن الجماهير المغفلة في نصف الكرة الغربي لا ترى مثل هذه العبارة ولا تتنبّه لها. واذا صدف أن تنبّه لها قلة من المفكرين، فهم أولاً أندر من حبات اللؤلؤ في خضم هذه الأمواج المتلاطمة من الجماهير المغفلة. وهم ثانياً ذوو أصوات مخنوقة وأصحاب كتابات باهتة، فلا يسمعهم أحد، ولا يقرأهم أحد).

وحدث مرّة أن شمشون أقام وليمة في بيت المرأة. «فأحضروا له ثلاثين من الأصحاب»، طرح عليهم شمشون أحجية مشروطة: فإن أظهروها يعطيهم «ثلاثين قميصاً وثلاثين حلّة ثياب». وإن لم يقدروا أعطوه مثل ذلك. وعندما أظهروا له الأحجية نزل الصعلوك شمشون وقد «حلّ عليه روح الرب، الى اشقلون، فقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم، واعطى الحلل لمظهري الأحجية. سفر القضاة ١٤».

(أرأيت الى ما يفعل الصعلوك؟: نزل الى اشقلون فقتل ثلاثين رجلاً، وأعطى حللهم لمظهري الأحجية. والطريف أن هذا الصعلوك هو أحد قضاة اسرائيل. والأطرف أن روح الرب حلّ عليه حتى استطاع أن يقتل مثل هذا العدد من الرجال).

«وشمشون أمسك ثلاث مائة ابن آوى (كيف؟ لست أدري! ولا أظن أن واحداً يدري من بين ألفي مليون بشري يقدسون هذا الكتاب أو يمحضونه الاعتراف والاحترام)، وأخذ مشاعل، وجعل ذنباً الى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين. ثم أضرم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون». ثم هرب الصعلوك شمشون «وأقام في شق صخرة عيطم».

«فصعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا. فقال رجال يهوذا: لماذا صعدتم

علينا؟. فقالوا: لكي نوثق شمشون. فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شق صخرة عيطم، وقالوا لشمشون: أما علمت أن الفلسطينيين متسلّطون علينا؟. فأوثقوه بحبلين وأصعدوه من الصخرة. فحل عليه روح الرب، فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتّان أحرق بالنار.. ووجد لحي حمار طرياً، فأخذه وضرب به ألف رجل.. ثم رمى اللحي من يده.. فشق الرب اللحي، وخرج منه ماء، فشرب. سفر القضاة ١٥». (تأمّل: ضرب شمشون باللحي ألف رجل. وقبله كان «المخلّص شمجر قد ضرب من الفلسطينيين ست مائة رجل بمنساس البقر. قض ٣: ٣١». والطريف أن روح الرب حلّ عليه. وأن الرب شقّ اللحي الذي قتل به شمشون ألف رجل، فخرج منه ماء أثلجت صدر شمشون).

وأخيراً «أمسكه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به الى غزة، وأوثقوه بسلاسل نحاس، فكان يطحن في بيت السجن. قض ١٦: ٢١». ولما «طابت قلوب الفلسطينيين قالوا: ادعوا شمشون ليلعب لنا. فدعوا شمشون من بيت السجن، فلعب أمامهم، وأوقفوه بين الأعمدة. فقال شمشون للغلام الماسك بيده: دعني ألمس الأعمدة التي البيت قائم عليها، لأستند عليها. وكان البيت مملوءاً رجالاً ونساء. وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين، وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة (تأمّل: على سطح منزل من منازل ذلك الزمان ثلاثة آلاف شخص، والمنزل قائم على عمودين) ينظرون لعب شمشون.. فقبض شمشون على العمودين اللذين كان البيت قائماً عليهما، واستند عليهما، وقال شمشون: لتمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بقوة، فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذي فيه. قض ١٦: ٢١ ـ ٣٠».

وشمشون هذا «قضى لاسرائيل عشرين سنة. قض ١٥: ٢٠».

وفي عهد القضاة ظل «الفلسطينيون متسلّطين على اسرائيل. قض ١٤: ٤». ويبدو أن الاسرائيليين حاولوا أو عزموا على التحرّر من تسلّط الفلسطينيين عليهم، «فخرجوا للقاء الفلسطينيين للحرب.. واشتبكت الحرب، فانكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين.. وجاء الشعب الى المحلّة.. وقال شيوخ اسرائيل: لنأخذ لأنفسنا تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلّصنا من يد أعدائنا. سفر صموئيل الأول ٤: ١ ـ ٤».

وقال الفلسطينيون بعضهم لبعض «تشدّدوا أيها الفلسطينيون لئلا تُستعبدوا للعبرانيين كما استُعبِدوا هم لكم.. وحارب الفلسطينيون. فانكسر اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته.. وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف راجل. وأخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب.. فركض رجل من بنيامين.. وجاء الى شيلوه.. وأخبر عالي الكاهن.. قائلاً: هرب اسرائيل أمام الفلسطينيين.. ومات ابناك حفني وفينحاس.. فسقط عالي الكاهن عن الكرسي الى الوراء وانكسرت رقبته.. وقد قضى لاسرائيل أربعين سنة. سم١ ٤: ٩ ـ ١٨».

«فناح كل بيت اسرائيل وراء الرب. سم١ ٧: ٢».

وبعد موت عالي الكاهن تربّع سموئيل على كرسي السلطة الكهنوتية. وعاش كغيره من الصفوة الكهنوتية متنعّماً بالذبائح التي تنحر على مذبح يهوه (الرب)، «وبالتقدمات التي يقرّبها بنو اسرائيل للرب. سفر لاويين ١: ١١».

ظلّ سموئيل يصرّف أمور الجماعة الى أن بلغ أرذل العمر. وبلغة التوراة «قضى لاسرائيل كل أيام حياته. سم١ ٧: ١٥». عاملاً في الوقت ذاته على امتصاص نقمة الجماعة المتفاقمة على حكم الكهنة. ويبدو أنه شعر بأن كرسي السلطة لن تكون لابنيه بعد وفاته، فعمل على نقلها إليهما في حياته معتمداً على هيبته الشخصية، وعلى مساندة زمر الانبياء. يقول محرّر التوراة «وكان لما شاخ سموئيل أنه جعل بنيه قضاة لاسرائيل. سم١ ٨: ١». ولكن ابنيه كانا على سيرة سيئة مذمومة، كابني القاضي السابق عالي الكاهن، «فلم يسلكا في طريقه، بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوّجا القضاء. سم١ ٨: ١ ـ ٣». فاستفحلت النقمة واستغلظ التذمّر، وانبرى القوم يناهضون الكهنة، وجعلوا يتنادون باحلال الحكم المدني محل الحكم الديني. ثم حزموا أمرهم وأجمعوا رأيهم أن يجبهوا سموئيل بما قرّ عليه قرارهم. يقول محرّر السفر «فاجتمع شيوخ اسرائيل جميعاً، وجاؤا الى سموئيل، الى الرامة، وقالوا له: هوذا أنت قد شخت، وابناك لم يسلكا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب. فساء الأمر في عيني سموئيل. سم١ ٨: ٦». ولم تطاوعه نفسه على التسليم بأسباب نقمة الجماعة. وأفتى بأن يهوه (الرب) هو وحده صاحب الحق في توجيههم الوجهة التي يرضاها. وقرّر أن يهوه يوحي إليه بمشيئته اللدنية ساعة فساعة، فيتولى سموئيل انفاذها أو يقوم بابلاغهم إياها.

وحاول سموئيل أن يثني الجماعة عن هذا الطلب مبيّناً مساوئ النظام الملكي. ومعدّداً مثالب الملك، بقوله «يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه، فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء الوف ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطّارات وطبّاخات وخبّازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشّر غنمكم، وأنتم تكونون له عبيداً. سم١ ١٨ : ١١ ـ ١٧».

ولكن الجماعة صمّموا في خطتهم وأصرّوا على مطلبهم. وبلغة التوراة «أبى الشعب أن يسمعوا لصوت سموئيل، وقالوا: لا، بل يكون علينا ملك. سم١ ٨: ٩».

وحين وصل تذمّر الجماعة الى حدّ التمرّد والثورة على الحكم الكهنوتي. ورأى سموئيل أن لا مناص من قيام الحكم الملكي. وقبل أن يذعن لمطلب الجماعة، فكّر في أن يكون الملك المختار ضعيف الرأي، سهل القياد. يستطيع سموئيل أن يتخذ منه دمية يحركها بحسب أهوائه ورغباته.

واتفق في تلك الأيام أن خرج من يدعى شاول بن قيس من سبط بنيامين يطلب أتناً لأبيه شردت وضلت الطريق. فجاوز في البحث عنها حمى عشيرته. ولم يزل يضرب في الأرض مع أحد الغلمان حتى وصل «الى أرض صوف، فقال شاول لغلامه تعال نرجع لئلا يترك أبي البحث عن الاتن الى البحث عنا. فقال الغلام: هوذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرّم، كل ما يقوله يصير، فلنذهب الآن إليه لعله يخبرنا عن طريقنا. فقال شاول للغلام: إن الخبز قد نفذ من أوعيتنا، وليس من هدية نقدمها لرجل الله. فقال الغلام: هوذا بيدي ربع شاقل فضة أعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا. فقال شاول لغلامه: كلامك حسن، هلم نذهب. سم١ ٩: ٥ ـ ١٠».

كان شاول شاباً وسيماً فارع الطول. ويبدو من اللقاء الأول بين الرجلين أن شاول وقع من نفس سموئيل موقعاً حسناً، ردّه محرّر التوراة الى ما يتمتع به شاول من هيبة أخاذة وجلال آسر، عبّر عنهما بقوله إن شاول «شاب وحسن، ولم يكن رجل في بني اسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل

الشعب. سم١ ٩: ٢»‏.

أما سموئيل فيبدو أنه أدرك بحدسه الرائي وفراسته الصائبة نقاط الضعف الخطيرة في شخصية شاول، وأهمها ضعف في الارادة، وتردد في اتخاذ القرارات. وهي الصفات التي كان سموئيل يريدها أن تكون في الملك المقترح رفعه على كرسي الملك في اسرائيل.

وهكذا «صب سموئيل قنينة الدهن على رأس شاول. سم١ ١٠: ١»، ظاناً أو متوهماً أو آملاً أن يكون شاول الملك المقترح رفعه على كرسي الملك في اسرائيل، دمية بيده أو خاضعاً لسطوته.

ولكي يتأكد سموئيل من رهافة حدسه وصدق ظنّه بدأ بعد «مسح شاول ملكاً على اسرائيل. سم١ ٩: ١٦»، يملي عليه الأوامر والتوجيهات، في محاولة لاكتشاف ردّة الفعل عنده، والوقوف على مدى تجاوبه مع مشيئته. فأوعز إليه أن يشخص الى جبعة. «ويكون عند مجيئك الى المدينة أنك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبأون، فيحلّ عليك روح الرب، فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر. سم١ ١٠: ٥».

وأضاف سموئيل «ثم تنزل قدامي الى الجلجال.. سبعة أيام تلبث حتى آتي اليك وأعلمك ماذا تفعل. سم١ ١٠: ٨».

وعندما استجاب شاول لأوامر سموئيل الكاهن، تكونت لدى هذا الأخير قناعة برهافة حدسه وصدق ظنه. وأضحى متأكداً أو شبه متأكد من امتثال شاول أوامره والخضوع لمشيئته. وزاد في قناعة سموئيل ببراءة هذا الشاب، وبضعف شخصيته، جملة أمور، منها مثلاً:

١ ـ أن شاول لم يصدق نفسه أنه أصبح ملكاً بالدهن الذي سكبه سموئيل على رأسه، وبالتتويج الذي جلّله به في ما كان يبحث عن أتن أبيه الضائعة. ولذلك «لم يخبر أهله بأمر المملكة الذي تكلم به سموئيل. سم١ ١٠: ١٦». وحين اجتمع الشعب برئاسة سموئيل لمسح شاول ملكاً على اسرائيل، لم يهتم شاول بكل ما يفعله سموئيل، ولم يقتنع بهذه المسرحية التي أعدها وأخرجها سموئيل، فاختبأ بين الامتعة في ما كان الجماعة ينشطون للاعداد لحفل التتويج. والقصة كما رواها محرّر التوراة تقول «استدعى سموئيل الشعب الى المصفاة.. فقدم سموئيل جميع أسباط اسرائيل، وأُخذ سبط بنيامين.. ثم فتشوا على شاول

فلم يجدوه. فسألوا من الرب: هل يأتي الرجل الى هنا؟. فقال الرب: هوذا قد اختبأ بين الامتعة. فركضوا وأخذوه من هناك. فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق. فقال سموئيل لجميع الشعب: أرأيتم الذي اختاره الرب؟ إنه ليس مثله في جميع الشعب. فهتف الشعب وقالوا ليحي الملك. سم١ ١٠: ١٧ ـ ٢٤».

٢ ـ أن قسماً من جماعة بني اسرائيل سخروا من شاول واحتقروه واستنكروا أن يخلّصهم من استعباد الفلسطينيين أو غيرهم من مجتمعات الأرض. يقول محرّر التوراة «وأما بنو بلّيعال فقالوا: كيف يخلّصنا هذا؟. واحتقروه. سم١ ١٠: ٢٧».

(وللقارئ أن يتأمل في عبارة: استدعى سموئيل الشعب الى المصفاة. كاهن يستدعي شعباً الى مكان محدّد. وهذا (الشعب) الذي جاء للمشاركة في حفل مسح شاول، أي تجليله برتبة مسيح الرب، وبالتالي تتويجه ملكاً على اسرائيل، راح يفتش على الشاب الذي سيصير بعد صب قنينة الدهن على رأسه، مسيحاً وبالتالي ملكاً. والطريف أن (الشعب) في تفتيشه على شاول لم يسأل أهله عن مكان تواجده، وإنما سأل الرب مباشرة، «فقال الرب: هوذا قد اختبأ بين الامتعة». والاطرف أن سموئيل حين اختار شاول مسيحاً للرب وملكاً على اسرائيل، قدّم بين يدي اختياره مبرّراً مفاده أن شاول «كان أطول من كل الشعب، من كتفه فما فوق»).

ورغم أن سموئيل كان مقتنعاً أو شبه مقتنع بأن الشاب الذي نصبه ملكاً على اسرائيل، سيكون دمية بيده، فقد «صبّ قنينة الدهن على رأس شاول. سم١ ١٠: ١». مرغماً، ومتبرئاً من المسؤولية على اعتبار أن يهوه (الرب) هو الذي أراد أن يكون على رأس الجماعة ملك، إذ قال «لسموئيل: اسمع لصوتهم وملّك عليهم ملكاً. سم١ ٨: ٢٢». ويهوه هو الذي اختار شاول إذ «كشف اذن سموئيل قبل مجيء شاول بيوم قائلاً: غداً في مثل هذا الوقت أرسل اليك رجلاً من بني بنيامين، فامسحه رئيساً لشعبي اسرائيل، فيخلّص شعبي من يد الفلسطينيين.. لأن صراخ شعبي قد وصل إليّ. سم١ ٩: ١٥». ويهوه هو الذي «مسحه على ميراثه رئيساً. سم١ ١٠: ١».

وعلى أي حال ظلّ سموئيل راضياً عن شاول ما دام هذا الأخير ينفّذ أوامر

ناصحه المتغطرس. ولما حاول شاول أن يحيد قيد أنملة عن أوامر سيده، حطّم سموئيل الملك الدمية وألقى به جانباً كما يلقي الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها. تبدأ القصة كما رواها محرّر التوراة مع «صعود ناحاش ملك بني عمون الى يابيش جلعاد. فقال أهل يابيش جميعهم لناحاش: اقطع لنا عهداً فنُستعبد لك. فقال لهم ناحاش العموني: اقطع لكم عهداً بتقوير كل عين يمنى لكم، وجعل ذلك عاراً على جميع اسرائيل..

فجاء رسل يابيش الى جبعة شاول وتكلموا بهذا الكلام في آذان الشعب. فرفع الشعب كلهم أصواتهم وبكوا. سم١ ١١: ١ ـ ٤». (تأمّل في: رفع الشعب كلهم أصواتهم وبكوا). «واذا بشاول آت وراء البقر من الحقل. (تأمّل في شاول الذي ما فتئ يرعى البقر حتى بعد أن نصبه سموئيل مسيحاً للرب وملكاً على اسرائيل) فقال شاول: ما بال الشعب يبكون؟. (تأمّل: الشعب يبكون). فقصّوا عليه كلام أهل يابيش. فحلّ روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام، وحمي غضبه جداً. فأخذ فدان بقر وقطّعه وأرسل الى كل تخوم اسرائيل قائلاً: من لا يخرج وراء شاول ووراء سموئيل، فهكذا يُفعل ببقره. فوقع رعب على الشعب (تأمّل في الطريقة التي جمع شاول الشعب بها حوله). فخرجوا كرجل واحد.. وكان في الغد أن شاول جعل الشعب ثلاث فرق ودخلوا في وسط المحلة عند سحر الصبح وضربوا العمونيين حتى حمي النهار. سم١ ١١: ١ ـ ١١».

وهكذا اكتشف الجماعة في ملكهم شهامة وجسارة وشجاعة دفعت بهم الى السخط على الذين سخروا من فكرة تنصيب شاول ملكاً على بني اسرائيل، وشكّوا بمقدرته على تخليصهم. وقد عبّروا عن سخطهم بقولهم: «السموئيل: من هم الذين يقولون: هل شاول يملك علينا؟. أتوا بالرجال فنقتلهم. سم١ ١١: ١٢».

ولكن، هل قرّت عين سموئيل بهذا الانتصار الذي أحرزه شاول على بني عمّون؟. (على زعم الراوي التوراتي) وهل تشفّعت هذه البطولة النادرة (على رواية الراوي التوراتي) الى كاهن بني اسرائيل (سموئيل)، في منقذ بني اسرائيل (شاول)؟.

الواقع، كما يبدو، أن النصر الذي أحرزه شاول، لم يأخذ بلب سموئيل.

ولم يصرفه عن اللهج بكرسي الملك الذي خلع منه. ولم يغفر سموئيل لشاول أنه اغتصب منه صولجان الحكم. وزاده سخطاً على شاول أن هذا الأخير اكتسب اعجاب الجماعة وولاءها. وأن (الشعب) ازداد تعلقاً به، إذ أخذوا يتجمعون حوله يوماً بعد يوم. وأخيراً أقبلوا يجدّدون له البيعة. يقول المحرّر «فذهب الشعب كله الى الجلجال، وهناك ملّكوا شاول أمام الرب، وذبحوا ذبائح سلامة. سم١ ١١ : ١٥».

ومع الأيام شعر سموئيل بأن شاول آخذ في الاستقلال عنه شيئاً فشيئاً. وبأنه يتقاعس عن تلبية ما للكهّان من رغائب، وانفاذ ما لهم من مطالب. وما أرّث نيران النقمة في صدر سموئيل على شاول أن هذا الأخير عدّ نفسه مديناً بسلطانه الى (الشعب). فوجد عليه سموئيل. وعادت سخيمته تتلظّى على هذا الرجل الذي اغتصب منه السلطان. والذي كلما سمت به انتصاراته الحربية الى منزلة رفيعة، انحطت منزلة سموئيل في أعين (الشعب). وأخيراً صحت عزيمة سموئيل على أن يبطش بشاول لأن هذا الأخير لم يفطن الى حقيقة منصبه، ولم يدرك أنه ليس إلا خادماً ليهوه (الكهنة). يهوه الذي يدلي برغبته ويعلن مشيئته بلسان سموئيل.

وهكذا أخذ سموئيل يبحث عن مناوئ لشاول يسخّره في الكيد له، وقلب ظهر المجن للملك الذي حدّ من سلطان الكهنة.

«كان شاول مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة التي في مغرون، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل. سم١ ١٤ : ٢». (تأمّل ملك اسرائيل يقيم في طرف جبعة تحت الرمانة، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل). وفي هذه الاثناء انضم الى شاول ومرتزقته «العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله. سم١ ١٤ : ٢١». (تأمّل: «العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله.. صاروا هم أيضاً مع اسرائيل الذين مع شاول». ولا أظن أن مفكّراً في نصف الكرة الغربي (بله الجماهير المغفلة) اطلع أو وقف على هذه العبارة، أو أدرك هذه الحقيقة الجوهرية: أن العبرانيين كثيراً ما كانوا يلتحقون بالفلسطينيين كمرتزقة وصعاليك، يخرجون معهم ويحاربون في صفوفهم).

واذنت الحرب بالنشوب مرة أخرى. واحتشد الفلسطينيون في «مخماس شرقي بيت أون». فدب الرعب في أوصال الاسرائيليين. «واختبأ الشعب في

المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار، وبعض العبرانيين عبروا الاردن.. وكل الشعب ارتعد وراء شاول. سم١ ١٣ : ٥ و٦». وحين «أظهر يوناثان بن شاول وغلامه أنفسهما لصف الفلسطينيين، قال الفلسطينيون: هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها. سم١ ١٤ : ١١».

فأرسل شاول يدعو سموئيل الى القيام بالمناسك التي لا يجوز، باعتقادهم، انشاب الحرب قبل القيام بها. ولكن سموئيل تثاقل عن الأمر صارفاً همه كله الى سلطانه المخلوع وامتيازاته الملغاة.

ويبدو أن تقصير سموئيل أحدث أثراً وخيماً في حالة بني اسرائيل. فقد أخمد من حماسهم وفلّ من عزائمهم، فشرعوا يتسلّلون من الصفوف وينفضّون من حول قائدهم. يقول محرّر السفر «لم يأت سموئيل، والشعب تفرّق عن شاول. سم١ ١٣ : ٨». (تأمّل: الشعب تفرق). وقد «عدّ شاول الشعب الموجود معه فبلغ نحو ست مائة رجل. سم١ ١٣ : ١٥». (تأمّل الشعب ست مائة رجل). وعندما ضاق شاول بتلبّث سموئيل ذرعاً، لم يجد مسيح الله ندحة عن أن يقوم بنفسه بالمنسك الديني. «فقال شاول قدّموا إليّ المحرقة وذبائح السلامة، فأصعد المحرقة. وكان لما انتهى من اصعاد المحرقة اذا سموئيل مقبل، فخرج شاول للقائه. فقال سموئيل: ماذا فعلت؟. فقال شاول: رأيت الشعب قد تفرّق عني، (تأمّل الشعب تفرق من حول الملك) وأنت لم تأت في الميعاد، والفلسطينيون متجمّعون في مخماس، فتجلدت وأصعدت المحرقة. فقال سموئيل لشاول: قد انحمقت، لم تحفظ وصية يهوه إلهك.. فمملكتك لا تقوم، وقد انتخب يهوه لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره أن يترأس على شعبه. سم١ ١٣ : ٨ ـ ١٤». وزعم سموئيل أن يهوه (الرب) قال له «ندمت على اني جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي. ولم يُقم كلامي. سم١ ١٥ : ١١».

وهكذا جاهر سموئيل شاول بالعداوة، وأبلغه أن الرب غيّر رأيه فيه، وأصبح شانئاً له لا يريد به يسراً. وأن الرب مزمع عزله عن الملك ليبوّئ العرش رجلاً غيره.

فلما فوجئ شاول بهذه المقالة قدّر أن وراءها شرّاً مستطيراً. فاستبد به الوجل وحاول أن يستغفر من ذنبه، ولكن هيهات أن يغفر رجال الكهنوت لمن انتزع منهم صولجان الملك بعد أن أطبقوا أيديهم عليه نيّفاً ومئتين من السنين.

والسؤال: من عسى أن يكون هذا الفتى الذي هفّ إليه فؤاد الرب، أو بالحري فؤاد سموئيل؟.

هو غلام يافع وسيم «أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. سم١ ١٦: ١٢». ثم هو الى جانب ذلك شغّاب جرئ لا يتحرّج عن دنيّة ولا يتصوّن عن مأثم (كما سيتضح لنا من سيرته). هو داود بن يسّى البيتلحمي. «فقال الرب لسموئيل أنا رفضت شاول عن أن يملك على اسرائيل. والآن املأ قرنك دهناً وتعال أرسلك الى يسّى البيتلحمي، فقد رأيت لي في بنيه ملكاً. سم١ ١٦».

فسموئيل هو الذي يفصح عن مشيئة الرب. وهو الذي خذل شاول ووجّه إليه تهمة التقصير ووصمه بالحماقة. وهو الذي اختار داود ليحلّ محل مسيح الرب شاول بعد التخلّص منه. ولكن المشكلة هي في مسح داود. فقد كان نبي الله سموئيل يفعل فعلته في الخفاء، ويحرص على أن تبقى المؤامرة التي يحوكها وينفّذها سرّاً مطوياً. وقد كان يحذر شاول، ويخشى، اذا ما كشف عن وجهه القناع، أن يبطش به شاول. ولذلك اصطنع الخديعة وتوسّل بالكذب، ونسب كل شئ الى الرب. فحين طلب إليه الرب أن يذهب الى بيت لحم ليمسح داود، «قال سموئيل للرب: كيف أذهب؟. إن سمع شاول يقتلني. فقال الرب: خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب. وادع يسّى الى الذبيحة، وأنا أعلّمك ماذا تصنع، وامسح لي داود. سم١ ١٦: ٢». (إذاً فالرب يعلّم نبيه سموئيل اصطناع الخديعة والتوسّل بالكذب).

«وكان لما جاؤا الى بيت يسّى أنه سأل عن داود، فقال له يسّى: هوذا يرعى الغنم. فقال سموئيل ليسّى: ارسل وأتِ به. وعندما وصل داود قال الرب: قم امسحه.. فأخذ سموئيل قرن الدهن ومسح داود. وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً. وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردئ من قبل الرب. سم١ ١٦: ٦ ـ ١٤».

وسموئيل هو الذي أراد ليهوه (الرب) أن يصحو الى غلطته، وأن يندم على فعلته: رفع شاول الى سدة الملك. وأراد لربه أن يعلّمه اصطناع الخديعة والتوسل بالكذب. وأراد لروح الرب أن تفارق شاول وتحلّ على داود.

وهكذا شنّ رجال الكهنوت، وعلى رأسهم سموئيل، على مليكهم حرباً ضروساً، غير معلنة، نغّصته ونهكته. وأوعزوا الى صنائعهم من خدم القصر أن

يُلقوا في روع مسيح الرب شاول أنه أضاع ما كان له من حظوة عند ربه. وأن الرب سلّط عليه روحاً شريرة توشك أن توبقه. واستعان الكهنة بعميلهم داود الذي ألحقوه بحاشية القصر ومكّنوه من شاول. فعندما «ذهب روح الرب من عند شاول، وبغته روح رديء من قبل الرب، قال عبيد شاول له: هوذا روح رديء من قبل الله يبغتك. فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود، ويكون اذا كان عليك الروح الرديء من قبل الله، أنه يضرب بيده فتطيب. فقال شاول لعبيده: انظروا لي رجلاً يحسن الضرب وأتوا به إليّ. فأجاب واحد من الغلمان وقال: هوذا قد رأيت ابناً ليسّى البيتلحمي يحسن الضرب، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه.. فأرسل شاول الى يسّى يقول: ليقف داود أمامي لأنه وجد نعمة في عيني. وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده، فكان شاول يرتاح ويطيب ويذهب عنه الروح الرديء. سم١ ١٦: ١٤ ـ ٢٣».

وهكذا أقبل مسيح الله الجديد على مسيحه العتيد يرقّه عن خناقه ويمكّن أيدي الكهنة من مخنقه. ولسنا نعلم ما تلك الأرواح الرديئة التي عند الرب والتي ألقى سموئيل بحفنة منها على شاول. ولكنا نعلم أن داود قد تسنّى له أن يدحرها بموسيقاه الرعوية. وأن يوفّر لمليكه الراحة والهدوء.

استؤنفت الحرب بين الاسرائيليين والفلسطينيين «وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا، واسرائيل وقوفاً على جبل من هناك. والوادي بينهم. فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت طوله ستة اذرع وشبر.. فوقف ونادى صفوف اسرائيل وقال لهم: لماذا تخرجون لتصطفّوا للحرب. أما أنا الفلسطيني وأنتم عبيد شاول. اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إليّ. فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا.. وظلّ الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً.. أما رجال اسرائيل جميعاً فلما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً. سم١ ١٧». (تأمّل: رجال اسرائيل جميعاً هربوا من وجه رجل فرد، وخافوا جداً). «فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلاً: ماذا يُفعل للرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ويزيل العار عن اسرائيل؟. فقال رجال اسرائيل إن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرّاً في اسرائيل.. فقال

داود لشاول: كان عبدك يرعى لأبيه غنماً فجاء أسد مع دب وأخذ شاة من القطيع. فخرجت وراءه وقتلته وأنقذتها من فيه. ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. قتل عبدك الاسد والدب جميعاً.. وهذا الفلسطيني الأغلف يكون كواحد منهما.. ثم أخذ داود عصاه بيده، وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادي وجعلها في كِنْف الرعاة الذي له أي في الجراب ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطيني.. فقال الفلسطيني لداود تعال إليّ فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية.. وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود، أن داود مدّ يده الى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته، وسقط على وجهه الى الأرض. سم١ ١٧».

«وكان حين رجع داود من قتل الفلسطيني أن النساء خرجن بالغناء والرقص للقاء شاول الملك.. وقلن: ضرب شاول ألوفه وداود ربواته.. فغضب شاول جداً، وساء هذا الكلام في عينيه. وقال: أعطين داود ربوات، وأما أنا فأعطينني الالوف..

وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الله اقتحم شاول، وجُنّ في وسط البيت. وكان داود يضرب بيده كما في كل يوم. وكان الرمح بيد شاول. فأشرع شاول الرمح وقال (في نفسه) أضرب داود حتى الى الحائط. فتحوّل داود من أمامه مرتين. وكان شاول يخاف داود لأن الرب معه، وقد فارق شاول. سم١ ١٨: ١٠ ـ ١٢».

والسؤال الذي يطرح هنا: لماذا صار شاول يوجس خيفة من داود؟. ولماذا ينفس عليه بما حظي به من ترنّم الفتيات باسمه واشادتهن بالبطولة التي أبداها حين شج رأس العملاق جليات بحجر من مقلاعه ويطحه أرضاً ثم أجهز عليه؟. ولماذا صار يباديه بالعداوة في وقت لا نعثر على الأسباب التي حوّلت قلب شاول عن داود، وأوغرت صدره عليه؟. وكيف يرشق شاول داود بالرمح مرتين، فتنبو عنه الطعنتان، ويبقى داود واقفاً أمامه؟.

المهم أن شاول عزم على التخلّص من داود. ولكن «لا تكن يدي عليه (كما يقول)، بل لتكن يد الفلسطينيين. سم١ ١٨: ١٧». وأضاف شاول في ما بينه وبين نفسه طبعاً: «اعطيه ابنتي فتكون له شركاً، وتكون يد الفلسطينيين عليه. سم١ ١٨: ٢١». وهكذا «قال شاول لعبيده: تكلموا مع داود سرّاً قائلين:

هوذا قد سُرّ بك الملك. . فالآن صاهر الملك. فتكلم عبيد شاول في أذني داود بهذا الكلام. فقال داود هل هو مستخف في أعينكم مصاهرة الملك، وأنا رجل مسكين وحقير. فنقل العبيد هذا الكلام الى شاول. فقال شاول: هكذا تقولون لداود: ليست مسرّة الملك بالمهر، بل بمئة غلفة من الفلسطينيين. سم١ ١٨».

وقد انتهز مسيح الرب هذه المناسبة السعيدة، فاحتال لهلاك صهره المنتظر إذ فرض عليه أن يمهر ابنته «بمئة غلفة من الفلسطينيين. وكان شاول يتفكّر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين. سم١ ١٨ : ٢٥»، كما يقول محرّر السفر.

فمسيح الرب لم يطلب نقوداً أو جلوداً من حيوانات نادرة، بل غلفات. ويبدو أن صنّاع الكتاب المقدس هم وحدهم الذين يدور بأخلادهم ابتداع هذا الصداق العجيب.

ومهما يكن من أمر فقد استخف الفرح داود بأن يصهر الى الملك «فذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل (قتلهم غيلة وغدراً طبعاً، لأنه بعد قتلهم، كما يزعم الراوي التوراتي، لجأ الى أخيش ملك الفلسطينيين هرباً من وجه شاول، وعاش بين الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر). وأتى بغلفهم للملك. . فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة. سم١ ١٨ : ٢٧».

وبعدما زف مسيح الرب ابنته ميكال الى داود «التمس شاول أن يطعن داود بالرمح. سم١ ١٩ : ١٠»، في ما كان هذا الأخير يضرب بالعود لتطييب نفس الملك الذي ركبته الأرواح الشريرة. «ففرّ داود من أمام شاول، فضرب الرمح الى الحائط. فهرب داود ونجا تلك الليلة. سم١ ١٩ : ١٠». «فأرسل شاول رجاله الى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح. سم١ ١٩ : ١١». ولكن ميكال ابنة شاول التي كانت تحب زوجها داود، أعانت زوجها على الفرار من وجه أبيها بأن أخرجته من النافذة، وأرقدت في فراشه صنمه المعبود، ويبدو أنه كان يضاهيه في جرمه، ووسدته وسادة من شعر المعزى، موهمة رجال الملك أن زوجها طريح الفراش. وبلغة التوراة «أخبرت داود ميكال امرأته قائلة: إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فانك تُقتل غداً. فانزلت ميكال داود من الكوة، فذهب هارباً ونجا. فأخذت ميكال الترافيم (شكل صنمي) ووضعته في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب. سم١ ١٩ : ١١ ـ ١٣».

وهكذا «هرب داود ونجا وجاء الى صموئيل في الرامة». ومن الرامة «ذهب

داود وسموئيل وأقاما في نايوت. سم١ ١٩ : ١٨». ثم آذن يوناثان داود بما يحيق به من الخطر. وساعده على الهرب والنجاة من بطش أبيه شاول. ولذلك «حمي غضب شاول على ابنه يوناثان وقال له: يا ابن المتعوّجة، المتمرّدة. أما علمت أنك قد اخترت ابن يسّى لخزيك وخزي عورة أمك، لأنه ما دام ابن يسّى حيّاً على الأرض، لا تثبت أنت ولا مملكتك. سم١ ٢٠: ٣٠».

ثم قام داود «وهرب الى نوب الى أخيمالك الكاهن. سم١ ٢١: ١». وجاء من يخبر شاول بأن الكاهن أخيمالك سهّل لداود الهرب، «وسأل له من الرب، وأعطاه زاداً وسيف جليات الفلسطيني. . فقال مسيح الرب للسعاة الواقفين لديه: دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم أيضاً مع داود، ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبروني. فدار دواغ (أحد السعاة) وقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسي أفود كتان، وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف: الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف. سم١ ٢٢».

وفي ذلك اليوم «قام داود وهرب وجاء الى أخيش ملك جت. فقال عبيد أخيش: أليس هذا داود الذي كن يغنين له في الرقص قائلات: ضرب شاول ألوفه، وداود ربواته». فأدرك داود أنه غرّر بنفسه. ولم يجد وسيلة يستنقذ بها حياته إلا أن يتجنّن عليهم. وهكذا «غيّر عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته. فقال أخيش لعبيده: هوذا ترون الرجل مجنوناً. فلماذا تأتون به إليّ؟. ألعلي محتاج الى مجانين. سم١ ٢١: ١٠ ـ ١٥».

ومن جت الفلسطينية «ذهب داود ونجا الى مغارة عدلام. سم١ ٢٢: ١». «ومن هناك ذهب داود الى مؤاب، فودع أباه وأمه عند ملك مؤاب. وأقام هو في الحصن. . ثم ذهب الى وعر الغاب. سم١ ٢٢: ٣». ومن وعر الغاب «ذهب داود ورجاله الى قعيلة. سم١ ٢٣: ٥». «فدعا شاول جميع الشعب للحرب للنزول الى قعيلة لمحاصرة داود ورجاله. فقام داود ورجاله نحو ست مائة رجل وخرجوا من قعيلة، وذهبوا حيثما ذهبوا. . وكان شاول يطلب داود كل الأيام. سم١ ٢٣: ٧ ـ ١٤».

وعندما «رأى داود أن شاول قد خرج يطلب نفسه. . ذهب الى الجبل في

برية زيف في الغاب. سم١ ٢٣: ١٥». ثم «أقام داود ورجاله في برية معون. فلما سمع شاول تبع داود الى برية معون. . وكان داود يفرّ من أمام شاول. وكان شاول ورجاله يحاوطون داود. سم١ ٢٣: ٢٤ ـ ٢٦».

«وصعد داود من هناك وأقام في حصون عين جدي. سم١ ٢٣: ٢٩». «فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع اسرائيل وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول. وجاء الى صير الغنم التي في الطريق. وكان هناك كهف، فدخل شاول لكي يغطّي رجليه (كناية عن شعوره بالنعاس). وداود ورجاله كانوا جلوساً في مغابن الكهف. فقال رجال داود له: هوذا اليوم الذي قال لك عنه الرب هانذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن في عينيك. فقام داود وقطع طرف جبة شاول. سم١ ٢٤: ٢ ـ ٥».

الطريف في هذه المغامرة بين ملك اسرائيل وبين قائد المرتزقة (داود)، أن شاول الذي خرج يطلب حياة داود، وقع بيد داود. وأن داود الملاحق المطارد (بفتح الراء) هو الذي ظفر بغريمه، واقتنص في حبالته ذاك الذي جاء يبغي احتباله. إلا أنه تأثم وأبى أن يلحق الاذى بمسيح الرب. إذ «قال لرجاله حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي، مسيح الرب، فأمد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو. فوبّخ داود رجاله بالكلام، ولم يدعهم يقومون على شاول. وأما شاول فقام من الكهف وذهب في طريقه.

ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف، ونادى وراء شاول قائلاً: يا سيدي الملك. ولما التفت شاول الى ورائه، خرّ داود على وجهه الى الأرض وسجد. وقال داود لشاول: لماذا تسمع كلام الناس القائلين: هوذا داود يطلب أذيتك. هوذا قد رأت عيناك اليوم هذا كيف دفعك الرب اليوم ليدي في الكهف، وقيل لي أن أقتلك، ولكنني أشفقت عليك وقلت لا أمد يدي الى سيدي لأنه مسيح الرب هو. فانظر يا أبي انظر أيضاً طرف جبتك بيدي. سم١ ١٤: ٦ ـ ١١». وأضاف قائد المرتزقة موبخاً ملك اسرائيل «وراء من خرج ملك اسرائيل؟. وراء كلب ميت، وراء برغوث واحد. سم١ ٢٤: ١٤».

ولما أشهد داودُ شاولَ على بغيه، استعبر شاول وأنحى على نفسه تثريباً وتقريعاً. «وقال لداود: أنت أبرّ مني لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتك شرّاً. وقد أظهرت اليوم أنك عملت بي خيراً لأن الرب قد دفعني ليدك ولم تقتلني. .

ورفع شاول صوته وبكى. سم١ ٢٤: ١٧».

وهذه المغامرة سردت أيضاً في الفصل ٢٦ من سفر صموئيل الأول. يقول المحرّر «جاء الزيفيون الى شاول الى جبعة قائلين: أليس داود مختفياً في تل حخيلة الذي مقابل القفر. فقام شاول ونزل الى برية زيف ومعه ثلاثة آلاف رجل منتخبي اسرائيل لكي يفتش على داود في برية زيف. ونزل شاول في تل حخيلة الذي مقابل القفر.. فقام داود وجاء الى المكان الذي نزل فيه شاول.. فجاء داود الى الشعب ليلاً واذا بشاول مضطجع عند المتراس ورمحه مركوز في الأرض عند رأسه. والشعب مضطجعون حواليه. فقال أحد رجال داود: قد حبس الله اليوم عدوك في يدك، فدعني الآن أضربه بالرمح.. فقال داود: من الذي يمد يده الى مسيح الرب ويتبرّأ.. حاشا لي أن أمدّ يدي الى مسيح الرب.. فأخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول.. وعبر داود الى الجبل ونادى شاول قائلاً إن ملك اسرائيل قد خرج ليفتش على برغوث واحد.. فقال شاول: قد أخطأت. هوذا قد حمقت وضللت كثيراً جداً. سم١ ٢٦».

وفي الفصل ٢٥ من سفر صموئيل الأول يحكي لنا محرّر السفر قصة طريفة لداود الصعلوك الذي كان يغير بعصابته على الآمنين ويقسرهم على أداء الأتاوة. لعلّها من أطرف القصص التي وصلتنا عن صعاليك بني اسرائيل. فحين «كان داود في البرية سمع أن نابال الكرملي يجز غنمه». فأرسل داود نفراً من غلمانه الى نابال يطلب إليه الأتاوة على اعتبار أن «رعاتك حين كانوا معنا في البرية لم نؤذهم ولم يُفقد لهم شيء». وهذه منّة ينتظر داود طبعاً، لأن داود «وقد ضرب الأرض غازياً، فلم يستبق رجلاً ولا امرأة إلاّ وأخذ منهم الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب. سم١ ٢٧: ١١» كان باستطاعته أن يغير على رعاة نابال ويقتنص منهم الأغنام عنوة واقتداراً.

وكان من الطبيعي أن يذود الرجل (نابال) عن كرامته وعن ثروته، فلا يذعن للتهديد ولا يرضخ للابتزاز. فردّ على غلمان داود بسؤال استنكاري بليغ «من هو داود، ومن هو ابن يسّى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده. آآخذ خبزي ومائي وذبيحي وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟. سم١ ٢٥: ١٠».

ورجع الغلمان الى شيخ المنسر برجع رسالته. «فقال داود لرجاله: ليتقلد

كل واحد منكم سيفه.. وصعد وراء داود نحو أربع مئة رجل، ومكث مئتان مع الأمتعة. سم١ ٢٥: ١٣».

وقبل أن ينطلق داود بعصابته لغزو نابال «أخبر أحد الغلمان ابيجايل امرأة نابال.. بأن الشرّ قد أُعِدّ على سيدنا (نابال). سم١ ٢٥: ١٢». فانطلقت المرأة فوراً الى فتى الفتيان مسبوقة بقدر كبير من الزاد تطرفه به. وبلغة محرّر السفر «بادرت ابيجايل وأخذت مئتي رغيف خبز وزقّي خمر وخمسة خرفان مهيأة وخمس كيلات من الفريك ومئة عنقود من الزبيب ومئتي قرص من التين، ووضعتها على الحمير، وقالت لغلمانها: اعبروا قدامي.. وفي ما هي راكبة على الحمار ونازلة في سترة الجبل، إذا بداود ورجاله منحدرون.. ولما رأت ابيجايل داود أسرعت ونزلت عن الحمار وسقطت أمام داود على وجهها وسجدت الى الأرض.. وقالت: عليّ أنا يا سيدي هذا الذنب.. لا يضعن سيدي قلبه على هذا الرجل اللئيم نابال.. وأنا أمتك لم أرَ غلمان سيدي الذين أرسلتهم سم١ ٢٥: ١٨ ـ ٢٥». فردّ عليها داود قائلاً: «لو لم تبادري وتأتي لاستقبالي، لما أبقي لنابال الى ضوء الصباح بائل بحائط».

ويضيف المحرّر «وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال، فمات. سم١ ٢٥: ٣٨». (كذا: ضرب الرب نابال فمات، وبعد عشرة أيام فقط) «فأرسل داود وتكلم مع ابيجايل ليتخذها امرأة. سم١ ٢٥: ٣٩».

* * *

ظلّ شاول جاداً في استقصاء أخبار قائد المرتزقة داود وملاحقته. وحين اشتدت مطاردته له «قال داود في قلبه: إني سأهلك يوماً بيد شاول، فلا شيء خير لي من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين. فييأس شاول مني، فلا يفتش عليّ. فقام داود وعبر هو والست مائة الرجل الذين معه، الى أخيش ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله. سم١ ٢٧: ١ ـ ٣».

وفي تلك الأيام (أيام لجوء داود الى الملك الفلسطيني أخيش) «مات سموئيل.. واجتمع الفلسطينيون في شونم. وجمع شاول جميع اسرائيل ونزل في جلبوع.. ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً. فسأل من الرب، فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالاوريم ولا بالانبياء. سم١ ٢٨: ٥». وطفق الكهنة يكيدون شاول زاعمين أن يهوه (الرب) حال عن مودته

وكفّ عن نصرته. فتلبّد الجو في وجهه، وأعيت عليه معالجة الخطر المحدق به. وأراد أن يستخير ربه فإذا هو قد تجمّدت قريحته وتبلّدت مخيلته حتى استعصى عليه أن يرى رؤيا يفسّرها بما تشاء له وساوسه وأوهامه. ولم يجد بداً من الانصراف الى الجان عوضاً عن الإله. واللواذ بالسحرة بدلاً من الانبياء. «فقال شاول لعبيده فتّشوا لي على امرأة صاحبة جان، فأذهب إليها وأسألها. فقال عبيده: هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور».

«فتنكّر شاول ولبس ثياباً أخرى.. وجاء الى المرأة.. فقالت المرأة: من أُصعد لك؟. فقال شاول: أصعدي ليس سموئيل. فلما رأت المرأة سموئيل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول: لماذا خدعتني وأنت شاول؟!. فقال لها الملك: لا تخافي. وماذا رأيت؟. فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة (تقصد رفائيم ومعناها أشباح الموتى. وهذا يعني أنها رأت شبح سموئيل) يصعدون من الأرض. فقال شاول: ما هي صورته؟. فقالت رجل شيخ مغطى بجبة. فعلم شاول أنه سموئيل. فخر على وجهه الى الأرض وسجد. فقال سموئيل لشاول: لماذا أقلقتني باصعادك أياي؟. فقال شاول: قد ضاق بي الأمر جداً. الفلسطينيون يحاربونني، والرب فارقني ولم يعد يكلمني، لا بالأنبياء ولا بالاحلام. فدعوتك كي تعلمني ماذا أصنع؟. فقال سموئيل: ولماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك. وقد فعل الرب لنفسه كما تكلّم عن يدي. وقد شقّ الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود.. ويدفع الرب اسرائيل أيضاً معك ليد الفلسطينيين. وغداً أنت وبنوك تكونون معي. ويدفع الرب جيش اسرائيل أيضاً ليد الفلسطينيين. سم١ ٢٨: ٥ ـ ١٩».

* * *

ذكرنا أن «داود عبر هو والست مائة الرجل الذين معه، الى أخيش ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله. سم١ ٢٧: ١ ـ ٣». وفي أحد الأيام «قال داود لأخيش: إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في إحدى قرى الحقل، فأسكن هناك.. ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك؟. فأعطاه أخيش صقلغ.. وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر. سم١ ٢٧: ٥ ـ ٧».

وكانت «عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين» أن يقوم بالغزو «فيأخذ

الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع الى أخيش. سم١ ٢٧: ٩ ـ ١١». وكثيراً ما كان يقوم بالاغارة «على جنوبي يهوذا». وفي اغارته على يهوذا ـ قبيلته، «صدّق أخيش داود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد. سم١ ٢٧: ١٠ ـ ١٢».

«وكان في تلك الأيام أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا اسرائيل. فقال أخيش لداود: اعلم يقيناً أنك ستخرج في الجيش أنت ورجالك. فقال داود لأخيش: وأنت ستعلم ما يفعل عبدك. فقال أخيش لداود: لذلك سأجعلك حارساً لرأسي كل الأيام. سم١ ٢٨: ١».

«فقال رؤساء الفلسطينيين: ما هؤلاء العبرانيون؟. فقال أخيش لرؤساء الفلسطينيين: أليس هذا داود عبد شاول، ملك اسرائيل، الذي كان معي كل هذه الأيام وهذه السنين. ولم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم؟. فقال له رؤساء الفلسطينيين: ارجع الرجل الى موضعه الذي عيّنت له، ولا ينزل معنا الى الحرب، ولا يكون لنا عدواً في الحرب. . فدعا أخيش داود وقال له: خروجك ودخولك معي في الجيش صالح في عيني لأني لم أجد فيك شرّاً من يوم جئت إليّ الى هذا اليوم، وأما في أعين الاقطاب فلست بصالح. فالآن إرجع. فقال داود لأخيش: فماذا عملتُ؟. وماذا وجدتَ في عبدك من يوم صرتُ أمامك الى اليوم، حتى لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟. سم١ ٢٩: ٣ ـ ٨».

وهكذا كان داود مثال الصعلوك في علاقته مع الفلسطينيين. فالصعلوك كما عرفنا من أخبار العربية الشمالية قبل الاسلام هو الرجل المطرود من قبيلته لسبب أو لغيره. فإذا التجأ الى قبيلة أخرى، واحتضنته القبيلة بعامل المروءة العربية المشهورة، أصبح كواحد منها، له ما لأفرادها وعليه ما عليهم. فتسري عليه قوانينهم، ويأخذ بأعرافهم وتقاليدهم، ويتجاوب مع سلوكهم وأخلاقهم. يحارب من يحاربون أو يعادي من يعادون. وهكذا كان داود طوال مدة اقامته في بلاد الفلسطينيين، والتي جاوزت سنة وأربعة أشهر، مثال الصعلوك في علاقته مع الفلسطينيين، والذين آووه في هربه من وجه شاول، وأسبغوا عليه وعلى رجاله الحماية. وفي طلبه مكاناً يسكن فيه وتحديد المكان «في احدى قرى الحقل» تعبير صادق عن مشاعر الصعلوك الذي يرى أن في بعده عن مدينة المملكة خيراً له ولساكنيها، ويردف تبريره بسؤال تستشف منه روح المسكنة

والاتضاع من عبد مطارَد أمام سيد ملك: «ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة؟».

وكان داود في بلاد الفلسطينيين مثال الصعلوك في سلوكه ومواقفه. فهو يغزو ويأتي بغنائمه الى سيده. يقول المحرّر «وهكذا عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينين» يقوم بالغزو «ويأخذ الغنم والبقر والجمال والثياب ويرجع الى أخيش».

ولعل أهم دليل على مثاليته في الصعلكة هو قيامه بغزو «جنوبي يهوذا». فهو يريد أن يُشعر سيده وحاميه أخيش بأنه انخلع نهائياً من قبيلته يهوذا، فهو يعاديها ويغزوها، لأن قبيلته الجديدة (الفلسطينيين) تعادي يهوذا وتغزوها. وقد كان هذا الموقف المثالي في صعلكة داود دافعاً لأن «يصدق أخيش داود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد».

وزاد في تأكيد سلوكه المثالي في حركة الصعلكة، عزمه على الانخراط في جيش الفلسطينيين الزاحف لمحاربة اسرائيل. فحين قال له أخيش: «إنك ستخرج معي» أجاب داود «وأنت ستعلم ما يفعل عبدك». وهذا الموقف المثالي زاد من ثقة أخيش به فقال له «لذلك أجعلك حارساً لرأسي كل الأيام». فغزوه ليهوذا، وعزمه على الانتظام في جيش الفلسطينين لمحاربة اسرائيل، دفع أخيش الى زرع الثقة العمياء في شخصية هذا الصعلوك، فائتمنه على رأسه «كل الأيام». يضاف الى ذلك أن شعور أخيش بصدق داود وباخلاصه ووفائه، حداه الى مجابهة أقطاب الفلسطينيين الذين شكّوا بداود وباخلاصه، قائلاً لهم: «لم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم».

أما داود الذي أحسّ بأن ايهام الملك أخيش بمثاليته في الصعلكة، قد فعل فعله في نفس أخيش، فراح يؤكد هذا الايهام بموقف المجروح الكرامة الذي اصطنعه. فحين وجّه أقطاب الفلسطينيين سهام الشك الى صدقه واخلاصه، انبرى كالمطعون في (موقفه النبيل) مدافعاً عن نفسه: «وماذا عملتُ؟. وماذا وجدت في عبدك من يوم صرت إليك الى اليوم؟.» ويعمل على تعميق الايمان في صدر أخيش بمثاليته في الصعلكة، بموقف المنخلع نهائياً من قبيلته (اسرائيل)، والملتصق الى النهاية بقبيلته الجديدة (الفلسطينيين). فيقول لأخيش: «ولماذا لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟.» وهل أعداء سيده الملك غير

اسرائيل قبيلة داود قبل أن يخلع منها ويطرد؟.

كانت مصلحة داود تتطلّب منه هذه المواقف وأشكال السلوك التي تؤكد كلها مثاليته في حركة الصعلكة. فقد كان يصبو الى ملك كالكثيرين من قادة المرتزقة في تلك الأيام. وكان مدركاً، منذ أيام خدمته لشاول، أن قبائل الجنوب ـ يهوذا ليست راضية عن شاول البنياميني ملكاً عليها. فراح يؤرث في الصدور نيران الثورة على شاول، ويعمل على استمالة هذه القبائل. وعلى كسب ودّ الفلسطينيين، لايهامهم بمثاليته في الصعلكة. ومثل هذه الأعمال يصح في القادة المرتزقة. فحين «حارب الفلسطينيون اسرائيل، هرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، وقتل شاول وأولاده الثلاثة. سم١ ٣١: ١ ـ ٦». فرأى داود أن مصلحته تقضي بخلع نفسه من قبيلته الجديدة (الفلسطينيين)، والعودة الى قبيلته السابقة (يهوذا)، لأن خصمه مات، وعليه أن يعمل بجد وسرعة للوصول الى كرسي الملك بعده. وهكذا تمرّد داود في حبرون فور وصول خبر مقتل شاول. وتمرّده لا يعدو أن يكون بمساعدة الفلسطينيين، مما يسهّل عليهم تثبيت السيطرة على الخط التجاري، وتعطيل الأمر على منافسيهم الصوريين.

وكان من السهل أن يملك داود في قبائل الجنوب، بمساعدة الفلسطينيين، بعد أن تأكد لهم أن تمليكه في الجنوب يضعف شاول الموالي لصور. وهكذا انقسمت القبيلة الاسرائيلية، بعد مقتل شاول، الى فخذين: يهوذا، ملك عليه داود. واسرائيل، ملك عليه ايشبوشت بن شاول. «وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود. سم٢ ٣: ١».

وقد عمل داود بدهائه ومكره على تصفية المنازع الأول لملكه، ايشبوشت بن شاول. فقد «كان لابن شاول رجلان رئيسا غزاة» (مرتزقة). استمالهما داود، فخانا سيدهما ايشبوشت ودخلا الى مضجعه، «فقتلاه وحملا رأسه الى داود في حبرون». ولكن داود، دفعاً للتهم بأنه يحارب من ينازعه الملك، وطمعاً في كسب عطف اتباع شاول وولائهم، وببعد نظره، أظهر حزنه وأسفه على ايشبوشت، وحكم على قتلته بالاعدام ليتنصّل من الجريمة. «فأمر الغلمان فقتلوهما. سم٢ ٤».

وبعد مقتل ايشبوشت انضم الفخذان، يهوذا واسرائيل، بعد سبع سنين من

الصراع، وملك عليهما داود.

وعندما اشتهر داود، رأى ملك صور، أحيرام الأول (٩٦٩ ـ ٩٣٥ ق.م.)، أن يستعين به في تأمين طريق صور التجارية الى البحر الأحمر. وقبل أحيرام كان والده أب بعل (٩٨٠ ـ ٩٦٩ ق.م.) قد سعى الى تركيز قدرة كنعان التجارية والحضارية في العالم. وكان الأصل في التجارة الكنعانية أن تذهب الى البحر الأحمر عن طريق مصر. بيد أن مصر كانت في حالة من الفوضى في ذلك الوقت. ولعل عقبات أخرى حالت دون مرور التجارة الكنعانية في تلك الطريق. وفي كنعان الجنوبية ـ الدرب الأخرى الى البحر الأحمر، كثير من الغزاة وقطّاع الطرق. وكان الصوريون قد استنكفوا عن استعمال هذه الدرب التجارية بعد انتشار عصابات الصعاليك والمرتزقة في منطقة التلال التي استوطنتها القبائل العبرية. فرأى أب بعل أن يستأجر «رئيس غزاة» ليحمي قوافله، فاستدرج شاول. وعندما ملك أحيرام الأول على صور بعد موت أبيه أب بعل، استدرج داود.

بقي «ملك الملوك»، «مسيح الرب» داود الصعلوك، عميلاً لملك صور، وملكاً على قبيلتي اسرائيل ويهوذا، الى أن فتن عليه صعلوك آخر ـ ابنه ابشالوم الذي «اتخذ مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون أمامه.. واسترق قلوب رجال اسرائيل.. وأرسل جواسيس في جميع أسباط اسرائيل قائلاً: اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم في حبرون. وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل.. وكانت الفتنة شديدة. وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم. سم٢ ١٥».

وتناهت أخبار الفتنة الى مسيح الرب، وأدرك أنه لا قبل له بالمتذمّرين منه والمتمردين عليه. ويبدو أنه شعر بالرعب يسري في أوصاله عندما تذكر ما كان يمارسه هو من أعمال القساوة والضراوة، وما يأتيه من ضروب التنكيل بالمهزومين من خصومه وأعدائه. وأدرك بالحدس ان ابنه ناهج نهجه، ولن يكون أعفّ منه. فأيقن أن السلامة في الهرب. «فقال داود لجميع عبيده الذين معه: قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم. اسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا ويُنزل بنا الشرّ، ويضرب المدينة بحدّ السيف».

«وقيل لداود إن اخيتوفل (مشير داود) بين الفاتنين مع ابشالوم. سم٢ ١٥».

«وصعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً. وجميع

الشعب الذين معه، غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون. سم٢ ١٥».

وراح الملك داود المتخفّي في رأس الجبل، يرسل الجواسيس متسقّطاً اخبار ابنه الذي فتن عليه وملك في حياته. وجاءه من يقول «هوذا ابشالوم مقيم في أورشليم لأنه قال: اليوم يردّ لي بيت اسرائيل مملكة أبي. سم٢ ١٦: ٣».

«ولما جاء الملك داود الى بحوريم اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. . ويقول في سبّه: اخرج يا رجل الدماء، قد ردّ الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه. ودفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك، وها أنت واقع بشرّك لأنك رجل دماء. سم٢ ١٦: ٥ ـ ٨». (تأمّل: رجل فرد يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. وتأمل: رجل واحد يسبّ ملك الملوك ونبي الانبياء، ومسيح الرب قائلاً: اخرج يا رجل الدماء).

ونصح أخيتوفل لابشالوم أن يصطنع الحزم ويبدي قوة العزم، ويسلك مسلكاً يقنع الخائفين والمترددين بأنه قد أحرق سفنه وراءه وقطع كل صلة له بأبيه. واختار له أن يدخل على سراري أبيه ويستبيحهن لنفسه في وضح النهار. فحين «قال ابشالوم لأخيتوفل: اعطوا مشورة. ماذا نفعل؟. قال أخيتوفل لابشالوم: ادخل الى سراري أبيك، فيسمع كل اسرئيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك، فتتشدّد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح، ودخل الى سراري أبيه أمام جميع اسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل في تلك الأيام كمن يسأل بكلام الرب. سفر صموئيل الثاني ١٦».

هذا ما فعله ابشالوم بزوجات أبيه الذي كان «مختبئاً في احدى الحفر. سم٢ ١٧: ٩». وأخيراً بعد سلسلة من أعمال الجاسوسية، شبّ قتال بين اتباع داود واتباع ابنه ابشالوم، «فانكسر شعب اسرائيل أمام عبيد داود، وقتل ابشالوم. وهرب كل اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سم٢ ١٨: ١٧».

وعلى اثر تمرّد ابشالوم ووصوله الى (بلاط) أبيه، الهارب من وجهه، ومضاجعته لسراري أبيه. فقد داود ثقته بأولاده، ووعد زوجته الكنعانية بتشبع بأن يورث ابنها سليمان العرش من بعده.

وهنا أرى من الضروري الاشارة الى قصة داود مع بتشبع الكنعانية. ففي إحدى الأمسيات صعد داود الى سطح داره وجعل يسرّح بصره في بيوت جيرانه. فآنس عن كثب منه امرأة تستحم في دارها، فأحدّ النظر إليها فإذا هي شابة ممشوقة، أسرى منظرها الدم ساخناً في شرايينه. فأرسل يستقدم بعض خبرائه سائلاً عنها وعن أخبارها. والقصة كما لخصها محرّر التوراة «كان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة. فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت ايل عم، امرأة أوريا الحثي. فأرسل داود رسلاً وأخذها. فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها. ثم رجعت الى بيتها. سفر سموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٤».

فـ «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي لم يضيّع لحظة من وقته الثمين في التودّد الى المرأة التي شهقت إليها نفسه، ولم يرَ أن يجلس إليها ساعة في ضوء القمر يبثّها لواعج حبه وهيامه. بل بادر بارسال زبانيته يجلبونها إليه كأنما هي بغي محترفة. وما لبث أن مال بها الى مخدعه ليطفئ فيها لظى شبقه. فلما قضى منها وطراً أعادها الى بيتها.

«رجعت الى بيتها، وحبلت المرأة. فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى. سم٢ ١١: ٥».

الفصل قصير ولكن المشهد مثير. أرأيت الى الالفاظ كيف تؤدي دورها بدقة في التعبير عن المشاهد المتتابعة في ترابط محكم ترابط السبب بالنتيجة: رأى المرأة تستحم. كانت جميلة جداً. أرسل في طلبها. دخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهّرة من طمثها، فحبلت.

لم يدر بخلد داود أن يصطنع وسيلة تعصمها من الحبل، مثلما فعل أونان بن يهوذا بن يعقوب، «فحين مات عير بكر يهوذا، قال يهوذا لأخيه أونان: ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكي لا يعطي نسلاً لأخيه. سفر التكوين ٣٨».

ليت داود «أفسد على الأرض» كما فعل أونان. فبعدما أطفأ في المرأة «الجميلة جداً» لظى شبقه، أرسل في طلب الزوج المثلوم العرض من ساحة

المعركة، على تقدير أن يبيت في بيته ويضاجع امرأته، فينسب الطفل الذي حملت به بتشبع لأوريا، وليس لداود.

ولكن أوريا لم يبت في بيته، وبالتالي لم يعاشر زوجته. لقد عزّ عليه أن ينعم بالعطلة الممنوحة له، وأن يستمتع بمعاشرة زوجته الفاتنة، بينما يعاشر اخوانه الموت في ساحة المعركة. «فنام على باب بيت الملك. سم٢ ١١: ٩». وفي الصباح سأله داود: «لماذا لم تنزل الى بيتك؟». فأجاب أوريا بشهامة واباء ومروءة، قلّ أن تجد نظيراً لها. «إن التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام.. وأنا آتي الى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي. وحياتك لا أفعل هذا الأمر. سفر سموئيل الثاني ١١: ١١».

أما داود فلم ينبض في صدره عرق بمثل ما خالج أوريا من أحاسيس انسانية ومشاعر نبيلة. وبالعكس كانت (شهامة) هذا المسيح الذي «انتخبه الرب لنفسه حسب قلبه سم١ ١٣: ١٤»، أنه «كتب في الصباح الى يوآب (القائد) يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وأرسل المكتوب بيد أوريا. سفر سموئيل الثاني ١١: ١٤».

وهكذا «مات أوريا الحثي». «فأرسل داود الى امرأة أوريا، وضمّها الى بيته، فصارت» واحدة من محظياته. سم٢ ١١: ٢٦.

أعتقد أن التاريخ لم يسجل قصة حيكت أحداثها أحط أنواع المخادعة الغادرة وأبشع ألوان القسوة البالغة، كقصة «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي. وليس من قصة كان بطلها الشخصية النموذج في ممارسة الشهوة البهيمية، وفي العري النفسي الرهيب من أية مشاعر انسانية، كهذه القصة. فداود يسطو على زوجة أحد جنوده أثناء غيابه في ساحة المعركة يحامي عن داود ومملكة داود. ثم يتآمر هذا الملك النبي على حياة الجندي ليخلو له الجو، فيتزوج المرأة الجميلة التي زنا بها.

ولعل حبكة المؤامرة من أشرس وأقذر الوسائل التي عرفها التاريخ في الوصول الى الغاية. فداود ـ النموذج الفريد في الغدر والعدوان والقسوة والخداع، حمّل أوريا الحثي ـ النموذج الكنعاني الفريد في الشهامة والترفّع والاخلاص والاحساس بالواجب والشعور بمشاركة الآخرين، حمّله كتاب موته. رفض أوريا أن يعاشر زوجته. وعاد الى الجبهة ليعاشر الموت دفاعاً عن داود.

ولم يكن يدري أنه يحمل بيده كتاب موته في أقذر عملية غدر وخداع حفظها بين دفتيه كتاب مقدس أو غير مقدس.

ولعل هذا الفصل الذي قام «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود النبي، بدور البطولة فيه، هو من أقذر فصول الغدر التي مثلها آباء، أنبياء، حكماء، وقضاة بني اسرائيل، بين دفتي هذا الكتاب المقدس.

المهم أن داود، حين فقد ثقته بأولاده اثر تمرّد ابشالوم ومضاجعته لسراري أبيه، وعد زوجته الكنعانية بتشبع بأن يورث ابنها سليمان العرش من بعده. ولما علم أولاده بالأمر عمدوا الى التآمر عليه، خاصة أدونيا. وانقسم رجال بيته الى حزبين: واحد يؤيد الابن الأكبر لداود أدونيا، وينادي بحقه في خلافة أبيه. وآخر يناصر الابن العاشر، سليمان بتأثير المساعي التي بذلتها أمه الكنعانية الجميلة بتشبع. عندها جزعت بتشبع وخافت من أن يفاجئ الموت داود، فيستولي أدونيا على العرش. فتقدمت برفقة ناثان النبي تطالب زوجها بتنصيب سليمان على العرش في حياة أبيه تحقيقاً لوعده لها. وقد استطاعت أن تقنع داود بالتخلّي عن العرش لصالح سليمان، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره. فلبّى داود طلبها وتنازل عن العرش لسليمان. «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو والجلاّدون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود وذهبوا به الى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان، وضربوا بالبوق، وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان. سفر الملوك الأول ١ : ٣٨».

ولما حضر الموت داود نادى سليمان وأوصاه بأن يقسو على خصومه ولا يرحم منهم أحداً، وأمره بقتل قائده المظفر يوآب. ويوآب هو في ما علمنا:
- الذي فتك بابشالوم الابن العاق لداود.
- الذي أنفذ أمر داود بقتل أوريا الحثي زوج بتشبع.
- الذي صرع ابنير ليمكّن داود من مليكه ايشبوشت بن شاول.
- الذي صرع عماسا القائد السابق لجيش ابشالوم.
- الذي أيّد أدونيا على سليمان عندما تنازعا تاج الملك.

وداود أمر سليمان بأن يقتل كذلك شمعي، وكان قد أظهر الشماتة بداود يوم فرّ هارباً من وجه ابنه ابشالوم. قال داود «وهو لعنني لعنة شديدة.. والآن

احدر شيبته بالدم الى الهاوية. مل١ ٢: ٩».

وقد نفّذ سليمان أوامر أبيه، فبطش أولاً بأخيه أدونيا إذ «أرسل بيد بناياهو فبطش بأدونيا فمات مل١ ٢: ٢٥». وعلم يوآب أنه قد حان حينه فتحرّم بخيمة الرب. يقول المحرّر «فهرب يوآب الى خيمة الرب وتمسّك بقرون المذبح. مل١ ٢: ٢٨». ولكن ذلك لم يغن عنه شيئاً فقد أمر سليمان بانتهاك حرمة الخيمة وسفك دمه. «فصعد بناياهو وبطش به. مل١ ٢: ٣٤». وأمر سليمان بقتل شمعي أيضاً «فخرج بناياهو وبطش به. مل١ ٢: ٤٦».

وعن حياة سليمان الخاصة يقول محرّر التوراة «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة: مؤابيات وعمّونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم يهوه (الرب) لبني اسرائيل لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. وكان لسليمان سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى.. فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين.. وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين.. ولمولك رجس بني عمون. سفر الملوك الأول ١١: ١ ـ ٧».

وسليمان لم يكن، وهو في أوج مجده، إلا ملكاً صغيراً، تابعاً. وحارساً لدرب تجارية عظيمة[١٨٢]. ومملكته عبارة عن امارة صغيرة في أقل من عشرة أميال مربعة. مملكة من خمسين مملكة كانت قائمة يومذاك في فلسطين.

عاشت مملكته عشرين عاماً يمزقها القلق وينخر فيها سوس الاضطراب. ثم غادرها مثقلة بالديون، تاركاً أتباعاً التحفوا ثوب الذل والاستكانة، فتقرّبوا لأصحاب الأرض ولمعبوداتهم. واتخذوا من روابط المصاهرة درعاً يقيهم خطر الطرد. وراح أبناء سليمان ومواليه يتنازعون الملك، فكان الكيد والدسيسة سلاح بعضهم وكان الغدر والبطش سلاح البعض الآخر. وبموت سليمان تمزّقت قبائل بني اسرائيل الى فريقين متنازعين متحاربين. ملك على الأول (اسرائيل) يربعام بن سليمان. وملك على الثاني (يهوذا) رحبعام بن سليمان.

وكانت الحرب أبداً مشتعلة بين فريقي القبائل الاسرائيلية يقول المحرّر «وكانت حرب بين يربعام ورحبعام كل أيام حياتهما. مل١ ١٥: ٦». «وفي السنة الثامنة عشرة للملك يربعام. ملك أبيا على يهوذا. وكانت حرب بين أبيا وبين

يربعام. فسقط قتلى من اسرائيل خمس مائة ألف رجل مختار. سفر أخبار الأيام الثاني ١٣ : ١٧».

وكثيراً ما كان أحد الفريقين يستعين بجيوش الأقوام المجاورة للقضاء على الفريق الآخر. فآسا ملك يهوذا مثلاً «أخذ جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، ودفعها ليد عبيده، وأرسلهم الى بنى هدد ملك ارام الساكن في دمشق، قائلاً: إن بيني وبينك، وبين أبي وأبيك، عهداً. فتعال انقض عهدك مع بعشا، ملك اسرائيل، فيصعده عني. فسمع بنى هدد للملك آسا، وأرسل الجيوش على مدن اسرائيل، وضربها. مل١ ١٥».

يقول المحرّر «وكانت حرب بين آسا وبعشا كل أيامهما. مل١ ١٥: ١٦». «ثم ملك ايلة بن بعشا على اسرائيل. ففتن عليه عبده زمري.. وقتله. وأفنى زمري كل بيت بعشا، لم يبق بائلاً بحائط مل١ ١٦: ٨ ـ ١١». وفي ذلك الوقت «كان الشعب نازلاً على جبثون التي للفلسطينيين.. فملّك كل اسرائيل عمري رئيس الجيش على اسرائيل.. حينئذ انقسم شعب اسرائيل نصفين، فنصف الشعب كان وراء تبني بن جينة، ونصفه وراء عمري. مل١ ١٦: ١٥».

وفي أواخر أيام عمري (حوالي ٨٧٥ ق.م.) أصبحت اسرائيل مقاطعة تابعة للملكة الارامية في دمشق، تدفع الجزية. وعندما رفض آخاب بن عمري أن يدفع الجزية، جرّد عليه بنى هدد، ملك ارام، حملة عسكرية. وفجأة ظهر عند أسوار السامرة، «فحاصرها وأرسل رسلاً الى آخاب، ملك اسرائيل، قائلاً: لي فضتك وذهبك. ولي نساؤك وبنوك الحسان. فأجاب ملك اسرائيل قائلاً: حسب قولك يا سيدي الملك، أنا وجميع مالي لك. سفر الملوك الأول ٢٠».

يقول المحرّر إن يهو شفط ملك يهوذا تعاون مع آخاب ملك اسرائيل، على حرب آرام. فقتل آخاب «ولحست الكلاب دمه.. وعبرت الرنة في الجند عند غروب الشمس، فهرب كل رجل الى مدينته.. مل١ ٢٢: ٣٦».

وبعد موت يهو شفط «ملك يهو رام ابنه عوضاً عنه.. فقام وقتل جميع اخوته بالسيف. سفر الاخبار الثاني ٢١: ٤». وفي عهده «صعد الفلسطينيون الى يهوذا وافتتحوها، وسبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه. سفر الاخبار الثاني ٢١: ١٦».

ويستمر المحرّر في سرد أسفار (البطولة) لهؤلاء المرتزقة، الصعاليك،

فينقل الينا خبر عصيان أحد المرتزقة (ياهو) الذي «ضرب يهو رام ملك اسرائيل، فخرج السهم من قلبه.. ولما رأى ذلك اخزيا ملك يهوذا، هرب.. فطارده ياهو وقتله. مل٢ ٩: ٢٤».

ويتابع المحرّر متغنّياً بملاحم هؤلاء الملوك ـ الصعاليك، فيقول «جمع بنى هدد، ملك أرام، جيشه وصعد فحاصر السامرة. وكان جوع شديد في السامرة. حاصرها حتى صار رأس الحمار بثمانين من الفضة. وصارت المرأة تأكل ابنها من الجوع. مل٢ ٦».

«ثم حوّل حزائيل، ملك ارام، وجهه ليصعد الى أورشليم. فأخذ يهو أش، ملك يهوذا، جميع الاقداس، وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك، وأرسلها الى حزائيل.. فصعد حزائيل عن أورشليم. مل٢ ١٢».

«وضايقهم ملك أرام.. فلم يبق ليهو أحاز، ملك اسرائيل، إلا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل، لأن ملك أرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس. مل٢ ١٣: ٧».

ويروي المحرّر أن أمصيا، ملك يهوذا، أحصى من يهوذا «ثلاث مائة ألف مختار.. واستأجر من اسرائيل مائة ألف جبار بأس بمائة وزنة من الفضة. سفر أخبار الأيام الثاني ٢٥: ٥٤». فأشار عليه رجل الرب قائلاً «إن الرب ليس مع اسرائيل.. فقال أمصيا لرجل الرب: فماذا يُعمل لأجل المئة الوزنة التي أعطيتها لغزاة اسرائيل؟. اخبار٢ ٢٥: ٩».

وحين «أرجع أمصيا الرجال الغزاة عن الذهاب معه الى القتال، اقتحموا مدن يهوذا وضربوا منهم ثلاثة آلاف، ونهبوا نهباً كثيراً. اخبار٢ ٢٥: ١٣».

أرأيت الى الشعب المختار؟. لقد ظلوا مرتزقة حتى الأيام الأخيرة من فترة تغربّهم في أرض فلسطين. فأمصيا، ملك يهوذا، استأجر من اسرائيل غزاة ـ مرتزقة. وعندما أخبره رجل الرب أن الرب ليس مع اسرائيل. أي ان النجاح ليس مضموناً في هذه الغزوة، خامره الخوف من ضياع الفضة التي استأجر بها مرتزقة اسرائيل، من غير أن يجني منها فائدة. فضرب برأي رجل الرب عرض الحائط، وحارب، وانتصر، وطبيعي بمعجزة ربانية.

أما القسم الآخر من الغزاة ـ المرتزقة الذين استأجرهم ملك يهوذا من

اسرائيل، فحين استغنى عنهم ملك يهوذا، وأرجعهم من غير أن يكسبوا شيئاً من أجرة أو من نهب، اقتحموا مدن يهوذا ونهبوا كثيراً كما يقول المحرّر.

ثم تواقع يهو اش ملك اسرائيل وأمصيا ملك يهوذا، «فانهزم يهوذا أمام اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته. . فجاء يهو اش الى أورشليم، وأخذ كل الفضة والذهب وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. مل٢ ١٤ : ١٤».

أما امصيا، ملك يهوذا، فقد «فتنوا عليه في أورشليم. فهرب الى لخيش. فأرسلوا وراءه وقتلوه هناك. مل٢ ١٤ : ١٩».

وفتن شالوم بن يابيش على زكريا بن يربعام، ملك اسرائيل «وضربه أمام الشعب فقتله وملك عوضاً عنه مل٢ ١٥ : ١٠». «ثم صعد منحيم بن جادي من ترصه وجاء الى السامرة وقتل شالوم، وملك عوضاً عنه. مل٢ ١٥ : ١٤».

وبعد منحيم ملك ابنه فقحيا «ففتن عليه فقح بن رمليا، وقتله وملك عوضاً عنه». ثم «فتن هوشع بن أيلة على فقح وقتله وملك عوضاً عنه. مل٢ ١٥».

وفي أيام هوشع هذا «صعد شلم نصر (ناصر السلام) ملك اشور، فقبض على هوشع، وسبى اسرائيل الى اشور. مل٢ ١٧ : ٣» حوالي ٧٢١ ق.م. وفي أيام صدقيا، ملك يهوذا، «صعد نبوخذ نصر (نبو يعطي النصر)، ملك بابل، الى أورشليم. . وسبى الذين بقوا من اليهود، الى بابل. اخبار٢ ٣٦: ١٧» حوالي ٥٨٦ ق.م.

وبذلك كان عمر العبور الاسرائيلي في أرض فلسطين ٢١٠ سنوات بين ٩٣١ و٧٢١ ق.م. أما قبائل يهوذا فقد امتد عمر عبورها في الأرض الى ٣٤٥ سنة بين ٩٣١ و٥٨٦ ق.م.

وفي السبي البابلي طال انتظارهم للمسيح ـ الملك، فتعلّقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب. ولم يكن هذا البطل مقصوراً، عندهم، على ذرية داود، فقد رأوا في كورش الفارسي مسيحهم المنتظر. «هكذا يقول الرب لمسيحه كورش، الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمماً. . لأجل عبدي يعقوب، واسرائيل، مختاري، دعوتك باسمك. لقبتك، وأنت لست تعرفني. أنا الرب وليس آخر. سفر اشعيا ٤٥».

وعن كورش يقول اشعيا، في نبوءة أخرى «أنا الرب. . القائل عن كورش

راعيّ. فكل مسرتي يتمم. ويقول عن أورشليم ستبنى. وللهيكل ستؤسس. سفر اشعيا ٤٤».

وعن كورش يقول رب الجنود، كما تنبأ اشعيا «هو يبني مدينتي. ويطلق سبيي. لا بثمن ولا بهدية. قال رب الجنود. سفر اشعيا ٤٥».

طبيعي، لا بثمن ولا بهدية، كان قرار الامبراطور الفارسي، كورش، باطلاق سبي اليهود، وبناء مدينة أورشليم. لأن أمه استير اليهودية أرضعته لبان محبة اسرائيل. ولأن كورش كان يصبو منذ احتلال جيوش الفرس لبابل ٥٣٨ ق.م، الى الاستيلاء على الطريق التجارية، والعسكرية الهامة ـ فلسطين. وكان يخشى أن تفاجئه مصر بزحف من جهتها، قبل أن يهضم ما كسبه من ممالك. وبما أن فلسطين في منتصف الطريق بينه وبين مصر. واعتقاداً منه أن اليهود لن يتعاونوا مع مصر، رأى أن يرجع المسبيون منهم الى أورشليم، ويبنوا هناك حصوناً قوية. فسمح لليهود المسبيين في بابل، بالعودة الى فلسطين. وساعدهم أيضاً بل أمرهم بالعودة، لأن «السواد الأعظم من اليهود المسبيين، آثروا البقاء في بابل، ولم يكونوا مستعدين لترك أملاكهم وثرواتهم، والعودة الى أورشليم»[١٨٣]. كما يقول الفيلسوف اليهودي يوسفوس (القرن الأول الميلادي). وكان «من الصعب الاعتقاد بأن اليهود، وقد أثروا هناك، يتركون بابل الخصيبة المعطاء، من أجل جبال يهوذا الجرداء»[١٨٤]. ولأنهم كانوا يرون أنه «في بابل يتفجر نبع الحكمة والنبوة. ومن هنا بالذات، وليس من أورشليم، يشع برج الفجر الوضاء، على شعبنا بالنور»[١٨٥].

وكان على اتصال بكورش، يهودي، ممن سبوا ونقلوا الى تل أبيب (تل السنابل)، اسمه اشعيا. وأكبر الظن أن اشعيا كان عميلاً وجاسوساً لكورش في بابل. وليس هذا بمستغرب، طالما أن اليهود كانوا ينظرون الى بابل أسوأ النظر، ويضمرون لها أشد الحقد والعداء. فهي سابيتهم وسيدتهم. وهم عبيدها وأسراها. وما إن نجحت حملة كورش على بابل، حتى أصدر كورش أمره المشهور عام ٥٣٨ ق.م. بالسماح للمسبيين اليهود، بالعودة الى فلسطين. يقول كاتب العهد القديم، إن كورش «اطلق نداء في كل مملكته، وكذا بالكتابة، قائلاً: هكذا قال كورش، ملك فارس: إن الرب، إله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض. وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم. من منكم من جميع

شعبه. الرب إلهه معه، وليصعد. سفر الأخبار الثاني ٣٦».

ولذلك كان اشعيا يرى في كورش مخلّصاً، اختاره الرب كي يخلّص اليهود. واعتز به أعظم الاعتزاز. ورأى فيه المسيح المنتظر. ولا بد أن كورش، ابن استير اليهودية، قد لمّح لاشعيا، بطريقة ما، أنه سيصبح يهودياً، اذا ما كتب له النصر. وأنه يعمل على تحقيق كل ما كان يحلم به اشعيا. وذلك تطميناً وحثاً لاشعيا كي يعمل كل ما في طاقته وطاقة شعبه، لطعن بابل في عقر دارها. والوقوف في فلسطين بوجه المصريين، اذا ما حاولوا أو قرروا مهاجمة كورش في بابل أو في فارس.

وقد عمل اشعيا على اقناع المسبيين، بخطة التعاون مع كورش. وخيانة بابل، كخطوة أولى باتجاه العودة. وعزم على تحويل أمل العودة، واسترجاع الملك الى ارادة فعّالة مخططة، والى عمل إيجابي.

وفي عام ٣٣٤ ق.م. بدأت الامبراطورية الفارسية بالانهيار تحت أقدام جنود الاسكندر الذي استولى على ممتلكات الامبراطورية الفارسية ومن ضمنها سوريا الطبيعية. وبعد وفاة الاسكندر تقسّم ضباطه ممتلكاته، فاستولى السلوقيون على سوريا الطبيعية. واستولى البطالمة على مصر.

بادر السلوقيون فور استيلائهم على السلطة في فلسطين الى فرض ضرائب جديدة. كما أرغم السكان، ومن بينهم اليهود، على تقديم ثلث انتاجهم الى خزينة الدولة. واستولى السلوقيون أيضاً على موجودات الهيكل من أموال وذهب. فتقلّصت بذلك مصالح الارستقراطيين والكهنة الذين كانوا يستفيدون من موجودات الهيكل ومن تقدمات طبقة العامة.

ولم تكد فلسطين تخرج من تحت سيطرة السلوقيين، بعد تفتت الامبراطورية اليونانية، حتى دخلت في نطاق ممتلكات الامبراطورية الرومانية. وقد كان الحكم الروماني شديد البطش بالزعماء المناوئين لسلطة روما. (هيرود مثلاً دشّن حكمه عام ٤٣ ق.م. بقتل كثير من الزعماء اليهود). وتيتس Titus قضى على التمرّد اليهودي عام ٧٠ م. وبذلك ذوى آخر ظل لما يسمّى بالسلطة اليهودية، وانتهى الوجود اليهودي في أرض فلسطين.

التاريخ، وتشكيل التاريخ، وتفنيد التاريخ

التاريخ

ذكرنا في ما تقدّم أن أوّل ما عني به اليهود من أسباب نشر دعاوتهم في تملّك أرض فلسطين، هو السعي في إحياء ما يسمّونه «الرابطة التاريخية» و «الحق التاريخي». وقد اتقنوا استخدام هذا السلاح ايما اتقان حتى توصّلوا الى اقناع العالم الغربي بأن موجاتهم الزاحفة الى فلسطين ليست موجات غازية أو استعمارية، وإنما هي جموع من المشرّدين أخرجتهم سلسلة من الاضطهادات من بلادهم، وها هم يعودون إليها ثانية، مواطنين عائدين الى منازلهم الحقيقية في «أرض اسرائيل التاريخية».

واستعرضنا في ما تقدم أيضاً نماذج من التصريحات ـ المزاعم التي تبرّر، باعتبار الصهاينة ومشايعيهم، الحق في امتلاك أرض فلسطين. واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً أو استمراراً للدولة اليهودية القديمة.

وقلنا إن «الروابط التاريخية» المزعومة تحوّلت، لكثرة الترديد والتكرير، الى «حق تاريخي»، فحجّة تتمتّع بالصفة القانونية. وبالتالي أصبحت المزاعم الصهيونية من بداهة الأمور. وأضحى سكان ما يزيد على نصف الكرة الغربي، يحسبون المزاعم الصهيونية على مقدار بديهي من الصحة بحيث لا تحتاج معه الى ردّ أو تفنيد أو مناقشة.

وتصفّحنا كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) ـ المصدر الوحيد، أقول الوحيد، الذي يستمدّون منه مزاعمهم، وإليه يستندون في دعاوتهم، في محاولة لالقاء بقعة من الضوء على «الصلة التاريخية» بين بني اسرائيل وأرض فلسطين. وعلى المُلك الذي أقاموه في تلك الأرض.

وما استعرضناه من تاريخهم يشكّل الأساس أو الجوهر في معتقداتهم الميثولوجية التي ظلت تتناقل بالرواية الشفهية قرابة ألف عام. فهي لم تسجّل إلا في السبي البابلي اعتباراً من القرن السادس ق.م. وعلى يدي الكاهن العنصري عزرا الذي «كان كاتباً ماهراً في شريعة موسى التي أعطاها يهوه، إله اسرائيل. سفر عزرا ٧». وقد دامت عمليات التسجيل والتنقيح لغاية القرن الخامس بعد الميلاد. وهذا يعني أن تدوين وتنقيح المعتقدات الميثولوجية اليهودية استغرق حوالي ألف عام.

والطريف أن هذه الروايات التوراتية التي قام على تحريرها وتصنيفها كتبة اليهود وأحبارهم، لا ذكر لها ولا اشارة في المصادر التاريخية المعروفة، ولا في علم الآثار، ولا في النقوش والنصوص التي كشفت عنها التنقيبات في منائر الأرض التي تحرك فيها بنو اسرائيل أو استوطنوا بعض نواحيها.

المهم أن الكتبة أو الرواة قصّوا سير أجداد لهم، اعتبروهم عاشوا في أرض كنعان في الجنوب السوري بعد هجرة أحدهم (ابرام) من أور في الشمال السوري حوالي القرن الثامن عشر ق.م. ثم هجرتهم الى مصر، فالعودة منها الى أرض كنعان. وهؤلاء الأجداد يمثّلون جماعة بدوية تترحّل من مكان آخر طلباً للماء والكلأ، فابرام مثلاً «تغرّب في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة. سفر التكوين ٢١: ٣٤»، قبل أن ينحدر «الى مصر ليتغرّب هناك. تك ١٢: ١٠». وبنو يعقوب (اسرائيل) الذين يشكّلون اسباط اسرائيل، ولدوا جميعاً في فدان ارام في الشمال السوري، وشبّوا هناك حيث كان والدهم يعقوب (اسرائيل) يرعى غنم خاله لابان الأرامي. ثم رحلوا الى أرض كنعان، ومنها الى مصر حيث «قالوا لفرعون جئنا لنتغرّب في الأرض، إذ ليس لغنم عبيدك مرعى في أرض كنعان. تك ٤٧: ٤».

فهم بدو (وربما كان ابرام سيّداً من سادة البدو) يعيشون حياة الرعاة الرحّل. لم يلتصقوا بأرض فيفجّروا فيها ينابيع الخير والعطاء، كما فعلت الأقوام الأخرى التي عمرت الشرق المتوسطي القديم منذ بداية التاريخ. ولم يكن لهم في أي أرض من العمران الحضاري ما يربطهم بها، ويشدّهم الحنين إليها. وبالتالي لم يعانوا من أي شعور بالغربة عن أرض، أو بالحنين الى أرض، ارتبطوا بها كوطن. وإنما عاشوا على أطراف الممالك الكبيرة، وعلى فتات

موائد الأمم الحضارية. فنما في نفوسهم داء الحقد الوبيل على حضارات الأمم، والحسد البغيض على عظمتها، وراحوا يعملون، بمساعدة إلههم يهوه، على تحطيم الحضارات وابادة الأقوام الأخرى، ليقيموا ملكاً لهم، ويرفعوا عرشاً ليهوه، في أراضي الآخرين.

ظلّ موسى طوال فترة قيادته لبني اسرائيل يمسك بأعنة السلطتين الدينية والمدنية. وظلّ يسوق جماعة بني اسرائيل الذين خرج بهم من مصر، أربعين سنة في صحراء سيناء، باسم الاله (يهوه) الذي أعلن عن حضوره في جماعته إلهاً خاصاً بهم، وجعل من الجماعة شعب الاله الخاص.

وبعد خروجهم من مصر، وتيههم في صحراء سيناء قرابة نصف قرن، أرهف الجوع والحرمان حدّهم، وقوّى التهجّر والتبدّي في الصحراء عودهم. وبوصولهم الى تخوم أرض فلسطين طرقوا أبوابها بالجواسيس. ولكن جواسيسهم أرهبوهم بقولهم عن الأرض «إنها تأكل سكانها. وان الشعب فيها معتز، والمدن حصينة.. وهناك الجبابرة الذين كنا في أعينهم كالجراد. وهكذا كنا في أعيننا. سفر العدد ١٣».

وفي هذه الفترة من تبدّيهم وعلى تخوم الأرض، استأثر خادم موسى وصفيه، يشوع بن نون، بعد تغييب موسى موتاً أو قتلاً، بزمام السلطتين أيضاً، وأصدر الأمر لجماعته الرعوية الجائعة بالتسلّل الى مراعي الأرض، أو الاغارة على القرى الآمنة المطمئنة. فراحوا يتسلّلون الى مراعي الأرض ببطء وحذر شديدين. وكانوا اذا ما رأوا بعض سكان الأرض «ساكنين بطمأنينة»، انقضّوا عليهم انقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين. ودامت معارك الغزو وعمليات التسلّل زهاء مائتي سنة، حدّدها المؤرخون في الفترة الواقعة بين ١٢٠٠ و١٠٤٥ ق.م. تقريباً.

وسواء أكان دخولهم أرض فلسطين بالتسلّل أم بالغزو، فقد ضربوا خيامهم في بعض التلول، يتخذون من صخورها وشعابها حصوناً لهم وأسواراً. ومن الطبيعي «أن استقرارهم السلمي في المناطق القليلة السكان قد تمّ من دون أحداث كبيرة مذهلة، ومن غير أن يترك آثاراً عميقة» كما يقول الأب دي فو[١٨٦].

وعندما ظفروا بضرب أطناب خيامهم في منطقة التلول الخلفية، لم يظهر

فيهم زعيم كموسى أو يشوع، يقودهم ويقضي بينهم. فاستأثر الكهنة بزمام السلطة ما يقرب من ثلاثة قرون، ظلّ فيها بنو اسرائيل (شعباً) ممزّقاً فرقاً ملأه الخوف وجافته الطمأنينة. ظلّوا (شعباً) مغموراً، مجموعة من المرتزقة، الصعاليك، الاتباع، تشغلهم المناوشات المستمرة في ما بين بعضهم البعض، أو بينهم وبين مجتمعات الأرض. فيهاجمهم الفلسطينيون من الساحل، والادوميون من أريحا، والمديانيون من ضفاف الاردن، والحوريون من نابلس، والاموريون من الشمال، واليبوسيون من الداخل، وبنو عمون من شرقي الاردن، والأراميون من دمشق، كما سبق ورأينا في ما أوجزناه من سيرتهم في أرض فلسطين. وظلّوا خاضعين لمجتمعات الأرض، مُستعبَدين لهم. فقد استعبدهم، كما رأينا، ملك ارام وملك عجلون وملك كنعان، والمديانيون والفلسطينيون وبنو عمون وسائر ملوك الأرض. وكان ملوكهم عملاء أو اتباعاً لملوك الفلسطينيين (داود). ثم لملوك صور (شاول وداود وسليمان).

وقد تميّز عهد قضاتهم بالفوضى الشاملة، يقول المحرّر «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في اسرائيل، وكان كل واحد يعمل ما يحسن في عينيه. قض ١٧ : ٦». وفي الفصل التالي يؤكد المحرّر قوله «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في اسرائيل. قض ٢٨ : ١». ويختم المحرّر سفر القضاة بهذه الحقيقة التي تقرّر واقع الحال في الجماعة «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في اسرائيل، وكل واحد عمل ما حسن في عينيه. قض ٢١ : ٢٥».

كما تميّز عهد القضاة بالانحلال الجنسي، وبالعلاقات الاجتماعية الشاذة أو غير الاخلاقية، وقد رأينا في ما استعرضناه من سيرتهم في أرض فلسطين، نماذج من محالفات تبرم ثم تنقض، ودسائس تحاك، وفتن تثور، واغتيالات سياسية، و.. يضاف الى ذلك أنك لا تجد قاضياً استطاع أن يبسط سلطانه على بني اسرائيل جميعاً. فكان كل واحد من هؤلاء الحكام أو الشيوخ يتسلّم قيادة زمرة واحدة عندما تُهدّد هذه الزمرة تهديداً مباشراً.

وكان من الطبيعي ان يتمرد على حياة القلة والخضوع، افراد منهم، ذوو بأس. فيلتف حولهم «رجال بطالون». يؤلفون منهم جماعات من المرتزقة تعمل عند بعض ملوك الأرض. أو شراذم من الصعاليك يقطعون الطرق على التجار والمسافرين، أو يغيرون في هجمات بربرية، وحشية، على قرى آمنة مطمئنة

«لايش» يعملون في أهلها التذبيح والتقتيل، وفي بيوتهم السلب والنهب، ثم الحرق والتدمير.

وكثيراً ما كان قائد المرتزقة «الملك» يستأجر بعض المرتزقة أو الصعاليك من بني اسرائيل، ليكون حده انفذ، وسلطته أقوى وأبعد. فرأيت في ما تقدم، محاولة أب ملك التزعم على صعاليك أبيه، جدعون، بعد موته. «فاستأجر رجالاً بطالين، طائشين. فسعوا وراءه». وعرفت قصة امصيا، ملك يهوذا، الذي «استأجر من اسرائيل مئة ألف جبار بأس، بمئة وزنة من الفضة».

وغالباً ما كان بعض النافذين، البارزين بين هؤلاء الغزاة، بفضل موهبتهم في التصعلك والتزعم، يجمعون حولهم بعض المرتزقة، ويترأسون عليهم. أو يأتي الصعاليك اليهم باختيارهم، وينضوون تحت سلطتهم. فحين برهن جدعون عن نجاحه في الغزو والتصعلك، موفراً لاتباعه مزيداً من المغانم، «قالوا له تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك. سفر القضاة ٨». وحين «هرب يفتاح الجلعادي (ابن الزانية) من وجه اخوته. اجتمع إليه رجال بطالون (مرتزقة) وكانوا يخرجون معه». ولما قوي نفوذه، وازداد عدد صعاليكه «ذهب إليه شيوخ جلعاد (الذين طردوه) وقالوا له: تعال وكن قائداً لنا. سفر القضاة ١١».

وحين هرب داود من وجه شاول، التجأ الى مغارة «فاجتمع إليه كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مرّ النفس. فكان عليهم رئيساً. وكان معه نحو أربعمائة رجل. سفر سموئيل الأول ٢٢».

ورأينا في ما تقدم، أن هؤلاء المرتزقة، الصعاليك، الاتباع، كثيراً ما كانوا يحاربون في صفوف الفلسطينيين، ضد الاسرائيليين الآخرين. فحين بلغ صعاليك شاول ست مائة، انضم إليه «العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين، منذ أمس وما قبله. سفر سموئيل الأول ١٤». يخرجون معهم، ويحاربون في صفوفهم. وحين هرب داود من وجه شاول، وعاش صعلوكاً عند الملك الفلسطيني، أخيش، كان يقطع الطرق على التجار والمسافرين أو يغزو القرى الآمنة، ويأتي بالغنائم الى سيّده الملك الفلسطيني أخيش. يقول المحرّر «فيأخذ داود الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع الى أخيش. سفر سموئيل الأول ٢٧: ٩». وكثيراً ما كان يقوم بالاغارة «على جنوبي يهوذا» ـ قبيلته، قبل أن يُخلع منها ويُطرد. وقد عزم على الانخراط في جيش الفلسطينيين الزاحف

لمحاربة اسرائيل، ولكن القوّاد الفلسطينيين شكّوا به وباخلاصه، وخلعوه من صفوف جيشهم، كما خُلع قبلاً من قبيلته.

وحين كان قائد المرتزقة يسقط في معركة ما، كان أتباعه يهربون، مثلهم مثل سائر المرتزقة في جميع الأقوام وعبر العصور، لا يصمدون في قتال اذا سقط قائدهم. فحين قتل أب ملك «ذهب كل واحد (من مرتزقته) الى مكانه. قض ٩ : ٥٥». وحين «حارب الفلسطينيون، وانكسر اسرائيل، هربوا كل واحد الى خيمته. سفر سموئيل الأول ٤ : ١٠». وحين سقط شاول بسهام الفلسطينيين «هرب بنو اسرائيل. سم١ ٣١ : ٧». وحين قتل ابشالوم «هرب كل اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سم٢ ١٨ : ١٧». وحين قتل آخاب، ملك اسرائيل، «ولحست الكلاب دمه. . عبرت الرنّة في الجند فهرب كل رجل الى خيمته. سفر الملوك الأول ٢٢ : ٣٦». وحين قتل ملك يهوذا «هربوا كل واحد الى خيمته. سفر الملوك الثاني ١٤ : ١٢».

يقول المؤرخ جون برايت معلّقاً «كانت حياتهم قائمة على الغزو بهدف السلب والنهب» ـ ويقول الكتاب المقدس عن بنيامين، أحد ابناء يعقوب (اسرائيل) «بنيامين ذئب مفترس. في الصباح يأكل غنيمة، وعند المساء يقسم نهباً. سفر التكوين ٤٩ : ٢٧». «وكثيراً ما كانوا يعمدون، كجماعة غير منظمة أو منتظمة، الى تأجير أنفسهم للقوى المتواجدة على الأرض»[١٨٧]. وتقول عالمة الآثار المؤرخة كاثلين كينيون «هناك مصادر تعتبرهم عصابات سلب ونهب، وأخرى تعتبرهم مرتزقة. وأسهل التفاسير لحال الجماعة أن الاضطرابات التي كانت تنشأ في تلك العصور، كانت تؤدي الى بروز أشخاص كثيرين، يكون منهم مغامرون يفتشون عن الغنائم خارج نطاق الاماكن التي يتواجدون فيها. ومنهم الخارجون على القانون. وكثيراً ما كانت القوى المتواجدة على الأرض تستأجر أو تستعبد هذه العصابات، فيعملون لديها كمرتزقة لقلة فرص السلب والنهب»[١٨٨]. وقد رأينا، في استعراضنا لسيرة بني اسرائيل في أرض فلسطين أن النبي، الملك، داود، كان خارجاً على القانون. فحين أرسل الصعلوك داود الى نابال الكرملي طالباً إليه أداء الاتاوة، ردّ نابال على غلمان داود بسؤال استنكاري بليغ «من هو داود، ومن هو ابن يسّى؟. قد كثر اليوم العبيد الذين يفحصون كل واحد من أمام سيده. سفر سموئيل الأول ٢٥ : ١٠».

وباختصار، ظلّوا في هذه الفترة القصيرة التي قضوها في بعض مرتفعات فلسطين، قبائل رحلا، ينتجعون الكلأ ويتفقدون مواقع المياه. . لم يبنوا بيتاً، ولم يحفروا بئراً في حقل، ولم يفلحوا أو يزرعوا أرضاً. ولم يحاولوا أن يمارسوا أي صناعة، حتى صناعة السيف الذي كان من أهم مقومات حياتهم. يقول الكاتب «لم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل. . بل كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله. سفر صموئيل الأول ١٣».

لم يأخذوا بطرف من ثقافة، ولم يستطيعوا، في يوم من الأيام، أن يكوّنوا لهم كياناً موحداً، مما ينطبق عليه معنى الأمة، بالمفهوم الاجتماعي. ولم يمارسوا حكماً زمنياً قائماً على أساس قوي راسخ، لأنهم لم يملكوا المقومات الأساسية لكيان سياسي مستقل. وظلوا، منذ عهد موسى، يمثلون جماعة رعاة. يرتكز كيانها الرعوي على الدين. وكانت المملكة عندهم لوناً من التجمع القبلي أو الديني. وكان حكامهم، في أكثر الحالات، كهنة.

خضعوا لنظام رعائي. ولم يدخلوا دائرة التطور الاجتماعي. فكانت الصوّانة التي تؤخذ من السيل، امضى من الرمح في أيدي هؤلاء الرعاة. فبالمقلاع تمكن داود الراعي من قتل الجبار الفلسطيني جليات. كما يقول العهد القديم.

وفي عام ١٠٣٠ ق.م. تقريباً، اتحدت أسباطهم، في عهد شاول. وأقاموا نوعاً من الكيان المزعزع القلق المفكك المتنازع. ظل محصوراً، كما رأينا، في بعض المرتفعات. وفي رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة. ولم يعمر أكثر من ١٠٥ أعوام، وهي المدة التي حكم فيها شاول وداود وسليمان.

واذا كان في فلسطين، يومذاك، نحو من خمسين ملكاً، فليس بغريب أن يطلقوا على قائد شرذمة يهودية «مرتزقة» كداود وسليمان، اسم ملك.

وبعد موت سليمان انقسموا على أنفسهم: اسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب. وظلوا يتصارعون في ما بين بعضهم البعض، الى أن سباهم الأشوريون والبابليون الى بلاد ما بين النهرين.

لم يتمكّنوا من ترسيخ أقدامهم في المرتفعات، التي نصبوا فيها خيامهم بعض الوقت. ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الطمأنينة

والاستقرار. وظلوا طوال فترة استيطانهم، معرضين لخطر الطرد والتهجير. وكانت سيرة حياتهم القصيرة سيرة ملوك برابرة، يحكمون شعباً من البرابرة[١٨٩]. كانت أشبه بحياة رجل أصرّ على الوقوف في وسط ميدان صاخب، فكان مصيره ان دهمته السيارات[١٩٠].

وهكذا سقطت المملكة ـ الدويلة. مملكة الصعاليك، ودويلة المرتزقة والاتباع، التي أقاموها في بعض مرتفعات فلسطين. وبادت واندثرت، لأنها كانت نتيجة استيلاء عابر، طارئ. وقامت على أسس طغيانية، استعمارية، مجردة من أي جوهر انساني، مناقبي، ينطلق من انسانية الانسان.

تشكيل التاريخ

سردنا في الفصل السابق عرضاً موجزاً لحادث العبور الاسرائيلي في أرض فلسطين، أي تاريخهم، كما رواه كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) المقدس لدى الطوائف المسيحية جميعها ـ الوثيقة الوحيدة بين أيدينا في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى التلال الخلفية من أرض فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. وتأسيس مملكتها التي شغلت ما يزيد على النصف من سكان هذا الكوكب، بملوكها وانبيائها وأمجادها العمرانية والحضارية بل الأخلاقية أيضاً.

والسؤال: أي وثيقة اعتمد أحد أبرز مؤسّسي دولة اسرائيل الحديثة ورئيس وزرائها، دافيد بن غوريون، في قوله «إن هذا البلد (فلسطين) لم يكن في أي حقبة من تاريخه، الوطن الأوحد لأي شعب آخر غير الشعب اليهودي» ـ (لوموند ٢٧/١/١٩٦٨). وقوله في التلفزيون البريطاني المستقل (٩/٦/١٩٦٩): «هذه بلادنا» ـ (دافار ١٠/٦/١٩٦٩). وقوله في الكنيست بعد تسعة أيام من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ «إن التقدّم البطولي الذي أحرزته القوات الاسرائيلية، قد جدّد صلة الوطن بجبل سيناء» ـ (جيروسالم بوست ٨/١١/١٩٥٦).

وما هي الوثائق والمستندات التي قلبت التاريخ باعتبار رئيس الحكومة الآخر، مناحيم بيغن، عندما فاجأته بـ «أن هضبة الجولان كانت جزءاً لا يتجزّأ من أرض اسرائيل التاريخية» ـ (معاريف ١٥/١٢/١٩٨١). وأن الضفة الغربية

للاردن هي «الجزء الشرقي من أرض اسرائيل التاريخية» ـ جيروسالم بوست ١٨/٦/١٩٦٧.

وبعد فوز حزبه (الليكود) للمرة الثانية في الانتخابات الاسرائيلية، راح يهدر أمام ضريح استاذه زئيف جابوتنسكي «إن أرض اسرائيل الغربية (الضفة الغربية للاردن) كلها تحت سيطرتنا، ولن تُقسّم مرة أخرى، ولن نسلّم أي جزء منها الى الحكم الأجنبي» ـ معاريف ٩/٨/١٩٨١.

وظل «رئيس عصابة الأرغون، السفّاح» كما نعته موشيه منوحن، يوقّع على هذه المعزوفة الى آخر أيامه «إن الأرض شرقي الاردن هي جزء من أرض اسرائيل التاريخية»[١٩١].

وكيف قرأ التاريخ رئيس الحكومة الآخر، ايغال الون، عندما راح يكابر بـ «أن الروابط التاريخية التي تشدّ الشعب اليهودي لمدينة الخليل، والمكانة التي تمثّلها كمدينة الآباء ومهد الأمة، أمر معروف للجميع» ـ (دافار ٢٥/١/١٩٧٠). وأخذ يدعو في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين (القدس كانون الثاني ١٩٧٢) «الى ارجاع اليهود الى بلدهم، أي الى أرض اسرائيل التاريخية» ـ (عال همشمار ٢٣/١/١٩٧٢). وطفق يعلن أن هضبة الجولان «تخص اسرائيل لأنها خصّتها في العصور القديمة. فهنا قضى يفتاح بين الناس»[١٩٢].

يبدو أن «قائد العصابات الارهابية اليهودية» كما ينعته الأب فورست، ونائب رئيسة الوزراء، ثم رئيس الوزراء في الدولة اليهودية، قرأ تاريخه المقدس ـ التوراة كما يقرأه ما يزيد على ألفي مليون مؤمن، بذهن مغفّل وعقل معطّل. وربما قرأه بوعي ويعرف الحقيقة. ولكنه يعرف أيضاً أن أذهان قرائه أو سامعيه تمثّل أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد ما يقدّم إليها. ولذلك لم يخرج يوماً واحد من بين الكتل البشرية الهائلة التي تربو على ألفي مليون مؤمن بهذا الكتاب، سائلاً السيد الون: متى كانت هضبة الجولان تخصّ اسرائيل؟. وهل حقّاً قضى يفتاح هناك؟. والأهم من ذلك، من هو يفتاح؟.

الوثيقة الوحيدة التي قصّت سيرة يفتاح هي تاريخ بني اسرائيل المقدس ـ التوراة (العهد القديم). فماذا تقول هذه الوثيقة الوحيدة والفريدة؟.

تقول «كان يفتاح الجلعادي جبّار بأس، وهو ابن امرأة زانية. . فلما كبر بنو أبيه طردوه وقالوا له: لا ترث في بيت أبينا لأنك ابن امرأة أخرى. فهرب يفتاح

من وجه اخوته وأقام في أرض طوب (شأنه شأن أي صعلوك في التاريخ: يقطع علاقته بجماعته وبيئته، ويلجأ الى جماعة ثانية في بيئة أخرى). فاجتمع إليه رجال بطّالون (تأمّل هذه الصفة المعبّرة عن حال المرتزقة، الصعاليك). وكانوا يخرجون معه»، (للسطو والسلب والنهب). ولما قوي بأسه واشتد نفوذه وازداد عدد مرتزقته «ذهب اليه شيوخ جلعاد وقالوا له: تعال وكن قائلاً لنا. قض ١١».

وهذا الـ «يفتاح» الصعلوك وزعيم المرتزقة، «قضى لاسرائيل ست سنين. قض ١٢: ٧». (حبّذا مراجعة ما استعرضناه من سيرة يفتاح في الفصل السابق).

وجميع الصهيونيين من أقصى اليمين الى أقصى اليسار يريدون أن تتحوّل وجوه الآخرين الى مباصق للتشويه والتزوير. الحزب الديني القومي (المفدال) يؤكّد دوماً في قراراته على أن «هضبة الجولان جزء لا يتجزأ من أرض اسرائيل التاريخية» ـ (هاتسوفيه ٢٥/٩/١٩٧٥). ورئيس حزب العمل، الوزير، ورئيس الوزراء شمعون بيريس، يؤكّد أيضاً «أن مرتفعات الجولان جزء لا يتجزأ من أرض اسرائيل التاريخية» هآرتس ١٧/١٢/١٩٨١.

ويكابر حاخامات اليهود في أميركا في مجتمعاتهم المصابة بالتديّن والورع الفكري في غفلة العقل وغياب الذهن: «الجولان قسم من أرض اسرائيل التاريخية. وكذلك حبرون ونابلس. ألم يكن القاضي يفتاح يحكم هناك؟»[١٩٣].

ينبري مهووس منهم، وقد تملّكه الغرور تملّك الخبل للمخبولين، «إن هذه الأرض كلها ملك لنا، إرث لنا، ورثناه عن أجدادنا. هذه أرض اسرائيل، إرثنا الأبدي». (تأمّل التأكيد على إرث في هذه العبارة القصيرة).

ويزهو حاخام آخر «نحن نعود اليوم الى أرض أجدادنا»[١٩٤].

ويهذر الحاخام مئير كاهانا في برقية الى رئيس بلدية نابلس، بسّام الشكعة، يبلغه فيها عزمه على زيارته في مكتبه «للتباحث في الحدث التاريخي المتمثّل في عودة اليهود الى احضان مدينتهم نابلس» ـ عال همشمار ١٧/٤/١٩٧٧.

وانظر الى عضو الكنيست غيئولا كوهين تتبجّح في حديثها الى صحيفة نمساوية، ولكن باسلوب أكثر لباقة وأكثر دهاء، «ليس لديّ تطلّع الى زوريخ أو نيويورك، حتى ولا الى دمشق. ولكن أرجو ألاّ تنسوا أن الاردن جزء من دولتنا التاريخية. إن ٨٠ بالمائة من أرضنا التاريخية تدعى اليوم الاردن» ـ يديعوت احرونوت ٣٠/١٢/١٩٨١.

وتأمّل في تفسير الموسوعة العبرية لمدلول الصهيونية «إنها حركة قومية يهودية قامت في نهاية القرن التاسع عشر بغية اعادة شعب اسرائيل الى وطنه التاريخي ـ أرض اسرائيل».

والتعريف ذاته يسوقه الصهيوني المتفرنج اسرائيل كوهين: «غاية الصهيونية اعادة اليهود كأمة الى فلسطين باعتبارها وطنهم القومي القديم»[١٩٥].

وقد يكون من المفيد، لمزيد من توضيح الصورة للقارئ، أن ننقل بعض تصريحات الجنرال الوزير موشيه دايان، التي يتوجّه بها الى الناس في الخارج، وهم، باعتباره طبعاً، المجتمعات الغربية الخاملة المستسلمة القانعة، المتعبّدة للنفاق والادعاء والرافلة ببرود السذاجة والغفلة. قال في مقابلة مع جريدة لموند الفرنسية (٩ تموز ١٩٦٩) «على الناس في الخارج (كذا على الناس) أن يدركوا أن سيناء ومرتفعات الجولان ومضائق تيران والتلال الممتدة غربي نهر الاردن، هي في قلب التاريخ اليهودي. ومن الواجب اعادتها الى أرض اسرائيل التاريخية».

وفي التاسع من آب ١٩٦٧ أعلن دايان «ان المرتفعات الغربية لنهر الاردن تقع في صميم التاريخ اليهودي». وأضاف «ان اسرائيل لن تتخلّى عن المناطق التي تشكّل جزءاً من تاريخها» ـ جيروسالم بوست ١٠/٨/١٩٦٧.

وفي محاضرة أمام جمهور من الطلبة في القدس قال «لا يمكن أن يستثنى من اطار صلة الشعب اليهودي بوطنه، تلك المناطق من يهودا وشومرون التي كانت مهد الشعب اليهودي» ـ دافار ٧/٢/١٩٦٨.

وباختصار، إن مثل هذه التصريحات ـ المزاعم شيء كثير يملأ المجلدات. فجميعهم يبوّقون، دائماً وعبر وسائل الاعلام على اختلافها، بـ «الرابطة التاريخية» التي تشدّهم الى أرض فلسطين، حتى اكتسبت هذه المقولة صفة القداسة الكلية، وأصبحت متجذّرة في صدور الداعين اليها والآخذين بها، كالايمان، على اعتبار أنها مرتكزة في الأساس على مزاعم دينية. وشاعت في مجتمعات نصف الكرة الغربي. وصارت عنصراً أساسياً في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي الغربي.

والأدهى من ذلك أن اليهود ينطلقون جميعاً من مبدأ «حق اليهود التاريخي في أرض اسرائيل الكاملة» ـ (أرض فلسطين). ومن الواضح أن الحجّة بادعائهم

الحق في امتلاك أرض فلسطين، قائمة على اعتبار أن هذه الأرض هي الوطن التاريخي لبني اسرائيل. ففي سنة ١٩٠٠م نشر الروائي الصهيوني الروسي ميخا بيرديشفسكي مقالة تحت عنوان «الهدم والبناء» قال فيها إن ماضينا هو الذي يمنحنا الحق التاريخي»[١٩٦]. وفي سنة ١٩٢٨ كتب الزعيم الصهيوني الروسي المتطرّف زئيف جابوتنسكي يقول «للشعب اليهودي حق تاريخي لا يقبل الجدل في أرض اسرائيل التاريخية»[١٩٧].

وبعد غزوة حزيران ١٩٦٧ كتب عميد كلية الآداب القديمة في الجامعة العبرية، فيربلوفسكي يقول «إن دولة اسرائيل لا تستمد وجودها من حق الاستيلاء، بل من الحق التاريخي»[١٩٨]. «فلا حق في هذا البلد (فلسطين) لغير الشعب اليهودي» كما يقول عضو الكنيست زلمان شوفال (يديعوت احرونوت ٦/٥/١٩٧١.

وهذا الحق «حقّنا في أرض اسرائيل لا يقبل الاعتراض» كما يقول مناحيم بيغن (دافار ٨/١/١٩٦٩). وعلى هذا الأساس شدّد الحزب الديني القومي (المفدال) في مؤتمره (٢٧/٢/١٩٧٣) على «حقّنا التاريخي في أرض اسرائيل التاريخية، أرض آبائنا» ـ هاتسوفيه ٨/٣/١٩٧٣) وأكّد على هذه الصيغة في برنامجه الانتخابي للكنيست الثامن (معاريف ١٢/١٢/١٩٧٣). كما صاغ تكتّل ليكود موقفه في البرنامج الانتخابي عينه، بالقول «إن حقّ الشعب اليهودي في أرض اسرائيل غير قابل للطعن» ـ هآرتس ٢١/١٢/١٩٧٣.

وهذه الصيغة ذاتها «حقّ الشعب اليهودي في أرض اسرائيل التاريخية بكاملها، هو حق أبدي، لا يمكن الطعن فيه» جاءت في قرارات المؤتمر الثاني عشر لحركة حيروت الذي افتتح في قرية اربع (١٢/١/١٩٧٥). وقد ألقى مناحيم بيغن بياناً شاملاً في جلسة الافتتاح، حدّد فيه أسس فلسفته أو ايديولوجيته: «المحافظة على حقّنا في أرض اسرائيل التاريخية» ـ يديعوت احرونوت ١٣/١/١٩٧٥.

وفي تقديمه النقاط الأساسية لسياسة حكومته الأولى في جلسة الثقة، قال مناحيم بيغن «للشعب اليهودي حق تاريخي خالد، وغير قابل للطعن، في أرض اسرائيل التاريخية، أرض الأجداد» ـ (هآرتس ٢١/٦/١٩٧٧). وجاء في برنامج الحكم الذي تقدم به في حكومته الثانية، قوله «إن الاستيطان في أرض اسرائيل

هو حق للأمة» ـ هآرتس ٦/٨/١٩٨١.

والواقع ان الأغلبية الساحقة من الاسرائيليين تؤمن بحق اسرائيل في جميع «أرض اسرائيل التاريخية»، ومن ضمنها الضفة الغربية للاردن وقطاع غزة ومرتفعات الجولان. ويراها قسم منهم من السويس حتى حقول البترول، كما يقول عاموس عوز (المرجع السابق).

وهكذا نلاحظ أن أهم العوامل التي تحكّمت في تفكير الصهيونيين يتلخص في أن فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية»، وأنها «مهد شعبهم ووطنهم»[١٩٩]. وبالتالي فهي «ملك لليهود بحكم النشأة التاريخية للأمة اليهودية»، وبحكم «ارتباط الدين اليهودي بالأرض المقدسة».

وهذا يعني أن الفلسطينيين العرب غزاة ومحتلّون. يقول بن غوريون «القد أنشئت دولة اسرائيل في بلادنا التي قطنها المحتلّون والغزاة العرب طوال ١٣٠٠ سنة»[٢٠٠]. ويقول الحاخام تسفي يهودا كوك (ابن أول رئيس اشكنازي للحاخامين في اسرائيل): «كل هذه الأراضي (المحتلة) لنا.. جاء اليها الآخرون (العرب) وبنوا عليها، في غيابنا ومن دون اذن منا»[٢٠١].

وقد نقل عن ناطق بلسان غوش ايمونيم قوله «إن العرب سكان مؤقتون، صودف أن سكنوا في هذه البلاد» ـ عال همشمار ٨/٢/١٩٨٠ ويعتقد جماعة غوش ايمونيم أن اقامة الفلسطينيين العرب في أرض فلسطين قائمة على السرقة والخداع والتشويه، ولذلك حان الوقت لـ «اللصوص» أن يرحلوا. يقول الحاخام شلومو أفينر «إن الوضع يشبه رجلاً دخل منزل جاره من دون اذن وسكن فيه طوال سنوات. وحين عاد صاحب البيت الأساسي، زعم الغازي (العربي) أنه (منزلي، إني اسكن هنا منذ أعوام). ماذا يهم؟. طوال هذه الاعوام كان لصّاً. والآن يجب عليه أن يرحل وأن يدفع أجرة السكن أيضاً. يمكن للمرء أن يقول: هناك فارق بين السكن ٣٠ عاماً والسكن ألفي عام. ونحن نسأله: هل من قانون يحدّد للّص حقاً في ما ينهبه؟. كل انسان سكن هنا يعرف جيداً أنه يسكن في أرض يملكها شعب اسرائيل»[٢٠٢].

ومن هذا المنطلق يعتبر كل احتلال لجزء من أرض فلسطين، في المفهوم الصهيوني، «تحريراً لأرض اسرائيل التاريخية». من ذلك مثلاً أن رئيس حكومة اسرائيل، دافيد بن غوريون، وقف في الكنيست (٥/١١/١٩٥٦) بعد غزو سيناء

بالاتفاق مع انجلترا وفرنسا، في الهجوم على مصر عام ١٩٥٦، وراح يهدر «إن الجيش الاسرائيلي لم يكلّف نفسه عناء احتلال أرض العدو في مصر، وإنما اقتصر في عملياته على تحرير شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة من قوات العدو»[٢٠٣]. وفي اليوم التالي أخذ يشقشق «إن هجوم اسرائيل على شبه جزيرة سيناء استهدف تحرير جزء من أرض الأجداد من السيطرة الاجنبية» ـ جيروسالم بوست ٩/١١/١٩٥٦.

وفي جلسة الكنيست عينها وقف رئيس حزب حيروت اليميني المتطرّف، متباكياً على الأجزاء الأخرى من أرض فلسطين التي ما فتئت، باعتباره طبعاً، مسلوخة عن الوطن اليهودي. قال «إن بلاغ الجيش الاسرائيلي الذي أعلن تحرير غزة، أراحنا أيّما ارتياح. إن هذا الجزء المسلوخ عن الوطن الأم قد أعيد إليه. ولكن اذا كانت غزة، مدينة الآباء والأجداد، المسلوخة عن الوطن، قد عادت إليه، فما عسانا نقول عن القدس والخليل وبيت لحم؟.» ـ جيروسالم بوست ٨/١١/١٩٥٦.

وبعد غزوة حزيران ١٩٦٧ راح بيغن يتجوّل في الضفة الغربية المحتلة منتفخ الجوانح بنشوة النصر، يشحن أتباعه بالمفهوم ـ الايديولوجية ـ المبدأ الذي ظلّ عليه الى آخر أيامه، وخلاصته «لا يمكن التفكير بتسليم شبر واحد من أرض اسرائيل التي تحرّرت الى أي حكم أجنبي» ـ دافار ١٨/٦/١٩٦٧.

وفي اجتماع المجلس القطري لحركة حيروت، في دورته الحادية عشرة في بيت جابوتنسكي في تل أبيب، ألقى زعيم الحركة مناحيم بيغن، خطاباً في جلسة الافتتاح، أكّد فيها على «الحفاظ على حقنا في أرض اسرائيل المحرّرة» ـ هآرتس ٧/١٠/١٩٧٤.

وبعد فوز حزبه في الانتخابات الاسرائيلية (١٩٧٧) قام بزيارة مستعمرة ايلون موريه في الضفة الغربية، وهناك أرعد بين جمهور مؤيديه من الليكود ومخرضي غوش ايمونيم المحتشدين في المستعمرة، قائلاً: «نحن نقف الآن على أرض اسرائيلية محرّرة». وأضاف «منذ أيار ١٩٧٧ غُيّر اسم هذه المناطق من أراض محتلة الى أراض محرّرة. هذه أرض اسرائيلية محرّرة. ونحن ندعو الشباب في هذا البلد وفي الشتات الى المجيء والاستيطان هنا» ـ يديعوت احرونوت ٢٠/٥/١٩٧٧.

وبعد يومين صرّح لمراسل مجلة الاكسبرس بقوله «ليس لعبارة الضفة الغربية أي معنى. إنها يهودا والسامرة، وهي أرض اسرائيل التاريخية، وملك للشعب اليهودي». ورداً على سؤال عما اذا كانت اسرائيل تنوي ضمّ الضفة الغربية، أجاب بيغن «من الممكن ضمّ أراض أجنبية، بيد أن هذه الأرض هي أرض محرّرة» ـ عال همشمار ٢٢/٥/١٩٧٧.

والواقع أن بيغن كان يوقّع على هذه المعزوفة الايديولوجية منذ الاربعينات. جاء في المذكرة التي رفعتها حركة الارغون، بقيادة بيغن، الى الجمعية العامة للأمم المتحدة «إن تقسيم أرض اسرائيل عمل غير شرعي. إن هذا البلد، الذي لم يزل الموطن الأبدي لشعبنا، لوحدة واحدة تاريخياً وجغرافياً واقتصادياً. أليس من العبث أن يكون حكم اليهودية والسامرة والجليل في يد غير اليهود؟. إن اسماء هذه الأراضي لتدل على أصحابها الحقيقيين. وهل يقل عن ذلك عبثاً ألاّ تكون أورشليم ـ مدينة داود، عاصمة لدولتنا؟. إن شعبنا سيخوض الحرب حتى يتحرّر كل شبر من أرضنا»[٢٠٤].

وجاء في كتابه «الثورة»: «سوف تعود أرض اسرائيل الى شعب اسرائيل بتمامها والى الأبد». وجاء أيضاً «لن يكون سلام لشعب اسرائيل ولا لأرض اسرائيل، ولا للعرب أيضاً، ما دمنا لم نحرّر وطننا كله»[٢٠٥].

* * *

وكان من الضروري، باعتبار الصهيونيين طبعاً، وباعتبار مشايعيهم من مجتمعات نصف الكرة الغربي، أن يتقدّم الادّعاء بـ «الحق التاريخي» وبـ «الرابطة التاريخية» مقترناً باستبعاد الفلسطينيين أو تغييبهم، وبمحو أو تشويه تاريخهم. وأن تتقدّم صورة مركبة زاهية لحضارة التجمّع اليهودي القديم، مقترنة بالحط من قيمة الحضارة الفلسطينية أو مسخها أو على الأقل انكار دورها ومساهمتها في تاريخ الحضارة الانسانية.

ومن هذا المنطلق اعتبر الصهيونيون فلسطين منذ البداية أرضاً بلا شعب، تنتظر الشعب الذي لا أرض له (شعار زانغويل). «وحين علموا بوجود مئات الآلاف من الفلسطينيين العرب في الأرض المقدسة لم يحسبوا لهم حساباً، وبالتالي لم يكن لهم، في المخطط الصهيوني، أي اعتبار»[٢٠٦].

أما ردّات الفعل التي صدرت من هنا وهناك حين علم مطلقوها بوجود

المواطنين الفلسطينيين العرب فوق أرضهم، فسرعان ما أُخمدت أو أُسكتت. يمثل هذه الردّات ردة الفعل التي صدرت عن ماكس نورداو يوم سمع للمرة الأولى كلاماً حول وجود المواطنين الفلسطينيين العرب في أرض فلسطين، فأسرع الى هرتزل صائحاً «لم أكن أعلم بهذا، إننا اذاً لمقدمون على ارتكاب ظلم».

يقول فيربلوفسكي معلقاً «ليس من شك في أن ردّة فعل نورداو لو كانت أعمّ وأقوى مما كانت عليه، لشلّت اندفاع الحركة الصهيونية». ويضيف «ومما ساعد على اخمادها هو السياسة الصهيونية التي أبقت اليهود في قصر نظر أخلاقي»[٢٠٧].

انطلق الصهيونيون من تغييب الشعب الفلسطيني مادياً، «فمنذ بداية استعمار فلسطين اعتبر المهاجرون الأوائل الفلسطينيين العرب غير موجودين» كما يقول أحاد هاعام[٢٠٨]. وقابلوا بكراهية شديدة كل من راح يذكّرهم بأن الفلسطينيين العرب موجودون بالفعل، «ولا ينوون المغادرة على الاطلاق»[٢٠٩]. وظلّ وجود الفلسطينيين العرب في أرض فلسطين يمثل، في نظرهم، مجرد «صدفة Accident كوجود بعض قطع الاثاث المنسية في منزل أجّر مؤقتاً الى أجانب»[٢١٠]. فعندما سأل العالم اليهودي الاميركي اينشتاين زعيم الصهيونية حاييم وايزمن (أصبح في ما بعد رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي، ومن ثم أول رئيس لدولة اسرائيل عام ١٩٤٨)، في حديثه معه: «ماذا سيحدث للعرب في ما لو أعطيت فلسطين لليهود؟. ردّ عليه وايزمن بقوله «أي عرب؟! يكاد لا يكون لهم أثر»[٢١١].

وكان وايزمن قد أشار منذ سنة ١٩١٤ الى فكرة زانغويل عن البلد الخالي من الشعب، بقوله «هناك بلد صودف أنه يسمّى فلسطين. بلد بلا شعب. وفي الجانب الآخر هنالك الشعب اليهودي لا بلد له. وماذا يراد غير ادخال الاصبع في الخاتم للجمع بين هذا الشعب وهذا البلد؟»[٢١٢].

وبعد تشريد الفلسطينيين عام ١٩٤٨، وانشاء الدولة اليهودية، ظلّت فكرة التغييب قائمة في الذهن الصهيوني. بن غوريون مثلاً، في ردّه على أسئلة الطلاب في القدس، قال «لم يكن ثمة دولة فلسطينية في أي وقت. ولا يوجد شعب فلسطيني» ـ معاريف ٢٩/٣/١٩٧١.

وناحوم غولدمان الذي ظل لسنين رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية، يقارن بين «حق الأفراد العرب الذين كانوا يعيشون في فلسطين وحق مجموع الشعب اليهودي في تملّك أرض»(٢١٣). (تأمل تعابيره المخادعة المضلّلة: العرب باعتباره أفراد، وكانوا يعيشون. وفي المقابل اليهود شعب وحقّه في تملّك).

وطالما ردّد بيغن عبارته المشهورة «إن كلمة فلسطين هي ترجمة أجنبية لعبارة أرض اسرائيل» - (يديعوت احرونوت ٢٠/ ٥/ ١٩٧٧). وظل الى آخر ايامه يرفض الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني. وهو يرفض التسمية أصلاً، ويصرّ على اعتبار الفلسطينيين عرباً. ومن الطبيعي أن شعباً غير موجود (من منظور الحركة الصهيونية) لا يمكنه أن يخلق قضية.

وهكذا ظلّ الزعماء الصهيونيون ينكرون وجود شعب فلسطيني كوحدة قومية، لأن وجود دولة اسرائيل في أرض فلسطين يتناقض موضوعياً مع كل وجود قومي آخر في الأرض ذاتها. من هنا كان هم الصهيونية والقوى الامبريالية المناصرة لها، العمل على الالغاء الكامل لوجود الشعب الفلسطيني. وبالفعل جهد الصهيونيون في طرد الفلسطينيين وتشتيتهم بشتى الاشكال والاساليب خارج ديارهم ووطنهم. ثم عملوا على نسف بنية الأقلية الفلسطينية التي بقيت في فلسطين، بتذويبها أفراداً وتجمعات صغيرة لا تملك أدنى قدر من التماسك أو السمات الخاصة. وقد كان هناك ظرف موضوعي سهّل مهمة الاسرائيليين، إذ بقيت الأقلية الفلسطينية في الدولة اليهودية من دون قيادة روحية، دينية، اجتماعية، وسياسية. ومستندة الى أساس مادي ضعيف ومهلهل، أشبه بالصورة الممزقة والمتناثرة. وقد كان هذا الوضع، من وجهة نظر الاسرائيليين، وضعاً نموذجياً مكنهم من تمزيق البنية الاجتماعية للفلسطينيين العرب في دولة اسرائيل، من خلال جعلهم أقلية قومية ضائعة الجذور لفقدان جذرها الاقتصادي، ومبعثرة وذائبة في أسفل المجتمع الاسرائيلي. ثم سعى الصهاينة لمنع هذه الأقلية من اجراء أي عملية صياغة جديدة لواقعها في ضوء ما حدث، وذلك بالمحاربة الشرسة واليومية لكل شكل من أشكال التكتل، انطلاقاً من قاعدة أن كل تكتل يحمل بذرة التبلور السياسي. وسعت اسرائيل بدورها لضرب الأساس المادي للأقلية الفلسطينية بالاستيلاء على الأرض، اداة انتاجها الرئيسية، والحاضنة التي تحفظ كيانها وتصونه.

ثم انتقل المفكّرون والمنظّرون الصهيونيون الى تغييب الشعب الفلسطيني حضارياً، فجرّدوه في اعلامهم من كل معالم التمدن والحضارة، ونفوا عنه كل المثل الانسانية والاخلاقية، وبالتالي أخرجوه من عائلة الشعوب. ثم حمّلوه وزر تخلّف البلد، وتحول «أرض العسل واللبن» الى صحراء قاحلة ومستنقعات موبوءة. وبدا الفلسطيني في اللغو الصهيوني انساناً حقيراً، تافهاً، متخلفاً، ينعم بكسله، ويسعد بغبائه. بدا رمز العداء للحضارة والعمران، وعنوان الفوضى والتخريب. تحكمه نزواته وتسيطر عليه شهواته، ولا يحلم بغير الشر والعدوان.

وأخيراً عملوا، وما زالوا يعملون، على تغييب الفلسطينيين سياسياً. فهم يحاولون تشويه تاريخهم ونضالهم. أو قل يعملون على الغاء التاريخ السياسي للشعب الفلسطيني. ويصرون على عدم الاعتراف بوجودهم كشعب. وينكرون عليهم حقهم في تقرير مصيرهم السياسي. «إنهم يرفضون أن يروا أن لهؤلاء العرب اليوم وعياً قومياً خاصاً بهم، وانهم يعبرون عن انسانيتهم بمصطلحات هذه القومية»، كما يقول يرمياهو يوفال، رئيس قسم الفلسفة في الجامعة العبرية. ويضيف «إن القول إنه (لا يوجد فلسطينيون) يعني أنه على الرغم من وجود هؤلاء، يجب اعتبارهم وكأنهم غير موجودين. والنظر إليهم على أنهم ليسوا من البشر. وحرمانهم حقوقهم كجماعة» ـ هآرتس ٦/ ١١/ ٩٧٢.

كتب أوري أفنيري مقالة نشرتها هاعولام هازيه (١١/ ٦/ ٩٨٠) أشار فيها الى التنظيمات السرية المسلحة للمستوطنين الاسرائيليين، والى ما تتلقاه من دعم هائل عسكرياً ومادياً ومعنوياً من الجهات الاسرائيلية الرسمية. والى ما تتميز به ايديولوجيتها من «تعصب قومي متطرف، ومن نفي لوجود الشعب الآخر في البلد ولجميع حقوقه، ومن ادعاء بملكية أرض اسرائيل بأكملها».

ويقول المؤرخ الاسرائيلي البروفسور يعقوب تالمون «إن زعماءنا لم يتعبوا من انكار وجود الشعب الفلسطيني» ـ هآرتس ٣٠/ ١١/ ١٩٧٣). خذ مثلاً وزير التربية الاسرائيلي، هارون يدلين، الذي أدلى بتصريح عام ١٩٧٤ قال فيه «من المهم أن يعرف الشباب انه عندما رجعنا الى هذا البلد، لم نجد هنا أي أمة»[٢١٤].

وبعد، أعتقد أن من الضروري العودة الى عبارة وايزمن، في اشارته الى فكرة زانغويل عن البلد الخالي من الشعب: «هناك بلد صودف أنه يسمّى

فلسطين. بلد بلا شعب. وفي الجانب الآخر هنالك الشعب اليهودي، لا بلد له. وماذا يراد غير ادخال الاصبع في الخاتم للجمع بين هذا الشعب وهذا البلد».

إن المتأمل في هذه العبارة بوعي عاقل، يقف على حقيقة جوهرية، مفادها أن الأباطيل لا تسود إلا في غفلة الذهن وغياب العقل. وأن المجتمعات التي خاطبها وايزمن هي مجتمعات مغفلة، تحوّلت أذهان الناس فيها الى أوعية تلتهم بكل شهيّة كل ما يعرضه عليها الوعّاظ الجهّال والكتّاب الدجّالون والزعماء المخادعون، من ادّعاء فارغ وجهل مركّب وأوهام شائنة. مجتمعات مصابة بأدواء مذهلة من ضحالة الثقافة وطفولة الوعي وبداوة الجهل، تحولّت وجوه الناس فيها الى مباصق للتدجيل والتزوير والتشويه.

«هنالك بلد صودف أنه يسمّى فلسطين» يقول وايزمن. تأمّل كيف يشوّه وايزمن الحقيقة ويزوّر التاريخ ويحقن الناس بالأباطيل. تأمّل كيف يستمسك بالمغالطة والمراوغة، باسلوب أكثر لباقة وأكثر دهاء، فينكر أموراً هي أظهر من الشمس في رائعة النهار. وأخيراً تأمل كيف يعبّر بوضوح عن التوجّه العام في التعليم الحكومي الصهيوني الهادف الى محو فلسطين مجتمعاً وتاريخاً واسماً وحضارة.

واذا سألت أو تساءلت: كيف «صودف أن سمّي هذا البلد فلسطين»؟. يأتيك الجواب من كتاب التاريخ للخامس الابتدائي في اسرائيل. وإليك ما جاء فيه «لم يكن الفلسطينيون من الشعوب السامية، بل أتوا من جزيرة كريت الواقعة في بحر ايجه، إثر ضغط القبائل الأوربية التي انحدرت الى بلادهم واستولت عليها. فاضطروا الى ركوب البحر بحثاً عن بلاد يستوطنونها. فاندفعوا نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط، محاولين غزو الشعوب الساكنة فيها. ووصلوا الى السواحل المصرية، ولكنهم لم ينجحوا في النزول الى البرّ. فاتجهوا الى الساحل الضيق جنوب أرض كنعان على حدود مصر، وتمكنّوا من النزول فيه واستيطانه. ومنذ ذلك الحين سميت هذه المنطقة فلسطين».

«الفلسطينيون أتوا من جزيرة كريت» يقول كتاب التاريخ في اسرائيل. وبالتالي فهم ليسوا من الشعوب السامية، بحسب الكتاب عينه. والواقع أن المؤرخين جميعهم (بله العامة فهم أشبه بالقطعان، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد

أو تفهم ما يقدّم اليها) في الغرب والشرق يأخذون بهذه المقولة: الفلسطينيون من جزيرة كريت، إذاً هم غرباء وليسوا ساميين، أي ليسوا من شعوب المنطقة.

وقد درج المؤرخون على القول بأن الفلسطينيين يعودون في أصلهم الى جزيرة كريت، اعتماداً على ما ذكره محرّر التوراة في سفر سموئيل الأول ٣٠: ١٤ «فاننا (الكلام لأحد مرتزقة العماليق) قد غزونا على جنوبي الكريتين، وعلى ما ليهوذا، وعلى جنوبي كالب. وأحرقنا صقلغ بالنار». وعلى ما ذكره في سفر حزقئيل ٢٥: ١٦ «هكذا قال السيد يهوه: هانذا أمدّ يدي على الفلسطينيين، واستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر». وعلى ما ذكره في سفر صفينا ٢: ٥ «ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين. كلمة يهوه عليكم. يا كنعان أرض الفلسطينيين، إني أخربك بلا ساكن».

الملاحظ أن المرتزق العماليقي ذكر الكريتيين من غير أن يقرنهم بالفلسطينيين. ويبدو من كلام النبي حزقئيل أن الفلسطينيين غير الكريتيين، فيهوه (الرب) يقول أمدّ يدي على الفلسطينيين، واستأصل الكريتيين. وكذلك يفعل النبي صفينا، فهو يذكر كلاً من القومين على حدة: سكان ساحل البحر أمة الكريتين. ويا كنعان أرض الفلسطينيين.

وعلى كل حال لا يعنينا التعليق على هذه الاشارات الغامضة أو غير المفهومة، الى الكريتيين لدى كل من سموئيل وحزقئيل وصفينا. ولا يعنينا البحث في أصل الفلسطينيين، سواء أقدموا من جزيرة كريت في احدى موجات البحر، أم هاجروا الى ساحل فلسطين من مكان آخر، أم كانوا من سكان هذه الساحل قبل التاريخ المدون. وإنما يعنينا أنهم أعطوا اسمهم لهذه الأرض، وهذا خير دليل على الارتباط العميق والقوي والقديم الذي كان لهم بهذه الأرض. ويعنينا أيضاً أن نوضّح لكتّاب التاريخ في اسرائيل، وللمؤرخين المغفّلين في الغرب والشرق الذين يأخذون بهذه المقولة أو يتبنّون هذه النظرية، أن جزيرة كريت (القرية) هي جزيرة كنعانية، أو قل إن الكنعانيين هم الذين أطلقوا عليها الاسم ونشروا فيها حضارتهم في زمن مبكر من الألف الثاني ق.م. ويبدو أن هذا الاسم أو الصفة (القرية) كان شائعاً لدى الكنعانيين، ولذلك كانوا يطلقونه على كثير من الأماكن التي يحلّون فيها. ففي شمال فلسطين مثلاً كان لهم «قرية شمون»، وبلسان اليهود «كريات شمونه». وفي

شمال افريقيا كان لهم أقدم مستعمرة كنعانية هي القرية «العتيقة». وحين وضعوا أسس المستعمرة الثانية أطلقوا عليها اسم «القرية الحديثة» ـ Qart-hadašt (قرطاجة) تمييزاً لها عن الأولى «العتيقة».

المهم أن جزيرة كريت (قريت» وبلساننا اليوم «قرية»، كنعانية. والمجتمعات التي عمرتها وأرست فيها حضاراتها هي مجتمعات كنعانية، هاجرت من الساحل الكنعاني. وليس بعيداً أن تكون موجة كنعانية قد عادت أدراجها الى الساحل الكنعاني الجنوبي، وأطلق الآخرون عليهم وعلى ساحلهم اسم فلسطين.

وشاهدنا على أن القوم كنعانيون، وليسوا غرباء كما يزعم المؤرخون في الغرب والشرق بمن فيهم الاسرائيليون طبعاً، هو أن اسماءهم كنعانية وعريقة في الأرض، ومعبّرة اسمى تعبير عن المفاهيم الأخلاقية الصافية التي كانت سائدة في هذه الأرض منذ زمن يسبق الألف الثالث ق.م. ويكفي أن نذكر شاهداً واحداً، واضحاً كالشمس في رائعة الضحى، هو اللقب الذي كان يُنعت به ملوكهم. فالمعروف أن «أب ملك، ملك جرار الفلسطيني» استقبل ابراهيم «المتغرّب في جرار.. وقال له: هوذا أرضي قدامك، اسكن في ما حسن في عينيك. سفر التكوين ٢٠: ١ و١٥».

ويبدو أن حفيد هذا الملك وسميّه «أب ملك» استقبل اسحق أيضاً في أرض فلسطين «وأوصى جميع الشعب قائلاً: الذي يمسّ هذا الرجل موتاً يموت. تكوين ٢٦: ١١».

و «أب ملك» اسم مركّب، ومدلوله «الله يخضّر، ينضّر الأرض». والاسم بجزئيه «أب» و «ملك» كنعاني، سوري، عربي. وقبل أن تأخذك الدهشة من مدلول هذا الاسم الرائع، دعنا نسبر غور الماضي قليلاً.

فصّلنا القول في كتاب «تاريخ الله» أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية بدأ في وقت مبكّر، بالقياس الى غيره في المجتمعات الأخرى، يتأمّل في الكون المحيط به، وفي الظواهر الطبيعية الفاعلة في بيئته ومحيطه. وراح يندمج في عالم الغيب بحسّ عفوي طبيعي. يشدّه إليه ميول غامضة لاستشراف العلاء، ونوازع مبهمة الى استكشاف سرّ السماء، والوقوف على حقيقة هذا الكون العظيم. وعندما اندمج الانسان القديم في سوريا الطبيعية بالغيب، وتفاعل مع

الطبيعة في شبه تواجد حميم، تجلّت له عظمة الطبيعة في نظام عجيب خارق خاضع لقوى منظمة بواسطة توازن ظاهراتها (حركات الكواكب، ومدارات الفصول). تلك الظاهرات التي تمتاز بفاعليتها المعطاء (إخصاب اللقاح الانثوي، والحياة في نور الشمس وحرارتها). وتجلّت له أيضاً في هذا العلو الرهيب العميق الذي كان في كثير من الأحيان يفعل في نفسه ويستثير خوفه، فيغمره الاحساس بالجلال والعظمة، ويحيا حالة ذهنية فائقة الحساسية، فتتكشّف له السماء بعلوها الهائل وامتداداتها اللانهائية وسرّها العميق، في تجربة نفسية فريدة تكاد تكون رهيبة. تجربة المهابة والجلال، والقوة المستقرة الهادئة الكامنة في المهابة والجلال، والتي تظهر له كنظام، ومن ثم كأساس الحياة البيولوجية.

والى جانب ما أوحت به السماء إليه من إحساس بالرهبة والعظمة والجلال، وجد أن للسماء في هذه البقعة من الأرض سلطة تفرض نفسها عليه كما تفرضها على الطبيعة ومظاهرها. وهكذا اندمج مفهومه للقوة الجبّارة التي تدير شؤون الكون الانسانية والطبيعية بالعلو والسماء. وظلّت مشاعره مشدودة أبداً نحو الجلال والسلطة المطلقة اللذين توحي بهما السماء.

وفي هذه المرحلة من وعيه أدرك ذاته ككائن زمني وتاريخي. وترافق وعيه لذاته مع وعيه للكون والقوى الجبّارة الفاعلة فيه. ومع اتساع المدى الذهني بتجارب الذات، ونمو الوعي ونضج الفكر مع تنوّع التجارب واتساع الخبرة في تصنيف الأشياء، ووصوله الى درجة من وعي الاسباب والعلل، ووعي المبادئ غير المحسوسة، ارتفع بنظرته الى الأعالي متأمّلاً بالفارق العظيم الذي يفصل الأرض عن السماء. والتأمل طريقة حدسية من طرق الادراك، تكاد تكون أقرب الى الرؤيا. وحين تهذّبت عواطف الانسان القديم في سوريا الطبيعية، ورقّت مشاعره، واقترب في تأمّله من حافة الرؤيا، استوعب الكون بنظرة شاملة، وراح يلتمس له سبباً واحداً لـ «الحصول» كما حصل. فخالجه شعور بأن مركز الوجود ومغزاه بعيدان عن الانسان ومنجزاته. ويقين بأن في السماء قوة عالية مستقلة عن ارادة البشر، صنعت الكون ونظّمته وخلقت الانسان. يخضع الجميع لتأثيرها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها. افترض فيها القوة المطلقة، قوة الخلق وقوة الافناء. وافترض أنها ترعى شؤونه. وفي محاولته التقرّب الى هذه القوة الكامنة وراء تنظيم الكون، قفز من المحسوس الى ما وراء الطبيعة،

فالتقى مباشرة بالمطلق الذي تمثّل له في أسمى صورة من الجلال والرهبة والعظمة والقدرة.

ومن الواضح أن اندماج فكرة هذه القوة بالعلو والسماء في الذهن المشرقي القديم، ذو دلالة عميقة على العلاقة المرهفة التي تربط الانسان بالوجود الكوني البعيد. هذه العلاقة التي تعبّر عن ذاتها بالمشاعر العلوية السامية المشدودة أبداً نحو المطلق الكوني. وهذا ما نراه عند سائر البشر، فإن مسكن «الآلهة» بمفهومهم هو السماء، أي العلاء. والسماء مأخوذة من «سما» أي علا وارتفع. واسم السماء مرادف لاسم الإله في لغات العالم بغالبيتها. وإذا ما أراد الناس، بسطاء كانوا أم علماء، الاشارة الى اسم الإله رفعوا أيديهم الى السماء. ثم إن الصلوات الشعبية في العالم بمجملها موجّهة الى «أبينا الذي في السماء». والطريف أن صلوات الانسان المبكّرة كانت توجّه الى الأب السماوي ذاته. تقول صلاة افريقية قديمة «حيث تكون السماء يكون الإله أيضاً»[٢١٥]. ومن هنا كان، ولم يزل، ارتباط مفهوم الألوهة بالعلو والسماء.

هذه القوة والسلطة المطلقتان اللتان توحي بهما السماء، أطلق عليهما السومريون في حوض النهرين الأدنى صفة «ان» ـ (السيّد ـ السماء)، التي تطوّرت صيغتها على ألسنة الكنعانيين في سوريا الغربية الى «أُون». وأطلق عليهما الأموريون صفة «ماردوك» ـ (السيد العظيم). والأشوريون صفة «أشور» ـ (السيّد). والكنعانيون في سوريا الغربية صفة «ملك» ـ (السيّد). وأطلق عليهما الأكاديون في البادية السورية، وهم في حالتهم الفطرية، قبل الأزمنة التاريخية، صفة العلو «عَلْ» ـ (العالي)، التي تطوّرت صيغتها على ألسنة السومريين الى «ايل». وهذه الصيغة (ايل) تطورت على ألسنة الأراميين في الجنوب السوري الى «إله» فـ «الله».

وذكرنا أيضاً أن المؤرخين والباحثين في حضارة سوريا الطبيعية يجمعون على القول بالدور الريادي الذي كان لمجتمعاتها في تاريخ الحضارة الانسانية. ولعلّ الجانب الأهم في هذا الدور هو ما أثر أو ما وصلنا عنهم من مفاهيم وأفكار (معتقدات) كانت الأولى في ما بقي لنا من تراث ميثولوجي، التي أشارت الى تعرّف الانسان الى القوة العالية الخلاّقة (إله) في «زمن البدء». والى دور هذه القوة في عملية التكوين والخليقة، وتنظيم الحياة على الأرض. والى

تقرّبها من الانسان والاعتناء به ومساعدته في التعرّف على وسائل الحضارة.

والرائع الرائع في هذا الجانب من دورهم الريادي أنهم عبّروا في نظرتهم الى «السيّد» «العالي» - (الله) عن مفاهيم أخلاقية واجتماعية كانت المثل الأعلى لسائر المذاهب الفكرية والدينية التي أبدعها أو وضعها الانسان في ما بعد. وقد شكّلت هذه «النظرة» و «المفاهيم» منحى اجتماعياً خلقياً واتجاهاً فكرياً انسانياً (معتقدات) كانا خلاصة القيم والمفاهيم الانسانية. وظلاّ طوال ثلاثة آلاف سنة يصونان مفاهيمهم الاجتماعية ويحميان قيمهم الاخلاقية. وبهما ظلّت سوريا وقتاً طويلاً (ثلاثة آلاف سنة) المعلم الاخلاقي للبشرية.

ولكن المؤسف أو المؤلم أن عاديات الزمن وبربرية الغزاة (وما أكثر ما ابتليت هذه الأرض بالغزاة البرابرة) لم تبقيا شيئاً يفصح عن معتقدات وطقوس المجتمعات القديمة. ولم يسلم لنا من العهود التاريخية الغامضة أو النادرة الوثائق والمستندات إلا اسماء تحمل في تركيبها صفة القوة العالية، منقوشة في صخور مبعثرة في العراء أو محفورة في ألواح من الطين سلمت من عوامل الدهر ومن سنابك خيول الغزاة. أو تسم مدناً منائر أو مظاهر في الطبيعة (جبال أنهار وديان) لم تقوَ على محوها العوامل الطبيعية أو الجيوش البربرية.

والملاحظة التي تستوقف الباحث في مفهوم «السيد» «العالي» أن الانسان القديم في سوريا الطبيعية وفي العربيتين الشمالية والجنوبية، أكّد منذ عهد مبكّر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» - (الله) وبين القيم الاخلاقية. أو قل إن هذا المفهوم توضّح في ذهنه مقروناً بالمثالية الخيرية للوجود، وبمفاهيم الحق والعدل والرعاية والحماية. ومن هنا كان «السيد» «العالي»، كما أرادوا له أن يكون، شمساً تنير درب المظلوم، وقاضياً يأمر بالعدل، وحاضناً لليتيم، ومنصفاً للارملة. هو الذي يوحي للملوك خدمة أقوامهم، والدفاع عن الحق، وازالة الظلم. ويلهمهم تشريعاتهم «الكي يمنع القوي من ظلم الضعيف. ولكي تنار الأرض، ويتأمن رخاء المجتمع»[٢١٦].

وبما أن مفهومهم لـ «السيد» «العالي» - (الله) ارتدى طابعاً أخلاقياً، فقد كانت النظرة العامة الى حكم «السيد» (الاله) تقوم على أساس أن الاله يحمي ينقذ ينجّي يخلّص يحفظ يرعى يصون يمنح يهب ينعم ينير يشفق يعطف يرأف

يلطف يرحم يبهج يُسعد يسرّ يرضي يقوّي يعزّز يطهّر ينقّي يزوّد بوفرة يخصّب يفيض يشفي يعيل يعضد يقي يضمن يعدل يُصلح يقضي (بالعدل) يزيد ينمّي يؤازر يسند يدعم ينصر يؤيد يسامح يغفر يجمع يفضل يبارك.. وباختصار، يعنى بحماية العبد ورعايته.

ومن الطبيعي أن الاسماء المضافة أو المنسوبة الى صفة القوة العالية، كان لها مدلول معتقدهم الميثولوجي: التقرّب من «السيد» «العالي» ـ (الله) والتيمّن به. ولها معان جميلة وسامية ودلالات عميقة تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والقابلية للعطف والاستجابة للتوسل والشعور بالواجب، التي أسبغتها مجتمعات سوريا والعربيتين القديمة على «السيد» «العالي» ـ (الله).

فـ «السيّد» العالي»، بمفهومهم أو باعتقادهم، هو المنعم. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم الاخلاقي باطلاق الاسماء المعبّرة عنه على بنيهم أو على مظاهر الطبيعة حولهم. والاسماء المعبّرة، باعتبارهم، هي الاسماء المركّبة من صفة القوة العالية (الله) ومن فعل العطاء أو الانعام. فالفعل «آش» أو «آس» في اللغة السورية العربية الأم يعني العطاء والانعام. ولا يزال في عربية اليوم «آس يؤسُهم أوساً وإياساً: أعطاهم. والاوس العطية». هذا الفعل ذو المدلول الاخلاقي الرائع (أعطى إعطاء وانعم انعاماً) أضافوه الى «ان» ـ(السيد) و «ملك» ـ (السيد) و «ايل» ـ (العالي) ـ (المطلق، الله بمفهومنا). فكان لهم من الاسماء: أوس ان (يُنعم ان)، اش ملك (يُنعم ملك)، اش ايل (يُنعم ايل). ويبدو أن صيغة «اش ايل» أكادية قديمة راجت في مجتمعات حوض النهرين، وعنهم اقتبسها الاغريق. فالمعروف أن بطل الياذة هوميروس هو «اش ايل» اشيل. أما صيغة «أوس ان» فقد راجت في سوريا الداخلية، وخاصة في جنوبها الشرقي، وشعّت الى العربية الشمالية فالجنوبية. واسم «أوس ان» (أوسان) مشهور ومتداول كثيراً في العربيتين. وراجت صيغة «اش ملك» في سوريا الغربية.

ومن الواضح أن مدلول «أوس ايل» و «أوس ان» و «اش ملك» في مفهومهم هو مدلول «ينعم الله» ذاته في مفهومنا لأن «ان» و «ايل» و «ملك» في مفهومهم هو «الله» في مفهومنا. وقس على ذلك الاسماء جميعها المقترنة

بـ «ان» أو «ايل» أو «ملك» أو «ماردوك» أو «اشور»، في مركب اسنادي أو اضافي.

و «السيّد» «العالي» بمفهومهم أو باعتقادهم هو الذي يشفي، ويُبقي على قيد الحياة، ويبعث الحياة. وقد عبروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باطلاق الاسماء: حي ايل (الله يُحيي)، حي ان، حيو ملك، ويحيى ملك.

وباعتقداهم أن السيد العالي يرأف ويعطف: حن ايل، حن ان، حن ملك.

وأن السيد العالي (الله) يسمع الدعاء: سمع ايل. سمع ان. شمع ملك.

وفي مفهومهم أن السيد العالي (الله) يعدل وينصف: صدق ايل. يصدق ان. ملك صدق.

وأن السيد العالي هو الذي ينضح في صدورنا القوة والبأس: عز ايل (الله يعزّز، يقوّي) عزّ ان. عزّ ملك.

وأن السيد العالي (الله) يعطي: نتن ايل (يعطي الله) نتن ان. يتن ملك.

ع ز ر: في اللغة السورية العربية الأم يعني أعان وساعد. وفي عربية اليوم: أعان وقوّى ونصر. وفي القرآن الكريم - سورة الفتح «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه». هذا الفعل ذو المدلول الاخلاقي الرائع أضافوه الى صفة القوة العالية، فكان لهم من الاسماء: عزر ايل (الله يعين، الله يساعد). عزر ان. عزر ملك.

وفي مفهومهم أن السيد العالي (الله) هو الذي يُنبت الكلأ وينضّر الأرض. وقد عبّروا عن ايمانهم بهذا المفهوم باسماء: أب ايل (الله يخضّر، ينضّر الأرض). أب ان، وهذا الاسم (ابان) مشهور ومتداول جداً في العربيتين. ماردوك أب. أب ملك. والجدير بالذكر أن الفعل أب (يخضّر، ينضّر، يُنبت الكلأ) هجاء واحد (فتح فسكون)، وهو آخر ما تكون عليه اللفظة. وهذا يدل على قدمها كما يقول اللغوي الكبير الأب انستاس ماري الكرملي، مستشهداً بقول ثعلب: «الأب كل ما أخرجت الأرض من النبات». ويعني أيضاً أن اللفظة من اللغة السورية العربية الأم، وهي شائعة في الالسن السورية العربية الأخرى مثل الكنعاني والبابلي والآرامي.

فمدلول «أب ملك» يعني «السيد (الله) يخضّر، ينضّر الأرض، يُنبت الكلأ». وهذا الاسم كنعاني، سوري، عربي.

ويبدو أن مفهوم «ملك» كصفة للقوة العالية، ظل محصوراً في سوريا الغربية. ومن هنا كانت الاسماء التي تدخل هذه الصفة في تركيبها، كنعانية بشكل عام. فمن الاسماء الكنعانية في ما عرض سيجرت[٢١٧] من نقوش: ملكي عزر. يحيى ملك. يدع ملك. عبد ملك. ومن الاسماء التي وردت في ما عرض ز. هاريس[٢١٨] من نقوش: حن ملك. يحو ملك. يتن ملك. ملك خلص. ملكي عزر. ملك يتن. ملك رام. عبد ملك.

وفي النقوش المكتشفة في الساحل الكنعاني وفي قرطاجة، أشار بينز[٢١٩] الى اسماء تدخل الصفة «ملك» في تركيبها، منها مثلاً:

أمت ملك	ملكي رم	يحو ملك	رعو ملك
ملك خلص	إب ملك	عبد ملك	شمع ملك
حن ملك	ادر ملك	عز ملك	اش ملك
يتن ملك	برك ملك	عزر ملك	بد ملك
ملك يتن	جر ملك	عمس ملك	مقن ملك
ملك حرم	يدع ملك	صدق ملك	ملكي عزر

ومن الاسماء التي صنفها جبسون[٢٢٠] من النقوش المكتشفة في سردينيا وقبرص وأثينا وأرسلان طاش (في سوريا العليا) واسبانيا وردس ومالطة وسمائيل وقره تيبه: يحيى ملك. يدع ملك. ملك يتن. عبد ملك. عزر ملك. أوري ملك.

ومن الاسماء التي وردت في النقوش التي جمعها كوك[٢٢١] من كيتيون (قبرص): عبد ملك. ملك يتن. ومن دمشق: عبد ملك. ومن جبيل: يحيى ملك. أوري ملك. ومن النقود الأرامية المكتشفة في الساحل الكنعاني: ملك يتن[٢٢٢].

وجدير بالذكر أن أب ملك كان ملكاً على صور.

ولعل أشهر الاسماء التي تدخل صفة «ملك» في تركيبها، هو اسم «ملك صدق» ـ (يعدل الله) الذي كان ملكاً على أورشليم، «وبارك ابرام. تك ١٤ : ١٨» عندما جاء متغرّباً في أرض فلسطين.

ويبدو أن هذا الملك الكاهن كان من رفعة الشأن وعلو المنزلة في أذهان الناس الى حدّ شُبّه بابن الله، «لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة». والى حدّ أن

يسوع الناصري الملقب بالمسيح، وهو من هو، جاء على رتبة ملك صدق. يقول صاحب الرسالة الى العبرانيين (العهد الجديد): «دخل يسوع على رتبة ملك صدق ٦ : ٢٠». ويقول «ملك صدق، ملك ساليم، كاهن الله العلي، استقبل ابراهيم وباركه. . هو بلا أب بلا أم بلا نسب. لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة، بل هو مُشبّه بابن الله ٧: ١ ـ ٣». ويقول عن المسيح «كاهن الى الأبد على رتبة ملك صدق ٧: ١٧».

وخلاصة القول أن الفلسطينيين متجذّرون في أرض فلسطين قبل بداية التاريخ. أو قل إن التاريخ يفتح عينيه على هذه المجتمعات وهي متجذرة في تراب فلسطين، يعمّر كل مجتمع أرضه ويضع أسس حضارته. ومن يدري كم مرّ عليها من الزمن وهي مترسّخة في تراب هذه الأرض؟.

وسواء أهاجروا من كريت (القرية) التي عمرها الكنعانيون بحضارتهم، أم كانوا احدى الموجات التي قذفتها الصحراء العربية الى مناطق الهلال الخصيب، فهم كنعانيون، وتجمعهم بالمجتمعات الأخرى، التي توزّعت في أقاليم سوريا الطبيعية، وحدة الأصل واللغة والمفاهيم والمعتقدات.

وبعد هذا الاستطراد في مسألتي كريت وأب ملك، نعود الى موضوعنا: اكباب الصهيونيين على استبعاد الفلسطينيين أو تغييبهم وتشويه تاريخهم أو محوه. ومسخ حضارتهم أو انكارها. وتركيزهم على نفي علاقة الشعب الفلسطيني بوطنه. واعتباره عنصراً غير ثابت أو غير موجود. والعمل بالحاح مكثّف على محو فلسطين أو اقتلاعها، بجذورها التاريخية وبمجتمعها السياسي وتراثها الحضاري، من الذهن الغربي.

وفي مقابل الحقد على الدور الحضاري الذي أدّاه الفلسطينيون في العصور القديمة، عمل الصهيونيون، ويعملون، وبالحاح مكثّف أيضاً، على اقحام ما يزعمونه من دور تاريخي ومن فكر حضاري كانا لهم في العصور القديمة. وعلى اعطائهما الأهمية البالغة بعد تهديم ما سبقهما وما عاصرهما وما كان أساساً لهما، يفوقهما عمقاً وبعداً، مما يؤدي، باعتبارهم طبعاً، الى تأكيد شرعية امتلاك «الحق التاريخي»، وبالتالي استبعاد أي طرف آخر (الفلسطيني).

ومن الطبيعي أن الصهيونية، في افتقارها الى أهم مقومات القومية ـ الأرض، ادّعت بأن لها جذوراً تاريخية وحضارية في أرض فلسطين. وأوهمت

العالم بأن «من الواجب أن يلتقي يهود العالم من جديد في أرض فلسطين لمتابعة اسهامهم في الحضارة الانسانية التي كثيراً ما قدّموا لها»[٢٢٣].

ومن هذا المنطلق كان لهم من المزاعم الحضارية، بالاضافة الى التاريخية، ما يملأ المجلدات. وجاء أدبهم غنيّاً بالحديث عن أمجاد اسرائيل الحضارية التي كانت لهم فترة استيطانهم القصيرة في مرتفعات فلسطين في القرن العاشر ق.م.

جاء في القوانين الأساسية لدولة اسرائيل، قولهم «إن أرض اسرائيل هي مهد الشعب اليهودي. هنا تكوّنت هويته الروحية والدينية والقومية. وهنا أقام دولته للمرة الأولى، وخلق قيماً حضارية»[٢٢٤].

وقانون التعليم الحكومي في دولة اسرائيل يدعو الى توجيه الجهود نحو تعميق معرفة اليهودي بالقيم اليهودية، وتنشئته على التوراة وما قدمته للحضارة الانسانية»[٢٢٥].

والمؤتمرات الصهيونية جميعها تبنّت في برامجها، من ضمن ما تبنّت، هدفاً أساسياً هو «تعزيز القيم الروحية والحضارية اليهودية»[٢٢٦].

هذه نماذج مما صدر في قوانين دولة اسرائيل السياسية والتعليمية. وما تُبنّي في المؤتمرات الصهيونية. وجميعها تركّز على نقطة واحدة، وتدور حول محور واحد: «القيم الحضارية» التي امتاز بها (الشعب) اليهودي، وبها تميّز عن سائر الشعوب.

ويبدو أن بناة الصهيونية من رجال السياسة متفقون أبداً في مقدماتهم المنطقية وتصريحاتهم العلنية على القول بأن (الشعب) اليهودي شيّد صروحاً من الحضارة، وأقام نظاماً، وأسس مملكة، ومجداً سياسياً وأخلاقياً وعمرانياً في أرض فلسطين.

رئيس حكومة اسرائيل، دافيد بن غوريون، قال قبيل انشاء دولة اسرائيل «ربما يكون مقدّراً لمملكة يهوذا التي ستولد من جديد، أن تؤدي دوراً عظيماً وهاماً في عالم الغد، مثلما قدّمت اسرائيل للعالم يوم كانت تعيش فوق أرضها. وربما كان مقدّراً لنا أن تساهم مرة أخرى في مضمار الحضارة الانسانية»[٢٢٧].

ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية، ناحوم غولدمان، قال «من الواجب أن يلتقي يهود العالم في أرض فلسطين لمتابعة اسهامهم في الحضارة الانسانية التي قدّموا لها الكثير»[٢٢٨].

سياسي آخر، سفير اسرائيل في واشنطن، أبا إيبان، ألقى محاضرة في جامعة جورج تاون (٦ نيسان ١٩٥٧) قال فيها «إن اليهود أقاموا أقدم حضارة للبشرية». وأضاف «ولقد خطا هذا الكوكب من البربرية الى الحضارة في اللحظة التي غمره فيها نور اسرائيل عن طريق اشعاع الفكر اليهودي المشرق»[٢٢٩].

وظلّ عضو الكنيست مئير يعري يؤكد على «حضارة الشعب اليهودي وتراثه التاريخي». وعلى «الاثر الدائم الذي كان للتاريخ اليهودي على قسم كبير من الانسانية المتحضرة»[٢٣٠]. كما ظلّ الزعيم الاميركي الصهيوني لويس برانديس يؤكد أيضاً على أن اليهود «شعب عريق، شعب مكّنته ثلاثة آلاف سنة من الحضارة، من تقديم الكثير من أجل تقدّم الحضارة الانسانية في المستقبل كما كان شأنه في الماضي»[٢٣١].

أما بناة الصهيونية من رجال الفكر فهم مصابون بعقدة الايمان بأن أجدادهم كانوا روّاداً في حقلي الحضارة والأخلاق. ولذلك جاء أدبهم غنيّاً بالحديث عن القيم والمقومات الحضارية التي كانت لبني اسرائيل فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين في القرن العاشر ق.م. ترود فايس ـ روز مارين مثلاً تؤكّد في كتابها «البقاء اليهودي»[٢٣٢] الذي أغرق سوق الفكر في عالم الغرب، تؤكد أن اليهودية حضارة، أو أنها «نظام من الحضارة، وهي تسمو على جميع الحضارات». ثم يتملّكها الزهو، ويسيطر عليها حسّ المباهاة، والمنّ بفضل اليهودية على الحضارة الغربية في مختلف ميادين العلم والفن والأدب.

وليون أوريس يدور في روايته «اكسودس»[٢٣٣] حول فكرة واحدة هي «التفوّق المطلق» للشعب اليهودي على الشعوب سائرها. «التفوّق الحضاري والفكري والأخلاقي». ومن هنا جاءت العبارات التي وضعها على ألسنة شخصياته معبّرة عن هذه الفكرة. من أمثلة ذلك قول احدى الشخصيات «إن اليهود يشعرون في أرض فلسطين بأمجاد شعبهم الحضارية تحيط بهم من كل الجهات». وقول أخرى «إن اسرائيل هي منارة للجنس البشري بأكمله».

واليهودي الهنغاري رفائيل باتاي في كتابه «العقل اليهودي»[٢٣٤]، يحاول أن يقنع القارئ ببحثه المموّه بالجد والرصانة، المخرج بقالب الاسلوب العلمي الدقيق، بأن اليهود القدماء أقاموا حضارة في أرض فلسطين. «وما من جماعة بشرية أخرى تستطيع الافتخار بسجل حضاري مشابه، ولو مشابهة طفيفة، لسجل

الحضارة اليهودية القديمة».

والملاحظ أن دولة اسرائيل، في عملها الدؤوب على تجميع يهود العالم في الغيتو الجديد الذي أنشأته في أرض فلسطين، تُواجَه بعائق نفسي عميق هو صعوبة الجمع بين (المنفيين) المتحدّرين من أصول ثقافية مختلفة. ولهذا تعمل على بعث أعتق الافكار العنصرية، واحياء أعتق العواطف الدينية، في محاولة لكسر ولاء اليهودي نحو البلد الذي يعيش فيه، وجره في عملية تجميع الى الغيتو الجديد في أرض فلسطين. وتعمل أيضاً على ربط ما يسمّى الثقافة اليهودية المعاصرة بما يسمّى الثقافة اليهودية الماضية. أو البحث عن ثقافة مشتركة لهؤلاء (العائدين) كي يتسنّى لها صهر العناصر المتنافرة في بوتقة واحدة، وطبعها بطابع يهودي مميّز.

وهكذا تجد الدولة نفسها أمام «معضلة تكمن في البحث المحموم للعثور على جذور ثقافية أو حضارية مشتركة»[٢٣٥]. وهذا ما يفسّر لنا الدور الذي يؤديه علم الآثار في نبش الماضي السحيق، والتعجيل في الانتماء الى معالمه وقيمه. أو في التنقيب الدؤوب في خرائب الماضي أملاً بالعثور على نوع من الجذور التاريخية أو الحضارية، أو على الأقل، العثور على أي قطعة آثارية لاستغلالها في ما يزعمون من رابطة تاريخية.

وبما أن فكرة البحث عن اسرائيل القديمة، تهيمن على جميع أعمال التنقيب في المواقع الآثارية في أرض فلسطين، كان لعلم الآثار أهمية بالغة بالنسبة لاسرائيل الحديثة في بحثها الدؤوب عن جذور قومية أو حضارية في أرض فلسطين. لأن نبش الماضي، والتعجيل في الانتماء الى معالمه وقيمه. والسعي اللاهث للعثور على قاسم حضاري مشترك يلتف حوله (المنفيّون العائدون الى الوطن) يعنيان بالنسبة لاسرائيل تشكيل المجتمع اليهودي المنشود، وبالتالي الوصول الى مرحلة الخلاص القومي.

ولأن الجذور القومية أو الحضارية، في حال اكتشافها، تعني بالنسبة لاسرائيل، امتلاك الماضي. وامتلاك الماضي ضروري لتبرير سياسة الحاضر، وما يرافق هذه السياسة من مواقف ومظاهر سلوك. وهذا ما ألقى عليه الضوء أحد اليهود الاميركيين الذين يرفضون الصهيونية المتعصّبة، ويسهرون على دراسة أفكارها ومفاهيمها، يعقوب بتوتشوفسكي، بقوله «إن البحث والتنقيب في

خرائب الماضي، وفي أساسات المباني التي شيدّها الأجداد، يهدف الى العثور على رابطة ثقافية مشتركة بين الأجداد القدماء وبين المتحدّرين من سلالاتهم في هذا العصر. وفي الوقت ذاته يجري استحلاب الأرض واستنزاف ما فيها من شواهد تاريخية، بهدف حقن اليهود والآخرين بأن الأمة التي تقيم في صهيون الآن تتألف من ذلك الشعب نفسه الذي سكن هذه البقعة في الزمن التوراتي. وهكذا يتم اجتياز آلاف السنين الممتدة بين ذلك الماضي البعيد والعصر الحاضر، بصمت مرح وجهل يبعث منتهى السعادة»(٢٣٦).

والواقع الذي أثاره اليهودي الأميركي، المتحرّر من عقد الصهيونية، بتوتشوفسكي، وعبّر عنه باكباب الصهيونيين على البحث في أساسات المباني، وباستنزاف ما في الأرض من شواهد تاريخية، بهدف العثور على رابطة ثقافية مشتركة بين الأجداد القدماء وبين اليهود المتحدّرين من سلالاتهم، تساعد في حقن اليهود بالشعور بأن الأمة التي تقيم في صهيون الآن تتألف من ذلك الشعب نفسه الذي سكن هذه البقعة في الزمن التوراتي. هذا الواقع عاشه اليهودي الروسي مئير يعري الذي هاجر الى فلسطين عام ١٩٢٠ وأصبح عضواً في الكنيست الاسرائيلي. فاسمع إليه وهو يروي كيف عاش الواقع الذي صوّره بتوتشوفسكي، وكيف «اجتاز آلاف السنين الممتدة بين ذلك الماضي البعيد والعصر الحاضر، بصمت مرح وجهل يبعث منتهى السعادة». قال «أنا شخصياً أعيش في كيبوتز مرحافيا، وهو من أوائل الكيبوتزات في اسرائيل. يلاحظ القادم الى هذا الكيبوتز عند مدخله حجارة منحوتة، طول الواحد منها متر ونصف المتر، وعرضه ثمانون سنتيمتراً وارتفاعه خمسون سنتيمتراً. إنها حجارة الأساس لمبنى حضاري يهودي كان يقوم في ذلك المكان منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة. وعندما كان رفاقنا يقومون ببعض الحفريات قريباً من ذلك المكان، بغية بناء مساكن جديدة، كانوا يجدون في كل يوم أنواعاً متعددة من الآثار كحجارة الرحى التي كان يستخدمها أجدادنا».

ويضيف يعري «إن أرضنا سواء أفي مرحافيا أم في أي مكان آخر، تكتنز شواهد لا عدّ لها تروي تاريخ الآلاف من سنوات الوجود القومي للشعب اليهودي في وطنه. لقد أثّر بنا هذا التاريخ بشكل عميق. وأنا لا أستطيع أن أنكر جذوري التاريخية، فعندما أستعيد في ذاكرتي أربعة آلاف سنة من وجودنا

كشعب، أشعر في قرارة نفسي بأنني يهودي وصهيوني. لقد قمنا خلال ألفي سنة بتنمية أنفسنا قومياً وحضارياً في وطننا. واليوم بعد ألفي سنة عادت اللغة والحضارة العبريتان فانبعثتا من جديد»[٢٣٧].

* * *

وايمان اليهود بأنهم ظاهرة فريدة، وشعورهم بتميّزهم على سائر الأقوام والأمم، واعتقادهم بخصوصيتهم وأصالتهم، جعلهم يسخّرون أجهزة التعليم، والاعلام، والنشر، الصهيونية والمتعاطفة مع الصهيونية، في براعة واحكام، لاعلان فضل اليهودية الفكري والحضاري على العالم. وفضلها الديني في ارساء قواعد الضمير والخلق في حضارة الانسان. فأقيمت المعاهد العليا، وكراسي العلم، للتخصّص باليهودية، في شتى المجالات، وفي أغلب الجامعات. وأنشئت الجمعيات الكثيرة، والطوائف المتعدّدة، لكي تبشّر باليهودية وتنشر المعارف عنها، من مختلف الوجوه، وفي كافة البلدان.

وكان من نتيجة هذا الجهد الدعائي الضخم الذي لا يزال حتى اليوم يغزو الفكر الغربي بعنف وقوة وبشتى السبل ومختلف الصور، أن صار الغرب يعتبر أن اليهودية هي الخلفية التاريخية والفكرية لحضارة أوربا وأميركا. وأن كتاب التوراة اليهودة (العهد القديم) هو التراث الاجتماعي والخلقي لحضارة الغرب.

وقد استطاعت اليهودية ـ الصهيونية أن تعرض نفسها: تاريخها وعقائدها وآدابها وقيمها الحضارية، للعقل الغربي، بلغة الدين، حتى استقر في الوجدان البروتستانتي ايمان بأن كتاب العهد القديم هو النبع الذي تستمد منه المسيحية مبادئها وروحها وقيمها. وشعور بأن اليهودية هي صاحبة الفضل على الغرب، وأنها الأصل في حضارته، وفي القيم الخلقية والحضارية التي يقيم عليها حياته.

والحقيقة أن الباحث في أحوال الأمم والأقوام. والدارس للتيارات الاجتماعية والمذاهب الفكرية والسياسية السائدة في المجتمعات البشرية، يدهش مما حقّقته اليهودية من ايجاد نقاط التقاء ايديولوجية بينها وبين القوة الدينية النامية في الغرب: قوة المسيحية البروتستانتية.

وربما تكون الدهشة أبلغ وأعمّ من تشبّع الفكر الغربي بما يسمّى «الحضارة اليهودية» في أرض فلسطين. أو بما يدعى «المدنية التي معقلها اسرائيل القديمة، والتي قامت على أساسها مدنية الغرب» كما عبّر وزير خارجية الولايات المتحدة

الاميركية، دالس، في الثامن من آذار ١٩٥٦.

خذ مثلاً عملية التثقيف الواسعة التي مارستها، وما فتئت تمارسها، ظاهرة الدراسات التوراتية على مجتمعات أوربا والاميركتين منذ بداية القرن العشرين.

وظاهرة الدراسات التوراتية شبكة متداخلة وقوية من المفكّرين الغربيين المتعاطفين مع الصهيونية ومنطلقاتها الأيديولوجية، جهلاً أو تجاهلاً. غفلة أو تغافلاً. تعصّباً أو عنصرية. يأخذهم الايمان بالتراث التوراتي، والثقة العاطفية بصحته التاريخية. وهذان العاملان (الايمان بالتراث التوراتي، والثقة بصحته التاريخية) وفّرا لهم القاعدة والمصدر الأساسي في أبحاثهم التاريخية. فجاءت مؤلفاتهم عبارة عن دراسات تاريخية ولكنها مستوحاة من التوراة وحدها. وجاءت بحوثهم الآثارية متعلّقة باسرائيل القديمة بصفة خاصة. وبالتالي جاء اهتمام الدراسات التوراتية مقصوراً على البحث في تاريخ اسرائيل القديمة.

وبما أن الاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية في الغرب الأوربي والأميركي، هي التي تفرض نفسها على أي فهم لتاريخ المنطقة. وبما أن تاريخ اسرائيل القديمة هو العامل الذي يعين على فهم العقائد الغربية. وهو المنبع الأول للحضارة الغربية، كما يعتقدون، شغلت دراسة اسرائيل القديمة، وما فتئت تشغل، مكاناً واسعاً في حقل الدراسات في الغرب الأوربي والأميركي، لدرجة أنه يُنظر الى اسرائيل القديمة وكأنها تمثّل الصورة الكاملة، وليس مجرّد تفصيل بسيط، مشوّه، وتافه، في لوحة الشرق المتوسطي الواسعة والغنيّة والعريقة تاريخياً وحضارياً.

ولما كانت كتابة التاريخ بمفهوم القائمين على أمر الدراسات التوراتية، هي عمل سياسي. وكانت العوامل الثقافية والمؤثرات السياسية والايديولوجية، هي المهيمنة على خطاب الدراسات التوراتية، جاءت المؤلفات التي وضعت بهدف البحث عن تاريخ اسرائيل القديمة، كثيرة ومتشابكة. والأدهى من ذلك أنها ركّبت تاريخاً ملفقاً لاسرائيل القديمة. وعملت على زرع هذا التاريخ في الذهنية الغربية، والشرقية أيضاً، في محاولة لجعل هذا التاريخ الملفّق مثالاً يحتذى، وبالتالي لتبرير المواقف وأشكال السلوك العدوانية تجاه الشعب الفلسطيني.

ومما لا يخفى على المتأمّل البصير أن حَمَلَة لواء ما يسمّى «الدراسات التوراتية» وعلم «الآثار التوراتي»، تبنّوا في كتاباتهم العناصر الأساسية في

الأيديولوجية الصهيونية، والتي تتلخّص في:

ـ «أن القبائل الاسرائيلية استولت على أرض خالية من السكان (فلسطين). وأنشأت أول دولة قومية موحّدة فيها»[٢٣٨]. تمثّل أقصى ما يمكن أن يصل إليه التطور السياسي المتمثّل في الدولة القومية الأوربية»[٢٣٩].

ـ وأن فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية». وأنها «مهد شعبهم ووطنهم». وبالتالي فهي «ملك لليهود بحكم النشأة التاريخية للأمة اليهودية. وبحكم ارتباط الدين اليهودي بالأرض المقدسة».

ـ و «أن دولة اسرائيل لا تستمد وجودها من حق الاستيلاء، بل من الحق التاريخي».

ومن مقوّمات هذه الايديولوجية أيضاً أن الادّعاء بـ «الحق التاريخي» وبـ «الرابطة التاريخية» غُرس في الأذهان الغربية مقترناً باستبعاد الفلسطينيين أو نفيهم أو تغييبهم مادّياً وحضارياً وسياسياً. وبمحو فلسطين أو تشويهها مجتمعاً وتاريخاً واسماً وحضارة.

وفي المقابل غرست الأيديولوجية الصهيونية في الذهنية الغربية عينها صورة مركّبة زاهية لحضارة التجمّع اليهودي في أرض فلسطين، مقترنة بالحطّ من قيمة الحضارة الفلسطينية أو مسخها أو على الأقل انكار دورها ومساهمتها في تاريخ الحضارة الانسانية.

ومنها أيضاً البحث المحموم في المواقع الآثارية في أرض فلسطين، للعثور على أي قطعة آثارية لاستغلالها في ما يزعمون من رابطة تاريخية.

وعلى هذا الأساس تضمّنت الدراسات التوراتية اشارات كثيرة وواضحة الى العنصر الأول في الأيديولوجية الصهيونية، ومفاده أن القبائل الاسرائيلية دخلت فلسطين، كما يقول المؤرخ التوراتي م. نوت «واتخذت لها موطئ قدم في تلك البراري المقفرة في وقت محدّد من الزمان (لم يذكره). وأصبحت اسرائيل حقيقة نهائية ودائمة في فلسطين». وهو يرى أن العملية كانت «استيلاء على أرض خالية من السكان، أو على الأقل، الاستيلاء على تلك المناطق في فلسطين التي لم تكن مأهولة»[٢٤٠]. ويقول ألبرشت ألت «إن الاسرائيليين استوطنوا منطقة التلال حيث كان هناك تجمّعات سياسية أكبر قائمة، ولكن لم يكن بمقدورها مقاومة الغزو الاسرائيلي»[٢٤١]. أما م. ويبرت فيرى أن الدول ـ

المدن الكنعانية لم تصبح في حالة صراع مع الاسرائيليين إلا مع بدء الفترة الثانية من التوسّع الاقليمي الاسرائيلي[٢٤٢].

ويعتقد ألت أن هجرة بني اسرائيل أدّت في نهاية الأمر الى انشاء دولة ـ مدينة، قضت على نظام دولة المدينة المحلّي، الضعيف والقليل الكفاءة. ويضيف ألت «ثم ان اسرائيل تمكّنت من هزيمة الحكم الفلسطيني المستبد. ومن انشاء دولة قومية هي أول دولة قومية موحدة عرفتها الأرض»[٢٤٣].

أما مدارس البحث العلمي الأميركية بقيادة وليم فوكسويل البرايت، فقد قدّمت رواية بديلة لنشوء اسرائيل القديمة في أرض فلسطين، على النقيض من رواية أ. ألت التي افترضت التسلّل ـ الهجرة السلمية الى أرض فلسطين، وذلك بمحاولة اثبات وجود حملة عسكرية، من المفترض أنها قضت على المجتمعات الفلسطينية في تجمّعاتهم المدنية[٢٤٤].

والدولة التي «أصبحت حقيقة دائمة في فلسطين» كما يقول نوت، و «أنشأت أول دولة قومية موحّدة في المنطقة» كما يقول ألت، «لعبت دورها المتميّز في عملية التغيير الحاسمة في الخريطة السياسية لفلسطين. وهي العملية التي وصلت الى نهايتها في القرن العاشر ق.م[٢٤٥].

وعلى هذا الاعتبار تُصوّر دولة اسرائيل القديمة على أنها ذروة التطوّر السياسي. على النقيض من تجمّعات دول المدن التي كانت سائدة في المنطقة في ذلك الوقت»[٢٤٦]. وبذلك تسيطر فكرة الدولة القومية على تكوين صورة الماضي عند ألت الى درجة يرى أن من الواجب النظر إليها على أنها المبدأ الذي يشكّل أساس التنظيم السياسي في المنطقة.

ويرى ألت أن هذا النوع من النظام السياسي كان مبكّراً إن لم يكن من أسبق أنواع الانظمة السياسية في البلد.

ويرى أيضاً أن الشعوب الأصلية في فلسطين كانت عاجزة عن الاتيان بأي نوع من التنظيم السياسي، حتى تمّ ادخال فكرة الدولة القومية الى المنطقة بواسطة بني اسرائيل المتسلّلين من الخارج[٢٤٧].

ومثل هذا الرأي كان للمؤرخ التوراتي م. دوثان الذي يعتقد أن الاسرائيليين كقوم هم الفئة الاثنية الوحيدة التي تمكّنت من انشاء دولة في هذه الأرض. دولة لم تتبع أيّاً من الامبراطوريات الكبرى. ولم تنضمّ الى أي كتلة فضفاضة من دول

المدن التي كانت منتشرة أثناء الفترة الكنعانية.

فاسرائيل، الدولة القومية باعتباره، هي التي حلّت محلّ الدولة الكنعانية، التي اعتبرها مجرّد تجمّع فضفاض من شكل المدينة ـ الدولة.

وهكذا تمثّل اسرائيل، وباعتباره طبعاً، أبعد ما يمكن أن يصل إليه التطوّر السياسي المتمثّل في الدولة القومية الأوربية. وذروة الحضارة التي تفوق، وتحلّ محلّ، الحضارات البدائية غير القابلة للتطوّر[٢٤٨].

وخلاصة رأي دوثان أن اسرائيل حلّت محلّ فلسطين. وخنق التاريخ الاسرائيلي تاريخ فلسطين، كما يقول المؤرخ المستنير كيث وايتلام[٢٤٩].

وكان انشاء الدولة اليهودية الذي نسبته الدراسات التوراتية الى شاول وداود وسليمان، لا يدل فقط على تحقق أعلى درجات التطوّر السياسي، ولكنه يميّز اسرائيل عن غيرها باعتبارها دولة مستقلة وذات سيادة، لا تخضع للسيطرة الاستعمارية[٢٥٠].

والملاحظ أن المؤرخين التوراتيين جعلوا من هذه الدولة «استثناء من فترة الانتقال بين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي. هذه الفترة التي شهدت، على زعمهم طبعاً، انهيار الامبراطوريات الميسينية والمصرية القديمة والحثية. وشهدت في المقابل، وبمنطق المؤرخين التوراتيين أنفسهم، نشوء الدولة الاسرائيلية المستقلة، التي استغلّت تحت حكم داود وسليمان، وعلى زعمهم طبعاً، الفراغ في ميزان القوى العالمي لكي تصبح هي الكيان الذي يحدّد النطاق الجغرافي لاسرائيل. وبالتالي أصبحت تسيطر على تاريخ المنطقة بدلاً من القوى الامبريالية العظمى، أي مصر القديمة وأشور وبابل وفارس واليونان وروما[٢٥١].

ويتجلّى اصرار الدراسات التوراتية على تأكيد أهمية تلك الفترة، في وصف سوغن لتكوين المملكة الاسرائيلية. يقول «مع تكوين مملكة متحدة تحت حكم داود، خرج تاريخ اسرائيل من مجال ما قبل التاريخ، أي التاريخ الميثولوجي، ودخل ميدان التاريخ الحق. فالمملكة التي حكمها داود وسليمان هي الواقعة الأساسية التي نستطيع الانطلاق منها للبدء في البحث عن تاريخ اسرائيل بشكل صحيح»[٢٥٢].

وكان المؤرخ التوراتي جون برايت أشدّ تأكيداً من سوغن على فترة الملكية

وتأثيرها في تاريخ اسرائيل. يقول «لقد أصبحت اسرائيل في فترة المملكة احدى القوى العظمى في عالمها المعاصر. وهذه الفترة هي واحدة من أهم الفترات في تاريخ اسرائيل برمّته».

ويضيف برايت مفصّلاً القول في «هذه الفترة الحاسمة في التاريخ الاسرائيلي»، والتي تعتبر من أهم الفترات في تاريخ اسرائيل، قائلاً: «لقد أدّت سلسلة من الأحداث الى تحويل اسرائيل في أقل من قرن، الى دولة قوية، وجعلتها في منزلة احدى الدول الكبرى في العالم المعاصر لها».

ويضيف متغنياً بالتحوّل المثير في تاريخ الدولة اليهودية، قائلاً «إن اسرائيل تحوّلت بشكل مفاجئ الى أكبر قوة في فلسطين وسوريا. وربما كانت اسرائيل في تلك الفترة لا تقل جبروتاً عن أي قوة عظمى في العالم القديم».

ويؤخذ برايت بفترة داود التي هي باعتباره «فترة تعزيز نفوذ دولة السلالة الحاكمة وبناء الامبراطورية، إذ كان داود سيّداً على امبراطورية مترامية الاطراف تضم عمون وسوريا في الشمال، وادوم ومؤاب في الشرق».

ويتحدث برايت في مكان آخر من كتابه «عن امبراطورية، امتدت حدودها من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي».

ويخلص في النتيجة الى الغاية التي يرمي إليها، بالقول «إن حدود الامبراطورية الداودية، التي تمكّن سليمان من المحافظة عليها، تدلّ على أن تاريخ الدولة الاسرائيلية هو تاريخ فلسطين»(٢٥٣).

هذه الصورة الزاهية والمشرقة لمملكة داود وسليمان التي يشكّلها برايت، يتبنّاها المؤرخ التوراتي الآخر، مارتن نوت، بقوله «إن اللحظة الحاسمة في تاريخ اسرائيل هي فترة حكم داود، فقد سارت فيها اسرائيل نحو الهيمنة السياسية، ودخلت مرحلة جديدة ومؤثرة».

ويضيف نوت «إن داود لا يهزم الفلسطينيين فحسب، بل يقهرهم الى حدّ التلاشي من التاريخ. فقد أجبرهم أولاً على الاستسلام، وبالتالي التخلّي عن سيادتهم على الأرض. وبذلك انتهت فترة هيمنتهم بسرعة، وانحصرت ممتلكاتهم القديمة في جنوب منطقة السهل الساحلي، حيث شكّلوا هناك احدى الدول الصغيرة التي كانت تناوش مملكتي يهوذا واسرائيل كلما سنحت لها

الظروف. ولكن لم يكن بمقدورها القيام بأي تهديد تاريخي».

ويرى نوت أن داود قهر الفلسطينيين الى حدّ لم يُبق لهم امكانية المشاركة في الاحداث التاريخية التي حددت سماتها مملكة داود.

ويضيف نوت متغنياً بعظمة داود وبالامجاد التي كلّلت هامته قائلاً «إن ما وصلت إليه القدس من مجد تحت سلطة داود لا يعود الى موقعها الطبيعي، ولكن لارادة ذلك الرجل الفذ وبصيرته».

وفي تعبيره عن اعجابه الشديد بداود يقول نوت «إن داود هو نموذج الرجال الأفذاذ الذين يصنعون التاريخ. وأن ازدهار امبراطورية داود يعود، الى حد كبير، الى الشخصية القوية التي تفرّد بها داود».

ويتحدّث نوت عن الأثر الذي تركته شخصية داود وامبراطوريته في حياة الاسرائيليين، بقوله «أدت الأحداث التاريخية التي وقعت في فترة حكم كل من داود وسليمان الى حدوث تغييرات كبيرة في ظروف حياة الاسرائيليين. فقد خفّفت المملكة القوية من قلقهم على مصيرهم، في وضعهم التاريخي الخاص. كما انهم استمتعوا بالعيش في ظل دولة قوية وتحت سلطة ملك قوي».

ويمضي نوت في معزوفة التمجيد لداود ولامبراطورية داود، فيقول «إن داود انشأ امبراطورية امتدت الى حدود أبعد بكثير من حدود القبائل الاسرائيلية». فيشير مثلاً الى المناطق الأرامية في الشمال من شرق الاردن وحتى الى دمشق التي يراها «اقليماً في امبراطورية داود». تأمل في ما يقول «أصبحت المملكة بنية سياسية شديدة التعقيد. وامتدت الى حدود أبعد كثيراً من حدود الدولة الاسرائيلية. لقد أصبحت امبراطورية فلسطينية ـ سورية اتحدت بشخص الملك، وضمّت شعوباً عديدة ومختلفة». ويضيف «إن نظام داود السياسي كان أول قوة عظيمة مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها. وقد ضمّت معظم فلسطين وسوريا، وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي. والطريف أنها كانت انجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي. وكان الوضع التاريخي العام في الشرق، في مصر وفي ما بين النهرين، في مصلحة داود، إذ لم يكن هناك أي قوة أخرى أكبر منها. تستطيع أن تعتدي على فلسطين وسوريا، وتفرض هيمنتها عليها»[٢٥٤].

مؤرخ توراتي آخر، أ. آلت، يأخذه الاعجاب بداود وسليمان، وما أنجزاه

من «نظام، لم يكن في مقدور سكان فلسطين الأصليين أن يأتوا بمثله». «نظام شديد التعقيد والتشابك، اتحدت فلسطين كلها في ظلّه. وكانت النقطة المحورية فيه هي شخص كل من داود وسليمان». ولذلك ينعتهما ألت بـ «الرجال العظماء». ويرى أن هيمنتهما امتدت الى «أبعد من أي قوة محليّة معروفة»(٢٥٥).

والمثير هو تكرار مثل هذه المقولات أو العبارات التي أخذت تظهر في خطاب الدراسات التوراتية، باستمرار والحاح، بدءاً من عشرينات القرن العشرين:

- مملكة داود هي الفترة الحاسمة في تاريخ المنطقة.
- امبراطورية داود نافست القوى العظمى في العالم القديم(٢٥٦).

وهكذا يلاحظ القارئ أن الدراسات التوراتية ركّزت على فترتين في تاريخ اسرائيل. الأولى فترة النشوء، والثانية فترة حكم داود وسليمان، بوصفهما تمثّلان الفترتين الحاسمتين في تاريخ اسرائيل(٢٥٧).

ومنذ بدايات القرن العشرين شكّل المؤرخون التوراتيون في أذهانهم صورة لمملكة داود، ناصعة ومشرقة، بدت وكأنها العصر الذهبي للتاريخ الاسرائيلي(٢٥٨). ثم قدّمتها الدراسات التوراتية كقوة عظيمة في تاريخ المنطقة. عظيمة الى درجة يغيب فيها التاريخ الفلسطيني، وبالحري لا يبقى له وجود.

وخلاصة القول إن الدراسات التوراتية التي انطلقت في أوربا وأميركا منذ بدايات القرن العشرين، شكّلت دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة، أسّسها الملك داود. وقد ظلّت هذه (الحقيقة) المزعومة، وما فتئت حتى اليوم، تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية. وقد روّج لها عدد من الاكاديميين الذين تبوّأوا مراكز مرموقة في الحياة الاكاديمية في جامعات الولايات المتحدة. وما من شك في أن هذه (الحقيقة) المزعومة اسهمت الى حدّ بعيد في خنق التاريخ الفلسطيني. وكانت عقبة كأداء في وجه أي دراسة مضيئة تعرّي الدراسات التوراتية وواضعيها.

* * *

وتضمّنت الدراسات التوراتية أيضاً اشارات كثيرة وواضحة الى العنصر الثاني في الايديولوجية الصهيونية، ومفاده أن فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية». وأنها «مهد شعبهم ووطنهم». خذ مثلاً قول س. هيرمان «بامكاننا

أن نرى بدايات اسرائيل في شمال سوريا وفي شمال غرب مصر، قبل أن تجد اسرائيل وطناً في فلسطين (أرض الميعاد). وهي ملكها الخاص الذي هو ليس محل نزاع اطلاقاً»[٢٥٩]. وقول ي. أهاروني «إن شعب اسرائيل هو الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض (فلسطين) وطناً له»[٢٦٠].

ويرى ألت أن احراز اسرائيل السبق بالوصول الى وضع الدولة (Statehood) في المنطقة، والانفراد به، هو الذي يؤكّد ويدعّم حقّها التاريخي بالأرض[٢٦١].

ويتحدّث نوت عن «عودة الشعب اليهودي الى وطنه في أرض اسرائيل القديمة». ويرى أن هناك صلة مباشرة بين اسرائيل القديمة ودولة اسرائيل الحديثة[٢٦٢].

وحفلت الدراسات التوراتية أيضاً بفصول طويلة في موضوع تغييب فلسطين أو محوها أو تشويهها اسماً وتاريخاً ومجتمعاً وحضارة (العنصر الثاني في الأيديولوجية الصهيونية). وفي المقابل عملت على تقديم صورة زاهية ومشرقة لحضارة التجمّع اليهودي في أرض فلسطين في القرن العاشر ق.م.

أول ما فعلته الدراسات التوراتية أنها عمدت الى نفي اسم فلسطين، أو تغييبه. وفي المقابل أكّدت على «اسم اسرائيل» و «أرض اسرائيل» أو «أرض التوراة» أو «الأرض المقدسة» أو «أرض اسرائيل التاريخية» أو «أرض اسرائيل في العصر التوراتي».

المؤرخ التوراتي ي. أهاروني مثلاً يتحاشى ذكر اسم فلسطين في كتابيه[٢٦٣] «أرض التوراة» ١٩٦٢ و «أرض اسرائيل» ١٩٨٢. وريني في مقدمته لكتاب أهاروني الأخير يقول «استعملنا في هذا الكتاب تعبير «أرض اسرائيل»، ونعني به المنطقة التي قطنها الشعب الاسرائيلي، والمتطابقة مع المنطقة التي حكمها الملك داود والملك سليمان».

والمؤرخ التوراتي الآخر م. دوثان يرفض استعمال اسم فلسطين، لأن هذا الاسم، باعتباره طبعاً، «لم يكن الاسم الرسمي للبلد إلا لمدة لم تتجاوز الثلاثين عاماً أثناء الانتداب البريطاني. وفي القرن الخامس ق.م. كان هذا الاسم مقصوراً على الساحل الجنوبي فقط[٢٦٤].

وفي تبريره استبعاد اسم فلسطين أو نفيه، يقول دوثان «إن اسم فلسطين قد

غاب عن مسرح التاريخ تماماً»[٢٦٥]. وفي المقابل يرى دوثان أن وجود الدولة الحديثة (اسرائيل)، ذات التاريخ الطويل والمستمر بشكل متواصل منذ العصر الحديدي، هو العامل الأساسي في اختيار المصطلحات[٢٦٦].

ثم عمدت الدراسات التوراتية الى تغييب المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخاً وحضارة. وفي المقابل ألحّت على ابراز الحضور الاسرائيلي فيها، كما يقول المؤرخ المستنير كيث وايتلام. ويضيف «في الدراسات التوراتية لا وجود لشعب فلسطين، بل اشارات بسيطة الى وجود سكان ما قبل التاريخ. ولذلك لا تجد شيئاً يمكن أن يدعى تاريخ فلسطين»[٢٦٧].

فعملية تغييب الفلسطينيين من الوعي في فترة الملكية الاسرائيلية في العصر الحديدي، معروفة، ومتعارف عليها في ما بين المؤرخين التوراتيين جميعهم، كما يقول المؤرخ كيث وايتلام. فهم يرون أن فلسطين وجدت بالاسم فقط، من دون تاريخ، ومن غير سكان. وأما «السكان المعترف بهم كسكان العصر الحديدي، فهم موجودون بشكل مؤقت، وفي معظم الاوقات هم بلا اسم، ينتظرون قدوم اسرائيل لتطالب بتراثها القومي»[٢٦٨].

المؤرخ التوراتي نوت مثلاً يتغافل عن مجتمعات فلسطين الأصلية. ويصرف اهتمامه كله الى قبيلة بني اسرائيل. والاشارات البسيطة والمبتسرة لتاريخ فلسطين، أدرجها تحت عنوان «اسرائيل»، مع اعترافه بأن الاسم الذي كان يطلق على الأرض هو فلسطين.

وفي وصفه الأرض يقول «إن الأرض جرداء وخالية من العنصر البشري. أما السكان الموجودون فهم مجهولون لا اسم لهم». ويصوّر الأرض وكأنها خالية تنتظر أن يملأها شعب اسرائيل، كما يقول كيث وايتلام[٢٦٩].

وعلى خطى نوت سار المؤرخ التوراتي الآخر س. هيرمان، وبتعابيره عبّر. فهو يرى أن فلسطين أرض جرداء وخالية. واذا ذكر أحد مجتمعات فلسطين القديمة عن طريق المصادفة، فهو مجتمع مجهول. وتقدّم فلسطين للقارئ على أنها «مشهد تاريخ اسرائيل». وتصبح مأهولة وذات أهمية في حالة واحدة فقط وهي تحقيق الوعد ودخول اسرائيل على مسرح الأحداث[٢٧٠].

مؤرخ توراتي ثالث، جون برايت، لا يشير الى سكان فلسطين على أنهم فلسطينيون، مع أنه يعالج تاريخ المنطقة قبل ظهور اسرائيل. يقول «يمكن أن

تـدعـى الأرض فـلـسـطـيـن، ولـكـن سـكـانـهـا أمـوريـون أو كـنـعـانـيـون أو اسرائيليون»[٢٧١].

ويرى ميلر وهايس أن فلسطين كانت مأهولة بمجموعة مختلفة من «سكان فلسطين القديمة». ولكنهما لا يعرّفان هؤلاء السكان بـ «الفلـسـطـيـنـيـين»، بل ينظران إليهم على أنهم مجهولون. وتصبح لهم هوية عندما يكونون اسرائيليين أو يهوداً[٢٧٢].

يعلّق المؤرخ المتحرّر من عقد الصهيونية، كيث وايتلام، على ما تنتهجه الدراسات التوراتية من تغييب متعمّد لمجتمعات فلسطين القديمة، بقوله «إن الدراسات الغربية تشير الى المنطقة على أنها فلسطين، ولكنها لا تشير مطلقاً الى السكان على أنهم فلسطينيون. إن ما يُقدّم لنا في الدراسات التوراتية هو وصف للأرض، أما سكانها فمجهولون أو غير موجودين». ويضيف وايتلام «إن الدراسات التوراتية تركّز على مسألة تجريد الفلسطينيين من وطنهم. وتصوّرهم وكأنهم مجتمع بلا تاريخ. وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعباً غير ذي أهمية، أو غير موجود»[٢٧٣].

وعلى هذا الأساس يشير المؤرخ ج. فابيان الى القبول الشائع للتصوير الامبريالي للأرض (فلسطين) على أنها أرض خالية في معظم الأوقات، ولذلك ينبغي احتلالها لخير الانسانية[٢٧٤].

وكان من الطبيعي أيضاً أن تعمد الدراسات التوراتية الى تجاهل تاريخ فلسطين، أو طمسه أو محوه، لأن هذا «التاريخ» يزعزع الأسس التي يقوم عليها تاريخ اسرائيل، وينقض المقومات التي تتألف منها الدراسات التوراتية، وبالتالي يحكم على المشروع الصهيوني بالفشل والانهيار.

ففي منطق الدراسات التوراتية لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد سكان ما قبل التاريخ. ولذلك لا يمكن أن يكون هناك تاريخ يدعى تاريخ فلسطين، كما يقول المؤرخ كيث وايتلام. ويضيف «في الدراسات التوراتية نجد أنفسنا في مواجهة تاريخ اسرائيلي فقط، في الماضي وفي الحاضر. أما فلسطين فغير موجودة، وبالتالي لا تاريخ لما هو غير موجود»[٢٧٥].

إن أعمال المؤرخ التوراتي نوت مثلاً هي نموذج للدراسات الغربية التي تتغافل عن التاريخ الفلسطيني، على حساب البحث عن تاريخ اسرائيل القديمة.

لقد جرّدت الدراسات التوراتية تعبير فلسطين من أي معنى، وتجاهلت تاريخ السكان الأصليين في فلسطين، لأن اهتمامها كان منصبّاً على تاريخ اسرائيل القديمة التي تمّ فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية، كما يقول كيث وايتلام[٢٧٦].

وهكذا استُبعد تاريخ فلسطين عن حقل الدراسات التوراتية في الجامعات الغربية، وغُيّب عن الموضوعات الأكاديمية. ويمكن التدليل على تهميش تاريخ فلسطين القديم من خلال الببليوغرافيا الممتازة التي ألحقها ميلر وهايس بكتابهما. فقد تضمّنت القائمة خمسة وستين مرجعاً تغطّي الفترة من القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن العشرين، لا تجد فيها غير عنوانين يعالجان تاريخ سوريا وفلسطين، وهما أولمستد وباتون[٢٧٧].

يقول المؤرخ جورج سميث «إن فلسطين لا تملك تاريخاً خاصاً بها باعتبار الغرب الأوربي والأميركي. إن تاريخها هو تاريخ اسرائيل الذي هو تاريخ الغرب»[٢٧٨]. أو قل بتعبير وايتلام إن تاريخ فلسطين، بالنسبة للمؤرخين التوراتيين، يبدأ عندما يبدأ تاريخ اسرائيل.

ويرى سميث أن الثقافة والتاريخ الخاصّين بالمجتمعات الأصلية لا يتمتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي. وهذه النظرة تمثّل نظرة الأوربيين جميعاً[٢٧٩].

ومثل هذا الرأي كان للمؤرخ التوراتي نوت، يقول «إن التاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود، أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ اسرائيل»[٢٨٠].

ويعلّق المؤرخ المستنير كيث وايتلام على هذا الواقع المزيّف في الفكر التوراتي، وعلى التزييف الذي يمارسه دعاته في التاريخ الفلسطيني، بقوله «إن الانطباع المغروس بقوة في أذهان الغربيين هو أن تاريخ فلسطين يبدأ مع ابراهيم وينتهي في العام ٧٠م. وما يهم القارئ الأوربي والأميركي هو أحداث الفترة التوراتية وحدها. وعلى هذا الاعتبار يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي. ولا معنى أو أهمية للتاريخ الفلسطيني إلا لكونه مسرح أحداث التاريخ الاسرائيلي، والخلفية التي تطوّر فيها»[٢٨١].

وهذا الانطباع عينه مغروس بقوة أيضاً في أذهان اليهود الذين يرون أن «اسرائيل حلّت في الماضي محل فلسطين. وحلّ التاريخ الاسرائيلي محلّ

التاريخ الكنعاني». وعلى هذا الاعتبار أيضاً «لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد سكان ما قبل التاريخ، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك شئ اسمه تاريخ فلسطين»[٢٨٢].

وفي المقابل احتلّ تاريخ اسرائيل القديمة المرتبة الأولى في اهتمام الدراسات التوراتية. واستهلك البحث في هذا التاريخ طاقات فكرية ضخمة وموارد مادية هائلة للجامعات وكليات اللاهوت والمدارس الدينية، ولحلقات البحث وأقسام الآثار، في أوربا وأميركا واسرائيل، كما يقول وايتلام. وظلّ الأكاديميون والمؤسسات والحكومات يدعمون تاريخ اسرائيل القديمة، مما جعله محاطاً بهالة من الشرف أكبر بكثير مما يستحقه، كما يقول وايتلام أيضاً[٢٨٣].

ومع «أن تاريخ اسرائيل القديمة يبدو كلحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني». كما يقول المؤرخ المستنير كيث وايتلام[٢٨٤]. ومع «أن اسرائيل لم تكن غير خيط رفيع في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني»[٢٨٥]، كما يقول المؤرخ بروديل. ومع ما للفلسطينيين من جذور حضارية عميقة وعريقة في الأرض، مقارنة ببني اسرائيل الذين لم يكن لهم أي دور في تاريخ الحضارات القديمة التي صنعتها مجتمعات سوريا الطبيعية القديمة، فقد تجاهل الغرب تاريخ فلسطين، وقلّصه الى أرض خالية، «تنتظر عودة المسبيين أو المنفيين من شعب الله المختار». وكانت الكتب التي تتناول تاريخ فلسطين قليلة جداً، مقارنة بالمجلدات العديدة والضخمة التي تتناول تاريخ اسرائيل القديمة وحضارتها التي اعتبرت منبع الحضارة الغربية[٢٨٦].

أما الحديث عن الطاقات الفكرية الهائلة التي استهلكت في الابحاث المقصورة على بني اسرائيل تاريخاً وديناً وحضارة. وعن كليات اللاهوت والمدارس الدينية الموقوفة على تاريخ بني اسرائيل وحضارتهم ودينهم. وعن الندوات وحلقات البحث والمحاضرات. وعن خطاب الدراسات التوراتية الذي يسيطر على الاسماع والأذهان في نصف الكرة الغربي، فهو حديث طويل طويل، لا تستوعبه دفّتا هذا الكتاب الصغير.

* * *

وفي مقابل تشديد الدراسات التوراتية على استبعاد الفلسطينيين أو تغييبهم، وعلى محو فلسطين أو تشويهها مجتمعاً وتاريخاً واسماً وحضارة، عملت

الدراسات عينها على ابراز الحضور الاسرائيلي في أرض فلسطين، وقدّمت صورة مركّبة زاهية ومشرقة لحضارة التجمع اليهودي في الأرض ذاتها.

فالى جانب اهتمام الدراسات التوراتية بفهم وتصوير اسرائيل القديمة على أنها منبع الحضارة الغربية[٢٨٧]، أقيمت المعاهد العليا، وكراسي العلم، للتخصّص باليهودية في شتى المجالات وفي أغلب الجامعات. وأنشئت الجمعيات الكثيرة والطوائف المتعدّدة لكي تبشّر باليهودية وتنشر المعارف عنها من مختلف الوجوه وفي كافة البلدان.

وكان من نتيجة هذا الجهد الدعائي الضخم، الذي لا يزال حتى اليوم يغزو الفكر الغربي بعنف وقوة وبشتى السبل ومختلف الصور، أن صار الغرب يعتبر أن اليهودية هي الخلفية التاريخية والفكرية لحضارة أوربا وأميركا. وأن كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) هو التراث الاجتماعي والخلقي لحضارة الغرب. وحتى استقر في الوجدان البروتستانتي ايمان بأن كتاب التوراة هو النبع الذي تستمد منه المسيحية مبادئها وروحها وقيمها. وشعور بأن اليهودية هي صاحبة الفضل على الغرب، وأنها الأصل في حضارته، وفي القيم الخلقية والحضارية التي يقيم عليها حياته.

والواقع أن المفاهيم السائدة في الغرب الأوربي والأميركي، تدور حول نقطة واحدة هي «أن الحضارة الاسرائيلية تحلّ محلّ الحضارة الكنعانية، بل تفوقها وتتجاوزها»[٢٨٨]. وينظر الغربيون الى الثقافة الاسرائيلية على أنها ذروة التطوّر الحضاري. وأنها الأساس في الثقافة الغربية، والنبع لحضارتها، والأصل في ديانتها التوحيدية»[٢٨٩].

المؤرخ التوراتي دوثان مثلاً يرى «أن اسرائيل تمثّل ذروة الحضارة التي تفوق، وتحلّ محلّ، الحضارات البدائية غير القابلة للتطور»[٢٩٠].

ويعتقد المؤرخ التوراتي الآخر نوت، «أن القبائل الاسرائيلية قد جلبت معها تراثاً مهمّاً من خارج فلسطين». وأن «نشأة الكتابة التاريخية كانت في اسرائيل، ولم يكن لها نظير في عالم الشرق القديم»[٢٩١].

ويرى فون راد «أن المملكة الاسرائيلية كانت العصر الذهبي الذي أنتج أعمالاً تاريخية أصيلة، لم يكن بمقدور أي حضارة في الشرق الأدنى القديم، الاتيان بمثلها»[٢٩٢].

ويقول المؤرخ التوراتي ألت «إن الاسرائيليين طوّروا حضارتهم الخاصة في وطنهم الجديد بشكل جيد». و «إن اسرائيل القديمة تمكّنت من الارتقاء حضارياً بالمنطقة والعالم»[٢٩٣].

وفي حضارتهم العمرانية يقول البرايت «إن الأواني ذوات الحفاف المقلوبة، والمنازل ذوات الغرف الأربع، هي علامات مميّزة للحضارة الاسرائيلية»[٢٩٤].

وفي مجال الفن يرى المؤرخ التوراتي مازار «أن الأواني الفخارية التي تمّ العثور عليها في مواقع آثارية (في أرض فلسطين) هي أوان اسرائيلية»[٢٩٥]. وينسب التماثيل البرونزية التي عثر عليها المنقّبون، الى الاسرائيليين أيضاً.

تفنيد التاريخ

أشرنا في ما تقدّم الى العناصر الأساسية في الايديولوجية الصهيونية، التي يتبنّاها حَمَلَة لواء ما يسمّى الدراسات التوراتية. وملخّصها أن القبائل الاسرائيلية استولت على أرض خالية من السكان. وأنشأت أول دولة قومية موحّدة فيها. وأقامت حضارة فاقت «الحضارات البدائية» التي كانت قائمة في الشرق. وشكّلت الأساس في حضارة أوربا وأميركا.

ففي العنصر الأول رأينا أن الزعماء اليهود «لم يتعبوا من انكار وجود الشعب الفلسطيني» كما يقول المؤرخ الاسرائيلي يعقوب تالمون. فبن غوريون مثلاً ظلّ يقرّر وبصيغة التأكيد «أن هذا البلد (فلسطين) لم يكن في أي حقبة من تاريخه الوطن الأوحد لأي شعب آخر غير الشعب اليهودي». «ولم يكن هناك دولة فلسطينية في أي وقت، ولا يوجد شعب فلسطيني». وظلّ رئيس الحكومة الآخر، مناحيم بيغن، يهدر في كل مناسبة «إن للشعب اليهودي حقّاً تاريخياً خالداً في أرض اسرائيل التاريخية، وأرض الأجداد». وظلّوا جميعاً يؤكّدون على أن فلسطين هي «مهد شعبهم ووطنهم». وبالتالي فهي «ملك لليهود بحكم النشأة التاريخية للأمة اليهودية».

ورأينا ما يستخلصه القارئ من مؤلفات المؤرخ التوراتي مارتن نوت، ومفاده أن عملية دخول الاسرائيليين أرض فلسطين، «كانت استيلاء على أرض خالية من السكان». و «أن اللحظة الحاسمة في تاريخ اسرائيل هي فترة حكم

داود الذي هزم الفلسطينيين وقهرهم الى حدّ التلاشي من التاريخ. وأجبرهم على الاستسلام والتخلّي عن سيادتهم على الأرض». و «أن شعب اسرائيل هو الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض (فلسطين) وطناً له» كما يقول المؤرخ التوراتي أ. أهاروني.

وما يخلص إليه قارئ المؤرخ التوراتي الآخر أ. ألت، ومفاده «أن اسرائيل تمكّنت من هزيمة الحكم الفلسطيني المستبد. ومن انشاء دولة قومية هي أول دولة قومية موحّدة عرفتها الأرض». وبذلك «أصبحت اسرائيل احدى القوى العظمى في العالم المعاصر لها»، كما يقول المؤرخ التوراتي جون برايت.

ورأينا.. ورأينا نماذج كثيرة من الادعاءات ـ المزاعم التي تملأ المجلّدات، والتي تتردّد منذ أحقاب في كتب التاريخ والجرائد والمجلاّت، وعبر وسائل الاعلام، وفي المنتديات والجامعات والكنائس و.. حتى صدّقها العالم، وأخذ بها المفكّرون والمؤرخون والاعلاميون ورجال الدين والسياسة، ووثّقوها في خطبهم أو كتبهم أو.. أو.. وبات الرأي العام العالمي في مجموعه أو في غالبيته الساحقة يأخذ بهذه الادعاءات ـ المزاعم، على اعتبار أنها حقائق، ومقدسة أيضاً. وبات في مجموعه أو في غالبيته الساحقة يتعاطف مع اسرائيل، ويغتفر لها كل جريمة حتى ولو كانت ابادة شعب آخر أو طرده من وطنه وملاحقته في كل مكان.

يبدو أن خطاب المنابر الصهيونية، وخطاب الدراسات التوراتية يتوجّهان الى مجتمعات متجمّدة عند مستوى واحد من بداوة الجهل وضحالة الوعي. وراسفة في واقع من غياب العقل وغفلة الذهن. مجتمعات تحوّلت أذهان القرّاء فيها الى أوعية، يلقي فيها الوعّاظ الجهّال، والزعماء المخادعون، والكتّاب الدجّالون، كل ذنوبهم وهمومهم ومتاعبهم العقلية والاخلاقية. أوعية يتجمّع فيها أبشع ضروب التلفيق وأندر أنواع الغباوات، وأشنع أشكال الجهالة. ولذلك لم يخرج يوماً واحد من بين هذه المجتمعات التي تربو على ألفي مليون انسان، سائلاً فرسان المنابر الصهيونية وحَمَلَة لواء الدراسات التوراتية، ومن في حكمهم من قادة ومفكّرين ورجال دين: متى كانت فلسطين أرضاً خالية من السكان؟. وما الوثائق والمستندات التي تنهض شاهداً على الهزائم التي ألحقها الاسرائيليون بالفلسطينيين، وعلى انشاء أول دولة قومية موحّدة في الأرض؟.

إن المتأمل البصير الذي أنعم الله عليه بفحولة الوعي وتيقظ الذهن ونعمة التفكير، يعرف أن الوثيقة الوحيدة في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى أرض فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م.، هي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). وهذه الوثيقة الوحيدة والفريدة تخبرنا، كما عبّر جواسيس موسى، «أن الشعب الساكن في فلسطين معتز، والمدن حصينة، عظيمة جداً. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والاموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الاردن. سفر العدد ١٣: ٢٨». وأن «جماعة بني اسرائيل كلها رفعت صوتها وصرخت» عندما بلغها ما نقله الجواسيس. «وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمّر على موسى وهرون جميع بني اسرائيل. وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر. ولماذا أتيتما بنا الى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟. أليس خيراً لنا أن نرجع الى مصر. سفر العدد ١٤: ١».

وتخبرنا هذه الوثيقة - التوراة أيضاً أن «موسى أرسل من قادش رسلاً الى ملك ادوم.. قائلاً: دعنا نمرّ في أرضك. لا نمرّ في حقل ولا في كرم، ولا نشرب ماء بئر. في طريق الملك نمشي. لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك. فقال له أدوم: لا تمرّ بي، لئلاً أخرج للقائك بالسيف. فقال له بنو اسرائيل: في السكّة نصعد، إذا شربنا أنا ومواشي من مائك أدفع ثمنه. أمرّ برجلي فقط. فقال له أدوم: لا تمر.. وأبى أدوم أن يسمح لاسرائيل بالمرور في تخومه. فتحوّل اسرائيل عنه. سفر العدد ٢٠: ١٤ - ٢١».

«ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن اسرائيل جاء في طريق أتاريم، حارب اسرائيل وسبى منهم سبياً. عدد ٢١: ١».

«وأرسل اسرائيل الى سيحون ملك الأموريين قائلاً: دعني أمرّ في أرضك. لا نميل الى حقل أو كرم، ولا نشرب ماء بئر.. فلم يسمح سيحون لاسرائيل بالمرور في تخومه. عدد ٢١: ٢٣».

«ثم تحوّلوا وصعدوا في طريق باشان (بيت شان)، فخرج عوج ملك باشان للقائهم. عدد ٢١: ٣٣».

يبدو أن هؤلاء الملوك وغيرهم لم يسمحوا لبني اسرائيل بالمرور في

أراضيهم، لأنهم شعروا بهم «شعباً لا ينام حتى يأكل فريسة، ويشرب دم قتلى. سفر العدد ٢٣: ٢٤». «شعباً يلحس كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل. عدد ٢٢: ٤».

وعرفنا أن بني اسرائيل تسلّلوا الى مراعي الأرض ببطء وحذر شديدين. «وسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لبنيهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم. وعبدوا آلهتهم. سفر القضاة ٣: ٥».

لم يعرفوا يوماً حياة الاستقرار في المرتفعات التي نصبوا خيامهم فيها. ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الأمن والطمأنينة، بعدما شعروا بتعصّبهم الذميم وعنصريتهم الحاقدة. فعاش بنو اسرائيل فترة طارئة في تاريخ أرض فلسطين لا تتجاوز القرنين والنصف بين كرّ وفرّ. وكانت التلول بين أخذ وردّ. وظلّوا في هذه الفترة الوجيزة خاضعين لأصحاب الأرض. فانضوت قبائل منهم تحت سلطة الكنعانيين والفلسطينيين. وتحوّل قسم آخر الى مرتزقة. وظلّوا جميعهم في حال من التبعية والعبودية لسلطة أصحاب الأرض. يقول محرر التوراة «فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم، ملك ارام، ثماني سنين. سفر القضاة ٣: ٨». يعني استعبدهم ملك ارام. ويضيف المحرّر «وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشرة سنة. سفر القضاة ٣: ١٤». واستعبدهم «يابين ملك كنعان الذي ضايق بني اسرائيل بشدّة عشرين سنة. سفر القضاة ٤: ٣». واستعبدهم المديانيون «سبع سنين.. فعمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاير.. وذل اسرائيل جداً من قبل المديانيين. سفر القضاة ٦: ٢». «واستعبدهم الفلسطينيون وبنو عمّون، فحطّموا ورضّضوا بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠: ٧».

وفي مرحلة أخرى من الفترة الطارئة التي عاشها بنو اسرائيل في أرض فلسطين، استعبدهم «الفلسطينيون أربعين سنة. قضاة ١٣: ١».

وألقت هذه الوثيقة ـ التوراة حزمة من الضوء على صعاليكهم ومرتزقتهم وقطاع الطرق منهم، كشمشون الذي عشق «امرأة من بنات الفلسطينيين.. لأن الفلسطينيين كانوا في ذلك الوقت متسلّطين على اسرائيل. سفر القضاة ١٤: ١».

وقد رأينا في استعراضنا سيرة هذا الصعلوك أنه «أمسك ثلاث مائة ابن آوى، وأخذ مشاعل، وجعل ذنباً الى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط، ثم أضرم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزروع وكروم الزيتون.. ثم اختبأ في شق صخرة عيطم.. فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شق صخرة عيطم، وقالوا لشمشون: أما علمت أن الفلسطينيين متسلّطون علينا؟. فماذا فعلت بنا؟.. وقالوا له: الآن نزلنا لكي نوثقك ونسلّمك الى يد الفلسطينيين. قضاة ١٥».

ورأينا أن شاول «كان مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة التي في مغرون، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل. سفر سموئيل الأول ١٤: ٢». وحين «أظهر ابنه يوناثان وخادمه أنفسهما لصف الفلسطينيين، قال الفلسطينيون: هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها. سفر سموئيل الأول ١٤: ١١». (تأمّل: شاول الملك مقيم تحت الرمانة. وحين أظهر يوناثان وخادمه نفسيهما للفلسطينيين، قال الفلسطينيون هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها).

وحين قوي نفوذ شاول وتوطّدت سلطته على بني اسرائيل، انضم إليه العبرانيون الذين كانوا يعملون كمرتزقة في صفوف الفلسطينيين. وبتعبير الكتاب المقدس «والعبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله، الذين صعدوا معهم الى المحلّة من حواليهم، صاروا مع شاول. قضاة ١٤: ٢١». (تأمل: كان قسم من العبرانيين قد صعد الى محلّة الفلسطينيين من حواليهم، وكانوا يحاربون معهم كمرتزقة).

وحين «حارب الفلسطينيون اسرائيل، انكسر رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين، وسقطوا قتلى في جبل جلبوع. وقُتل شاول وأولاده الثلاثة. وسمّر الفلسطينيون جسده على سور بيت شان. سم١ ٣١».

وربما كانت سيرة النبي الملك داود من أندر السير التي حفظها الكتاب المقدّس بين دفّتيه لملوك بني اسرائيل وأنبيائهم. فقد ذكرنا وكرّرنا القول في سيرة هذا الرجل الذي «هرب من وجه شاول، وجاء الى أخيش الفلسطيني، ملك جت (يافا)». وحين عرفه رجال أخيش أنه الراعي الصعلوك المشهور الذي

قتل جليات بحجر المقلاع، أدرك داود أنه غرّر بنفسه. ولم يجد وسيلة يستنقذ بها حياته إلا أن يتجنّن عليهم. وهكذا «غيّر عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته. فقال أخيش لعبيده: هوذا ترون الرجل مجنوناً. فلماذا تأتون به إليّ؟. ألعلي محتاج الى مجانين. سفر سموئيل الأول ٢١: ١٠ ـ ١٥».

ومن جت الفلسطينية «ذهب داود ونجا الى مغارة عدلام. سم١ ٢٢: ١». وهناك «اجتمع إليه كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مرّ النفس، فكان عليهم رئيساً. وكان معه نحو أربع مئة رجل. سم١ ٢٢: ١». (تأمل المرتزقة الذين تجمّعوا حول داود: كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مرّ النفس).

«ومن مغارة عدلام ذهب داود الى مؤاب، فودع أباه وأمه عند ملك مؤاب. وأقام هو في الحصن.. ثم ذهب الى وعر الغاب. سم١ ٢٢: ٣». ومن وعر الغاب «ذهب داود ورجاله الى قعيلة. سم١ ٢٣: ٥». «فدعا شاول جميع الشعب للحرب للنزول الى قعيلة لمحاصرة داود ورجاله. فقام داود ورجاله نحو ست مائة رجل، وخرجوا من قعيلة، وذهبوا حيثما ذهبوا.. وكان شاول يطلب داود كل الأيام. سم١ ٢٣: ٧ ـ ١٤».

وعندما «رأى داود أن شاول قد خرج يطلب نفسه.. ذهب الى الجبل في برية زيف في الغاب. سم١ ٢٣: ١٥». ثم «أقام داود ورجاله في برية معون. فلما سمع شاول تبع داود الى برية معون.. وكان داود يفرّ من أمام شاول، وكان شاول ورجاله يحاوطون داود. سم١ ٢٣: ٢٤».

«وصعد داود من هناك وأقام في حصون عين جدي. سم١ ٢٣: ٢٩». «فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع اسرائيل وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول. وجاء الى صير الغنم التي في الطريق. وكان هناك كهف، فدخل شاول لكي يغطّي رجليه (كناية عن شعوره بالتعب والنعاس). وكان داود ورجاله جلوساً في مغابن الكهف. سم١ ٢٤: ٢ ـ ٥».

وأخيراً «قال داود في قلبه إني سأهلك يوماً بيد شاول. فلا شئ خير لي من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين، فييأس شاول مني، فلا يفتّش علي. سم١

٢٧ : ٤١». وهذا يعني بصريح العبارة أن أرض الفلسطينيين كانت منيعة على صعاليك شاول أو داود. وبالفعل عندما «أخبر شاول بأن داود قد هرب الى جت، لم يعد يفتش عليه. سم١ ٢٧ : ٤».

«وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين، سنة وأربعة أشهر. سم١ ٢٧ : ٧». «وكانت عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين. أن يضرب في الأرض، فلم يستبق رجلاً ولا امرأة، ويأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع الى أخيش. . وكان يغزو جنوبي يهوذا. سم١ ٢٧ : ٩ ـ ١٢». (تأمل هذا الصعلوك الذي هرب من وجه شاول الى بلاد الفلسطينيين. ومن هناك كان يضرب في الأرض، فلا يستبقي رجلاً ولا امرأة، وكان يأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع الى سيّده أخيش. وكان يغزو جنوبي يهوذا ـ قبيلته السابقة قبل أن يخلع ذاته منها ويلجأ الى بلاد الفلسطينيين).

كان داود يصبو الى مُلك كالكثيرين من قادة المرتزقة في تلك الأيام. وكان مدركاً، منذ أيام خدمته لشاول، أن قبائل الجنوب ـ يهوذا ليست راضية عن شاول البنياميني ملكاً عليها. فراح يؤرث في الصدور نيران الثورة على شاول، ويعمل على استمالة هذه القبائل. وعلى كسب ودّ الفلسطينيين، لايهامهم بمثاليته في الصعلكة. ومثل هذه الأعمال يصح في القادة المرتزقة. فحين «حارب الفلسطينيون اسرائيل، هرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، وقتل شاول وأولاده الثلاثة. سم١ ٣١: ١ ـ ٦». فرأى داود أن مصلحته تقضي بخلع نفسه من قبيلته الجديدة (الفلسطينيين)، والعودة الى قبيلته السابقة (يهوذا)، لأن خصمه مات، وعليه أن يعمل بجد وسرعة للوصول الى كرسي الملك بعده. وهكذا تمرّد داود في حبرون فور وصول خبر مقتل شاول. وتمرّده لا يعدو أن يكون بمساعدة الفلسطينيين، مما يسهّل عليهم تثبيت السيطرة على الخط التجاري، وتعطيل الأمر على منافسيهم الصوريين.

وكان من السهل أن يملك داود في قبائل الجنوب، بمساعدة الفلسطينيين، بعد أن تأكد لهم أن تمليكه في الجنوب يضعف شاول الموالي لصور. وهكذا انقسمت القبيلة الاسرائيلية، بعد مقتل شاول، الى فخذين: يهوذا، ملك عليه داود. واسرائيل، ملك عليه ايشبوشت بن شاول. «وكانت الحرب طويلة بين

بيت شاول وبيت داود. سمـ٢ ٣: ١».

وقد عمل داود بدهائه ومكره على تصفية المنازع الأول لملكه، ايشبوشت بن شاول. فقد «كان لابن شاول رجلان رئيسا غزاة» (مرتزقة). استمالهما داود، فخانا سيدهما ايشبوشت ودخلا الى مضجعه، «فقتلاه وحملا رأسه الى داود في حبرون». ولكن داود، دفعاً للتهم بأنه يحارب من ينازعه الملك، وطمعاً في كسب عطف اتباع شاول وولائهم، وببعد نظره، أظهر حزنه وأسفه على ايشبوشت، وحكم على قتلته بالاعدام ليتنصّل من الجريمة. «فأمر الغلمان فقتلوهما. سمـ٢ ٤».

وبعد مقتل ايشبوشت انضم الفخذان، يهوذا واسرائيل، بعد سبع سنين من الصراع، وملك عليهما داود.

وعندما اشتهر داود، رأى ملك صور، أحيرام الأول (٩٦٩ ـ ٩٣٥ ق.م.)، أن يستعين به في تأمين طريق صور التجارية الى البحر الأحمر. وقبل أحيرام كان والده أب بعل (٩٨٠ ـ ٩٦٩ ق.م.) قد سعى الى تركيز قدرة كنعان التجارية والحضارية في العالم. وكان الأصل في التجارة الكنعانية أن تذهب الى البحر الأحمر عن طريق مصر. بيد أن مصر كانت في حالة من الفوضى في ذلك الوقت. ولعل عقبات أخرى حالت دون مرور التجارة الكنعانية في تلك الطريق. وفي كنعان الجنوبية ـ الدرب الأخرى الى البحر الأحمر، كثير من الغزاة وقطّاع الطرق. وكان الصوريون قد استنكفوا عن استعمال هذه الدرب التجارية بعد انتشار عصابات الصعاليك والمرتزقة في منطقة التلال التي استوطنتها القبائل العبرية. فرأى أب بعل أن يستأجر «رئيس غزاة» ليحمي قوافله، فاستدرج شاول. وعندما ملك أحيرام الأول على صور بعد موت أبيه أب بعل، استدرج داود.

بقي «ملك الملوك» «مسيح الرب» داود الصعلوك، عميلاً لملك صور، وملكاً على قبيلتي اسرائيل ويهوذا، الى أن فتن عليه صعلوك آخر ـ ابنه ابشالوم الذي «اتخذ مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون أمامه.. واسترق قلوب رجال اسرائيل.. وأرسل جواسيس في جميع أسباط اسرائيل قائلاً: اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم في حبرون. وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل.. وكانت الفتنة شديدة. وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم. سمـ٢ ١٥».

وتناهت أخبار الفتنة الى مسيح الرب، وأدرك أنه لا قبل له بالمتذمّرين منه والمتمردين عليه. ويبدو أنه شعر بالرعب يسري في أوصاله عندما تذكر ما كان يمارسه هو من أعمال القساوة والضراوة، وما يأتيه من ضروب التنكيل بالمهزومين من خصومه وأعدائه. وأدرك بالحدس أن ابنه ناهج نهجه، ولن يكون أعفّ منه. فأيقن أن السلامة في الهرب. «فقال داود لجميع عبيده الذين معه: قوموا بنا نهرب لأنه ليس نجاة من وجه ابشالوم. اسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا ويُنزل بنا الشرّ، ويضرب المدينة بحدّ السيف».

«وصعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً. وجميع الشعب الذين معه، غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون. سم٢ ١٥».

وراح الملك داود المتخفّي في رأس الجبل، يرسل الجواسيس متسقّطاً اخبار ابنه الذي فتن عليه وملك في حياته. وجاءه من يقول «هوذا ابشالوم مقيم في أورشليم لأنه قال: اليوم يردّ لي بيت اسرائيل مملكة أبي. سم٢ ١٦ : ٣».

«ولما جاء الملك داود الى بحوريم اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة.. ويقول في سبّه: اخرج يا رجل الدماء، قد ردّ الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه. ودفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك، وها أنت واقع بشرّك لأنك رجل دماء. سم٢ ١٦ : ٥ ـ ٨». (تأمل: رجل فرد يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. وتأمل: رجل واحد يسبّ ملك الملوك ونبي الانبياء، ومسيح الرب قائلاً: اخرج يا رجل الدماء). (من الضروري التذكير بأن التكرار هنا مطلوب أولاً ومقصود ثانياً وضروري ثالثاً).

وبعد، ذكرنا، ومن الضروري أيضاً وأيضاً ترديد ما ذكرنا، أن كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) هو الوثيقة الوحيدة، أقول الوحيدة، في مسألة نشأة القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى بعض مرتفعات فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م.

والسؤال: أي وثيقة اعتمد اليهود في ادعائهم، من أول صهيوني الى آخر صهيوني، أن أرض فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية»، «أرض الآباء

والأجداد»، «مهد شعبهم ووطنهم». و «أن هذا البلد (فلسطين) لم يكن في أي حقبة من تاريخه الوطن الأوحد لأي شعب آخر غير الشعب اليهودي» كما يقول بن غوريون. و «أن الاردن جزء من دولتنا التاريخية» كما تقول عضو الكنيست غيئولا كوهين. و «أن سيناء ومرتفعات الجولان ومضائق تيران والتلال الممتدة الى الغرب من نهر الاردن، هي في قلب التاريخ اليهودي» كما يقول موشيه دايان. وأن «غزة مدينة الآباء والأجداد» كما يقول رئيس الحكومة مناحيم بيغن. وأن.. وأن.. الى آخر ما في جعبتهم من مزاعم موثّقة في الكتب والموسوعات وغيرها من المصادر، وكأنها حقائق تبهر وجه الشمس.

ولعل ما يحدو على الأسى والأسف، ويبعث على الاشفاق والرثاء، أن يحشى بين دفتي كل دراسة توراتية، من التقوّلات والافتراءات والمزالق والسقطات، ما لا يمكنك أن تجمع شتاته لترده الى فكر معقول. وكأن كل واحد من حَمَلَة لواء الدراسات التوراتية يعبّر عن رغبة واحدة هي البحث عن أعلى مستويات التدجيل والتلفيق ليلقي بها الى السوق العالمية. تأمّل ما يقوله المؤرخ التوراتي جون برايت «لقد أصبحت اسرائيل في فترة الملكية احدى القوى العظمى في العالم القديم». وما يقوله عن داود «كان سيّداً على امبراطورية مترامية الاطراف تضم عمّون وسوريا في الشمال، وأدوم ومؤاب في الشرق». ويتحدث في مكان آخر من كتابه «عن امبراطورية امتدت حدودها من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي».

وتأمل ما يقوله المؤرخ التوراتي الآخر، مارتن نوت، «إن داود لا يهزم الفلسطينيين فحسب، بل يقهرهم الى حدّ التلاشي من التاريخ. فقد أجبرهم أولاً على الاستسلام، وبالتالي التخلّي عن سيادتهم على الأرض». ويرى نوت أن داود قهر الفلسطينيين الى حدّ لم يُبق لهم امكانية المشاركة في الاحداث التاريخية التي حدّدت سماتها مملكة داود. وفي تعبيره عن اعجابه الشديد بداود يقول نوت «إن داود هو نموذج الرجال الأفذاذ الذين يصنعون التاريخ. وإن ازدهار امبراطورية داود يعود، الى حدّ كبير، الى الشخصية القوية التي تفرّد بها داود».

ويمضي نوت في معزوفة التمجيد لداود ولامبراطورية داود، فيقول «إن داود أنشأ امبراطورية امتدت الى حدود أبعد بكثير من حدود القبائل

الاسرائيلية». فيشير مثلاً الى المناطق الارامية في الشمال من شرق الاردن، وحتى الى دمشق التي يراها «اقليماً في امبراطورية داود». تأمّل في ما يقول «أصبحت المملكة بنية سياسية شديدة التعقيد. وامتدت الى حدود أبعد كثيراً من حدود الدولة الاسرائيلية. لقد أصبحت امبراطورية فلسطينية ـ سورية اتحدت بشخص الملك، وضمّت شعوباً عديدة ومختلفة». ويضيف «إن نظام داود السياسي كان أول قوة عظيمة مستقلة في الأرض الفلسطينية ـ السورية كما نعرفها، وقد ضمّت معظم فلسطين وسوريا، وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي. والطريف أنها كانت انجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي».

وتأمّل في ما يقوله المؤرخون التوراتيون الآخرون أ. ألت، ج. ميلر، ج. هايس، س. هيرمان، ج. سميث، وليم البرايت، د. بالي، م. دوثان، ي. أهاروني، ج. رايت، ج. مندنهول، ج. سوغن، ج. آلستروم، فينكلشتاين، أ. مازار، ر. باتاي، روز مارين، سيلبرمان، وغيرهم وغيرهم وهم كثيرون وكثيرون جداً.

وقبل أن نطرح السؤال الاستنكاري المعهود، يتعيّن علينا أن نتقدّم أولاً بطرح الشرط الايجابي المعهود. وقبله نقدّم مادة الشرط، وخلاصتها أننا عرفنا من رواية الكتاب المقدس (ولا مصدر آخر في التاريخ يذكر داود غير هذا الكتاب) أن داود أُدخل في زمرة عبيد شاول بالتآمر مع زمرة الكهنة وعلى رأسهم سموئيل، ليرقّه بموسيقاه الرعوية عن خناق الملك الذي ركبته الأرواح الشريرة التي عند الرب، والتي ألقى سموئيل بحفنة منها على شاول. وليمكّن أيدي الكهنة من مخنقه. وحين أدرك شاول أن الكهنة يهيّئون عميلهم داود ليحلّ محلّه على كرسي الملك، قرّر البطش به.

وعرفنا أن «داود نزل من الكوة هارباً، ونجا، وجاء الى الكاهن سموئيل في الرامة». ومنه الى «أخيمالك الكاهن في نوب». ومن هذا الأخير الى «أخيش الفلسطيني ملك جت». ومنه الى مغارة عدلام، فالى مؤاب حيث ودع أباه وأمه عند ملك مؤاب، ومن هناك ذهب الى وعر الغاب، ومنه الى قعيلة. ومنها الى الجبل في برية زيف في الغاب. ومن هناك «ذهب داود ورجاله الى برية معون». ومنها الى حصون عين جدي. ومنها الى كهف في صير الغنم، ومنه الى،

فالي . . حتى انتهى أخيراً الى الملك الفلسطيني أخيش في جت (يافا).

المهم أن «شاول ظلّ يطلب داود كل الأيام. سم١ ٢٣ : ٧». و «أن داود ظلّ يفرّ من أمام شاول» كل الأيام.

وحين توصّل داود الى كرسي المُلك بمساعدة الفلسطينيين الذين قتلوا شاول وأولاده الثلاثة، قضى بقية عمره في صراع مع ابن شاول، ومع أولاده الذين تآمروا عليه، وضاجعوا نساءه أو سراريه. وحين شعر بالخوف من ابنه ابشالوم، «قال داود لجميع عبيده الذين معه: قوموا بنا نهرب من وجه ابشالوم، لأنه ليس لنا نجاة. اسرعوا للذهاب لئلاً يدركنا وينزل بنا الشرّ».

«فصعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً. وجميع الشعب الذين معه، غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون». (أكرّر وأكرّر من أجل ما يزيد على ألف مليون مؤمن بأن المسيح هو ابن داود. أكرّر: صعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً).

«ولما جاء الملك داود الى بحوريم، اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة . . ويقول في سبّه: اخرج يا رجل الدماء، قد ردّ الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه. ودفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك، وها أنت واقع بشرّك لأنك رجل دماء. سم٢ ١٦ : ٨». (تأمل رجل فرد يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. وتأمّل: رجل واحد يسبّ ملك الملوك ونبي الانبياء ومسيح الرب، قائلاً: اخرج يا رجل الدماء).

ما أوجزناه من سيرة داود هو مادة الشرط، أما الشرط الايجابي فهو: اذا كان هذا الـ «داود» قد قضى عمره فاراً من وجه شاول، وصعلوكاً في بلاد الفلسطينيين «يضرب في الأرض، فلا يستبقي رجلاً ولا امرأة. ويأخذ الغنم والبقر والجمال والحمير والثياب، ويرجع الى سيّده أخيش».

واذا كان هذا الـ «داود» قد قضى من عمره سبع سنوات في صراع مع ايشبوشت بن شاول، وما يقرب من هذه المدة مع أولاده، وخاصة ابشالوم. واذا كان، وكان، (أرجو أن تراجع سيرته في ما تقدم من هذا البحث أو في

الكتاب المقدس) فكيف تمكّن من بناء «امبراطورية مترامية الأطراف تضم عمّون وسوريا في الشمال وأدوم ومؤاب في الشرق». «امبراطورية امتدت حدودها من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي» كما يقول المؤرخ التوراتي جون برايت؟.

ومتى هزم الفلسطينيين وقهرهم الى حدّ التلاشي من التاريخ، وأجبرهم على الاستسلام، وبالتالي التخلّي عن سيادتهم على الأرض؟. كما يقول المؤرخ التوراتي الآخر مارتن نوت.

وأي وثيقة اعتمد المؤرخون التوراتيون جميعهم، وهم كثيرون جداً، في تأكيدهم أن «اسرائيل أصبحت أكبر قوة في فلسطين وسوريا، لا تقلّ جبروتاً عن أي قوة عظيمة في العالم القديم». و «أن داود هو نموذج الرجال الأفذاذ الذين يصنعون التاريخ». وأن «دمشق أصبحت اقليماً في امبراطورية داود» التي «ضمّت شعوباً عديدة ومختلفة». وأن «نظام داود السياسي كان أول قوة عظيمة مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها. وقد ضمت معظم فلسطين وسوريا. وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي. والطريف أنها كانت انجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي.

نظام شديد التعقيد والتشابك، اتحدت فلسطين كلّها في ظلّه. وكانت النقطة المحورية فيه هي شخص كل من داود وسليمان». ولذلك ينعتهما أ. آلت بـ «الرجال العظماء».

والطريف أو المدهش أو المذهل، قل ما شئت، أن هذا الـ «داود» الذي صار بأقلام المؤرخين التوراتيين «سيّداً على امبراطورية مترامية الأطراف، تضم عمّون وسوريا وأدوم ومؤاب. وامتدت من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي» كما يقول برايت. وصار «نموذج الرجال الأفذاذ الذين يصنعون التاريخ» كما يقول نوت. وصار «رجلاً عظيماً» كما يقول آلت. أن هذا الـ «داود» الذي صار وصار بأقلام المؤرخين التوراتيين، لم يسمع به معاصروه الذين كانوا يعيشون الى جواره، وبالتحديد على بعد ميل أو ميلين (بله هيرودتس وغيره من المؤرخين الكلاسيكيين). فقد عرفنا مما يقصّه الكتاب المقدس ـ المصدر الوحيد في سيرة داود، أن داود حين كان هارباً من وجه شاول، وتائهاً «في البرية، سمع أن نابال الكرملي يجزّ غنمه». فأرسل نفراً

من غلمانه الى نابال يطلب إليه أداء الاتاوة، على اعتبار أن «رعاتك حين كانوا معنا في البرية لم نؤذهم ولم يُفقد لهم شيء». وهذه منّة بنظر داود طبعاً، لأن داود «وقد ضرب الأرض غازياً، فلم يستبق رجلاً ولا امرأة إلا وأخذ منهم الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب. سم١ ٢٧ : ١١» كان باستطاعته طبعاً أن يغير على رعاة نابال الذين كانوا معه في البرية، ويقتنص منهم الأغنام عنوة واقتداراً.

وكان من الطبيعي أن يذود الرجل (نابال) عن كرامته وعن ثروته، فلا يذعن لتهديد الصعاليك، ولا يرضخ لابتزاز قطّاع الطرق. فردّ على غلمان داود بسؤال استنكاري بليغ: «من هو داود، ومن هو ابن يسّى؟. قد كثر اليوم العبيد الذين يفحصون كل واحد من أمام سيده. آآخذ خبزي ومائي وذبيحي وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟. سم١ ٢٥ : ١٠».

* * *

قلنا، ونكرّر، إن الطريف أو المدهش أو المذهل أن هذا الـ «داود» الذي صار بأقلام المؤرخين التوراتيين «سيّداً على امبراطورية مترامية الاطراف، تضم عمّون وسوريا وأدوم ومؤاب. وامتدت من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي» كما يكابر المؤرخ التوراتي جون برايت. وصار «نموذج الرجال الأفذاذ الذين يصنعون التاريخ» كما يتبجّح المؤرخ التوراتي مارتن نوت. وصار، وصار، وصار.. بأقلام المؤرخين التوراتيين طبعاً. لم يسمع به معاصروه الذين كانوا يعيشون الى جواره، وبالتحديد على بعد ميل أو ميلين. فحين «أرسل نفراً من غلمانه الى نابال الكرملي» طالباً إليه أداء الاتاوة، ردّ نابال على غلمان داود بسؤال استنكاري بليغ: «من هو داود؟ ومن هو ابن يسّى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يفحصون كل واحد من أمام سيده».

ولكن الأطرف والأشد دهشة واستنكاراً أن هذا الـ «داود» الصعلوك، زعيم المرتزقة وقطّاع الطرق، الذي اتصف بالقسوة والغدر والخداع والنفاق. وبلغ من سوء السيرة ولؤم السريرة، وأتى من المناكر وطالح الأفاعيل، ما يجعل قصته أشبه بقصص بعض الرؤساء المتوحشين، كما يقول المؤرخ هـ. جـ. ويلز[٢٩٦]. والذي كان لا يتحرّج عن دنيّة، ولا يتصوّن عن مأثم. وكان مشهوراً بالزعارة (راجع قصته مع بتشبع)، وبالتعدّي على من يستضعفهم

(فهو لم يقتل أوريا الحثي زوج بتشبع البرئ، إلا لصلابة قلبه واستسهاله الولوغ في دماء الآخرين، واستمرائه ازهاق الارواح). والذي كانت قصته، كسائر قصص العهد القديم، منافية لمكارم الأخلاق، وتصدم العرف العام في آداب السلوك. وتتحدث عن التقتيل وسفك الدماء والاغتيالات التي يأخذ بعضها برقاب بعض، كما يقول ويلز، في سهولة تجعل أذهان القارئين تتبلّد في ما يتصل بقيمة الحياة الانسانية. وهي مشحونة بأعمال ذميمة أتاها داود، فباركها يهوه (الرب) وبسط على صاحبها جناح حمايته.

هذا الـ «داود» أراد له الزعماء الصهيونيون ودجاجلة الدراسات التوراتية، ومن في حكمهم من قادة ومفكرين ومؤرخين، أن يفتح مدينة اليبوسيين - أورشليم (القدس) ويجعل منها عاصمة لامبراطوريته التي امتدت من خليج العقبة الى البحر المتوسط، ومن وادي العريش الى قادش على العاصي، كما يزهو ويكابر ويتبجّح المؤرخ التوراتي جون برايت.

من ذلك مثلاً أن بن غوريون، وكل صهيوني في التاريخ الصهيوني، يزعم بأن «القدس كانت عاصمة اسرائيل أيام داود» - جيروسالم بوست ٢٠/٦/١٩٦٧.

وفي مقابلة مع صحيفة لوموند الفرنسية (١٦/٤/١٩٦٩) قال بن غوريون «القدس عاصمتنا منذ آلاف السنين، وهي ملكنا كما أن باريس ملك للفرنسيين، ولندن ملك للانجليز».

وهذه المقارنة التشبيهية التي تندرج تحت باب التدجيل المنطقي، وقصر النظر الأخلاقي، كانت على لسان الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن منذ بداية القرن العشرين. فحين قابل بلفور، ابن بريطانيا العطوف، وصاحب الوعد المشهور، وأوضح له السبب في رفض اليهود وطناً قومياً عرض عليهم سنة ١٩٠٣ في شرق افريقيا، قال «يا مستر بلفور، إذا عرضت عليك باريس بدلاً من لندن، فهل تقبلها؟». فرانت ملامح الدهشة على وجه بلفور، وقال مستغرباً: «ولكن لندن ملك لنا». عندها انبسطت أسارير وايزمن، وسرّح في وجه المسيحي المتهوّد بلفور، ابتسامة العارف، وقال «هكذا القدس، إنها ملك لنا مذ كانت لندن قاعاً صفصفاً». فهزّ بلفور رأسه موافقاً وقال بلهجة الواثق العارف: «هذا صحيح»[٢٩٧].

ومثل هذه التلفيقات ـ المزاعم يتردّد كثيراً وكثيراً على ألسنة الصهيونيين. ويظهر أيضاً كثيراً وكثيراً جداً في خطاب الدراسات التوراتية. يقول المؤرخ التوراتي مارتن نوت «إن داود اختار القدس عاصمة لمملكة اسرائيل الكبرى»[٢٩٨]. وهذه المدينة، يضيف نوت، «لا تدين بما وصلت إليه تحت سلطة داود، الى موقعها الطبيعي، ولكن لارادة ذلك الرجل ونفاذ بصيرته». ويقول المؤرخ التوراتي س. هيرمان «إن داود احتلّ القدس وجعلها عاصمة لمملكة تضمّ كل فلسطين»[٢٩٩]. وتقول المؤرخة التوراتية ك. مايرز «إن القدس تحت سلطة داود، لم تبق مجرّد عاصمة للدولة القومية، بل أصبحت مركزاً لامبراطورية»[٣٠٠]. ويقول ج. ميلر و ج. هايس «إن داود أنشأ في القدس سلالة حاكمة، ظلت تحكم من القدس لمدة أربعة قرون»[٣٠١]. ويقول روجيه غارودي «إن داود فتح أورشليم»[٣٠٢]. ويقول المؤرخ التوراتي جورج أندرسون «إن داود فتح أورشليم وجعل منها عاصمة لمملكته»[٣٠٣].

ويقول.. ويقول.. والحقيقة أن الجميع من صهيونيين وتوراتيين، ومن في حكمهم من القادة والمفكرين والمؤرخين (بله العامة فهم أشبه بالقطعان في حظائر رجال الدين). الجميع الجميع يأخذون بالمقولة المنغرسة في أذهان ما يقرب من نصف سكان هذا الكوكب، أن داود فتح القدس وجعلها عاصمة لمملكته أو امبراطوريته، كما يعبّرون.

ألقينا بقعة من الضوء على سيرة داود كما قصّها كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم) ـ الوثيقة الوحيدة في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى أرض فلسطين حوالي القرن الثاني عشر ق.م. وقلنا في ما تقدّم إن هذا الكتاب ـ الوثيقة حافل بالتناقض في مسألة دخول الاسرائيليين الأرض، مما يجعلك في حيرة من أمر هذا الدخول: أبالغزو كان أم بالتسلّل؟.

وقلنا إن صور التناقض كثيرة، قدّمنا مثلاً منها في ما عرضه محرّر الكتاب المقدس في أمر أورشليم. جاء في الفصل العاشر من سفر يشوع ان «ملوك الأموريين الخمسة: ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموش وملك لخيش وملك عجلون، اجتمعوا وصعدوا وكل جيوشهم، ونزلوا على جبعون..

فأرسل أهل جبعون الى يشوع.. يقولون.. اصعد الينا. فأتى يشوع على الملوك الخمسة بغتة.. فأزعجهم يهوه (الرب) أمام اسرائيل. وبينما هم هاربون

رماهم يهوه (الرب) بحجارة عظيمة من السماء، فماتوا.

فهرب أولئك الملوك الخمسة واختبأوا في مغارة.. ولما انتهى يشوع من ضربهم ضربة عظيمة جداً حتى فنوا.. قتل الملوك الخمسة وعلّقهم على خمس خشب».

فيشوع، كما يقول محرّر السفر، قتل ملك أورشليم مع الملوك الأربعة الآخرين، وأفنى جيش أورشليم مع جيوش أولئك الملوك.

وفي الفصل الخامس عشر من سفر يشوع يقول المحرّر «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فسكن بنو يهوذا مع اليبوسيين في أورشليم الى هذا اليوم».

أي يوم؟.

طبعاً يوم كتابة التوراة في السبي البابلي، ابتداء من القرن الخامس ق.م. الى مستهل القرن الثاني بعد الميلاد تقريباً.

وفي الفصل الأول من سفر القضاة يقول المحرّر «وحارب بنو يهوذا أورشليم، وأخذوها، وضربوها بحدّ السيف، وأشعلوا المدينة بالنار».

وفي الفصل ذاته، وبعد عشرة أسطر بالتحديد، يعود المحرّر ليقول «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكنوا معهم الى هذا اليوم».

وبعد هذا التناقض الصارخ الذي يسقط فيه المحرّر، وفي فصل واحد، يعود في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة ليقول «وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في اسرائيل، كان رجل لاوي متغرّباً.. فجاء الى مقابل يبوس وهي أورشليم.. فقال له غلامه: تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل الى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني اسرائيل هنا». (تأمل: ليس أحد من بني اسرائيل هنا ـ في أورشليم).

ويسكت المحرّر عن ذكر أورشليم الى أن تسلّم الصعلوك داود زمام السلطة في جماعة بني اسرائيل.

ذكرنا في ما تقدم أن داود ظلّ في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر مثال الصعلوك في سلوكه ومواقفه. فهو يغزو ويأتي بغنائمه الى سيّده الملك الفلسطيني أخيش. يقول المحرر «وهكذا عادته كل أيام اقامته في بلاد

الفلسطينيين» يقوم بالغزو «ويأخذ الغنم والبقر والجمال والثياب ويرجع الى أخيش».

ولعل أهم دليل على مثاليته في الصعلكة هو قيامه بغزو «جنوبي يهوذا» فهو يريد أن يُشعر سيده وحاميه أخيش بأنه انخلع نهائياً من قبيلته يهوذا، فهو يعاديها ويغزوها، لأن قبيلته الجديدة (الفلسطينيين) تعادي يهوذا وتغزوها. وقد كان هذا الموقف المثالي في صعلكة داود دافعاً لأن «يصدق أخيش داود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً الى الأبد».

وزاد في تأكيد سلوكه المثالي في حركة الصعلكة، عزمه على الانخراط في جيش الفلسطينيين الزاحف لمحاربة اسرائيل. فحين قال له أخيش: «إنك ستخرج معي» أجاب داود «وأنت ستعلم ما يفعل عبدك». وهذا الموقف المثالي زاد من ثقة أخيش به فقال له «لذلك أجعلك حارساً لرأسي كل الأيام». فغزوه ليهوذا، وعزمه على الانتظام في جيش الفلسطينيين لمحاربة اسرائيل، دفع أخيش الى زرع الثقة العمياء في شخصية هذا الصعلوك، فائتمنه على رأسه «كل الأيام». يضاف الى ذلك أن شعور أخيش بصدق داود وباخلاصه ووفائه، حداه الى مجابهة أقطاب الفلسطينيين الذين شكّوا بداود وباخلاصه، قائلاً لهم: «لم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم».

أما داود الذي أحسّ بأن ابهام الملك أخيش بمثاليته في الصعلكة، قد فعل فعله في نفس أخيش، فراح يؤكد هذا الايهام بموقف المجروح الكرامة الذي اصطنعه. فحين وجّه أقطاب الفلسطينيين سهام الشك الى صدقه واخلاصه، انبرى كالمطعون في (موقفه النبيل) مدافعاً عن نفسه: «وماذا عملتُ؟. وماذا وجدتَ في عبدك من يوم صرت إليك الى اليوم؟.» ويعمل على تعميق الايمان في صدر أخيش بمثاليته في الصعلكة، بموقف المنخلع نهائياً من قبيلته (اسرائيل)، والملتصق الى النهاية بقبيلته الجديدة (الفلسطينيين). فيقول لأخيش: «ولماذا لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟.» وهل أعداء سيده الملك غير اسرائيل قبيلة داود قبل أن يخلع منها ويطرد؟.

كانت مصلحة داود تتطلّب منه هذه المواقف وأشكال السلوك التي تؤكد كلها مثاليته في حركة الصعلكة. فقد كان يصبو الى ملك كالكثيرين من قادة المرتزقة في تلك الأيام. وكان مدركاً، منذ أيام خدمته لشاول، أن قبائل

الجنوب ـ يهوذا ليست راضية عن شاول البنياميني ملكاً عليها. فراح يؤرث في الصدور نيران الثورة على شاول، ويعمل على استمالة هذه القبائل. وعلى كسب ودّ الفلسطينيين، لايهامهم بمثاليته في الصعلكة. ومثل هذه الأعمال يصح في القادة المرتزقة. فحين «حارب الفلسطينيون اسرائيل، هرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، وقتل شاول وأولاده الثلاثة. سم١ ٣١: ١ ـ ٦». فرأى داود أن مصلحته تقضي بخلع نفسه من قبيلته الجديدة (الفلسطينيين)، والعودة الى قبيلته السابقة (يهوذا)، لأن خصمه مات، وعليه أن يعمل بجد وسرعة للوصول الى كرسي الملك بعده. وهكذا تمرّد داود في حبرون فور وصول خبر مقتل شاول. وتمرّده لا يعدو أن يكون بمساعدة الفلسطينيين، مما يسهّل عليهم تثبيت السيطرة على الخط التجاري، وتعطيل الأمر على منافسيهم الصوريين.

وكان من السهل أن يملك داود في قبائل الجنوب، بمساعدة الفلسطينيين، بعد أن تأكد لهم أن تمليكه في الجنوب يضعف شاول الموالي لصور وهكذا انقسمت القبيلة الاسرائيلية، بعد مقتل شاول، الى فخذين: يهوذا، ملك عليه داود. واسرائيل، ملك عليه ايشبوشت بن شاول. «وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود. سم٢ ٣: ١».

وقد عمل داود بدهائه ومكره على تصفية المنازع الأول لملكه، ايشبوشت بن شاول. فقد «كان لابن شاول رجلان رئيسا غزاة» (مرتزقة). استمالهما داود، فخانا سيدهما ايشبوشت ودخلا الى مضجعه، «فقتلاه وحملا رأسه الى داود في حبرون». ولكن داود، دفعاً للتهم بأنه يحارب من ينازعه الملك، وطمعاً في كسب عطف اتباع شاول وولائهم، وببعد نظره، أظهر حزنه وأسفه على ايشبوشت، وحكم على قتلته بالاعدام ليتنصّل من الجريمة. «فأمر الغلمان فقتلوهما. سم٢ ٤».

وبعد مقتل ايشبوشت انضم الفخذان، يهوذا واسرائيل، بعد سبع سنين من الصراع، وملك عليهما داود.

يقول المحرّر (والأفضل أن أعرض أمام عيني القارئ صورة الفصل الخامس من سفر صموئيل الثاني)

٣ وجاء جميع شيوخ اسرائيل الى الملك الى
حبرون فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون امام الربّ ومسحوا داود ملكاً على اسرائيل . ٤ كان داود
ابن ثلاثين سنة حين ملَكَ وملَكَ اربعين سنة . ٥ في حبرون ملَكَ على يهوذا سبع سنين وستة اشهر .
وفي اورشليم ملَكَ ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع اسرائيل ويهوذا
٦ وذهب الملك ورجاله الى اورشليم الى اليبوسيين سكّان الارض . فكلّموا داود قائلين لا تدخل
الى هنا ما لم تنزع العميان والعُرج . اي لا يدخل داود الى هنا . ٧ وأخذ داود حصن صهيون . هي مدينة

أعتقد أن القارئ النبيه أو المستنير يلاحظ في هذا المقطع اضطراباً وتناقضاً وتعابير غير واضحة المدلول: «مسحوا داود ملكاً في حبرون». و «في حبرون مَلَك على يهوذا سبع سنين». ولكن، كيف «ملك في أورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة»؟. وليس في ما تقدم من الكتاب المقدس، أي اشارة الى أن داود دخل أورشليم متسلّلاً أو غازياً أو فاتحاً. أكرر، كي يقف المستنيرون الذين أنعم الله عليهم بتيقّظ الذهن ونعمة التفكير، على عملية التشويه والتزوير والتزييف والتلفيق والتضليل التي ينتهجها دجاجلة الدراسات التوراتية، ومن في حكمهم من قادة ومفكرين ومؤرخين يعانون من غيبة الفهم والحرمان من نعمة التفكير. أكرر: ليس في الكتاب المقدس أي عبارة تشير الى دخول داود القدس. فكيف يزعم حضرة المحرر أن «داود ملك في أورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة»؟.

والمدهش أو المذهل أن المحرّر يقول في العبارة التالية مباشرة «وذهب داود ورجاله الى أورشليم، الى اليبوسيين سكان الأرض (تأمّل: اليبوسيون سكان الأرض. أما داود فهو، على ما يعبّر النص، غريب، مرتزق، صعلوك، متسلّل، سمه ماشئت). فكلّموا داود قائلين: لا تدخل الى هنا. وأكدوا قولهم في العبارة التالية مباشرة: لا يدخل داود الى هنا».

فداود لم يدخل أورشليم، بل «أخذ حصن صهيون» (تلّة مشرفة على

أورشليم، يستطيع المنحدر منها أن يصل أورشليم في أقل من ساعة). ويبدو أن الحصن ـ القلعة كان مهجوراً. فـ «بنى داود مستديراً من القلعة فداخلاً». ولو لم يكن الحصن ـ القلعة في تلّة صهيون، مهجوراً لما تمكّن داود من أن يبني «مستديراً»، أي خيمة مستديرة «من القلعة فداخلاً»، أي الى الوراء من القلعة.

ويبدو أن هذا الساكن الجديد (داود) في تلة صهيون أخذ يتردّد على أورشليم بين الحين والآخر، ولذلك يقول المحرّر «أخذ داود سراري ونساء من أورشليم».

بقي داود الملك عميلاً لملك صور، وملكاً على قبيلتي اسرائيل ويهوذا، الى أن فتن عليه صعلوك آخر ـ ابنه ابشالوم الذي «اتخذ مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون أمامه.. واسترق قلوب رجال اسرائيل.. وأرسل جواسيس في جميع أسباط اسرائيل قائلاً: اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم في حبرون. وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل.. وكانت الفتنة شديدة. وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم. سم٢ ١٥».

وتناهت أخبار الفتنة الى مسيح الرب، وأدرك أنه لا قبل له بالمتذمّرين منه والمتمردين عليه. ويبدو أنه شعر بالرعب يسري في أوصاله عندما تذكر ما كان يمارسه هو من أعمال القساوة والضراوة، وما يأتيه من ضروب التنكيل بالمهزومين من خصومه وأعدائه. وأدرك بالحدس ان ابنه ناهج نهجه، ولن يكون أعفّ منه. فأيقن أن السلامة في الهرب. «فقال داود لجميع عبيده الذين معه: قوموا بنا نهرب لأنه ليس نجاة من وجه ابشالوم. اسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا ويُنزل بنا الشرّ، ويضرب المدينة بحدّ السيف».

«وصعد داود في جبل الزيتون باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً. وجميع الشعب الذين معه، غطّوا كل واحد رأسه وهم يبكون. سم٢ ١٥».

وراح الملك داود المتخفّي في رأس الجبل، يرسل الجواسيس متسقّطاً أخبار ابنه الذي فتن عليه وملك في حياته. وجاءه من يقول «هوذا ابشالوم مقيم في أورشليم لأنه قال: اليوم يردّ لي بيت اسرائيل مملكة أبي. سم٢ ١٦ : ٣».

«ولما جاء الملك داود الى بحوريم اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة.. ويقول في سبّه: اخرج يا رجل الدماء، قد ردّ الرب عليك

كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضاً عنه. ودفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك، وها أنت واقع بشرّك لأنك رجل دماء. سم٢ ١٦: ٥ ـ ٨». (تأمل: رجل فرد يسبّ ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة. وتأمل: رجل واحد يسبّ ملك الملوك ونبي الانبياء، ومسيح الرب قائلاً: اخرج يا رجل الدماء).

ونصح أخيتوفل لابشالوم أن يصطنع الحزم ويبدي قوة العزم، ويسلك مسلكاً يقنع الخائفين والمترددين بأنه قد أحرق سفنه وراءه وقطع كل صلة له بأبيه. واختار له أن يدخل على سراري أبيه ويستبيحهن لنفسه في وضح النهار. فحين «قال ابشالوم لأخيتوفل: اعطوا مشورة. ماذا نفعل؟. قال أخيتوفل لابشالوم: ادخل الى سراري أبيك، فيسمع كل اسرائيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك، فتشدّد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح، ودخل ابشالوم الى سراري أبيه أمام جميع اسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل في تلك الأيام كمن يسأل بكلام الرب. سفر سموئيل الثاني ١٦». (تأمل: كانت مشورة أخيتوفل كمن يسأل بكلام الرب).

هذا ما فعله ابشالوم بزوجات أبيه الذي كان «مختبئاً في احدى الحفر. سم٢ ١٧: ٩». (تأمل: داود ملك الملوك ونبي الانبياء، ومسيح الرب، مختبئاً في احدى الحفر هارباً من وجه ابنه). وأخيراً بعد سلسلة من أعمال الجاسوسية، شبّ قتال بين اتباع داود واتباع ابنه ابشالوم، «فانكسر شعب اسرائيل أمام عبيد داود، وقتل ابشالوم. وهرب كل اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سم٢ ١٨: ١٧».

وعلى اثر تمرّد ابشالوم، ووصوله الى (بلاط) أبيه، الهارب من وجهه، ومضاجعته لسراري أبيه. فقد داود ثقته بأولاده، ووعد زوجته الكنعانية بتشبع بأن يورث ابنها سليمان العرش من بعده. «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو والجلاّدون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا به الى جيحون، فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق، وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان، سفر الملوك الأول ١: ٣٨».

فصادوق الكاهن أخذ قرن الدهن من الخيمة، ومسح سليمان ملكاً على

اسرائيل في جيحون، وليس في أورشليم.

وبعد، فهذه سيرة موجزة لداود الذي يعتبر من أبعد شخوص الكتاب المقدس صيتاً، وأعظمهم ظفراً بتمجيد الناس له في المجتمعات التي تدين بالمسيحية. والذي يظلّ القساوسة والوعّاظ يجأرون بالدعاء الى الله أن يمنّ على البشرية برجل آخر من طراز داود.

والسؤال: أي الصورتين لداود نقبل؟. الصورة التي عرضها المصدر الوحيد الذي روى سيرة داود ـ التوراة (العهد القديم)، أم الصورة التي ركّبها المؤرخون التوراتيون؟.

وسؤال آخر: ماذا تسمّي هذه العمليات المدهشة من التزييف والتشويه والتلفيق والتدجيل والتضليل التي انتهجها المؤرخون التوراتيون؟. وكيف أطاقت مجتمعات أوربا وأميركا أن تبتلع كل التشوّهات والتلفيقات التي عرضها المؤرخون التوراتيون في مؤلفاتهم؟. وكيف استطاعت عقولهم أن تبتلع كل هذا التضليل، وأن يبتلع ذكاؤهم كل هذه الغباوات؟.

ويتفرّع من هذا السؤال سؤال: هل تعتقد أن كل دراسة تعبّر عن رغبة واضعها في البحث عن أعلى مستويات التدجيل والتلفيق ليلقي بها الى السوق العالمية؟. ولماذا يقلبون التاريخ ظهراً لبطن في أشرس عملية تلفيق لم يعرف التاريخ مثيلاً لها.

ولماذا يطمسون الحقائق، ويحقنون قراءهم بالأباطيل، ويُسقطون في عيونهم كل التشوّهات والتلفيقات، وكل الدمامات والعاهات، وكل العبث والتناقضات؟.

أتراهم يحسبون عيون قرائهم حفراً تسقط فيها تدجيلاتهم من دون أن يستطيعوا رؤيتها؟. أم تراهم يحسبون عقولهم غافلة تستطيع أن تزدرد كل ما تضمّنته مؤلفاتهم من عمليات تزييف التاريخ وتشويه الحقائق؟.

ولماذا يريدون لقرائهم أن يفقأوا عيونهم القارئة المتسائلة. وأن يستغرقوا في الهرب من التفكير ومن فهم أي شيء. وأن تتحوّل وجوههم الى مباصق للتدجيل والتزوير والتشويه. وأن تلتهم عقولهم، بكل شهية، كل ما يعرضه أولئك المؤرخون، بكل مجد وكبرياء، من العيوب والنقائص والأوهام الشائنة؟.

* * *

وفي العنصر الثاني من الأيديولوجية الصهيونية التي يتبنّاها خطاب الدراسات التوراتية، ومفاده أن اسرائيل أقامت حضارة فاقت «الحضارات البدائية» التي كانت قائمة في الشرق، ألمحنا الى غنى الفكر السياسي الصهيوني بالحديث عن «حضارة الشعب اليهودي»، كما يقول عضو الكنيست مئير يعري. وعن «أقدم حضارة أقامها اليهود» كما يقول ابا ايبان. وعن «الحضارة التي أقمناها في هذا البلد (فلسطين)»، كما يقول بيغن. وعن مفهوم «القيم الحضارية اليهودية» الذي تتبنّاه المؤتمرات الصهيونية في برامجها ومبادئها. وعن «القيم الحضارية التي خلقها الشعب اليهودي» كما جاء في القوانين الأساسية لدولة اسرائيل.

وألمحنا أيضاً الى اهتمام الدراسات التوراتية بالبحث عن تاريخ اسرائيل القديمة، التي تمّ فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية، كما يقول المؤرخ كيت وايتلام. فترود فايس ـ روز مارين مثلاً تؤكّد في كتابها «البقاء اليهودي» الذي أغرق سوق الفكر في عالم الغرب، أن «الحضارة اليهودية تسمو على جميع الحضارات». وليون أوريس في روايته «اكسودس» التي بيع منها الملايين، وربما كانت الثانية بعد الانجيل من حيث عدد النسخ المطبوعة منها، ومن حيث التأثير الذي تركته في عقول القرّاء الاوربيين، كما يقول الكاتب المستنير الفرد ليلينتال[٣٠٤]. ليون أوريس هذا يدور في روايته حول فكرة واحدة هي «التفوّق المطلق» لـ «الشعب اليهودي» على الشعوب سائرها. والمؤرخ التوراتي رفائيل باتاي يقول إن اليهود القدماء أقاموا حضارة في أرض فلسطين. «وما من جماعة بشرية أخرى تستطيع الافتخار بسجل حضاري مشابه، ولو مشابهة طفيفة، لسجل الحضارة اليهودية القديمة». ويرى المؤرخ التوراتي م. دوثان «أن اسرائيل القديمة تمثّل ذروة الحضارة التي تفوق، وتحلّ محلّ، الحضارات البدائية التي لم تكن قابلة للتطور». ويرى غيره وغيره...

إن ما يدعو الى السخرية أن مثل هذه المزاعم لا يسود إلا في غفلة الذهن وغياب العقل. وفي مجتمعات مصابة بأدواء مذهلة من ضحالة الثقافة وطفولة الوعي وبداوة النفس.

قد أكون مخطئاً أو ظالماً في قولي هذا. ولكن، أين تجد مؤرخين يطمسون الحقائق ويزورون التاريخ إلا في مجتمعات موبوءة بالتديّن، والورع

الفكري، والعقول المعطّلة؟. مجتمعات تحوّل القرّاء فيها الى أجهزة استقبال، لا ترفض ولا تناقش أو تنقد أو تفهم ما يقدّم إليها. ولذلك صار القارئ فيها ينعت أسخف الكتابات بالصدق والواقعية والموضوعية. ويعتبر الدجل المكتوب والمقروء موهبة أو مزيّة أو حضارة.

أين تجد مؤرخين، يبدون للناقد المستنير وكأن لا رغبة لهم غير البحث عن أعلى مستويات التدجيل والتلفيق، تدوّن في كتب، وتدرّس في الجامعات، ويلقى بها الى السوق العالمية؟.

أين تجد مؤرخين جعلوا من تاريخ فلسطين مباءة للخلط والعبث والتشويه والتزوير، إن لم يكونوا مستندين بظهورهم الى جدار راسخ صلد، شاده الايمان بالكتاب المقدس في رؤوس جماهير تربو على النصف من سكان هذا الكوكب، لا تعرف شيئاً مما تنطوي عليه دفّتا كتابها المقدس. وإذا حدث مرة وصدفة أن فتح أحدهم كتابه المقدس ليقرأ، فهو يقرأ بذهن غافل ووعي مدجّن.

أين تجد مؤرخاً يطرح كتابه الحافل بالتشوّهات والعاهات المعبّرة وغير المعبّرة، حتى لكأنه جراب من التلفيق والتدجيل، إن لم يكن يدرك أن الذهن العام في المجتمعات التي يكتب فيها وإليها، خامل، قانع، مستسلم، متعبّد للهوان والضعف، مستعبد، ينصاع للتلفيقات بكل رضى وقناعة، مستغرق في الهرب من التفكير ومن فهم أي شئ.

ولذلك لم يخرج يوماً واحد من بين هذه المجتمعات التي تربو على ألفي مليون انسان، سائلاً هؤلاء المؤرخين الذين لم يتعلّموا التاريخ: ما هي المصادر والمراجع والوثائق التي اعتمدوها في تقرير هذه المقولات المذهلة: «أن الاسرائيليين القدماء طوّروا حضارتهم الخاصة في وطنهم بشكل جيد». و «أن هذه الحضارة التي طوّروها تمثّل ذروة التطوّر الحضاري». وهي «تحلّ محلّ الحضارة الكنعانية، بل تفوقها وتتجاوزها». وبذلك «تمكّنت من الارتقاء حضارياً بالمنطقة والعالم»؟.

إن المتأمّل البصير الذي أنعم الله عليه بفحولة الوعي وتيقّظ الذهن ونعمة التفكير، يعرف أن الوثيقة الوحيدة، أقول الوحيدة، في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى أرض فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. هي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). وهذه الوثيقة الوحيدة والفريدة تخبرنا

أن الموسويين الذين خرجوا من مصر في زمن لا يمكن تحديده بالضبط، «كانوا قطيعاً همجياً هارباً من أرض العبودية» كما يقول المؤرخ التوراتي الأميركي اليهودي وليم فوكسويل البرايت. وبعد أربعين سنة من التبدّي في صحراء سيناء، أرهف الجوع والحرمان حدّهم، فبدأوا يطرقون أبواب أرض فلسطين. وإذا كان بعض ممالك فلسطين كأدوم وعراد وسيحون وباشان قد صدّ بني اسرائيل، الغزاة أو المتسلّلين، عن تخومه، لأنه شعر بهم «شعباً لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى. سفر العدد ٢٣ : ٢٤». و «جمهوراً يلحس كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل. سفر العدد ٢٢ : ٤». ولم يسمح لهم بالاقتراب من تخومه، أو بالمرور في أراضيه. فإن ممالك أخرى في فلسطين سمحت لهم بالمرور في أراضيها، وتسريح مواشيهم في مراعيها. وفي كتاب التوراة (العهد القديم) شواهد عديدة على دخول بني اسرائيل الأرض على شعوبها، متغرّبين، مسالمين. والعيش بين أصحاب الأرض الذين أفسحوا لهم مجالاً للرعي في مروجهم، ونصب خيامهم في أراضيهم. فحين «انفرد حابر القيني» مثلاً عن قومه «خيّم حتى الى بلّوطة في صعنايم التي عند قادش. سفر القضاة ٤ : ١١». وحين «ملك زمري على اسرائيل سبعة أيام في ترصة، كان الشعب نازلاً على جبثون التي للفلسطينيين. سفر الملوك الأول ١٦ : ١٥». (تأمّل اللفظ «نازلاً»، فهو يعبّر أدقّ تعبير عن حال بني اسرائيل البدو الرعاة الذين كانوا يرحلون من مكان لينزلوا في آخر. وتأمل: «كان الشعب نازلاً على جبثون التي للفلسطينيين» أي ان الشعب ضرب أطناب خيامه في أرض الفلسطينيين. وتأمّل في المفارقة المدهشة: أن بني اسرائيل القدماء نزلوا على جبثون الفلسطينية. واليوم يحكم الصهاينة ودجاجلة الدراسات التوراتية على الفلسطينيين القدماء بالتغييب أو التشويه، أو بالمحو من سجل الوجود).

فالجماعة رعاة. وقد ظلّوا فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين، يمارسون حياة الرعي، ويخضعون لنظام رعائي. والنصوص أو الاشارات المعبّرة عن حياة الرعي وأدواته كثيرة، خذ مثلاً قول المحرر في سفر القضاة ٣ : ٣١ إن شمجر بن عناة، أحد قضاة اسرائيل، «ضرب من الفلسطينيين ست مائة رجل بمنساس البقر». وقوله إن «ياثيل امرأة حابر القيني.. ضربت وتد الخيمة في صدغ سيسرا، رئيس جيش ملك كنعان، وهو متثقل في النوم في

خيمتها، ومتعب، فمات. قضاة ٤: ٢ و١٧: ٢١».

لا يعنينا التعليق على هذا الكلام أو البحث في صحته. وإنما يهمنا الاشارة الى المنساس - أداة الراعي الذي كان أحد قضاة بني اسرائيل يستخدمه في الصراع مع أصحاب الأرض. والاشارة الى وتد الخيمة والخيمة اللذين ظلا يرافقانهم مذ تسللوا الى أرض فلسطين حوالي القرن العاشر ق.م. الى أن سُبوا منها الى بلاد ما بين النهرين (٧٢١ ق.م.).

فحين فرغ يشوع من إلقاء التعليمات على جماعته «قال لهم: انصرفوا الآن الى خيامكم. يشوع ٢٢: ٤».

وحين انتقى جدعون، أحد قضاة بني اسرائيل، مقاتليه «أرسل سائر رجال اسرائيل، كل واحد الى خيمته. قضاة ٧: ٨».

وحين «اختار شاول لنفسه ثلاثة آلاف من اسرائيل.. أرسل بقية الشعب، كل واحد الى خيمته. سموئيل الأول ١٣: ٢».

وحين «هرب الملك داود من الأرض لأجل ابشالوم (ابنه).. هرب بنو اسرائيل، كل واحد الى خيمته. سموئيل الثاني ١٩: ٨».

وحين أمر الملك داود بمسح ابنه سليمان ملكاً على اسرائيل، «نزل صادوق الكاهن وناثان النبي.. واركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا الى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. سفر الملوك الأول ١: ٣٨».

وحين أصبح سليمان ملكاً على اسرائيل «بارك بنو اسرائيل الملك، وذهبوا الى خيمهم. ملوك أول ٨: ٦٦».

وحين «انهزم يهوذا أمام اسرائيل، هربوا كل واحد الى خيمته. سفر الملوك الثاني ١٤: ١٢».

وحين «خرج بنو اسرائيل من تحت يد الأراميين، أقام بنو اسرائيل في خيامهم كأمس وما قبله. سفر الملوك الثاني ١٣: ٥».

وحين «حارب الفلسطينيون انكسر اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته. سموئيل الأول ٤: ١٠».

ومن أدوات الراعي التي ظلت ترافقهم أيضاً، المقلاع؛ والمقلاع سلاح الرعاة الرئيسي. فحين احتدم الصراع بين بني اسرائيل وبني بنيامين (أحد

الأسباط) كان من بين مقاتلي بني بنيامين «سبع مائة رجل منتخبون عسر. كل هؤلاء يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة ولا يخطئون. قضاة ٢٠: ١٦». ولذلك كان حجر الصوان الذي يؤخذ من السيل، أمضى من الرمح في يد هؤلاء الرعاة. فبالمقلاع تمكن داود من قتل الجبار الفلسطيني جليات. يقول المحرر «حين تقدم داود نحو الفلسطيني جليات أخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادي وجعلها في كِنْف الرعاة الذي له أي في الجراب، ومقلاعه بيده.. وكان لما قام الفلسطيني وتقدم، أن داود مدّ يده الى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع في جبهته، فسقط على وجهه الى الأرض. سفر سموئيل الأول ١٧: ٤٠ و٤٨ و٤٩».

وقد ظل بنو اسرائيل قوماً من الرعاة، فانحصر عملهم في تربية المواشي. وما كان عمل النافذين فيهم قبل أن يتولوا زمام قيادتهم، غير جرّ المحراث وجزّ الشياه. فحين «كان جدعون يخبط حنطة في المعصرة لكي يهرّبها من المديانيين، ظهر له ملاك الرب وقال له.. إذهب بقوتك وخلّص اسرائيل من كفّ مديان. قضاة ٦: ١١ و١٤».

وحين كان شاول يبحث عن أتن أبيه الضالة «التقى به سموئيل الكاهن ومسحه ملكاً على اسرائيل. (سموئيل الأول ٩). وفي اليوم التالي، وبعد مسحه ملكاً، كان شاول، كما يقول المحرر، «آتياً وراء البقر من الحقل. سفر سموئيل الأول ١١: ٥».

وحين ذهب سموئيل ليمسح داود ملكاً على اسرائيل، كان هذا الأخير يرعى الغنم. (سموئيل الأول ١٦: ١١).

وظل زعماؤهم يقيمون في الخيم أو تحت الأشجار حتى أيام ملكهم شاول. فقد رأينا في ما تقدم أن زعيم المرتزقة جدعون، حين وفّر لمرتزقته وافر المغانم «قال له رجال اسرائيل: تسلّط علينا أنت وابنك وابن ابنك.. فقال لهم جدعون: لا أتسلّط عليكم.. ولكن أطلب منكم أن تعطوني كل واحد أقراط غنيمته.. ففرشوا رداء وطرحوا عليه كل واحد أقراط غنيمته. فصنع جدعون منها أفوداً (ثوب مطرّز بالذهب) وجعله في عفرة. وزنى كل اسرائيل وراءه هناك.

وكان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات.

وسريته التي في شكيم ولدت له ابناً فسمّاه أب ملك. سفر القضاة ٨: ٢٢ - ٣١».

ولما مات جدعون قام ابنه من سريته، أب ملك، «فاستأجر رجالاً بطّالين طائشين (تأمل هذه الصفات المعبّرة عن المرتزقة والصعاليك)، فسعوا وراءه (تأمل سعوا وراءه). ثم جاء الى بيت أبيه في عفرة وقتل اخوته سبعين رجلاً على حجر واحد.. فاجتمع أهل شكيم وجعلوا أب ملك ملكاً عند بلّوطة النصب الذي في شكيم. قضاة ٩: ٤». «فترأس أب ملك على اسرائيل ثلاث سنين. قض ٩: ٢٢». (تأمل: الرجال البطّالين، الطائشين الذين سعوا وراء أب ملك، اجتمعوا وجعلوا أب ملك ملكاً عند بلّوطة النصب). «ودبورة نبيّة وقاضية (حاكمة) اسرائيل.. كان بنو اسرائيل يصعدون إليها للقضاء.. وهي جالسة تحت نخلة بين الرامة وبيت ايل. قضاة ٤: ٤ و٥».

«وكان شاول (الملك) مقيماً في طرف جبعة تحت الرمانة التي في مغرون، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل. سموئيل الأول ١٤: ٢».

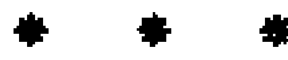
وكذلك ظل إلههم يهوه يقيم في خيمة حتى أيام سليمان. ففي سيناء «كلم يهوه موسى قائلاً: تقيم مسكن خيمة الاجتماع. وتضع فيه تابوت الشهادة». وحين «أقام موسى المسكن.. وبسط الخيمة فوق المسكن.. غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن. سفر الخروج ٤٠: ٢ و١٨ و٣٤».

وظل يهوه مع خيمته يرافقهم في حلّهم وترحالهم في صحراء سيناء. وبتعبير المحرّر «كان بنو اسرائيل يرتحلون عند ارتفاع السحابة عن المسكن. وإن لم ترتفع السحابة لا يرتحلون الى يوم ارتفاعها، لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهاراً. وكانت فيه نار ليلاً. خروج ٤٠».

ودام ذلك أكثر من مائتي سنة. ويهوه راض عن خيمته وعن شعبه. الى أن سيطر داود على جماعة بني اسرائيل وأصبح ملكاً. «فجمع داود جميع المنتخبين في اسرائيل.. فأركبوا تابوت الله على عجلة وحملوه من بيت أبيناداب.. الى الخيمة التي نصبها له داود. سموئيل الثاني ٦: ١ و٣ و١٧».

وحين «سكن داود في بيت من أرز. سموئيل الثاني ٧: ٢» كلم يهوه ناثان النبي قائلاً «إني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم. بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن. سموئيل الثاني ٧: ٦».

فيهوه لم يكن له بيت لأن أتباعه لم يكن لهم أرض يقيمون عليها بيتاً له أو لهم. والبيت الذي «شرع سليمان في بنائه للرب في أورشليم في جبل المريّا. سفر أخبار الأيام الثاني ٣: ١». كان أبوه داود قد «هيّأ مكاناً له في بيدر أرنان اليبوسي. الذي وهبه اياه أرنان. فحين تقدم داود من أرونة قائلاً: جئت «لأشتري منك البيدر لكي أبني مذبحاً ليهوه (الرب). قال له أرونة: فليأخذه الملك ويصعد ما يحسن في عينيه. انظر البقر للمحرقة، والنوارج وأدوات البقر حطباً. الكل دفعه أرونة المالك الى داود. سموئيل الثاني ٢٤: ٢١ ـ ٢٣».



ظل بنو اسرائيل فترة استيطانهم القصيرة في أرض فلسطين قبائل رحّلاً، لم تستطع في يوم من الأيام أن تكوّن لها كياناً موحّداً مما ينطبق عليه معنى الأُمة بالمفهوم الاجتماعي. وتقصيرهم في وعي الفكرة السياسية في الحكم أدّى بهم الى حياة فوضوية وفتن في ما بين بعضهم البعض. وقد حالت حياتهم القبلية دون الوحدة ودون الخضوع لزعامة بعينها. ولذلك لم يُوجدوا أي نظام سياسي خاص. وكل الذي عرفوه هو النظام القبلي أي حكم الأُسرة أو شيخ القبيلة. ومن هنا عجزوا عن المساهمة في أي شئ في مضمار الحضارة. ولم يجاوزوا أطوار الحضارة الدنيا، لأن التأثير في المحيط الحيوي، تبديلاً أو إبداعاً، والسيطرة على أي مجال حيوي، هو انجاز اجتماعي أكثر منه انجازاً تكنولوجياً. والواقع أن كل الانجازات التكنولوجية التي تمت على يد البشرية كانت انجازات اجتماعية. فالانسان كائن اجتماعي. والاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع أي شئ حتى أبسط الأدوات. ثم إن المجتمع لا يقوم بغير نظام. والنظام لا يكون من دون قانون أو تقاليد اخلاقية، تقرّر النظام وترعاه. ولا يمكن للفرد أو التجمع البشري أن يعرف العمران حين يكون جهده ضائعاً في الفوضى والفتن، أو منصرفاً الى تأمين الحاجات المعاشية. وليس في الامكان الوصول الى أي مستوى حضاري دون تنظيم سياسي ودون قيام حكومات تكفل الأمن للفرد والجماعة، وترعى العلوم والفنون وسائر مظاهر الحياة الاجتماعية.

عاش بنو اسرائيل في ظروف فُقد في ظلّها الأمن والاستقرار ـ العاملان اللذان يعتبران من أهم عوامل الأخذ بأسباب الحضارة والتطور. ومن الصعب القول إنهم عاشوا أي فترة، مهما تكن قصيرة، في ظروف تخدم تنمية الاحساس

بالاستقرار والطمأنينة والانتماء القومي. ولذلك ظلوا على هامش الحضارة، ولم يجاوزوا طبائع الرعاة. ولم يدخلوا دائرة التطوّر الاجتماعي. ولم يكن لهم فترة تسلّلهم الى أرض فلسطين، أي ثقافة أو شريعة أو نظام. ولم يملكوا أياً من المقومات الأساسية لكيان حضاري مستقل، كالنظام الاجتماعي، والتشريع الخلقي، والنشاط الثقافي. ولم يمارسوا حكماً زمنياً قائماً على أسس قومية. ولم يألفوا غير السلطة الدينية. فكانوا منذ عهد موسى يمثّلون جماعة رعاة، يرتكز كيانها الرعوي على الدين. وكانت المملكة في القسمين نوعاً من التجمّع القبلي أو الديني. وكان حكّامهم في أغلب الحالات كهنة. والكيان الذي أقاموه لفترة وجيزة لا تتجاوز القرن، لم يقم على أساس قومي راسخ، أصيل بثقافته ولغته وتقاليده. لأن الدولة كانت ظاهرة عابرة في حياة اليهود، كما يقول الكاتب اليهودي الأميركي هانز كوهن[٣٠٥]. ولأن اليهود لم يملكوا أي تراث خاص بهم، فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة مقتبس من الكنعانيين، سكان فلسطين الأصليين.

وهذه الجماعات البدوية التي لعب الترحال دوراً هاماً في حياتها، لم تترك أي بصمة حضارية أو عمرانية عندما حطّت الرحال في أرض فلسطين، لأن التشرّد والترحّل وعدم الاستقرار في أرض معيّنة، زرع في نفس اليهودي مشاعر القلق والتوتر النفسي الدائم. وجعله مشحوناً بتوتّر العداء، مدفوعاً بنوازع القهر والاغتصاب لامتلاك ما لدى الآخرين. وهكذا اختلط عليه البحث عن الطعام بالبحث عن عدو يقاتله ويسلبه طعامه ومأواه. ولذلك لم يتوفّر لهم أي عنصر من عناصر الحضارة، كالموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. ولم يكن لهم أي دور في حقول العلوم والفنون والصناعات. ولم يأتوا بأي مساهمة، مهما صغرت أو قلت، في حقل المعارف الانسانية وفي تقدّم الحضارة. لأن الحضارة لا تبدأ إلا حيث ينتهي الاضطراب والقلق. والانسان لا يجد لتمدّنه فراغاً ومبرّراً إلا إذا استقر في مكان، وتحرّرت في نفسه، بتحرّرها من عوامل القلق والخوف، دوافع التطلّع وعوامل الابداع والانشاء. ولأن نفسيّتهم كانت تفتقر الى السخاء والاتساع الضروريين لفتح علاقة حرّة وانسانية مع مجتمعات الأرض. وللاهتمام نظرياً وبشكل حرّ بالطبيعة وبالمصالح الانسانية. ولأن فكرهم ارتبط بالمطامع الأرضية والشهوات

السياسية، فلم يستطع أن يرتفع أو يسمو. وباختصار، لم يجاوزوا قط مرحلة الجماعات شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ، كما يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون[٣٠٦]. مرحلة الغزاة الذين يقفون في مواجهة مدن مستقرة، بلغت مرحلة حضارية وثقافية عالية وعريقة، كما يقول المؤرخ الأميركي اليهودي وليم البرايت[٣٠٧].

وعندما لم يتوفر لهم الاستقرار لم يعرفوا أبسط مظاهر العمران، كالزراعة والصناعة. أو قل لم يحاولوا أن يمارسوا أي صناعة حتى صناعة السيف الذي كان في تلك العصور يعتبر العامل الرئيسي في أيدي الغزاة كبني اسرائيل. يقول محرّر التوراة «وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول. سموئيل الأول ١٣ : ٢٢». وبلسان قاضية اسرائيل دبورة النبية «هل كان يُرى مجن أو رمح في أربعين ألفاً من اسرائيل؟. قضاة ٥ : ٨». وبما أنه «لم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل، فقد كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله. سموئيل الأول ١٣ : ١٩ و٢٠». واضطر يشوع أن يصنع سكاكين من صوّان ليختن بني اسرائيل. (يشوع ٥ : ٣).

يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون «كان بنو اسرائيل عاطلين من أي فن ومن أي علم ومن أي صناعة»، حتى من العمال المهرة. يقول الملك سليمان «ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين. ملوك أول ٥ : ٦». ولم يميلوا الى الأخذ بطرف من ثقافة. «ولا نجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود»[٣٠٨]. ولذلك لم يُنشئوا شيئاً من القُرى أو المدن فترة استيطانهم القصيرة في بعض مرتفعات فلسطين. ولم يكن لهم أي مظهر من مظاهر العمران. وعندما تمّ إجلاؤهم لم يخلّفوا أية آثار حضارية، ولم يضيفوا الى تاريخ الانسانية أي جديد مثمر، كما يقول المؤرخ هـ. جـ. ويلز[٣٠٩].

والهيكل الذي بناه سليمان في أورشليم، وظل اليهود يعدونه من مفاخر تراثهم، ليس من الوجهة المعمارية إلاّ بناء ضئيلاً بالقياس الى المعابد في بابل وفي مصر. يقول المؤرخ هـ. جـ. ويلز «لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي»[٣١٠]. وبمقاييس محرر التوراة فإن «البيت الذي بناه الملك سليمان ليهوه (الرب) طوله

ستون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وسمكه ثلاثون ذراعاً. ملوك أول ٦ : ٢». يُضاف الى ذلك أن البناة كنعانيون، بنوه على طراز كنعاني، وعلى رأسهم المهندس «أحيرام من صور، وهو ابن امرأة أرملة. وأبوه رجل صوري نحاس. كان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة لعمل كل عمل في النحاس. فأتى الى الملك سليمان وعمل كل عمله. ملوك أول ٧: ١٣ و١٤».

وباختصار، لم يكوّن بنو اسرائيل يوماً متحداً مكتمل النمو والتنظيم. ولم يكن لهذه الجماعة روح جامعة، وبالتالي لم يكن لهم روح حضارية ولا وجود شخصي. ورغم التسامح الذي أبدته الشعوب الكنعانية تجاه اليهود، فقد ظلوا يصرّون على عزل أنفسهم عن جميع المجتمعات. وظلوا متجمّدين في تقاليد أفقدتهم المقدرة على مسايرة مقتضيات التطور، وحبست عليهم النزوع الى الابداع الحضاري.

وظل الفكر اليهودي مكدوداً، مضطرباً، مشوشاً، قلقاً، مشدوداً بالأحداث الطارئة، مشغولاً بالاهتمامات السطحية التافهة. محصوراً في اطار فكرة معينة ـ الأرض، لأن بني اسرائيل لم يلتصقوا بأرض فيفجروا فيها ينابيع العطاء، ولم يُدلُوا بدلو في ينابيع المعرفة الانسانية المتفجرة من حولهم. وتاريخهم هو تاريخ فتنهم في ما بين بعضهم البعض، وترّهات أنبيائهم، وسلاسل أنساب ملوكهم الغامضة.

وخلاصة القول، «لم يكن (الشعب) اليهودي غير قبيلة من التائهين، والمتبدّين في المناطق غير المأهولة. في الزمن الذي كان كنعانيو صور وصيدون رمزاً للحضارة» كما يقول المؤرخ بيير هوباك[٣١١].

(حبذا مراجعة الفصل السابق «فلسطين في التاريخ»، والتأمّل والمقارنة).

* * *

أشرنا في ما تقدم الى العناصر الأساسية في الأيديولوجية الصهيونية، وملخّصها أن القبائل الاسرائيلية انشأت أول دولة قومية موحدة في أرض فلسطين، وأقامت فيها أيضاً أول حضارة، «فاقت الحضارات البدائية التي كانت قائمة في الشرق».

وأشرنا أيضاً الى الاهتمام المثير بالتنقيب الآثاري في أرض فلسطين، أملاً بالعثور على نوع من الجذور التاريخية أو الحضارية، الاسرائيلية، لاضفاء

الشرعية على الدولة الحديثة التي هي باعتبارهم تجديد للدولة اليهودية القديمة. ولأن الجذور التاريخية أو الحضارية، في حال اكتشافها، تعني بالنسبة لاسرائيل، امتلاك الماضي. وامتلاك الماضي ضروري لتبرير سياسة الحاضر واضفاء الشرعية عليها.

ولأن نبش الماضي، والتعجيل في الانتماء الى معالمه وقيمه، يؤديان دوراً مهماً في تأكيد الصلة بين الاسرائيليين القدماء والمحدثين، والربط بين تاريخيهم القديم والحديث.

وبتعبير اليهودي الأميركي المستنير يعقوب بتوتشوفسكي «إن البحث والتنقيب في خرائب الماضي، يهدف الى حقن اليهود والآخرين بمفهوم دقيق وخطير جداً، مفاده أن الأمة التي تقيم في صهيون الآن تتألف من الشعب نفسه الذي سكن في هذه البقعة في الزمن التوراتي.

ولأن عمليات التنقيب، في حدّ ذاتها، محاولة للعثور على قاسم حضاري مشترك يلتفّ حوله (المنفيون العائدون الى الوطن). ولربط ما يسمّى الثقافة اليهودية المعاصرة بما يسمى الثقافة اليهودية الماضية. ومحاولة أيضاً لتأكيد الصلات بين الاسرائيليين الدخلاء وبين تاريخهم القديم، بهدف التأكيد على حق هؤلاء الدخلاء في أرض فلسطين، كما يقول الباحث المستنير كيث وايتلام[٣١٢].

ومن هذا المنطلق كان الهجوم اليهودي الشرس، بعد انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، على التاريخ التوراتي وعلم الآثار، بهدف محو فلسطين اسماً وتاريخاً ومجتمعاً وحضارةً. وفي المقابل التأكيد على وجود جذور اسرائيلية، تاريخية وحضارية، تربطهم بالأرض التي استولوا عليها.

وفي العمليتين: نبش الماضي في التاريخ التوراتي، والبحث المحموم عن جذور تاريخية أو حضارية، كان التزوير والتزييف والتشويه والتلفيق والزعم والاختلاق و.. أشبه بالواجب القومي.

في العملية الأولى (التاريخ التوراتي) فصّلت القول في ما تقدم، عرضاً وتفنيداً، في التاريخ الفريد والوحيد الذي حفظته توراتهم الينا. وفي التاريخ الذي شكّلوه، وأشبعت البحث تفصيلاً وأتخمته ترديداً وتكريراً.

وفي العملية الثانية (البحث المحموم عن جذور تاريخية وحضارية)، أشرت

الى ما يؤكده عضو الكنيست مئير يعري من أن الحجارة المنحوتة عند مدخل الكيبوتز الاسرائيلي في أرض فلسطين هي «حجارة الأساس لمبنى حضاري يهودي كان يقوم في هذا المكان منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة». وأن هذه الأرض تكتنز شواهد لا عدّ لها تروي تاريخ الآلاف من سنوات الوجود القومي للشعب اليهودي في وطنه».

وأشرت أيضاً الى ما يؤكده المؤرخ التوراتي وليم البرايت من أن «الأواني ذوات الحفاف المقلوبة، والمنازل ذوات الغرف الأربع، هي علامات مميّزة للحضارة الاسرائيلية القديمة». و «أن الأواني الفخارية والتماثيل البرونزية التي عثر عليها المنقّبون في مواقع آثارية (في أرض فلسطين) هي أوان وتماثيل اسرائيلية» كما يزعم المؤرخ التوراتي أ. مازار.

و «أن آثار أرض اسرائيل (أين هي وما هي؟) هي المعبّرة الوحيدة عن هذه الأرض» (فلسطين) كما يزعم المؤرخ التوراتي م. دوثان.

ومثل هذا الكلام الخالي من أي معنى، والمعبّر عن أبشع ضروب التلفيق والتدجيل والتشويه والتزوير، نجده في الدستور الخاص بـ «صندوق اكتشاف فلسطين» الذي أنشئ عام ١٨٦٥ ومفاده «أن فلسطين لا أهمية لها من غير تاريخ اسرائيل»[٣١٣]. وهذا يعني أن الصندوق أو القائمين على أمر الصندوق، ألغوا أو محوا فلسطين تاريخاً ومجتمعاً وحضارة، أو بلغة الصندوق: لا قيمة لتاريخ فلسطين وحضارتها من غير تاريخ اسرائيل.

ولعل أكبر مثل صارخ على محاولة الصهاينة تأكيد الحاضر من خلال اكتشاف الماضي، يتوضح في أعمال الجنرال ي. يادين، تنقيباً وبحثاً عن قلعة مسعدة، بهدف الاستملاك السياسي لهذا الموقع، وبالتالي التأكيد على حق اسرائيل المعاصرة في امتلاك الماضي أرضاً وتاريخاً وحضارةً.

وهنا، لا أظن أن بامكاننا طرح السؤال المعهود على فرسان المنابر الصهيونية ودجاجلة الدراسات التوراتية: ما هي الوثائق والمستندات التي تنهض شاهداً على.. فلسنا في مجال الدراسات التاريخية، وقد ينبري واحد منهم بوجهك صارخاً، وبكل وقاحة: هذه الحجارة هي لمبنى حضاري يهودي كان يقوم في هذا المكان منذ ثلاثة آلاف سنة. ويتبجح آخر بأن هذه الأواني الفخارية والتماثيل البرونزية وغيرها من المكتشفات، هي قطع آثارية اسرائيلية. ويكابر

ثالث بأن آثار هذه المنازل هي علامات مميّزة للحضارة الاسرائيلية. ويهدر رابع بأن قلعة مسعدة هي قلعة اسرائيلية. وأن.. وأن الآثار المكتشفة في أرض فلسطين كلها هي آثار اسرائيلية. ولا معنى أو قيمة لفلسطين من غير تاريخ اسرائيل، كما يعبّر الدستور الخاص بـ «صندوق اكتشاف فلسطين».

ينبري، يتبجّح، يكابر، ويهدر.. لأنه يدرك أن عيون قرائه في المجتمعات الغربية، حفر تسقط فيها جميع أشكال التلفيق والتدجيل والتزوير والتشويه، من دون أن يستطيعوا رؤيتها. وأن عقولهم غافلة أو معطّلة تستطيع أن تزدرد كل المزاعم الصهيونية، وكل تشوّهات وغباوات وتلفيقات الدراسات التوراتية.

ولأنه يدرك أيضاً أن المجتمعات التي يخاطبها مصابة بأدواء مذهلة من ضحالة الثقافة وغفلة الذهن وغياب الوعي. تحوّلت وجوه القراء فيها الى مباصق للتدجيل والتشويه والتزوير. وانقلبت عقولهم الى أفواه جائعة تلتهم بكل شهية كل ما يعرضه الدجّالون والمنافقون، بكل مجد وكبرياء، من الأوهام الشائنة ومن فنون اللاعقلانية، والظلامية، ومن أشكال الوعي المزيّف.

قلنا، ونكرّر القول، إن المتأمّل البصير الذي أنعم الله عليه بفحولة الوعي وتيقّظ الذهن ونعمة التفكير، يعرف أن الوثيقة الوحيدة في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة تسلّلها الى أرض فلسطين في القرن الثاني عشر ق.م. على ما يقوله المؤرخون، هي كتاب التوراة اليهودية (العهد القديم). وهذه الوثيقة الوحيدة والفريدة تطلعنا على حال بني اسرائيل المتسلّلين الى أرض فلسطين. ومنها عرفنا، من خلال ما عرضنا وكرّرنا العرض، أن بني اسرائيل هم جماعة رعاة ظلّوا يعيشون في الخيم الى آخر أيامهم في أرض فلسطين. لم يرفعوا حجراً ولم يبنوا بيتاً. والهيكل الذي بناه سليمان في أورشليم، وظل اليهود يعدّونه من مفاخر تراثهم، ليس من الوجهة المعمارية إلا بناء ضئيلاً بالقياس الى المعابد في بابل وفي مصر. يقول المؤرخ هـ. جـ. ويلز «لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أن في الامكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي»[٣١٤]. وبمقاييس محرّر التوراة فإن «البيت الذي بناه الملك سليمان ليهوه (الرب)، طوله ستون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وسمكه ثلاثون ذراعاً. سفر الملوك الأول ٦: ٢». يضاف الى ذلك أن البناة كنعانيون، بنوه على طراز كنعاني، وعلى رأسهم المهندس «أحيرام من صور، وهو ابن

امرأة أرملة. وأبوه رجل صوري نحاس. كان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة لعمل كل عمل في النحاس. فأتى الى الملك سليمان وعمل كل عمله. ملوك أول ٧».

ومن الواضح كالشمس في رائعة الضحى أن من كان يعيش في مرحلة بدائية (يختن بنيه بسكاكين الصوان. ولم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل. بل كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله. وليس بينهم من يعرف قطع الخشب كالصيدونيين، كما يقول سليمان. وداود ملك الملوك الذي نسب له المؤرخون التوراتيون كل تلك الأمجاد في الفتوحات وبناء الامبراطوريات، عندما تقدم لمنازلة الجبار الفلسطيني جليات، ألبسوه درعاً وقلّدوه سيفاً، فقال لهم «لا أقدر أن أمشي بهذه لأني لم أجرّبها. فنزعها داود عنه، وأخذ عصاه بيده، وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادي، وجعلها في كِنْف الرعاة الذي له أي في الجراب، ومقلاعه بيده.. وكان لما قام الفلسطيني وتقدّم، أن داود مدّ يده الى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع في جبهته، فسقط على وجهه الى الأرض. صم١ ١٧ : ٤٠»).

أقول إن من كان أسير هذه المرحلة من تاريخ التطوّر الانساني، لا يمكن أن ننسب له صنع الأواني الفخارية ولا ابداع التماثيل البرونزية.

أما الحجارة المنحوتة فليست لمبنى حضاري يهودي كما يتبجّح عضو الكنيست مئير يعري، وإنما هي لمبنى حضاري كنعاني. فالكنعانيون هم الذين أقاموا القلاع ورفعوا الأسوار وعمروا القصور. وظل بنو اسرائيل الى آخر أيامهم في أرض فلسطين يرعون الماشية ويسكنون الخيام.

والقلعة التي لجأ إليها بعض اليهود الفارين من وجه السلطة الرومانية، هي قلعة آرامية، وليست اسرائيلية، كما يزعم الجنرال يادين.

وباختصار، ليس في الكتاب المقدس - تاريخهم الوحيد والفريد، أي اشارة الى رفعهم حجراً أو بنائهم بيتاً. وأعتقد أن الآثاريين الصهيونيين والغربيين التوراتيين لو قلبوا أرض فلسطين ظهراً لبطن، لما وجدوا أي أثر يعبّر عما يزعمون من وجود رابطة تاريخية أو حضارية كانت لهم في هذه الأرض.

لماذا الاصرار على المزاعم، والالحاح على ترديدها؟

من الواضح لكل ذي بصيرة أن مثل هذه التصريحات ـ المزاعم (عرضنا نماذج منها) التي يرفعها الصهيونيون، وبالحاح، في وجه العالم. ويبوّقون بها عبر وسائل الاعلام جميعها، يلهب الدواعي الأيديولوجية التي تلهم سلوك اليهود: فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية». فـ «لا حق في هذا البلد (فلسطين) لغير الشعب اليهودي». «وسيخوض شعبنا الحرب حتى يتحرّر كل شبر من أرضنا» كما هدر مناحيم بيغن، وظل يهدر بهذه المقولة الى آخر أيامه.

ومن الواضح أيضاً أن السعي اللاهث في احياء ما يسمونه «الحق التاريخي». والتشديد المتعمّد على تأكيد «الصلات التاريخية القديمة جداً، والعميقة جداً، التي تصل ما بين الشعب اليهودي وأرض فلسطين»[٣١٥]، يرميان الى تحقيق جملة أهداف:

الأول: أنهما يشكّلان «القاعدة التاريخية للحركة الصهيونية»، كما يقول رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، ناحوم غولدمان[٣١٦]. و «المبرّر المعنوي والسياسي لضم مناطق جديدة الى سيادة اسرائيل» كما يعبّر رئيس الحكومة الاسرائيلية، ايغال ألون[٣١٧].

الثاني: أنهما يحملان ألوفاً من المهاجرين اليهود على أن يُيمّموا وجوههم شطر فلسطين، كما يقول عضو الكنيست موشيه سنه[٣١٨].

الثالث: أنهما يمكّنان من تمويه الطابع الاستعماري للفكرة الصهيونية، وتغليفها بغشاوة طوباوية، وشحنها بعامل أيديولوجي عقائدي.

الرابع: أنهما يساعدان على صهر الجماعات اليهودية المهاجرة، التي تفتقر

الى أهم مقومات القومية ـ الأرض. والتي تحمل في تكوينها القومي كل الخلافات العرقية.

الخامس: أنهما يعزّزان ايمان اليهودي بأن هذه الأرض هي وطنه. وقد عبّر الجنرال الوزير موشيه دايان عن هذا العامل المؤثر والفاعل في الحركة الصهيونية، وفي المشروع الذي أقامته فوق أرض فلسطين، بقوله، في المؤتمر الاقتصادي اليهودي الذي انعقد في القدس في النصف الثاني من حزيران ١٩٦٩، «ينبغي على الشعب اليهودي في اسرائيل وفي الشتات، على السواء، أن يعزّز ايمانه بأن هذه البلاد هي وطنه، من الاردن حتى البحر المتوسط» ـ دافار ١٩٦٩/٦/٢٩.

الواقع أن موشيه دايان يعبّر بصراحة عما يدور في خلد الآخرين، ولا يستطيعون الجهر به علانية وبصوت عال: «تعزيز الايمان في صدر اليهودي بأن هذه البلاد هي وطنه». لأن اليهود المستنيرين أو الذين هم في الطريق الى الاستنارة، «يعرفون أنهم ليسوا أمة. وأنهم يفتقرون الى الاحساس بالوطن. وأن جميع أقوال زعمائهم عن حقهم، وارتباطهم التاريخي بأرض اسرائيل، هي أقوال عقيمة «كما يقول بنيامين طومكفيتس (مجلة تموروت نيسان ١٩٧٧).

ولأن «المسلّمات التي يؤمن بها اليهودي، كالحق التاريخي في أرض فلسطين، و [عدالة] المشروع الصهيوني، والاستعداد للتضحية في سبيل الوطن، تتعرّض للاهتزاز» ـ هآرتس ١٩٧٤/٩/٢٤.

ولأن اليهودي المستنير «يشكّك في حقّه بهذا البلد. وكثيراً ما يتساءل: لماذا لا نترك البلد؟. ما الذي يربطني به؟. إن التاريخ اليهودي لا يقول لنا شيئاً» ـ هآرتس ١٩٧٤/٩/٢٤.

ولأنه يدرك أن «وجوده في أرض فلسطين هو وجود استعماري»، كما يقول استاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية، عضو الاكاديمية الاسرائيلية للعلوم، والحائز على جائزة اسرائيل للعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٦، البروفسور يعقوب تالمون. ويدرك «الحقيقة الحاسمة التي وضحت خلال الجيل الأخير، والتطوّر التدريجي الذي غيّر وجه التاريخ أمام انظارنا بصورة فعلية، وهما انحسار الاستعمار. تراجع دول عظمى عن أراض استولت عليها مئات السنين. وخروج الأوربي من آسيا وافريقيا. ولذلك فإن السعي في نهاية القرن العشرين،

للسيادة والتسلّط على شعب أجنبي (الفلسطيني) معادٍ، يختلف عنا (اسرائيل) في لغته وتاريخه وثقافته وديانته ووعيه القومي وتطلعاته وبناه الاجتماعية، إنما هو كمثل محاولة اعادة أو احياء النظام الاقطاعي» كما يقول تالمون (هآرتس ٣٠/ ١١/ ١٩٧٣).

ولأنه يشعر بأنه بات «ملزماً على القول بجرأة: إن عداء العرب لا ينبع من العطش الى الدماء، فقد قال آرثر روبين إنه ليس من المتوقّع أن يتصرّف العرب خلافاً لتصرّف أي شعب في التاريخ: التخلّي عن ملكيتهم لبلدهم، والاعتراف بأفضلية الحق الديني والتاريخي، من خلال تقبّل ديانة القادمين لأخذه منهم» ـ تالمون المرجع السابق.

ولأنه يعي أن زعماءه «يحاولون، في عصر انحسار الاستعمار، أن يفرضوا على عرب فلسطين مصيراً نجحت في التخلّص منه الآن شعوب آسيا وافريقيا التي ظلت لفترة طويلة تحت وطأة الغزاة والمستوطنين الأجانب» ـ تالمون المرجع السابق.

ولأن «الايمان بصدق الصهيونية، وبحقّنا في هذا البلد، قد اهتزّ في صدور خيرة الشبان» كما يقول البروفسور ايليعازر شفايد (بتفوتسوت هغولا ـ صيف ١٩٧٤). ورافقه الشعور «بتأنيب الضمير، لعلّه مقرون بطرد الفلسطينيين، وما شابه ذلك» كما يقول ايلي ايال (معاريف ٢٥/ ١٠/ ١٩٧٤).

وهذه المشاعر الجديدة التي بدأت تترسّخ في صدور «خيرة الشبان» يعبّر عنها البروفسور هربرت مركوزة، بقوله «هناك شعب فلسطيني يعيش منذ مئات السنين في المنطقة التي تحتلها اسرائيل. ويعيش معظم هذا الشعب الآن في مناطق تحت الحكم الاسرائيلي. هذه الظروف تجعل من اسرائيل دولة محتلة، بنظر الكثيرين في اسرائيل نفسها. وتجعل من حركة تحرير فلسطين، حركة تحرير قومية» ـ هآرتس ٢/ ١/ ١٩٧٢.

«ولأن السؤال المطروح الآن هو: لماذا خرج الفلسطينيون ليقتلوا (بفتح الياء) ويقتلوا (بضم الياء)؟. ما هو السبب، وما هو الهدف؟. إن مثل هذه الأسئلة يؤدي، في معظم الحالات، الى تبرير أعمالهم، واتهام الجانب الاسرائيلي» كما يقول نتن يلين مور (هآرتس ٢٤/ ٩/ ١٩٧٢).

ولأن اليهود الانسانيين يدركون، وبتعبيرهم، «أن صهاينة اسرائيل يحوّلون

العرب الى حطّابي الدولة وسقّائيها» ـ هآرتس ١/٨/١٩٦٩.

ويدركون، وبتعبيرهم أيضاً «أن جيش الدفاع الاسرائيلي هو جيش أجنبي يحكم شعباً أجنبياً» ـ جيروسالم بوست ١١/٤/١٩٧٩.

وأيضاً يدركون، وبتعبيرهم، «أن كل شعب ذي أرض سيقاتل استعمار أولئك الغرباء عن عرقه القادمين من الخارج» ـ هآرتس ٣١/٣/١٩٨٠.

ولأن اليهود الانسانيين عينهم يدركون أن مصطلح «الرابطة التاريخية» الذي جرى الاعتراف به في صك الانتداب. وفكرة انشاء الوطن القومي التي خرجت بها دول الحلفاء الكبرى في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠، كالتزام من التزامات الانتداب، قد استُخدما لتبرير إقامة الوطن القومي اليهودي. ولتبرير كل ما نتج عنه، وما يمكن أن ينتج عنه في المستقبل[٣١٩].

ولأن صهاينة اليوم (النصف الثاني من القرن العشرين) صاروا يعون حقيقة جوهرية، مفادها أن روّاد الحركة الصهيونية، وبالتعاون مع زعماء القوى الامبريالية، صنعوا «حقاً» بقوة القاهر، وضعف المقهور. وبتغافل الأقوام والأمم.

وأن العرب قصّروا في احياء حقّهم الموءود، أو على الأقل اجلاء وجهه المطموس. ولكن السؤال الذي يفري في النفس: هل سيبقى العرب مقصّرين في احياء حقهم الموءود، أو على الأقل اجلاء وجهه المطموس؟.

ولأن وعيهم الذي استيقظ بعد غفلة طويلة، وبتعبيرهم «الكثيرون منا فتحوا عيونهم»[٣٢٠]، أدّى الى «اهتزاز ايمانهم بصدق الصهيونية» ـ (معاريف ٢٥/١٠/٩٧٤). وربما الى «الكفر بمبادئ الصهيونية» ـ (دافار ١٨/١٠/١٩٧٤). والى «تلاشي الشعور بالانتماء اليهودي» ـ (دافار ٢/٩/٩٧٤) والى ضعضعة الكثير من مفاهيمهم. والى خلخلة جوانب أساسية في حائط ايمانهم. والى تعميق الشك في نفوسهم «بحقهم في هذا البلد» ـ معاريف ٢٥/١٠/١٩٧٤.

ولأن «الحلم بأن دولة اسرائيل ستكون هي الخلاص، ثبت أنه حلم خاطئ»، يقول واحد (هآرتس ١١/١٠/١٩٧٤). ولأن «الشك بدأ يدب في صدورنا»، يقول آخر. و «الأمر جدّ خطير»[٣٢١]، يقول ثالث. فقد صاروا يشكّون في ما يزعمونه من حق. يقول قائلهم «إما أن يكون لليهود الحق في دولتهم، وعندئذ تصبح مقاومة العرب لا أخلاقية وغير مشروعة. أو لا يكون

لهم هذا الحق، وعندئذ ينهار سبب وجود اسرائيل من الأساس»[٣٢٢].

وهذا «الشك» نصادفه أحياناً في الكتابات التي تعالج قضايا المجتمع الاسرائيلي والدولة الصهيونية. وفي تعليقات الاسرائيليين التي تقف عليها صدفة من خلال الاستطلاعات التي يقوم بها الاسرائيليون في الشارع اليهودي.

ولأن اليهود الانسانيين والمستنيرين يعرفون ويعترفون أن الفلسطينيين هم أصحاب البلاد الأصليين. وقد ظلّ الليبراليون منهم أمثال هاعام وبوبر وماغنس ومنوحن، يتعاطفون مع الفلسطينيين الذين أصبحوا، بعد الغزوة الصهيونية، بلا مأوى، كما تقول الأميركية المستنيرة غريس هالسل[٣٢٣].

قلت: يعرفون ويعترفون. وإذا كانت «المعرفة» واضحة في أذهانهم، و «الاعتراف» قائم في صدورهم، فإن التعبير عنهما قليل ونادر، لأنه يقوّض الأسس التي تقوم عليها الحركة الصهيونية. وقد تفلت من ألسنتهم تعابير، فتأتي مشحونة بدهشة مشوبة بسخرية، كقول أحدهم «الغريب أن بعض المسؤولين، كموشيه شمير، يظهر على شاشة التلفزيون ويعلن أن لليهود حقاً في أرض اسرائيل، أكثر من العرب. مع أن هؤلاء يقيمون هنا منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، وبصورة متواصلة. أي كلام هذا؟! إنه يثير الغضب حقاً» ـ هآرتس ١٥/ ٣/ ١٩٧٤.

ولأن اليهود المستنيرين يعرفون ما أثبته المؤرخون المستنيرون، ومفاده أن عرب فلسطين كانوا متجذّرين في الأرض قبل الفتح الاسلامي. فهم الاحفاد الأصلاء للكنعانيين والفلسطينيين الذين فتح التاريخ عينيه عليهم وهم في فلسطين، يعمّر كل مجتمع أرضه ويضع أسس حضارته. يقول المفكر الانجليزي المستنير ج. م. ن. جيفرز «لقد استوطن الكنعانيون فلسطين منذ عصور ما قبل التاريخ. وكنعانيو فلسطين والساحل السوري كانوا في الأساس احدى الموجات التي تدفقت من الصحراء العربية. وعندما جاء العرب المسلمون في الموجة الأخيرة (الاسلامية) انصهروا مع سكان فلسطين الأقدمين. ومن الطبيعي أن عرب فلسطين اليوم (القرن العشرين بعد ميلاد يسوع الناصري) هم أحفاد تلك الأقوام أو المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخاً وحضارة منذ بداية التاريخ. ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن جذورهم في هذه الأرض هي الجذور عينها التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته»[٣٢٤].

ويعلن استاذ كبير هو السير جيمس فريزر قائلاً «إن الفلسطينيين المعاصرين الناطقين بالعربية هم أحفاد الأقوام أو المجتمعات التي امتلكت فلسطين منذ بداية التاريخ. وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ تلك العصور. وقد توالت عليهم موجات الغزو المتعاقبة التي طغت على بلادهم، ولكنها لم تنجح في القضاء عليهم»(٣٢٥).

ويقول السير ريتشارد تمبل «إن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية، هم الأحفاد الأصلاء للكنعانيين. يبدو أنهم لم يتحوّلوا الى المسيحية في أيامها الأولى، بأعداد كبيرة. بل أقاموا على عباداتهم القديمة حتى جاء محمد، فتحولوا الى الاسلام بحدّ السيف، وظلّوا على هذا الدين الى يومنا هذا»(٣٢٦).

ويقول اليهودي المستنير، المتحرر من عقد الصهيونية، موشيه منوحن «نعرف من خلال التوراة أن الكنعانيين استوطنوا فلسطين منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة. وأن أغلب العرب الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم في الخيام والأكواخ في مخيمات خارج حدود وطنهم، يتحدّرون من هؤلاء الكنعانيين». ويضيف منوحن «وقد مرّ على هؤلاء الكنعانيين، أي عرب فلسطين، غزاة كثيرون، تحكّموا ببلادهم الى حين، ثم ارتحلوا عنها. أما الكنعانيون فظلّوا متجذرين في أرضهم. وكان اليهود بين الغزاة الذين دخلوا فلسطين وأقاموا فيها مملكتين، ثم ارتحلوا عنها».

ويقول هذا اليهودي النبيل، منوحن «وقد اعتنق بعض الكنعانيين في فلسطين الدين المسيحي. وعندما بدأت الفتوحات الاسلامية، آثر عرب فلسطين الدخول في الدين الجديد. ومنذ ذلك العهد البعيد ظلّ عرب فلسطين هم الاكثرية الساحقة في البلاد، وأصحابها الشرعيين»(٣٢٧).

قلت، وأكرّر رغبة في التذكير، إن سعي الصهيونيين اللاهث في إحياء ما يسمّونه «الحق التاريخي». وتشديدهم المتعمّد على تأكيد «الصلات التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض فلسطين»، يرميان الى تعزيز الايمان في صدر اليهودي بأن هذه البلاد هي وطنه، لأن اليهود الانسانيين والمستنيرين يدركون، إذا ما قارنوا الوضع التاريخي للعرب في فلسطين، بالوضع التاريخي لليهود فيها، ما أدركه وأثبته المؤرخون المستنيرون والمفكرون الانسانيون، كالمفكر الانجليزي الحرّ النبيل جيفرز، ومفاده «أن امتلاك الكنعانيين والفلسطينيين لهذه الرقعة من

الأرض (فلسطين) قد بدأ قبل خمسة آلاف سنة، ولم ينقطع عنها في يوم من الأيام، حتى يومنا هذا. إنه أقدم امتلاك على ظهر الأرض، وأشدّه رسوخاً في التربة. في حين أن الدولة اليهودية المزعومة قامت وتألقت وطنطنت بمقدار عمر برغشة، ثم تلاشت. فكيف يكون امتلاك سريع الزوال، مقطّع الأوصال، كامتلاك الاسرائيليين لبعض مرتفعات فلسطين، ملزماً لنا (الانجليز) بأن نعطيهم حقاً مشروعاً في أن يزيحوا العرب من ديارهم، بعد تسعة عشر قرناً مرّت على اختفاء آخر ظلّ لشعلة السلطة الذاوية».

ويضيف جيفرز «إذا كان للمطالب التعسّفية المستمدة من ماضٍ سحيق مظلم، أن تمنح حقاً من حقوق الملكية في فلسطين، فإن العرب وحدهم هم الذين يملكون حقاً أعرق من هذه المطالب، وأشدها قوة ورسوخاً».

ورغبة في التأكيد على هذه الفكرة، يصوغها جيفرز من جديد، بقوله «إن الادّعاء الذي تذرّع به الصهاينة لدخول البلاد ـ «الرابطة التاريخية» بهذه الأرض، لا يمكن أن يستخدم لالغاء ملكية أصحاب الأرض ـ الفلسطينيين العرب، الذين يملكون رابطة تاريخية أعرق وأقدم من رابطة اليهود المزعومة بدرجة لا تجوز معها المقارنة»[٣٢٨].

وفي هذا الباب (باب المقارنة) يقول الكاتب الانجليزي هـ. ج. ويلز «إذا كان من الصائب اعادة تأسيس دولة يهودية لم تكن موجودة لمدة ألفي عام، فلماذا لا نعود ألف عام آخر الى الوراء، ونعيد تأسيس دولة كنعانية؟. فالكنعانيون، بخلاف اليهود، استمروا مترسّخين في تربة فلسطين عبر التاريخ»[٣٢٩].

وفي مسألة الوضع التاريخي لليهود في أرض فلسطين، يقول جيفرز «إن الاسرائيليين دخلوا هذه البلاد على شعوبها المتأصلة فيها، وفي تاريخ لا يمكن تحديده بالضبط». وفي عام ١٠٣٠ق.م. تقريباً اتحدت أسباطهم في عهد شاول، وأقاموا نوعاً من الكيان المزعزع القلق المفكّك المتنازع، ظلّ محصوراً، كما رأينا في ما تقدم من هذا البحث، في بعض المرتفعات. وفي رقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة، ولم يعمّر أكثر من ١٠٥ سنوات، وهي المدة التي حكم فيها شاول وداود وسليمان. وإذا كان في فلسطين يومذاك نحو من خمسين ملكاً، فليس بغريب أن يطلقوا على قائد شرذمة (مرتزقة) كداود وسليمان، صفة ملك.

وبعد موت سليمان انقسموا على أنفسهم. اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب. وظلوا يتصارعون في ما بينهم، الى أن سباهم الاشوريون والبابليون الى بلاد ما بين النهرين.

لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم في المرتفعات، التي نصبوا فيها خيامهم بعض الوقت. ولم يتركهم أصحاب الأرض ينعمون بشيء من الطمأنينة والاستقرار. وظلوا طوال فترة استيطانهم معرضين لخطر الطرد والتهجير. وكانت سيرة حياتهم القصيرة، سيرة ملوك برابرة، يحكمون شعباً من البرابرة. كانت أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف في وسط ميدان صاخب، فكان مصيره أن دهمته السيارات.

والطريف أن هيرودتس، المؤرخ اليوناني، الرحّالة والمدقّق الحريص، وأعظم مؤرخي تلك العصور (القرن الخامس ق.م.) بشهادة يوسفوس، لا يأتي على ذكر اليهود في جنوبي سوريا، في أسفاره التي هي أوثق المصادر التاريخية لتلك العصور، لأنه لم يسمع بهم. ولم يكن لهم من الشأن ما يجعل المؤرخ هيرودتس، أو غيره من المؤرخين، يفرد لهم ذكراً في سفره التاريخي[٣٣٠].

«لقد كان ما يسمّى «المملكة اليهودية» من ضيق الرقعة وخمول الذكر بحيث أن المسافر عبر سوريا في القرن الخامس ق.م. (زمن هيرودتس) قد لا يسمع عن اليهود شيئاً أبداً»[٣٣١].

ومع هذا، يقول جيفرز «فإن الزعماء الصهيونيين والساسة البريطانيين يحثّون اليهود، إغراء وترغيباً، على الذهاب الى فلسطين، مبرّرين هجرتهم إليها بـ «الرابطة التاريخية». ومن ثم يشجّعونهم على الاستيلاء على أراض لم يكن لهم بها، في أي يوم من الأيام، منذ بدء التاريخ حتى اليوم، أي رابطة تاريخية، ومن أي نوع كان».

والمدهش، يقول جيفرز «أن الصهاينة بدأوا باعادة بناء وطنهم القومي في مكان لم تطأ أقدام أجدادهم معظم أجزائه»[٣٣٢].

والواقع أن صهاينة اسرائيل يملكون السهول بمؤازرة بريطانيا الحاضن، وأميركا المرضع. وقد أصبحت أهم مستعمراتهم وأكبرها في سهول وأغوار لم تطأها أقدام أسلافهم، الغزاة القدماء. حتى داود، في أوج حكمه ومجده لم يستطع الوصول إليها. فأرض تل أبيب الحاضرة، وسهول عكا وحيفا الكنعانية،

وغزة وأشقلون واشدود ويافا الفلسطينية، لم يصل إليها الغزاة اليهود في يوم من الأيام.

ومن جديد أقول وأكرّر، رغبة في التذكير أيضاً، إن سعي الصهيونيين اللاهث في احياء ما يسمّونه «الحق التاريخي». وتشديدهم المتعمّد على تأكيد «الصلات التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض فلسطين» يرميان الى تعزيز الايمان في صدر اليهودي بأن هذه البلاد هي وطنه، لأن اليهود المستنيرين والانسانيين أخذوا يعون حقيقة جوهرية، مفادها أنهم «عادوا»، ولكن ما أشبه هذه «العودة» بالاستيلاء على بيت طُرد صاحبه منه، ليقيم فيه رجل كان أحد أجداده ماراً في جواره منذ نيّف وألفي سنة.

* * *

وعلى الجانب الآخر ـ الصهيوني، كان السعي اللاهث في احياء ما يسمّونه «الحق التاريخي»، والتشديد المتعمّد على تأكيد «الصلات التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض فلسطين»، لأن الصهيونيين جميعهم، حتى العلمانيين أو مدعيّ العلمانية منهم، يشعرون بحاجتهم الى اطلاق مثل هذه المزاعم، والترويج لها، بغض النظر عن مدى ايمانهم بها، لتوحيد اليهود وحشد طاقاتهم. ولتقديم مبرّر قوي ومقنع كأساس لحركتهم. ولأن مثل هذه المزاعم هو المستند الشرعي والوحيد الذي يمنح اليهود الحق، بزعمهم طبعاً، باستملاك أرض فلسطين. ولأن الحاح الصهيونيين على احتلال أرض فلسطين سيتخذ طابع الغزو والعدوان اذا لم يقترن بالحديث عن وجود رابطة تاريخية وحق تاريخي.

والطريف أنهم استطاعوا أن يُغرقوا بمزاعمهم الفكر العربي، فضلاً عن الفكرين، الأوربي والأميركي، بشتى السبل ومختلف الوسائل: من كتب الى منشورات متنوعة. ومن طوائف وجمعيات مختلفة الى اجتماعات كنسية وغيرها، وعلى المستويات كافة: الاكاديمية والترفيهية (سينما وتلفزيون وروايات). كلّها يبشّر وكلّها يدعو، والهدف واحد: غسل الدماغ ليصبح مستعداً لتقبّل ما يُلقى إليه من دون محاولة للنقد والشك، أو البحث والتحليل.

ولكن الأطرف أنهم تمكّنوا، في سياق نشاطهم لتبرير الاستيطان اليهودي الحديث في أرض فلسطين، من توظيف ما يسمّى الدراسات التوراتية، وعلم الآثار التوراتي. فجرى عبرهما ابراز علاقة الاسرائيليين بأرض فلسطين،

وتضخيمها الى حدّ شيوع فكرة الترابط التاريخي بينهم وبينها.

وهذه الفكرة هي التي تبرّر الحق في امتلاك الأرض، واعادة بناء دولة يهودية، تكون امتداداً أو استمراراً للدولة اليهودية القديمة.

وهكذا صار ادّعاء «الحق بامتلاك الأرض أو باستردادها» على أساس «الرابطة التاريخية» هو الذي يملأ سمع العالم وبصره. ويسيطر على المفاهيم السياسية والشعبية المتعلّقة بدولة اسرائيل الحديثة، وبمسألة حقّها في الأرض.

وهذا الادّعاء - الزعم يتجسّد في الاشارات المتكرّرة الى مصطلح «أرض اسرائيل التاريخية» الذي يتردّد اليوم في الكتب والنشرات ووسائل الاعلام على اختلافها.

ولعل أكثر الخطابات التي توثّق هذا الزعم، وتبشّر به في مختلف الاوساط وفي شتى المجتمعات، هو خطاب الدراسات التوراتية، التي تجاهلت فلسطين تاريخاً ومجتمعاً وحضارة. وجرّدت الفلسطينيين من أرضهم. واعتبرتهم أنهم شعب بلا تاريخ، كما يقول المؤرخ المستير كيث وايتلام[٣٣٣].

وفي مقابل تجاهلها أو طمسها التاريخ الفلسطيني، ابتدعت كياناً هو اسرائيل القديمة. وأضفت عليه شكلاً من أشكال الموضوعية، وجعلته مميّزاً بجوهره وقوته كبناء علمي.

وعلى هذا الاعتبار أصبحت فلسطين هي «أرض اسرائيل». وأصبح تاريخ اسرائيل هو التاريخ الشرعي والوحيد الذي يستحق الدراسة، والذي يمدّ الحضارة الغربية بجذورها التاريخية[٣٣٤].

والمزاعم التي تطلقها الدراسات التوراتية كثيرة ومتنوعة، تحيط بالمسألة المختلقة من جوانبها كافة، إلحاحاً على زرعها في العيون، واصراراً على غرسها في الأذهان. وإليكم نماذج منها:

المؤرخ التوراتي ي. أهاروني يقول «لا يوجد شعب فلسطيني قديم، بل يوجد سكان ما قبل التاريخ. ولذلك لا يمكن أن يكون هناك شيء اسمه تاريخ فلسطين». ويضيف «الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض وطناً له، هو شعب اسرائيل»[٣٣٥].

ويرى المؤرخ التوراتي ج. سميث «أن فلسطين لا تملك تاريخاً خاصاً بها، فتاريخها هو تاريخ اسرائيل القديمة»[٣٣٦]. ومن الطبيعي أن غياب التاريخ

الفلسطيني يعني غياب السكان من الأرض.

ويصف المؤرخ التوراتي مارتن نوت، الأرض بأنها «جرداء وخالية من الوجود البشري. أما السكان الموجودون فهم مجهولون أو لا اسم لهم». وهذه «الأرض الخالية تنتظر أن يملأها شعب اسرائيل».

وعلى هذا الاعتبار «سعت اسرائيل للمطالبة بوطنها مرة أخرى، في أرض اسرائيل التاريخية».

ولا ينسى نوت أن يتحدث عن «عودة الشعب اليهودي الى وطنه في أرض اسرائيل التاريخية». مركّزاً على «الصلات التاريخية الموجودة من غير شك (تأمل التأكيد في: من غير شك) بين اسرائيل الجديدة واسرائيل القديمة»(٣٣٧).

ومفهوم «الأرض الخالية» تبنّاه المؤرخ التوراتي م. ويبرت، وعبّر عنه بقوله «إن اسرائيل استولت على أرض خالية من السكان»(٣٣٨).

والمؤرخ التوراتي (الصهيوني) دافيد كاتاريفاس كتب ما كتب بتعابير مشحونة بالمغالطات التاريخية، تبدو لغير المطّلع على تاريخ فلسطين وكأنها صدرت عن مؤرخ جدّي ونزيه. يقول صاحبنا المؤرخ «الفينيقيون أو الفلسطينيون الذين أعطوا اسمهم للبلاد، تمركزوا في فلسطين بعض الوقت.. وهناك شعوب بالعشرات، سامية وغير سامية، مرت في البلاد وتركت فيها آثاراً، ولكنها لم تتمركز قط ولم تنصهر قط». ويضيف «إن هذه الأرض لم تكن لأحد».

ويتوّج الكاتب ملحمته التاريخية بقوله «إن العرب سيطروا على البلاد، ولم يتمركزوا فيها. وإن جميع الذين حكموا البلاد فترات متفاوتة، من أشوريين وبابليين وفرس ويونان ورومان وعرب، جميع هؤلاء الذين حكموا البلاد منذ قرون كانوا غرباء عنها، وليس لهم ارتباط معها، ولا جذور لهم فيها».

وبالاضافة الى هذا التشويه والتزوير، يعتبر الكاتب أن صلة اليهود بأرض فلسطين هي وحدها الصلة الحقيقية والواقعية. وبتعبيره «إن صلة اليهود بالأرض هي صلة حقيقية، صلة تاريخية»(٣٣٩).

يبدو أن هذا المؤرخ أصاب، في أوقح نظرية ضمّتها دفتا كتاب، أمراً يقلب التاريخ ظهراً لبطن. تأمّل التزوير المتعمّد للتاريخ، والتشويه المقصود للحقيقة. وكأن الرجل كمي في أشرس عملية تزوير وتشويه عرفها التاريخ: «الفلسطينيون تمركزوا في فلسطين بعض الوقت. والعرب سيطروا على البلاد ولم يتمركزوا

فيها. والقومان غريبان، وليس لهم جذور في الأرض أو ارتباط بها. وأن صلة اليهود بالأرض هي وحدها الصلة الحقيقية والواقعية والتاريخية».

ماذا تقول في مؤرخ يلفّق مثل هذه الأباطيل؟

هل تقول إنه من المؤرخين الجهلة المغرورين الذين يعانون من غيبة الفهم، والحرمان من نعمة التفكير؟. أم تقول هو من فئة المستشرقين الذين شيمتهم الاندساس تحت لباس علم المشرقيات، وما هم منه بشيء؟. ولهذا جعلوا من تاريخ فلسطين مباءة للتخليط والعبث والجهل والتناقض. أم تقول إنه تعمّد الكذب والدجل والخلط والخبط لأن رغبته هي البحث عن أعلى مستويات التدجيل والتلفيق، ليلقي بها، في كتاب، الى السوق العالمية؟. أم تقول إنه تعمّد التشويه والتزوير لكي يستطيع أن يتخطّى كل تاريخه المزوّر، وكل قبور أنبيائه المشوّهة؟. أم تقول إن دراسة كاتاريفاس واحدة من الدراسات التوراتية التي كانت ولا تزال، على الرغم من ادّعاء أصحابها وحَمَلَة لوائها، البراءة والتزام جانب الحياد، كانت وستظل «متورّطة في مسألة الصراع الدائر حول فلسطين»(٣٤٠).

والمؤرخ التوراتي جون برايت يقول «إن سلسلة من الأحداث حوّلت اسرائيل في أقل من قرن، الى قوة جعلتها في منزلة القوى العظمى في العالم المعاصر لها».

وإليك تعابيره بقلمه ولغته:

THE CRISIS that brought the Israelite tribal league to an end came in the latter part of the eleventh century. It set in motion a chain of events which within less than a century transformed Israel totally and made her one of the ranking powers of the contemporary world. This rather brief period must occupy our attention at some length, for it is one of the most significant in Israel's entire history.[1]

ولكن هذا المؤرخ الكبير (الكبير بعيون قومه طبعاً) لم يُشر الى الأحداث التي حوّلت اسرائيل، وفي أقل من قرن، الى قوة عظيمة، جعلتها في منزلة القوى العظمى في عصرها.

والسؤال: ما الوثائق والمستندات التي اعتمدها حضرة المؤرخ في تقرير هذه (الحقيقة) المذهلة: «أصبحت اسرائيل احدى القوى العظمى في عصرها»؟. وهل كان من الضروري أن يشوّه التاريخ الى هذا الحدّ؟. وأن يروّج بين تلاميذه ومريديه لمثل هذه الأضاليل والافتراءات؟.

يبدو أنه فعل ذلك للتعبير عن قناعته، كمؤرخ توراتي، بأن «تاريخ الدولة اليهودية القديمة هو تاريخ فلسطين». وللتعبير عن قناعة وتطلّعات أسياده الصهيونيين، ومفادها أن دولة اسرائيل الحديثة هي إحدى القوى العظمى في عصرها، كما يعلّق وايتلام. ويضيف «إن هذا الزعم (اسرائيل احدى القوى العظمى في عصرها) يشير بشكل واضح الى اصرار الصهيونيين على اذاعته تعبيراً عن إيمانهم بأن دولة اسرائيل هي صورة عن ذلك الماضي المجيد»[٣٤١].

ويرى برايت أن «المعتقدات الكنعانية كانت لا أخلاقية وفاسدة. وكانت نوعاً منحطاً من الوثنية». في مقابل الدين اليهودي الذي «لم يكن له مثيل في العالم القديم».

ويركّز على «عجز الشعب (الكنعاني) الفاسد أخلاقياً. القاصر عن تنظيم نفسه تنظيماً سياسياً معقولاً». في مقابل «اسرائيل القديمة التي أدخلت نظاماً سياسياً وأخلاقياً الى جنوبي سوريا».

وهذا الواقع، باعتباره وبمنطقه طبعاً، يشكّل «مبرّراً للغزو الاسرائيلي. وبالتالي يكون الغزو الاسرائيلي منطقياً ومعقولاً لانتشال المنطقة من التردي الاخلاقي والافلاس السياسي»[٣٤٢].

يعلّق المؤرخ المستنير كيث وايتلام على دجل برايت بالقول «إن كلام برايت يوحي للقارئ بأن اسرائيل القديمة أدخلت نظاماً أخلاقياً وسياسياً الى المنطقة. وبهذه الطريقة تُصوّر اسرائيل المعاصرة بأنها نقلت الحضارة الأوربية الى منطقة كانت عاجزة سياسياً ومتردية أخلاقياً. ويرى أن من الواجب تثبيت اسرائيل في المنطقة إذا ما أريد لسكانها أن يتطوّروا عملاً بمبدأ التطوّر الديني والسياسي»[٣٤٣].

ومن تلفيقات برايت قوله في الصفحتين ١٣٨ و١٣٩ من كتابه طبعة ١٩٧٢ «في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ق.م. حدث هجوم على فلسطين الغربية، وهو ما تؤكّده بقوة المكتشفات الآثارية. وهذا الهجوم قصم ظهر

المقاومة المنظمة، ومكّن اسرائيل من نقل مركزها الى هناك.. ولكن لم تتم إبادة السكان الكنعانيين بشكل كامل. ومعظم الأراضي التي احتلتها اسرائيل كانت قليلة السكان. وكان من نتيجة انتصار اسرائيل انضمام أعداد كبيرة من السكان إليها. فقد اندمجت عشائر كاملة ومدن كثيرة، ودخلت في ميثاق اسرائيل. وكان العبيرو واتحاد الجبعونيين ومدن الجليل، بالاضافة الى جماعات أخرى مثل القنزيين والقينيين، قد اندمجوا في عملية الاستيعاب. وبهذا يمكن القول إن تاريخ اسرائيل قد ابتدأ».

يلاحظ القارئ كيف تجيء الحقائق التاريخية مشوّهة ومزوّرة ومزيّفة على أقلام مؤرخين، يبدو أن لا همّ لهم غير طمس الحقائق وحقن القرّاء بالأضاليل. وكيف يجيء البحث طافحاً بالعجائب والغرائب ومشحوناً بالسقطات الهائلات المدوّيات.

يقول حضرة المؤرخ الذي يبدو أنه يجهل كل الجهل ما يكتب فيه، أو أنه يكتب لغرض مريب في نفسه، والعيبان مشينان. يقول «حدث هجوم على فلسطين الغربية». وهذا الكلام ليس صحيحاً، أو قل إنه نوع من المزاعم التي تثقل كاهل التاريخ. ولم يذكر لنا حضرة المؤرخ المصادر التي اعتمدها في تقرير هذه الحقيقة المشوهة.

ذكرنا وكرّرنا مراراً أن الوثيقة الوحيدة في مسألة تشكّل القبيلة الاسرائيلية، وفي مسألة غزوها أو تسلّلها الى أرض فلسطين، هي كتاب التوراة اليهودية - (العهد القديم). وهذه الوثيقة الوحيدة والفريدة تخبرنا «أن يهوه (الرب) لم يهدهم (جماعته) في طريق أرض الفلسطينيين، مع أنها قريبة. لأن يهوه قال (في نفسه طبعاً. والسؤال: من سمعه؟) لئلاّ يندم الشعب اذا رأوا حرباً ويرجعوا الى مصر. فأدار يهوه الشعب في طريق برية بحرسوف. سفر الخروج ١٣: ١٧».

وفي الفصل الثاني من سفر التثنية يقول موسى «ثم تحوّلنا وارتحلنا الى البرية على طريق بحرسوف.. ودرنا بجبل سعير أياماً كثيرة. والأيام التي سرنا فيها من قادش حتى عبرنا وادي زارد كانت ثماني وثلاثين سنة».

النص واضح وضوح الشمس في رائعة الضحى: موسى أو يهوه، لا فرق، السائر على رأس الجماعة، لم يتجرّأ على طرق أبواب فلسطين من الجهة الغربية، لأن الفلسطينيين كانوا مشهورين في المنطقة بأسلحتهم الحديدية

كمحاربين أشداء. وقطعاً للشك والبلبلة نسب الأمر الى يهوه (الرب).

وهكذا داروا في برية بحرسوف، ومن هناك الى جبل سعير. وظلّوا ٣٨ سنة يقطعون المسافة بين قادش ووادي زارد التي لا تتجاوز أربعين ميلاً.

وقول برايت «إن المكتشفات الآثارية تؤكد الهجوم بقوة»، غير صحيح. واذا شئت أن تقول هو كلام بمنتهى الخرق والهراء، أو هو من باب التدجيل والتلفيق. وامارات الزيغ والشطط بادية عليه. ولعل أبشع ما فيها هو التأكيد الذي يجلّل به زعمه.

أية آثار يتحدث عنها برايت؟

ذكرنا في ما تقدم أن جماعة بني اسرائيل قضوا فترة تغرّبهم في أرض فلسطين يرعون الماشية ويسكنون الخيام. سلاحهم المنساس والمقلاع وتهديم الأسوار بنفخ الأبواق. ومعاركهم الفاصلة كانت بكسر الجرار وايقاد المصابيح و.. وقد فصّلنا القول في مسألة دخولهم في الفصل السابق.

وعلى الرغم من الحاح الصهيونيين على التنقيب، فإن الأرض لم تتكشف عن أي أثر يدل عليهم أو يعبّر عنهم (أشرنا الى ذلك في ما تقدم).

وأي مقاومة قصموا ظهرها؟. ومتى نقلوا مركزهم الى هناك؟. تُرى يوم كان داود صعلوكاً يقيم في أرض صقلغ التي منحه إياها الملك الفلسطيني أخيش؟. أم يوم كان شمشون أسيراً في سجونهم؟. أم يوم كان تابوت عهد الرب غنيمة حرب في بلاد الفلسطينيين؟.

وكيف يتحدث برايت عن إبادة الكنعانيين، وعن أراض احتلّها الاسرائيليون؟.

وباختصار، إن حديث برايت عن هجوم الاسرائيليين على فلسطين الغربية، وعن مكتشفات آثارية تؤكد ذلك الهجوم المزعوم، وعن قصم ظهر المقاومة المنظمة، وعن نقل اسرائيل مركزها الى هناك، وعن إبادة الكنعانيين، وعن أراض احتلّها الاسرائيليون، وعن مجموعات انضمّت الى بني اسرائيل وباعداد كبيرة، وعن اندماج عشائر كاملة ومدن بالجملة، وعن العبيرو والجبعونيين والقنزيين والقينيين ومدن الجليل و.. إن هذا الحديث، أقل ما يقال فيه إنه خلط طافح بالعجائب والغرائب. وهذه الصفحة من كتاب برايت، مثلها مثل الكثير من الصفحات الأخرى، ملفّقة من أول حرف الى آخر حرف. والدجل

يرشح من كل كلمة من كلمها. وكتاب برايت، كغيره من كتب الدراسات التوراتية، جعل من تاريخ فلسطين مباءة للتخليط والعبث والجهل والتناقض.

على أن الداهية الدهياء هي في العبارة التي اختتم بها كل هذا الخلط. يقول «بهذا (هذا الخلط طبعاً) يمكن القول إن تاريخ اسرائيل ابتدأ».

وحين «ابتدأ تاريخ اسرائيل» باعتبار برايت، يعني أن التاريخ الفلسطيني انتهى. وذاب السكان الاصليون، أو غابوا عن مسرح التاريخ، لأن الماضي أصبح ملكاً لاسرائيل، وليس من الضروري أو من الواجب أن يظهر أحد على مسرح التاريخ غير اسرائيل، كما علّق وايتلام[٣٤٤].

وليس شيء أدعى للأسف من هيمنة أفكار هذا المؤرخ على ذهنية أجيال من الدارسين والباحثين، كما يقول كيث وايتلام. ومن اعتماد مؤلفاته في الجامعات البريطانية والأميركية. ومن الاقبال عليها قراءة واستيعاباً واقتناعاً، الى حدّ أصبحت نموذجاً يحتذى لدى عدد لا يحصى من الطلاب في العقود الثلاثة الأخيرة. ونموذجاً لدى الباحثين في التأريخ التوراتي، كما يقول وايتلام أيضاً[٣٤٥].

وليس شيء أدعى للأسى من الموهبة المُساء استعمالها أو استغلالها. فهذا المؤرخ الكبير الذي سرت، وما فتئت تسري، أفكاره في الذهن الأوربي والأميركي، كما يسري الدم في العروق. واتُخذت كتاباته نموذجاً في التأريخ التوراتي، كان داعية صهيونياً، وبوقاً على منصّة الدعاوة الصهيونية. فبالاضافة الى ما ألمحنا إليه من مثل: تصويره اسرائيل المعاصرة على أنها ناقلة الحضارة الأوربية الى منطقة فقيرة سياسياً، ومتردّية أخلاقياً[٣٤٦]. واصراره على وجوب ادخال اسرائيل الى المنطقة اذا ما أُريد لها أن تتطوّر. ورؤيته لاسرائيل الكبرى المستوحاة من التوراة، التي تتفق مع تطلّعات الصهيونيين وتدعمها، كما يقول وايتلام[٣٤٧]. يختلق دولة اسرائيلية أو امبراطورية قديمة، ويزعم أن اسرائيل المعاصرة ما هي إلا «اعادة بناء» لما كان موجوداً في الماضي.

ومن الطبيعي أن ما يقرّره برايت ويؤكّده بمختلف وسائل التوكيد، يدخل في سياق النشاط الصهيوني الذي استهدف إقامة دولة اسرائيل الحديثة، كما يقول وايتلام[٣٤٨].

ولعل الوجه البشع والمعيب في مسألة سوء استخدامه الموهبة التاريخية،

ليس في اعادة تشكيل التاريخ القديم فحسب، بل في إقباله على تشكيل التاريخ الآتي. تأمّل ما يقرّره في الصفحة ١٠٥ طبعة ١٩٧٢ من كتابه:

ALTHOUGH most of the components of Israel had been on the scene since the first half of the second millennium, the beginnings of the Israelite people came later. In this, external evidence and the Bible agree. The Bible tells how the sons of Jacob, having gone down into Egypt and sojourned there a long time, were led thence by Moses and brought to Sinai, where they received that covenant and law which made them a peculiar people; subsequently, after further wanderings, they entered Palestine and took it. These are the well-known stories that we read in the books of Exodus through Joshua. Though there are chronological problems involved, evidence to be adduced below makes it clear that the terminus of the process of which these stories tell had been reached by the end of the thirteenth century. After that time we find the people Israel settled on the land that was to be theirs through the centuries to come.

لا نودّ التعليق على قوله «دخلوا فلسطين وأخذوها» (تأمّل: دخلوا فلسطين وأخذوها). ولكننا نرى ضرورة التوقّف عند السطرين الأخيرين والتأمّل فيهما «ومع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان الاسرائيليون قد استوطنوا الأرض التي ستكون ملكهم الخاص في القرون القادمة جميعها». (تأمّل: هو يقرّر بأن الأرض التي دخلوها ستكون ملكهم الخاص، وفي القرون القادمة جميعها).

والمؤسف أنه لم يخرج يوماً مؤرخ من بين المجتمعات العريضة في أوربا وأميركا (بله العامة فهم أشبه بالقطعان في حظائر الدين والاعلام)، سائلاً هذا المؤرخ الدجّال: كيف، ولماذا حكمت على فلسطين بأنها ستكون ملك بني اسرائيل الخاص في القرون القادمة جميعها؟. وبماذا حكمت على مجتمعات فلسطين التي عمرت هذه الأرض تاريخاً وحضارة منذ ما قبل التاريخ المدوّن؟. وهل من المعقول أن يصدر هذا الهراء عن مؤرخ هيمنت أفكاره على أجيال من الباحثين والدارسين. وكانت نموذجاً يحتذى لدى الطلاب والباحثين و..؟.

الجواب سهل وبسيط هو أن صاحبنا المؤرخ كان بوقاً في خطاب الدراسات التوراتية المتورطة في الصراع الحالي الدائر حول الأرض، كما يقول وايتلام[٣٤٩].

ننتقل الآن الى مؤرخ توراتي آخر، مرعب بالنظريات التي طرحها، ومحزن

بالتشويهات التي ألحقها بتاريخ هذه الأرض. وليم فوكسويل البرايت الذي ظلّ يطالب بـ «الحق التاريخي للشعب اليهودي»، على اعتبار أن «فلسطين هي وطن آباء اسرائيل وشعرائها وأنبيائها». وأن «الاتصال المباشر بين الماضي والحاضر هو الذي يبرّر حق اسرائيل في هذه الأرض»[٣٥٠]، فتأمّل.

وما يحدو على الأسى، وما يفري في النفس، أنه يتمحّل مختلف أشكال التلفيق والتدجيل ليثبت وجود «حملة عسكرية قضت على المجتمعات الفلسطينية». ويزعم أن هذا «التغيّر المفاجئ والعنيف للأوضاع حصل نتيجة عوامل خارجية وأدى الى تدمير التجمّعات المدنية الحضرية في فلسطين». ويضيف «ولقد تمت السيطرة الاسرائيلية على الكنعانيين إما عن طريق المعاهدات وإما بالغزو أو الاندماج»[٣٥١].

ولكن ما يدعو الى السخرية ويبعث على الاشفاق أن يعبّر هذا المؤرخ الكبير (الكبير بعيون قومه العميان) عن أسوأ المواقف الفكرية التي يتبنّاها مؤرخ، وأخطرها. فنحن لا يعنينا أن يتحدث عن إبادة الكنعانيين، والقضاء على المجتمعات السكانية الفلسطينية، وعن تدمير المجتمعات المدنية الحضرية في فلسطين (على زعمه طبعاً)، من قبل مجموعة رعاة تسلّلوا الى الأرض وعاشوا بين مجتمعاتها فترة من الزمن، رعاة أو مرتزقة أو صعاليك، كما رأينا في استعراضنا لسيرتهم في كتابهم المقدس ـ تاريخهم ـ وثيقتهم ـ المصدر الوحيد الذي يحكي عنهم. فنقول إنه حديث محض اختلاق، وتزوير وتشويه للتاريخ. ولكن، أن يبرّر هذا «القضاء» و «التدمير» و «الإبادة» (على زعمه)، فهو أمر في «غاية الخطورة» كما يقول المؤرخ كيث وايتلام. و «شكل مخيف» من أشكال التشكيل للتاريخ، كما يقول وايتلام[٣٥٢] أيضاً. ومن أشكال الثقافات اللاعقلانية والظلامية التي تزحف علينا مع زحف الامبريالية وجحافل المغول الجدد، كما يقول العبد الفقير كاتب هذه السطور.

يتحدّث صاحبنا المؤرخ (الكبير) عن الاسرائيليين الذين أبادوا الكنعانيين (على زعمه). وفي تبريره هذه الإبادة يقول «نحن الأميركيين لا نستطيع أن نصدر أحكاماً على الاسرائيليين في القرن الثالث عشر ق.م. ذلك لأننا قمنا، نحن الأميركيين، عن قصد أو من غير قصد، بإبادة الآلاف من سكان أميركا الأصليين. ووضعنا البقية الباقية منهم في معسكرات اعتقال».

وفي تبريره الإبادتين (في أميركا وفلسطين) يقول «يبدو أن من الضروري في احيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدنّ الى حد بعيد، ليحلّ محلّه شعب ذو صفات متفوّقة». (تأمّل)

وهو يرى أنه كان من الضروري والطبيعي، تبعاً لفكرة التقدم التطوّري، أن «تحل اسرائيل محل الشعوب البدائية في فلسطين». (فتأمّل)

وفي التبرير (تبرير إبادة شعب بكامله) يقول «لا يمكننا الارتقاء روحياً إلا من خلال الكوارث والمعاناة». (فتأمّل)

ويتحدث عن «حق الشعوب المتفوّقة في أن تحلّ محلّ الشعوب الأدنى منها في السلم الاجتماعي والحضاري»[٣٥٣].

يعلّق المؤرخ المستنير كيث وايتلام على نظرية البرايت (تبرير الإبادة) بقوله «هذا التبرير لإبادة الشعب الفلسطيني، كما نجده لدى أحد أهم الباحثين التوراتيين في القرن العشرين، هو شئ بالغ الخطورة، لسببين: الأول أنه يعبّر عن عنصرية حاقدة وسافرة. والثاني، وهو الأكثر خطورة، هو أن آراء البرايت هذه لم يعلّق عليها أحد من الباحثين التوراتيين في تقويمهم لأعمال البرايت».

ويضيف وايتلام «إن موقف البرايت تعبير عن نظرة المستشرقين لـ «الآخر»، غير الأخلاقي وغير المثقف. على أنه النقيض التام للانسان الغربي العاقل والمثقف».

فـ «اسرائيل تمثل بالنسبة لالبرايت، باعتبارها منبع الحضارة الغربية، كل ما هو عقلاني. بينما يمثّل الكنعانيون، سكان فلسطين الاصليون، «الآخر» اللاعقلاني، الذي يجب استبداله في عملية التطوّر التي لا ترحم. كما يعلّق وايتلام.

يضاف الى ذلك أن نظرية البرايت تؤدي الى قبول فكرة إبادة الشعوب مثلما كان الحال مع سكان أميركا الاصليين ومع سكان فلسطين الاصليين (على زعم البرايت).

والمؤسف، يقول وايتلام، أن «ما يجب أن نتذكّره هو أن استنتاجات البرايت، واعادة بنائه للماضي، قد شكلتا في ما مضى، ولا تزالان تشكّلان، القواعد الثقافية والمنطلقات الايديولوجية لدارسي التوراة والباحثين في هذا المجال، وخاصة الأميركيين والبريطانيين. وقد اعتبرته الدراسات التوراتية رمزاً

للموضوعية في البحث الاكاديمي، كي تخفي تورطها في المشروع الاستعماري»[٣٥٤].

ولعل ما يحزّ في النفس ويشتم الأخلاق أن يكون البرايت أكثر الباحثين تأثيراً في حَمَلَة لواء الدراسات التوراتية. وأن يكون اختلاقه لتاريخ اسرائيل القديمة، وثيقة بالغة الأهمية لادعاء اسرائيل بملكية أرض فلسطين. وأن يكون لآرائه أهمية بالغة في توجيه وتشكيل خطاب الدراسات التوراتية في القرن العشرين، كما يعلق المؤرخ المستنير كيث وايتلام[٣٥٥].

مؤرخ توراتي آخر، جون رايت، لا تجد ذكراً في كتابه[٣٥٦] «لحقوق السكان الفلسطينيين الاصليين. إنه يستبعد حقوقهم وتاريخهم وصوتهم في خضم بحثه المستميت عن اسرائيل القديمة»[٣٥٧]. وقد كان لآراء البرايت تأثير بالغ عليه، فتبنّاها بمجملها. وهو يشهد على أهمية آراء البرايت في حقل الدراسات التوراتية. وكان من الطبيعي، في تبنيه لآراء البرايت، أن يتبنّى نظريته التي تقول بوجوب إبادة السكان المحليين ذوي الحضارة الدنيا، ليحلّ محلّهم «الشعب المتفوق» - بنو اسرائيل.

في تبريره إبادة السكان الاصليين، حسب رواية يشوع، يقول رايت «إن لاسرائيل الحق (كذا) في أن تستولي على الأرض، وتبيد سكانها، لأن حضارة الكنعانيين وديانتهم كانتا من أحطّ الثقافات والديانات، وأكثرها لا أخلاقية (كذا). وقد كان من الضروري أن يعمل الاسرائيليون على تدمير حضارة فاسقة»[٣٥٨]. (فتأمّل)

وبعد، إن ما عرضناه من صنوف الغلط والتلفيق والتدجيل، ما هو إلا نماذج بسيطة مما تنطوي عليه مؤلفات المؤرخين التوراتيين من آراء ومواقف فكرية وأخلاقية سيئة ومذمومة، تحزّ العقل وتشتم الأخلاق، وتثقل كاهل التاريخ. والأدهى أن مثل هذه التلفيقات والتشوّهات والافتراءات، بدأ يظهر باستمرار في خطاب الدراسات التوراتية منذ بدايات القرن العشرين. والأسوأ أن هذه الدراسات عبرت، في اختلافها لدولة اسرائيلية قديمة، عن تورطها في الصراع الحالي الدائر في منطقة الشرق المتوسطي، كما يقول المؤرخ وايتلام.

وهذه المغالطات والافتراءات التي يوردها مؤلف واحد، وليس الوحيد، هي مثال عن الدراسات التوراتية والدراسات الصهيونية التي تشوّه حقيقة

الحقيقة، وحقيقة التاريخ. فإذا ما استعرضنا بعض الدراسات التوراتية، فبيّنا الاغلاط فيها، أو نقدنا ما تنطوي عليه دقّتا كل دراسة من بعض (أقول بعض) الأوهام الشائنة والافتراءات المتلوّنة، أو دحضنا بعضها لما ينطوي عليه من وقاحة في التشويه والتزوير والتزييف، فلأننا نؤمن بجدوى عرض الحقيقة، وبضرورة القاء الضوء على نماذج من أشرس الأوهام التي تخطّها أشرس الاقلام في مثل هذه المؤلفات التي غلّفت بهالة ظاهرية من العلم الغزير وطلاء البحث العلمي والموضوعي. وفي مثل هذه الأساليب التي تنطلي على عقول العامة من الغربيين الذين لا يعرفون عن تاريخ فلسطين وحقيقة فلسطين أكثر مما أوردته التوراة اليهودية، وبصور مشوّهة. وما عرضته الدراسات التوراتية في صور من التدجيل والتلفيق، وفي أطر من الخلط والخبط والتشويه. أو ما حمله معظم الكتب المعمّمة والواسعة الانتشار التي تطلقها الصهيونية ومشايعوها في أوربا وأميركا منذ عقود من الزمان. لكي يكون القارئ على دراية كافية بمسألة استخدام التاريخ بشكل منحاز خدمة لأهداف سياسية.

ومن الطبيعي أننا لا نريد من خلال عرضنا لنماذج من الأغلاط والأوهام والافتراءات التي تملأ بطون العديد والعديد من الكتب والمنشورات، أن ينقلب البحث الى مجرّد فضح المؤرخين الغافلين أو المغفلين، وتعريتهم. بل نريد أن نلقي الضوء على «حق» مزعوم و «رابطة» ملفّقة، وغفل أو تغافل يسيطر على أذهان ما يقرب من نصف سكان هذا الكوكب، وعلى تعصّب أعمى وعنصرية حاقدة، وغير ذلك من الوصمات المخجلة، استطاعوا بها أن ينتزعوا من الفلسطينيين تاريخهم وأرضهم وقيمهم الانسانية والحضارية. وأن يحرموهم من أن يكون لهم صوت مسموع في التاريخ.

واذا ما استحرّ في خاطر القارئ سؤال:

لماذا تنازلت الدراسات التوراتية عن تاريخ فلسطين القديم لمصلحة الغرب ودولة اسرائيل الحديثة؟.

ولماذا استخدموا التاريخ التوراتي لتبرير مواقف سياسية معاصرة؟.

ولماذا قلّصوا التاريخ الفلسطيني القديم الى تلك القصص التي تحكي عن الوجود العبراني فقط؟. وفي المقابل ركّزوا اهتمامهم على تاريخ اسرائيل القديمة، مع أن «تاريخ اسرائيل القديمة يبدو كلحظة قصيرة في مسيرة التاريخ

الفلسطيني الطويل»[٣٥٩] كما يقول وايتلام.

ولماذا استبعدت الدراسات التوراتية فلسطين، تاريخاً ومجتمعاً وحضارة، أو غيّبتها. وفي المقابل صورت اسرائيل القديمة دولة ناشئة تبحث عن وطن قومي تستطيع فيه أن تعبّر عن وعيها القومي. وصوّرت اسرائيل الحديثة على أنها مرآة عاكسة لغزو اسرائيل القديمة للأرض، الذي أعقبه، على زعمهم طبعاً، انشاء دولة قومية، تمكّنت من السيطرة وبسرعة على المنطقة برمّتها، كما يعلّق وايتلام[٣٦٠]. مع ان تاريخ اسرائيل القديمة لم يكن غير خيط رفيع في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني، كما يقول وايتلام أيضاً.

وباختصار، لماذا ركّز خطاب الدراسات التوراتية على شحن الذهنية الغربية بمقولات تاريخية ملفّقة، مفادها أن التاريخ هو تاريخ اسرائيل، والأرض هي أرض اسرائيل. أمّا الشعب الأصلي فمغيّب، أو على الأقل ليس له أي أهمية في التاريخ اليهودي، وأي أثر في الأرض اليهودية؟.

لماذا، ولماذا؟.

ربما، لأن أسفار اليهود المقدسة متأصّلة في الفرد المسيحي، المؤمن بمفهومنا الديني المعاصر، وفي الفرد غير المؤمن. ولا تزال حتى اليوم (مستهل القرن الواحد والعشرين بعد ميلاد يسوع الناصري ـ عصر الرقي الفكري، والتقدم العلمي، والتكنولوجيا المذهلة) تفعل فيهما معاً في مجالات عديدة ومختلفة. والواقع ان وجدان الفرد في نصف الكرة الغربي يتغذّى منذ نشأة الفرد، بأسفار اليهود على قدر معيّن وبشكل من الاشكال، في أي مجتمع وأي وسط وأي حضارة. ولا يزال الفرد في المجتمعات الغربية يحمل في وجدانه طبيعة دينية، سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن. ومن الممكن تفسير الكثير من تصرفاته على أساس العقلية الدينية (الميثولوجية) التي اكتسبها عبر العصور.

ويروّج لأسفارهم ويدعو لها أنصار لهم من أصحاب العقول المعطّلة والاذهان المخصيّة، خاصة طوائف الانجيليين والمعمدانيين والدهريين والمتجذّدين والسبتيين وشهود يهوه، وسائر الفرق والطوائف المتفرّعة من البروتستانتية أو المنشقة عنها. هؤلاء جميعاً وكثيرون غيرهم من شتى الطوائف ومختلف النزعات، جعلوا همّهم في الحياة، الدعوة في صفوف عامة المجتمع، الى تقبّل دعوات الصهيونية المضمّنة في أسفارها المقدسة وغير المقدسة.

ولأن المسيحيين الغربيين، خاصة البروتستانت، يعتبرون «العهد القديم» هو الوثيقة الوحيدة والهامة في تاريخ الشرق المتوسطي. أو هو المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية. من هذا المنطلق تجاهلت الدراسات التوراتية تاريخ فلسطين واستبعدته لدرجة لم يبق له أي أثر أو ذكر في المؤسسات الثقافية والجامعات الغربية.

وفي المقابل استهلك تاريخ اسرائيل القديمة طاقات فكرية ضخمة وموارد مالية هائلة. وخصّصت له الكراسي في الجامعات وفي كلّيات اللاهوت والمدارس الدينية وحلقات البحث وأقسام الآثار، في أميركا وأوربا.

وبذلك تمّ فهم وتصوير اسرائيل القديمة على أنها منبع الحضارة الغربية، كما يقول وايتلام[٣٦١]. وأنها «تمثل الجذور الثقافية والعقلانية والروحية للمجتمع الغربي»، كما يقول البرايت[٣٦٢]. وأن «الثقافة الاسرائيلية هي ذروة التطوّر الحضاري» كما يقول سميث[٣٦٣].

وبما أن «الثقافة الاسرائيلية هي في أصل الثقافة الغربية. وتشكّل أصول ديانتها التوحيدية، فالقوى الأوربية تعود لتحمي الأرض التي أمدّتها بمنبع حضارتها» كما يقول سميث أيضاً[٣٦٤]. (فتأمل. تأمّل: القوى الأوربية تعو......د، تعو.....د لتحمي الأرض التي أمدّتها بمنبع حضارتها).

ولأن «الدراسات التوراتية متورّطة في الصراع الحالي الدائر في منطقة الشرق الأوسط حول أرض فلسطين. متورّطة في المشروع الاستعماري. ومعبّرة في الوقت ذاته، وبشكل مذهل، عن عنصرية سافرة»، كما يقول المؤرخ المستنير كيث وايتلام.

مشكلة القصور والتقصير

ذكرنا في ما تقدّم أن أول ما عني به اليهود من أسباب نشر دعاوتهم في تملّك أرض فلسطين، هو السعي في إحياء ما يزعمونه من «رابطة تاريخية» بما توهّموه من مملكة قديمة كانت لهم في أرض فلسطين. وفي إشهار ما دجّلوه من «حقّ تاريخي» في ما يدّعونه من أرض قامت عليها مملكتهم الأولى في العصور القديمة.

وقلنا إنهم اتقنوا استخدام هذا السلاح ايّما اتقان حتى توصّلوا الى اقناع العالم الغربي بأن موجاتهم الزاحفة الى فلسطين ليست موجات غازية أو استعمارية، وإنما هي جموع من المشرّدين، أخرجتهم سلسلة من الاضطهادات من بلادهم. وها هم يعودون إليها ثانية، مواطنين عائدين الى منازلهم الحقيقية في «أرض اسرائيل التاريخية».

وقلنا أيضاً إن «الروابط التاريخية» المزعومة تحوّلت، لكثرة الترديد والتكرير، الى «حقّ تاريخي»، فحجّة تتمتّع بالصفة القانونية. وبالتالي أصبحت المزاعم الصهيونية من بداهة الامور. وأضحى سكان ما يزيد على نصف الكرة الغربي، يحسبون المزاعم الصهيونية على مقدار بديهي من الصحة، بحيث لا تحتاج معه الى ردّ أو تفنيد أو مناقشة.

واستعرضنا في ما تقدّم أيضاً نماذج من التصريحات ـ المزاعم التي تبرّر، باعتبار الصهاينة ومشايعيهم، الحق في امتلاك أرض فلسطين. واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً أو استمراراً للدولة اليهودية القديمة.

وألمحنا الى تشديدهم على رفع الزعم الى درجة المعتقد. وهذا ما عبّر عنه رئيس حكومة اسرائيل، مناحيم بيغن، في حثه الصهيونيين على مواصلة التأكيد على الرابط الجغرافي بالأرض. من ذلك مثلاً قوله «إذا كانت هذه

الأرض هي فلسطين، وليست أرض اسرائيل، فأنتم إذاً فاتحون، وغزاة». وأضاف «إذا كانت هذه الأرض فلسطين، فهي تنتمي للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها. ولن يكون لكم حقّ العيش فيها إلا إذا كانت أرض اسرائيل»[٣٦٥].

وأشرنا الى تشديدهم المتعمّد على «الصلات التاريخية القديمة جداً والعميقة جداً، التي تصل ما بين الشعب اليهودي وفلسطين - وطنهم العتيق الذي لم ينسوه»[٣٦٦].

وفصّلنا القول في مسألة يقينهم الجازم واعتقادهم الراسخ بأن «فلسطين هي وطن الشعب اليهودي تاريخياً». وأن «الشعب اليهودي عاد الى وطنه التاريخي بعد ثمانية عشر قرناً»[٣٦٧]. وأن «الصهيونة ليست شيئاً آخر سوى النضال من أجل التحرّر الوطني لشعب وضحت معالم حقّه في وطنه، وطن أجداده»[٣٦٨].

وعرفنا أن «الصهاينة دخلوا أو أُدخلوا فلسطين في القرن العشرين بحجة امتلاك أسلافهم لها»[٣٦٩]. وقد أشار صك الانتداب، «وبوقاحة صفيقة، ندر أن حملتها وثيقة دولية أخرى، الى «الرابطة التاريخية». وباسلوب أشد جزماً وأكثر وقاحة، كتبوا «وقد جرى الاعتراف بالرابطة التاريخية»[٣٧٠]. (تأمّل قد التي تفيد التحقيق. والاعتراف يعني القبول الذي لا يشوبه شك).

«واعترفت عصبة الأمم بهذه الرابطة التاريخية» - دافار ١٠/٦/١٩٦٩.

وقلنا أيضاً إن الزعماء الصهيونيين والمؤرخين التوراتيين ركّبوا تاريخاً لدولة اختلقوها هي اسرائيل القديمة. ومن الطبيعي أن التاريخ الذي ركّبوه للدولة التي اختلقوها، هو القاعدة التاريخية للحركة الصهيونية، كما يقول رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، ناحوم غولدمان. وهو المبرّر المعنوي والسياسي لضم مناطق جديدة الى سيادة اسرائيل، كما عبّر رئيس حكومة اسرائيل إيغال ألون.

وهو الذي يعزّز ايمان اليهود بأن هذه البلاد هي وطنه.

وهو الذي يمكّنهم من تمويه الطابع الاستعماري للفكرة الصهيونية، وتغليفها بغشاوة طوباوية، وشحنها بعامل ايديولوجي عقائدي.

وهو الذي يبرّر الحق في امتلاك الأرض، واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً أو استمراراً للدولة اليهودية القديمة.

وهو الذي يوحي للعالم بأن اسرائيل المعاصرة ما هي إلا «إعادة بناء» لما

كان موجوداً في الماضي.

وباختصار، هم اختلقوا أو ابتدعوا أو اخترعوا «مملكة قديمة». وركّبوا تاريخاً لتلك المملكة. على اعتبار أن الدولة المختلقة، والتاريخ المركّب لها، هما وحدهما اللذان يبرّران الحق في امتلاك أرض فلسطين، واعادة بناء دولة يهودية تكون امتداداً أو استمراراً للدولة اليهودية القديمة.

ومن هذا المنطلق كان تأكيدهم على استملاك الماضي جزءاً من سياسة الحاضر. وبالتالي كان استخدام التاريخ التوراتي مبرّراً لاتخاذ مواقف سياسية معاصرة.

قلت: هم اختلقوا أو ابتدعوا «مملكة قديمة». وركّبوا تاريخاً لها. والحقيقة أن المفكّرين المستنيرين يجمعون على القول «إن اسرائيل القديمة، والتاريخ المركّب لها ـ الموضوع الرئيسي في الدراسات التوراتية، هما من ابتداع العلماء والمفكّرين الذين غلبت على دوافعهم المضامين والاتجاهات والأبعاد السياسية والثقافية. وعملهم مبني على فهم خاطئ للتوراة، وبعيد عن الحقيقة التاريخية» كما يقول المؤرخ فيليب ديفز[٣٧١]. «وكل ما تقدّمه الدراسات التوراتية هو تاريخ متخيّل للقوة العظمى، اسرائيل» كما يقول المؤرخ المستنير كيث وايتلام[٣٧٢].

والسؤال: لماذا اختلق المؤرخون العرب مملكة اسرائيلية في أرض فلسطين؟. ولماذا صنّفوا لها تاريخاً زاهياً، شحنوه بآيات من الأمجاد ومواقف من البطولات ما يجعل التواريخ التوراتية الغربية تنحني إجلالاً وإكباراً أمام التواريخ العربية؟. وهل غلبت على دوافعهم، كما على الغربيين، مضامين واتجاهات وأبعاد سياسية وثقافية معينة؟. وما هي؟.

لا أود الآن أن أشير الى ما لفّقه بعض المؤيرخين العرب من التدجيلات والمغالطات الشنيعة والمنكرة في هذا الموضوع. ولكن اسمحوا لي أن أعرض أمام عيني القارئ بعض ما ركّبه أو شكّله من تاريخ بعض المؤرخين العرب الذين يمكن للباحث (بله القارئ العادي، فهو بشكل عام لا يفرّق بين الغث والسمين) أن يكنّ لهم الاحترام والتقدير. ولكن يبدو أنهم لم يتعلّموا التاريخ جيداً، أو انهم يجهلون حقيقة جوهرية، مفادها أن كتابة التاريخ لا تعني أن ينقل المؤرخ ما كتبه الآخرون، بل تفرض عليه أن يتحرّى الحقيقة في الموضوع الذي يتناوله. وأن الاقامة على التقليد، بعقل أو بغير عقل، هي من أبشع ضروب

التقصير التي يُرمى بها مؤرخ.

بين يدي الموسوعة الفلسطينية التي تأخذك الدهشة من كثرة الاسماء المشرفة والمحرّرة والاستشارية، التي أخذت مواقعها في مقدمتها. عشرات الاسماء مع ألقابها وشهاداتها العالية. ومع هذا لم أستطع تقليب الموسوعة كلها، للاشمئزاز الذي أصابني، لا للأغلاط الشنيعة والمخجلة في مدلولات الأسماء، بل للأغلاط الشائنة في مضامين المواد. ولا رغبة لنا الآن في تفنيدها أو الردّ عليها. ولكن تأمل في ما يقوله محرّر مادة فلسطين مثلاً. يقول «أول عمل عسكري قام به داود كان مهاجمته للقدس. وبعد أن احتلّها أعلنها عاصمة لشقي مملكته يهوذا واسرائيل. وباحتلال داود للقدس أصبحت المدينة محور صراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين». ويضيف حضرة المؤرخ «وقد وصل نفوذ داود في الشمال حتى دمشق وحماه وصيدا وصور»[٣٧٣]. ويقول محرر آخر (ص ٢٠ من الجزء الأول) «إن داود انتصر على الاراميين، مما دفعهم الى الاستسلام لحكمه».

من المؤسف أن يندرج هذا الكلام تحت باب التاريخ، مذيلاً باسم بروفسور متخصّص واستاذ جامعي. والأدهى أنه ابن الأرض. وبالحري مخجل هذا الكلام، وهو خير دليل على أن الذهنية العربية، معلّمة ومفكّرة، قارئة وكاتبة، مصابة بالغفل أو التغافل لدى كثيرين من أربابها.

يبدو أن صاحبنا المؤرخ المحرّر واحد من المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ فلسطين، من غير أن يحرّروا أنفسهم من قبضة الدراسات التوراتية. فنفوذ داود وصل، بقلمه طبعاً، في الشمال الى دمشق وحماه وصور وصيدا. وقد رأينا في ما تقدّم أن هذا الـ «داود» صار بقلم المؤرخ التوراتي جون برايت، «سيداً على امبراطورية مترامية الأطراف، امتدت من خليج العقبة الى البحر المتوسط. ومن وادي العريش في الجنوب الى لبنان وقادش على العاصي في الشمال.

والحقيقة ان كلام هذا المؤرخ مخجل، فهو ليس هفوة فظيعة، ولا سقطة شنيعة. وليس ادعاء فارغاً، أو جهلاً مركّباً، أو وهماً شائناً، فحسب. إنه أكبر وأبعد من ذلك بكثير. إنه يفقأ في عيني المستنير حصرماً، أو يُسقط فيهما كل الدمامات والعاهات، وكل التشوّهات والتلفيقات.

قد أكون مخطئاً أو ظالماً في حكمي هذا، ولكن مقارنة بسيطة بين ما

عرضناه من سيرة داود وبين الصورة التي ركّبها هذا المؤرخ لداود، كافية لالقاء بقعة من الضوء على نماذج من المؤرخين الجهلة الذين يعانون من غيبة الفهم، والحرمان من نعمة التفكير. والذين لم يسبق لواحد منهم أن أطلق العنان لقلمه، وحرّره من عقد الايمان الساذج، أو الاقامة على النقل بعقل أو بغير عقل.

موسوعة أخرى[٣٧٤]، وسمها باسمه مفكّر ضليع، وباحث منقّب، هو الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي دفع الى سوق النشر كتباً فذة في مباحثها، وفي صحة الآراء التي طرحها، وفي جدة المواضيع التي تناولها.

يقول صاحبنا المؤرخ (محرّر المادة أو واضع الموسوعة، لا فرق) «عندما استولى داود على مدينة القدس حوالي ١٠٠٠ ق.م. لم يجد اسماً خاصاً يطلق عليها، فسمّاها مدينة داود» ص ١١٦ ويقول في موضع آخر من الموسوعة «بعد ثمانية أعوام من حكمه، فتح داود يبوس أو القدس وحوّلها الى عاصمة لمملكته، كونها تتوسط وتسيطر على أهم الطرق الداخلية. وبنى معبداً ليهوه، أودع فيه تابوت العهد. ثم أسس داود جيشاً محترفاً بعد تركيز السلطة في القدس. وحارب الفلسطينيين حلفاءه السابقين، والمؤابيين وأرام (سوريا) والعمونيين.. وضم داود قطاعات واسعة من الأرض، ووسّع حدود مملكته» ص ١٧٦.

تأمل الأفعال التي ينسبها حضرة المؤرخ الى داود: استولى داود، فتح داود، حول القدس الى عاصمة، أسس جيشاً محترفاً، ضم قطاعات واسعة من الأرض، وسّع حدود مملكته، وحارب..

إن قلبي ينقبض حزناً وأسفاً عندما أسمع مؤرخين لا يعوزهم الذكاء، يطمسون الحقائق ويستمسكون بالمغالطة والمراوغة. ويسطّرون في مدوناتهم حكايات ملفقة، يرشح الكذب من كل كلمة من كلمها.

ويبدو أن صاحبنا المؤرخ أو المؤيرخ، لا فرق، لا يحسن قراءة التاريخ، أو أنه قرأ تاريخ اليهود ـ التوراة (العهد القديم) كما يقرأه ما يزيد على ألفي مليون مؤمن، بذهن مقفَل وعقل معطّل. ولذلك لم يرَ ما نصّ عليه هذا التاريخ (الكتاب المقدس) من سيرة داود، وفيه أن داود «ذهب ورجاله الى أورشليم، الى اليبوسيين، سكان الأرض. فكلّموا داود قائلين: لا تدخل الى هنا ما لم تنزع العميان والعرج، أي لا يدخل داود الى هنا. صم٢ ٥: ٦». (تأمل: ذهب

داود ورجاله. أكرر: ورجاله. وهل كان لداود غير بضعة رجال مرتزقة، لا يزيد عددهم على خمسين رجلاً، وربما وصل الى ٦٠٠ على ذمة التوراة. وتأمل في ردّ اليبوسيين: لا تدخل الى هنا.

أما صاحبنا المؤرخ فنسب الى داود الفتح، والاستيلاء، وتحويل القدس الى عاصمة لمملكته. تأمل: فتح، واستولى، وحول القدس الى عاصمة، وأسس جيشاً محترفاً، وضمّ قطاعات واسعة من الأرض، ووسّع حدود مملكته و..).

وعندما منعه «اليبوسيون، سكان الأرض». (تأمّل: منعه اليبوسيون، سكان الأرض) من دخول مدينتهم ـ أورشليم» أخذ داود حصن صهيون». وهو حصن أو قلعة مهجورة قائمة على تلة صهيون المشرفة على القدس. و «بنى مستديراً من القلعة فداخلاً» أي بنى خيمة مستديرة الى الوراء من القلعة المهجورة. ولو كانت تلة صهيون مأهولة باليبوسيين أو غيرهم من أقوام الأرض، لما تمكّن داود من ضرب أطناب خيمته فيها. وظلّ داود مقيماً في خيمته حتى «أرسل له أحيرام ملك صور خشب أرز ونجارين وبنائين، فبنوا لداود بيتاً. سم٢ ٥: ١١». لأن داود وضع نفسه في حماية ملك صور كما ذكرنا في ما استعرضناه من سيرة داود في ما تقدم من هذا الكتاب.

وداود لم يبنِ معبداً ليهوه (الرب) كما يزعم حضرة المؤرخ المحرر في موسوعة المسيري، بل «ذهب وجميع الشعب الذي معه (تأمّل العبارة المعبّرة: ذهب داود وجميع الشعب الذي معه) الى بيت أب ندب الذي في الأكمة، فأركبوا تابوت الله على عجلة وحملوه» الى تلة صهيون، حيث «أدخلوا تابوت الله وأوقفوه في مكانه في وسط الخيمة التي نصبها له داود. سم٢ ٦».

أما قول حضرة المؤرخ إن داود «لم يجد اسماً خاصاً يطلق على أورشليم، فسمّاها مدينة داود» فهو قول في منتهى الخرف والهراء، أو هو في غاية الصفاقة والرياء الرخيص. ومثل هذا الكلام لا يكتبه تلامذة المدارس الابتدائية ولا صبيان الكتاتيب. والسؤال: ماذا يفهم القارئ من كلام هذا المؤرخ «عندما استولى داود على مدينة القدس لم يجد اسماً خاصاً يطلق عليها، فسمّاها مدينة داود». وأين غيّب حضرة المؤرخ الاسماء: أورشليم ويبوس (بله القدس)؟. إن كلام هذا المؤرخ مضحك الى حدّ القهقهة،

ومؤسف الى حدّ البكاء (لم يجد داود اسماً خاصاً يطلق على القدس، فسمّاها مدينة داود).

والحقيقة أن ما سمّاه داود مدينة داود هو الحصن ـ القلعة المهجورة في تلة صهيون، الذي نصب فيه داود خيمته «مستديراً من القلعة فداخلاً». هذا مدينة داود يا حضرة المؤرخ. أما أورشليم ـ مدينة اليبوسيين (الكنعانيين) فستظل أورشليم (مدينة السلام) الى نهاية الدهر. ولن يستطيع أي داود في التاريخ أن يشوّه اسم المدينة وحضارتها مهما طالت غفوة العرب، وطال أمد الظلام البهيم مخيّماً على أدمغة العرب.

قلنا إن هذا المؤرخ المحرّر في موسوعة المسيري، نسب الى داود من الأفعال والامجاد ما لم يسبقه إليه مؤرخ توراتي، صهيوني أو متصهين، في الغرب الأوربي والأميركي الأعمى البصيرة. قال «فتح داود، واستولى داود، وحوّل القدس الى عاصمة لمملكته، وأسس جيشاً محترفاً، وضمّ قطاعات واسعة من الأرض، ووسّع حدود مملكته».

ويبدو أن صاحبنا المؤرخ لم يرَ داود الصعلوك، فارّاً من وجه شاول، ولاجئاً في بلاد الفلسطينيين. يغزو قبيلته يهوذا ويأتي بالغنم والجمال والحمير والثياب الى سيّده وحاميه الملك الفلسطيني أخيش. ولم يرَ داود فارّاً من وجه ابنه ابشالوم، صاعداً في الجبل باكياً وحافياً ورأسه مغطى. ولم يرَ الرجل من اتباع شاول الذي راح يخاطب داود الهارب بقوله «اخرج يا رجل الدماء». (اعذروني فلن أعود الى ترديد ما كرّرته مرات ومرات). وإنما رأى ما دوّنه المؤرخون التوراتيون الذين شكّلوا لداود الصورة التي رأيت بعض ما عرضناه من خطوطها في ما تقدم.

ويقول المؤرخ عينه أو غيره في موسوعة المسيري «وقد استولى العبرانيون على مدينة الخليل أثناء تسلّلهم الى كنعان، وأبادوا سكانها من العناقيين» (ص ١٢١). «واستولت قبيلة يوسف على بيت ايل» (ص ١١٨). «وقد سيطر العبرانيون على قسم كبير من أراضي فلسطين الشمالية» (ص ١٤١).

والسؤال: هل يختلف هذا الكلام عن كلام المؤرخين التوراتيين، الصهيونيين أو المتصهينين؟. لا أظن. وهنا مبعث الأسى والأسف.

والسؤال الآخر: هل هذا الكلام تعبير عن سذاجة مؤرخ، وضعف في

بصيرته، وخمول في عقله، وبلادة في ذهنه؟. أم هو تعبير عن واقع من الثقافة الضحلة والوعي الضامر والذهن الخامل القانع المستسلم المتعبّد للهوان والضعف، المستعبَد الذي ينصاع للتلفيقات بكل رضى وقناعة، والمستغرق في الهرب من التفكير ومن فهم أي شيء؟.

ومن هنا تكون معاناة المؤرخ المستنير في تحديقه بعيني العقل في كتابات المؤرخين الذين يلفّقون مثل هذه التشوّهات والمنكرات، من غير أن تكون له القدرة أو الجرأة على الرفض والاحتجاج أو الغضب والاشمئزاز.

ويبدو أن صاحبنا المؤيرخ كان مسّاحاً في تلك الأيام. فقد قاس مملكة يهوذا متراً متراً. ورسّخ مساحة المملكة في موسوعة المسيري. يقول «كان عرض أرض يهوذا من الغرب الى الشرق نحو خمسين ميلاً. وكان طولها من الجنوب الى الشمال نحو خمسة وأربعين ميلاً. وكانت مساحتها أكثر من ألفي ميل مربع. وكانت مساحة مملكة يهوذا نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع» (ص ١١٦).

فهو لم يكتفِ بجعل الصعلوك داود يستولي على القدس، ويجعل العبرانيين يسيطرون على قسم كبير من أراضي فلسطين الشمالية، بل أراد لمملكة يهوذا أن تبسط سيطرتها على أرض فلسطين بكاملها، وبالتحديد على مساحة ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع.

مخجل هذا التلفيق، هذا التشويه والتزوير للتاريخ. أو قل هذا الاختلاق للتاريخ. وما يدعو الى التعجب الساخر ليس تشويه الحقيقة وتزوير التاريخ فحسب، وإنما الصمت الذي قابل به المؤرخون هذا الكلام الخطير. خاصة صمت صاحب الموسوعة المؤرخ المستنير عبد الوهاب المسيري.

والداهية الدهياء أن صاحبنا المؤيرخ يضع داود الصعلوك ورجاله المرتزقة في مستوى القوى الامبراطورية الكبرى في تلك الأيام. فيقول «وقد تمكّن العبرانيون من تأسيس مملكتهم حوالي ١٠٢٠ ق.م بسبب الفراغ الذي نشأ في الشرق الأدنى القديم. فمصر كانت تتعرض آنذاك لضغط الليبيين من الغرب. وكان الحثيون مشغولين بصد الغزاة من البحر. ولم تكن بابل قوة عظمى بعد. كما كانت الدويلات الارامية في صراع بعضها مع بعض. أما اشور فلم تكن قد بلغت بعد أوج عظمتها الامبراطورية» (ص ١٧٥).

ماذا تسمّي هذا الكلام الذي يسقط في عيني القارئ المستنير دمامات وعاهات وغباوات؟.

ماذا تسمّي هذا الخلط والخبط، وهذه التلفيقات المذهلة والتمحّلات المدهشة؟. هل تسمّيها مسألة ثقافة ضحلة وغيبة فهم؟ وماذا تسمّي مؤرخاً، هذه بضاعته من علم التاريخ؟.

وبماذا تحكم على مجتمعات لا يسود فيها غير أدعياء الثقافة الزائفة، الذين يفتقرون الى معاناة الوعي، وبالتالي يعجزون عن استبعاد ما في الكتب التي يطالعون من حماقات وأكاذيب وتلفيقات؟.

تأمّل في هذا المنطق التبريري الأعوج الذي ينتهجه حضرة المؤيرخ. صاحبنا يريد أن يلصق في جبين التاريخ مملكة لبني اسرائيل. فماذا فعل؟. أراد لمصر أن تنشغل بصد الليبيين (كلام تافه). وللحثيين أن يهتموا بصدّ الغزاة من البحر. وأراد لبابل أن تكون في بدايات تكوّنها كقوة (كلام تافه ومنطق أعوج). وحكم على الدويلات الارامية أن تكون في حالة صراع بعضها مع بعض (وهذا كذب ودجل). وحكم على أشور كما حكم على بابل أن تكون في بدايات تكوّنها كقوة امبراطورية. فعل ذلك كله ليتمكن العبرانيون من تأسيس مملكتهم في أرض فلسطين، في هذا الفراغ الذي دبّره حضرة المؤيرخ ليكون مبرّراً لما قرّره من انشاء الدولة اليهودية.

تأمل: داود الذي لم يسمع به نابال الكرملي الذي كان يعيش على بعد ميل أو ميلين من البرية التي كان داود هارباً فيها من وجه شاول، فقال لرجال داود: من هو داود؟ ومن هو ابن يسّى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده.

هذا الـ «داود» جعله صاحبنا المؤيرخ يستفيد مما يسمّيه فراغاً في حلبة الصراع بين القوى الكبرى في منطقة الشرق المتوسطي، فيؤسس دولة، بل مملكة عملاقة شغلت أذهان ما يزيد على نصف سكان هذا الكوكب منذ ألفي سنة. وستبقى هي الشاغل الرئيسي للعقول المعطّلة والأذهان المخصية الى زمن لا يعرف إلا الله مداه.

والطريف أن المحرّر عينه أو غيره في موسوعة المسيري، كرّر هذا الكلام بحرفيته في موضع آخر من الموسوعة. (انظر ص ١٤٠).

والاطرف أن صاحبنا المؤرخ نقل كلامه عن المؤرخين التوراتيين، الصهيونيين أو المتصهينين في الغرب الأوربي والأميركي. ولكنه، للأسف، نقل بغير عقل. يقول المؤرخ التوراتي ج. سوغن «إن الفراغ الذي سبّبه انهيار الحكم المصري، وغياب السيطرة الاشورية، هو الذي سمح بامكان قيام امبراطورية اسرائيلية». ويضيف سوغن «إن المملكة الداودية استغلت الفراغ السياسي لتقيم امبراطورية في فلسطين وسوريا لمدة حوالي سبعين عاماً في بداية القرن العاشر ق.م.»(٣٧٥).

ويقول المؤرخ التوراتي ج. أهلستروم «إن شاول استغل فرصة وجود فراغ في ميزان القوى نتيجة لضعف القوى العظمى في المنطقة». ويضيف «وقد أصبحت انجازات داود ممكنة بسبب وجود الفراغ في ميزان القوى في المنطقة في تلك الفترة»(٣٧٦).

وإذا أردت، عزيزي القارئ، أن تعرف كيف يصير التأريخ تأليفاً. وكيف يرصف المؤرخ ـ المؤلف أحياناً التلفيقات البالغة الغرابة، ويقدّم التفسيرات التي تتميّز بالبله والقصور الى درجة بعيدة، وكيف يجعل من كتابه جراباً من التلفيق والتدجيل، فدونك ما دوّنه حضرة المؤرخ المحرّر في موسوعة المسيري. يقول «وقد قوّضت الملكية القيادة القبلية بخلق طبقة من الموظفين الملكيين الذين يعتمدون على الملك. وكانت هذه الطبقة تضم الوزراء والمقاتلين والمديرين والعمال في الضياع الملكية. كما ان طبقة التجار ازدهرت بتأثير ظهور الملكية التي شجّعت على التجارة، كما شجّعت على ظهور المهارات الحرفية المتخصّصة. وظهرت كذلك طبقة كبار الملاّك الذين كان الملك يقتطع لهم ضياعاً كبيرة مكافأة لهم على خدمات قدموها له» (ص ١٧٤).

(تأمل: طبقة الموظفين الملكيين، والوزراء والمديرين، وكبار الملاّك الذين كان الملك يقتطع لهم ضياعاً كبيرة، طبعاً من أرض فلسطين). مخجل هذا الكلام.

والسؤال: من أي مصدر استقى حضرة المؤرخ هذه المعلومات التي دوّنها بكل ثقة واعتزاز؟. وكيف جرؤ على رصف مثل هذه التلفيقات؟. ولماذا كل هذا الاصرار على الاختلاق والتلفيق.

أعتقد أن المؤرخين التوراتيين ينحنون إجلالاً واكباراً أمام مثل هذه الاعمال

العظيمة التي قدّمها صاحبنا المؤرخ الفذ.

ولعل أقسى الآلام التي عاناها العبد الفقير، واضع هذا البحث، كانت نتيجة تحديقه بعيني العقل في كتاب الياس شوفاني الأخير «الموجز في تاريخ فلسطين السياسي»[٢٧٧].

الدكتور الياس شوفاني، أولاً هو ابن الأرض، وثانياً هو باحث في تاريخ فلسطين وقضيتها. وقد شغل منصب رئيس دائرة الابحاث وقسم الدراسات الاسرائيلية في مؤسسة الدراسات الفلسطينية. له دراسات عدة في موضوع الصهيونية واسرائيل. (كما جاء على غلاف كتابه الأخير).

ولكن ما يحدو على الأسى والأسف، ويبعث على الاشفاق والرثاء، وما يحر العقل ويعذّب النفس، أن يسقط هذا المفكر الكبير حيث سقط الآخرون. وكان من الضروري أو من الواجب أن يعصم نفسه عن الانزلاق في الوهدة التي انزلق اليها أو فيها الآخرون.

الياس شوفاني كتب في القضية الفلسطينية، مثله مثل أنيس صايغ، بوجدان حيّ وأحاسيس غامرة ومشاعر صادقة ومعبّرة. ولكنه، للأسف، كبا في كتابه الأخير كبوة فظيعة، تجعل قلب القارئ المستنير ينقبض حزناً وأسفاً، وتجعل صدره يرشح بالحزن والمرارة.

ولكي لا يتهمنا أحد بالمغالاة أو بالتحزّب على استاذنا الوقور، نقتطف بعض ما دوّنه في كتابه الأخير. يقول «والى الجنوب تحرّك العمونيون والمؤابيون والمديانيون والأدوميون والاسرائيليون، لتثبيت استقلالهم على الأراضي الواقعة في أيديهم وتوسيعها، وخصوصاً على حساب الكنعانيين» ص ٨٣.

هذا الكلام تأليف، وليس تأريخاً. وهذا التأليف ليس صحيحاً. والأدهى أنه عطف الاسرائيليين (الغزاة الغرباء) على مجتمعات الأرض، أو جمعهم معهم في رابطة وحدة أو اتحاد أو تآلف. وقوله «لتثبيت استقلالهم على الأراضي الواقعة في أيديهم وتوسيعها» هو كلام مؤرخ توراتي، غربي طبعاً. وطبعاً صهيوني أو متصهين.

ويقول شوفاني «إن انهيار الائتلاف الكنعاني، وبالتالي بروز القبائل الاسرائيلية كقوة رئيسية في المنطقة. . برز عدد من القادة العسكريين، أدّوا دوراً

مركزياً في ادارة الصراع، مثل جدعون وأبيميلخ» ص ٩٢.

والسؤال: ما هي المصادر والوثائق التي أعتمدها حضرة المؤرخ في تقرير ما قرّر: انهيار الائتلاف الكنعاني. وبروز الاسرائيليين كقوة رئيسية.

هذا كلام مؤرخ توراتي غربي، صهيوني أو متصهين لا فرق، نقله شوفاني وبغير عقل طبعاً. وكان من المفروض أن يرجع الى المصدر الوحيد في تاريخ الجماعة ـ التوراة (العهد القديم)، لا الى كتب المؤرخين التوراتيين. إن ما يزعمه من «انهيار الائتلاف الكنعاني» هو محض اختلاق غربي، وما يدّعيه من بروز الاسرائيليين كقوة رئيسية هو من تركيبات المؤرخين الغربيين التي تثقل كاهل التاريخ.

والمؤسف أن شوفاني يعرف اسم جدعون «كقائد عسكري. وأدّى دوراً مركزياً في ادارة الصراع» من كتب المؤرخين التوراتيين. (أكبر بالياس شوفاني أن ينعت قائد المرتزقة الصعلوك جدعون بأنه قائد عسكري، وأدّى دوراً، وفي ادارة الصراع. تأمل).

ولكنه لا يعرف جدعون كما روى سيرته المصدر الوحيد ـ التوراة. وكذلك لا يعرف «أب ملك» الذي يعني: الله يخضّر ينضّر الأرض. وبما أنه ينقل عن الغربيين كتب الاسم بصورة أبيميلخ.

ويقول شوفاني «استطاع شاول (١٠٢٠ ـ ١٠٠٤ ق.م.) من خلال تكتيكات عسكرية سريعة ومفاجئة، أن يهزم العمونيين ويصدّهم عن الجلعاد، ثم توجّه نحو الحاميات الفلسطينية الصغيرة في المنطقة الجبلية، فطردها الى الساحل. وراح بعد ذلك يوسّع حدود نفوذه في الاتجاهات جميعها: الجبعونيون في الغرب، والعمالقة في الجنوب، وابناء لوط وقيدم في الشرق. وأخيراً دحر الفلسطينيين بالقرب من بيت جبرين» ص ٩٤.

يبدو أن المؤرخ شوفاني لا يعرف شاول الذي قضى عمره ملاحقاً صهره الصعلوك داود. ولا يعرف شاول الذي قتله الفلسطينيون مع أولاده الثلاثة وسمرّوا جسده على سور بيت شان. وإنما يعرف شاول الذي لفّق له المؤرخون التوراتيون صورة ولا أبهى.

(تأمّل ما يقوله شوفاني «تكتيكات عسكرية، وسريعة، ومفاجئة أيضاً. وشاول هزم العمونيين ودحر الفلسطينيين وحصرهم في الساحل. ووسّع حدود

نفوذه على حساب الجبعونيين والعمالقة).

والواقع أن الصهيونيين يصفّقون له، كما لغيره من المؤرخين العرب، إجلالاً واكباراً، لأنه أعطى لأجدادهم المرتزقة الصعاليك من الأمجاد ما قصّر عنه المؤرخون التوراتيون.

وفي حديثه عن «احتلال الاسرائيليين أرض كنعان. ص ٩١» وعن «الخطر الاسرائيلي. ص ٩٢» يقول الدكتور شوفاني «إن القبائل الاسرائيلية تحالفت بعضها مع بعض، وحقّقت نصراً على الكنعانيين في معركتين حاسمتين.. الأمر الذي وضع حدّاً لهذه المملكة الكنعانية القوية في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد».

ويضيف المؤرخ شوفاني «بعد أن احتل داود أورشليم، وأنهى حكم اليبوسيين الكنعاني فيها، دحر الفلسطينيين، وتابع مطاردتهم، واحتلّ مدينتي جيزر وعقرون من أيديهم، وجعلهما خط دفاعه الأول. ثم تحوّل الى توسيع مملكته، وخلال بضع سنوات ضم إليه كل ولاية كنعان المصرية سابقاً.. ثم توجه نحو شرقي الاردن، واشتبك مع العمونيين والمؤابيين الذين كانوا يعملون لترسيخ سلطتهم هناك. ص ٩٤».

والسؤال، إذا سمح الدكتور شوفاني:

- متى احتلّ الاسرائيليون أرض كنعان؟

- ومتى شكّلوا خطراً على مجتمعات الأرض؟

- ومتى حقّقوا نصراً على الكنعانيين، ووضعوا حدّاً لهذه المملكة الكنعانية القوية؟.

- ومتى احتلّ داود أورشليم؟

- وكيف أنهى حكم اليبوسيين فيها؟

- ومتى دحر الفلسطينيين، وتابع مطاردتهم، واحتلّ مدينتي جيزر وعقرون؟.

- ومتى ضم كل ولاية كنعان؟

- ومتى.. متى.. ومتى..؟

ترى يوم كان موسى «يرسل الرسل الى ملوك الأرض قائلاً: دعني أمرّ في أرضك، لا نميل الى حقل ولا الى كرم، ولا نشرب ماء بئر. في طريق الملك

نمشي حتى نتجاوز تخومك. سفر العدد ٢١: ٢١»؟.
أم يوم «قسموا الأرض بالقرعة. سفر يشوع ١٣: ٦».
«فكانت القرعة لسبط بني يهوذا.. يشوع ١٥: ١».
«وخرجت القرعة لبني يوسف.. يشوع ١٦: ١».
«وكانت القرعة لسبط منسّى.. يشوع ٢٧: ١».
«وطلعت قرعة سبط بني بنيامين.. يشوع ١٨: ١١».
«وخرجت القرعة الثانية لشمعون.. يشوع ١٩: ١».
«وطلعت القرعة الثالثة لبني زبولون.. يشوع ١٩: ١٠».
«وخرجت القرعة الرابعة ليسّاكر.. يشوع ١٩: ١٧».
«وخرجت القرعة الخامسة لسبط بني أشير.. يشوع ١٩: ٢٤».
وخرجت القرعة السادسة لبني نفتالي.. يشوع ١٩: ٣٢».
وهكذا.. حتى «انتهوا من تقسيم الأرض بالقرعة. سفر يشوع ١٩: ٤٩».

أم ترى كانت الانتصارات الباهرة التي يتحدث عنها الدكتور شوفاني أيام شق البحر بالعصا، وايقاف الشمس في قبة الفلك بأمر من قائد محارب. وأيام دكّ الاسوار بنفخ الأبواق. والانتصار في معركة «الجرار الفارغة والمصابيح في وسط الجرار. سفر القضاة ٧: ١٦». أيام كان «سبع مائة رجل من بني بنيامين منتخبون عسر يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة ولا يخطئون. سفر القضاة ٢٠: ١٦». أيام كسب معركة فاصلة بحصاة مقلاع راع فتي، صيّرته ملكاً؟.

أم ترى كانت يوم «كان شاول مقيماً في طرف جبعة، تحت الرمانة، والشعب الذي معه نحو ست مائة رجل. سم١ ١٤: ٢». «وفي يوم الحرب لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول. سم١ ١٣: ٢٢»؟.

أم كانت «يوم اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والآبار. سم١ ١٣: ٦» خوفاً من الفلسطينيين. وحين أظهر ابن شاول وغلامه نفسيهما للفلسطينيين، «قال الفلسطينيون: هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها. سم١ ١٤: ١١».

أم كانت «يوم كان ينزل كل اسرائيل (تأمل: كل اسرائيل) الى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكّته ومنجله وفأسه ومعوله. سم١ ١٣: ٢٠».

أم كانت يوم «انكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين سم١ ٤: ٢». «وأخذ

الفلسطينيون تابوت الله. سم١ ٥ : ١؟».

أم كانت يوم «كان الفلسطينيون متسلطين على اسرائيل. سفر القضاة ١٤ : ٤».

أم كانت يوم «حطّم ورضّض الفلسطينيون بني اسرائيل ثماني عشرة سنة. قضاة ١٠ : ٨».

أم كانت يوم استعبدهم ملوك الأرض (لن أكرّر ما ذكرته مراراً وتكراراً. ولكن حبذا مراجعة فصل اسرائيل في التوراة، والتأمل والمقارنة مع ما قرره الدكتور شوفاني).

والمؤسف الى حدّ الاختناق أن الدكتور شوفاني ربط «بروز المملكة الداودية كقوة»، كما فعل صاحبنا المحرّر في موسوعة المسيري، «بتدهور أوضاع الامبراطوريات الكبرى كلها» ص ٩٥.

وهو يرى «أن التمدّد الاسرائيلي في أرض كنعان كان يتناسب اطراداً مع انكماش السلطة المصرية فيها. والتراجع المصري ترك المدن الكنعانية في مواجهة القبائل الاسرائيلية، فراحت تسقط بالتدريج» ص ٩١.

هذا الكلام للمؤرخين التوراتيين أولاً. وثانياً هو مخجل، ومؤسف أن يصدر عن مؤرخ عربي، وابن الأرض، وابن القضية.

* * *

وباختصار، إن المؤرخين العرب الذين كتبوا في تاريخ فلسطين، لم يستطيعوا أن يحرّروا أنفسهم من قبضة الدراسات التوراتية. ومن هنا كان تأليفهم للجماعة تاريخاً انضر وأزهى من التواريخ التي ركّبها المؤرخون التوراتيون.

ويبدو أنهم، أو بعضهم، يندرجون تحت فئة المؤرخين الجهلة الذين يعانون من غيبة الفهم، والحرمان من نعمة التفكير. وربما كانوا، أو بعضهم، خير مثل لمن فقدوا صواب الرؤية في استعدادهم للتصديق والانقياد، والنكوص عمّا يمليه العقل من وجوب التفكير والتأمّل والتروّي.

ولكن غيظي من المجتمعات العربية أنها تعاقبني بتجمّدها عند مستوى واحد من بداوة الجهل وضحالة الوعي، أكثر مما يعاقبني هؤلاء المؤرخون بتحويل هرائهم وغثيانهم الى كتب في التاريخ.

* * *

وفي الختام يعتقد المؤلف أنه فصّل القول، في ما تقدم من هذا البحث، في عناصر الايديولوجية الصهيونية الأساسية، التي يتبنّاها الغرب الأوربي والأميركي بمجتمعاته العريضة وبنخبته السياسية ودراساته التوراتية، وخلاصتها:

ـ «أن القبائل الاسرائيلية استولت على أرض خالية من السكان (فلسطين). وأنشأت أول دولة قومية موحّدة فيها».

ـ وأن فلسطين هي «أرض اسرائيل التاريخية». وأنها «مهد شعبهم ووطنهم». وبالتالي فهي «ملك لليهود بحكم النشأة التاريخية للأمة اليهودية».

ـ و «أن دولة اسرائيل لا تستمد وجودها من حق الاستيلاء، بل من الحق التاريخي».

ومن مقوّمات هذه الايديولوجية أيضاً أن الادعاء بـ «الحق التاريخي» وبـ «الرابطة التاريخية» غُرس في الذهنية الغربية مقترناً باستبعاد الفلسطينيين أو نفيهم أو تغييبهم مادّياً وحضارياً وسياسياً. وبمحو فلسطين أو تشويهها مجتمعاً وتاريخاً واسماً وحضارة.

وفي المقابل غرست الايديولوجية الصهيونية في الذهنية الغربية عينها صورة مركّبة زاهية لحضارة التجمّع اليهودي في أرض فلسطين. مقترنة بالحطّ من قيمة الحضارة الفلسطينية أو مسخها أو على الأقل انكار دورها ومساهمتها في تاريخ الحضارة الانسانية.

بقي أمامنا صكّ التمليك الوحيد والفريد ـ وعد إلههم يهوه. وقصة هذا الصك، والمكتب العقاري (مكتب يهوه ـ الرب) الذي أصدره، هو موضوع بحثنا في الكتاب القادم.

الهوامش

(١) كميل منصور في مقدمته لكتاب «اتفاق كامب دافيد وأخطاره» بيروت ١٩٧٨ ـ م د ف.

(٢) موشيه هوروفيتس «المفتاح بيد الحاخام شاخ» القدس ١٩٨٩ ص ١٤٢ (عبري).

(3) Allon, y. (1970) The making of Israel army, N.Y.

(4) Paris Match 6, 10, 1978.

(5) Le Monde Diplomatique, Avril 1991.

(6) Claudia Wright (Journal of Palestine Studies, 44/45, Vol. xi Summer 1982).

(٧) أديب ديمتري «نفي العقل» دمشق ١٩٩٣ دار كنعان للنشر ص ٨.

(8) Garoudy, R. (1996) Les Mythes fondateurs de la politique israélienne, Paris.

(9) Revue des TEMPS MODERNES, Le Conflit Israelo-Arabe No. 253, 1967.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) برهان الدجاني في تقديمه لكتاب عاطف قبرصي «الآثار الاقتصادية لاتفاق كامب دافيد» بيروت ١٩٨٢ ـ م د ف.

(١٢) حسين أبو النمل «بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي» بيروت ١٩٧٥ ـ مركز الابحاث ص ٢٠.

(١٣) قبرصي المرجع السابق ص ١٤٣.

(١٤) سمير جبور «قناة البحرين: المتوسط والميّت» بيروت ١٩٨١ ـ م د ف ص xiii.

(15) Aronson, G. (1990) Israel, Palestinians and the INTIFDA, London KPI, P. 24.

(16) George W. Ball and Douglas B. Ball, The passionate attachment, N. Y. 1992, P. 178.

(١٧) و(١٨) قبرصي المرجع السابق ص ١٤٢ و٨٧.

(١٩) سمير جبور «مخططات اسرائيل الاقتصادية في ضوء معاهدة الصلح المنفرد» بيروت ١٩٨٠ ـ م د ف ص ٤٨.

(٢٠) ارونسون المرجع السابق ص ٢٨.

(21) David Ben-Gurion, (1954) The rebirth and destiny of Israel, N. Y. P. 100.

(22) Keith W. Whitelam, The invention of ancient Israel, The silencing of Palestinian history, London, 1996. Routledge, P. 7, 15.

(23) Shella Ryan (Journal of Palestine Studies, 44/45, Vol. xi summer 1982).

(24) Forrest, A. C. (1972) The Unholy Land, Canada: Devin-Adair P. vii.

(٢٥) ديمتري المرجع السابق ص ١٥٩.

(26) The Jewish Encyclopedia, N. Y. 1901.

(27) Hertzberg, A. (1959) The Zionist idea, N. Y: Doubleday and Co. P. 102.

(٢٨) و(٢٩) و(٣٠) و(٣١) المرجع السابق ص ١١٦ و١٤٢ و١٥٨ و١٦٦.

(٣٢) ر. ج. زفي فيربلوفسكي ـ الأزمة الحديثة العدد ٢٥٣ لسنة ١٩٦٧.

(33) Khalidi, W. (1971) Form haven to conquest, Beirut I P S, P. 91.

(٣٤) و(٣٥) و(٣٦) و(٣٧) و(٣٨) و(٣٩) و(٤٠) و(٤١) و(٤٢) هرتزبرغ المرجع السابق ص ٢٩٠ و٤١٦ و٣٠٤ و٣١٤ و٣٩٨ و٤٥٠ و٤٧٨ و٥١٤ و٥٩٠.

(43) John Bowle, Viscount Samuel, A Biography, London 1957, P. 172.

(44) Paul Goodman and Arthur D. Lewis (ed.) Zionism: problems and Views, with an introduction by Max Nordau, London 1916.

(45) Christopher Sykes, Two studies in Virtue, London 1953.

(46) , (47) Alan R. Taylor in Abu-lughod, I. (1971) The transformation of Palestine, Evanston, Northwestern University press.

(48) The ESCO Foundation for Palestine. A Studay of Jewish, Arab, and British policies, New Haven, 1947.

(49) Norman Bentwich, Palestine of the Jews. Past, Present, and Future, London, 1919.

(50) , (51), (52), A. RAZZOUK, Greater Israel, Beirut 1970.

(53) Joseph Badi (1961) Fudamental laws of the state of Israel, N. Y: twayne, P. 8-11.

(54) Israel Government year book (Jerusalem, 1955).

(55) David Ben Gurion «Israel and the Diaspora», Israel Government year book (Jerusalem, 1957).

(56) The Jewish Chronicle, November 18, 1955.

(٥٧) بن غوريون «بعث اسرائيل ومصيرها» المرجع السابق ص ٤٦٦.

(58) Ben-Gurion, D. (1965) Ben Gurion looks back, N. Y.: simon and schuster.

(٥٩) بن غوريون المرجع السابق.

(٦٠) و(٦١) أرونسون المرجع السابق ص ٦٢.

(62) Menuhin, M. (1969) The decadence of Judaism in our time, Beirut: IPS.

(٦٣) وايتلام المرجع السابق ص ١٢٧.

(٦٤) ارونسون المرجع السابق ص ٤.

(65) Elfi Pallis, «The Likud party: A primer» Journal of Palastine studies, 21,

No. 2 (winter 1992) P. 42.

(٦٦) أرونسون المرجع السابق ص ٢٩٩.

(67) Foreign Affairs, Oct. 1976.

(٦٨) أرونسون المرجع السابق ص ٣٠٠.

(69) Israleft (Jerusalem), 13 september 1972, P. 3.

(٧٠) أرونسون المرجع السابق ص ٢٠.

(٧١) الأب فورست المرجع السابق ص ٧٤.

(72) David Shaham, Yedi'ot Aharonat supplement, 13 April 1979.

(73) David Schnall (1984) Beyond The green line, N. Y.: praeger and co. P. 19.

(74) Kook's article in Hatzofeh, 23 June 1967.

(٧٥) و(٧٦) جورج ودوغلاس بول المرجع السابق ص ١٦٢ و١٦٩.

(77) Jerusalem Post, May 8, 1981.

(78) Obrien, L. (1986) American Jewish Organizations and Israel, Washington: I P S, P. 17.

(٧٩) اوبرين المرجع السابق ص ٥١.

(٨٠) نشر عوز مقالته في دافار ١٩٦٧ ثم أعاد نشرها في: New outlook, 31, No. 1 (January 1988).

(81) , (82) OZ, Amos. (1983) In The land of Israel, N. Y. P, 49, 77.

(٨٣) كوك المرجع السابق.

(84) Grace Halsell, Prophecy and politics, connecticut, 1986, P. 137.

(85) Mayir Verete, The restoration of the Jews in English protestant thought, 1790-1840, Middle Eastern studies, vol. 8, No. 1.

(86) As quoted in Christopher sykes, two studies in Virtue (London 1953) P. 149.

(87) Franz Kobler, The vision was there, London 1956 P. 35.

(٨٨) و(٨٩) فيريت المرجع السابق.

(90) Barbara Tuchman, Bible and Sword, London 1957 P. 160.

(91) N. Sokolow, History of Zionism, London 1919, P. 231.

(92) The Times (London) 17 August 1840.

(٩٣) توخمان المرجع السابق ص ١٧٣.

(94) Regina S. Sharif, Non-Jewish Zionism, its roots in western history, London, 1983.

(95) James Parkes, Five roots of Israel, London, 1964.

(96) Alan R. Taylor, Prelude to Israel, N. Y. 1959, P. 14.

(97) Stein, L. (1961) The Balfour declaration, London: Vallentine, Mitchell.

(98) Dugdale, B. E. C. (1936) Arthur James Balfour, London, P. 216.

(٩٩) المرجع السابق ص ٤٣٣.

(100) Sharif, R. S. (1983) Non-Jewish Zionism, London: Zed press.

(١٠١) شريف المرجع السابق.
(١٠٢) كوبلر المرجع السابق.
(١٠٣) شريف المرجع السابق.
(104) Wise, S. S. (1949) The challenging years, N. Y.
(١٠٥) المرجع السابق.
(106) Reuben Fink, America and palestine, N. Y. 1945.
(١٠٧) المرجع السابق.
(١٠٨) شريف المرجع السابق.
(109) Speech by president Jimmy Carter on 1 May 1978, Department of state bulletin, Vol. 78 No. 2015.
(110) Henry Cabot Lodge, speech reported in 'New palestine', Vol. 2, 26 May 1922, P. 330.
(١١١) شريف المرجع السابق.
(١١٢) و(١١٣) هالسل المرجع السابق.
(١١٤) و(١١٥) فنك المرجع السابق.
(١١٦) و(١١٧) هالسل المرجع السابق.
(118) Smith, G. A. (1894) The historical Geography of the holy land, especially in relation to the history of Israel and of the early church, London, P. vii.
(١١٩) وايتلام المرجع السابق ص ٤١.
(١٢٠) سميث المرجع السابق ص ٢٠.
(١٢١) وايتلام المرجع السابق ص ٤٥.
(١٢٢) وايتلام المرجع السابق ص ٣.
(١٢٣) الأب فورست المرجع السابق ص ix.
(124) J. M. N. Jeffries, Palestine: The reality, London, Longmans, Co. 1939, P. 17.
(125) Albright, W. F. (1960) The archaeology of Palestine, London: Pelican book, P. 23.
(126) Dussau, R. (1949) La civilisation phénicienne, Paris.
(127) Moscati, S. (1957) Ancient semitic civilization, London.
(128) A. H. Sayce, Assyrian Grammar, London 1887 P. 13.
R. W. Rogers, A history of Babylonia and Assyria, N. Y. 1915 P. 306.
L. B. Paton, The early history of Syria and Palestine, N. Y. 1901 P. 6.
S. Moscati, Ancient semitic civilization, London 1957 P. 24, 36.
(129) Toynbee, A. (1955) A study of history, oxford.
(130) Durant, W. (1935) The story of civilization, N. Y.
(131) S. N. Kramer, History begins at Sumer, philadelphia 1981.

(132) S. Langdon, The mythology of semitic, U. S. A. 1931 P. 1.

(١٣٣) موسكاتي - الحضارة السامية القديمة ص ١٣٧.

(134) Clay, A. (1919) The Empire of Amorites, philadelphia.

(135) A. Book, P. Slasson, H. Anderson, World history, U. S. A. 1942 P. 35.

(١٣٦) يعرض المؤرخ الايطالي ساباتينو موسكاتي آراء هؤلاء المؤرخين في كتابه: The world of the phoenician, London 1968 P. 4.

(137) W. Keller, The Bible as history, London 1980 P. 79.

(١٣٨) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص XXI.

(139) Dupont Sommer, les Araméens, Paris 1949 P. 27.

(140) Gordon Childe, de la Préhistoire à L'Histoire, Paris 1961.

(141) Jacques Cauvin, les premiers Villages de syrie-palestine du IXème au VIIème Millenaire avant j. c.

المدن الأولى في سوريا بين الألف التاسع والألف السابع ق.م. ترجمة قاسم طوير - دمشق ١٩٨٤.

(١٤٢) المرجع السابق. مقدمة الكتاب.

(143) A. Toynbee, Man Kind and mother earth, oxford 1976, P. 95.

(144) D. Bates and D. Garrod, the stone age of mount carmel, oxford 1937, P. 171.

(١٤٥) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص ٨٣.

(146) The Iliad of Homer (trans), by Ennis Rees, N. Y. 1963 P. 485.

(١٤٧) ديورانت - قصة الحضارة ص ١٢٥.

(148) Lionel Casson, The ancient mariners, N. Y. 1959, P. 37.

(١٤٩) ديورانت - قصة الحضارة ص ١٩٢ وانظر: The Geography, of Strabo (Trans), by H. L. Jones, London 1966.

(١٥٠) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص ٣.

(١٥١) ديورانت - قصة الحضارة ص ٢٩٣.

(١٥٢) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص ٨٧.

(١٥٣) المرجع السابق ص ١٢١.

(١٥٤) المرجع السابق ص ٩٨.

(155) H. G. Wells, A short history of the world, London 1930, P. 36.

(١٥٦) موسكاتي - عالم الفينيقيين ص ٢٣٠.

(١٥٧) المرجع السابق ص ٦.

(158) Jacques pirenne, civilization antiques, paris 1951, P. 55.

(١٥٩) ديورانت - قصة الحضارة ص ٢٩٣.

(١٦٠) برن - المرجع السابق ص ٥٧.

(161) Diodoru Siculus, Diodorus of Cicily (trans), C. Sherman and C. old father, Cambridge 1959, P. 630.

(١٦٢) موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ١٠١.
(163) Herodotus, The histories (trans), A. D. Godely, Cambridge 1963, P. 555.
(١٦٤) توينبي ـ دراسة التاريخ ص ١٠٧.
(165) H. Frankfort, The art and architecture of the ancient Orient, Harmonds Worth 1954 P. 84.
(١٦٦) البرايت «آثار فلسطين» ص ٢٢٧.
(١٦٧) المرجع السابق ص ٢٢٨.
(168) Armstrong, K. (1996) Jerusalem, N. Y.: Alfred Knof.
(169) W. F. Albright, The role of the Canaanites in the history of civilization, N. Y. 1961, P. 171.
(170) W. F. Albright, The archaeology of palestine, London 1960, P. 90.
(171) Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, London 1974.
(١٧٢) موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٥٢.
(١٧٣) ديورانت ـ قصة الحضارة ص ١٣٢.
(١٧٤) موسكاتي ـ عالم الفينيقيين ص ٤٥.
(١٧٥) ديورانت ـ المرجع السابق.
(176) Moshe Menuhin, The decadence of Judaism in our time, Beirut 1969.
(177) H. G. Wells, The outine of history, N. Y. 1921, P. 97.
(١٧٨) المرجع السابق.
(179) Père R. de Vaux, Histoire ancienne d'Israel, Ed. Gabalda, Paris 1971.
(١٨٠) التعبير لدوستويفسكي في مقالاته «المسألة اليهودية» التي كان ينشرها عام ١٨٧٧ في زاوية مفكرة كاتب.
(181) E. H. Weech, Civilization of the neareat, London 1936 P. 82.
(182) H. G. Wells, A short history of the world, London 1938 P. 78.
(183) Josephus, Flavius. Antiquities of the Jews.
(184) A. T. Olmstead, history of the persion Empire, 1960.
(185) Salo W. Baron, A social and religious history of the Jews, N. Y. 1952.
(١٨٦) الأب دي فو. المرجع السابق.
(187) Bright, J. (1960) A history of Israel, London: SCM.
(188) K. Kenyon, Digging up Jerich, London 1957.
(189) H. G. Wells, A short history of the world, London 1938.
(190) H. G. Wells, the outline of history, N. Y. 1921.
(١٩١) منوحن المرجع السابق.
(١٩٢) الأب فورست «الأرض غير المقدسة» ص ٩٦.
(١٩٣) منوحن المرجع السابق.
(194) Israel shahak, le racisme de L'Etat D'Israel, paris, 1975.
(195) I. Cohen, A short history of Zionism, N. Y. 1951.

(١٩٦) هيرتزبرغ «الفكرة الصهيونية» ص ٢٩٠.
(١٩٧) فورست المرجع السابق ص ٧٤.
(١٩٨) الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.
(١٩٩) شريف المرجع السابق ص ٩٦.
(٢٠٠) انظر مقالة بن غوريون «اسرائيل والدياسبورا» في الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل (١٩٥٧). المرجع السابق.
(٢٠١) كوك المرجع السابق.
(202) Shlomo Aviner, The inheritance of the land and the Moral Problem, Jerusalem 1983, P. 10.
(٢٠٣) نيويورك تايمز ٨/١١/١٩٥٦ وماير فلنر في الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.
(٢٠٤) أورنسون ص ٦٢.
(205) Begin, M. (1951) The revolt: Story of the Irgun, N. Y.
(٢٠٧) الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.
(208) Ha'am, Ahad. Essays, letters and mimoirs, (trans.) Leon simon, oxford 1946.
(209) Hans Kohn, «Zion and the national idea», Menorah Journal, Autumn 1958.
(210) Arthur Koestler, promise and fulfilment, London 1949.
(211) Alfred Lilenthal, what price Israel?, Chicago 1953.
(٢١٢) من خطاب ألقي في اجتماع للاتحاد الفرنسي الصهيوني في باريس ٢٨ آذار ١٩١٤
انظر: Barent litvinoff, The letters and papers of chaim weizman, Jerusalem 1983.
(٢١٣) الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.
(214) David Hirst, in Journal of palestine studies, spring 1975.
(215) M. Eliade, Patterns in comparative religion, London 1967 P. 38.
(216) F. Harper, Code of Hammurabi, London 1904.
(217) S. Segert, A Grammar of phoenition and punic, Germany 1976.
(218) Z. Harris, Garmmar of the phoenician Language, N. Haven 1936.
(219) F. Benz, Personal names in the phoenician and punic inscriptions, Rome 1972.
(220) J. Gibson, Text - book of Syrian semitic inscriptions, Oxford 1975.
(221) S. A. Cook, The religion of ancient Palestine in the light of archaeology. London 1930.
(222) G. A. Cooke, A text - book of north - semitic inscriptions, Oxford 1903.
(٢٢٣) غولدمان ـ الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.
(٢٢٤) جوزف بادي «القوانين المؤسسة لدولة اسرائيل» مرجع سبق ذكره.
(٢٢٥) انظر مثلاً «برنامج تعليم التوراة» القدس ١٩٧١ (عبري).

(٢٢٦) انظر مثلاً برنامج المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين (٩ ـ ١٩ حزيران ١٩٦٨) وبرنامج المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين (١٨ ـ ٢٧ كانون الأول ١٩٧٢).

(٢٢٧) بن غوريون في كتاب «الفكرة الصهيونية» لهرتزبرغ.

(٢٢٨) انظر مقالته في الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(٢٢٩) فرانتس شايدل «اسرائيل أمة مفتعلة» (بالالمانية) ترجمه الى العربية محمد جديد ـ دمشق ١٩٦٩.

(٢٣٠) انظر مقالته في الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(٢٣١) انظر مقالته في «الفكرة الصهيونية» لهرتزبرغ.

(232) Weiss - Rosmarin, T. Jewish survival, N. Y. 1949.

(233) Leon Uris, Exodus, N. Y. 1959.

(234) Patai, Raphael. (1977) The Jewish mind, N. Y.: Charles Scribner's sons.

(235) Herman, S. N. (1970) Israelis and Jews, N. Y.

(236) Petuchowski, Jacob. (1966) Zion reconsidered, N. Y. Twayne publications.

(٢٣٧) الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(238) Alt, A. (1966) Essays on old testament history and religion, oxford: Blackwell, P. 187.

(٢٣٩) موشيه دوثان مقتبس في وايتلام ص ٥٦.

(240) Noth, M. (1960) The history of Israel, London: Adam and charles Black.

(٢٤١) ألت المرجع السابق ص ١٦١.

(242) Weippert, M. (1971) The settlement of the Israelite tribes in Palestine, London: S C M. P. 6.

(٢٤٣) ألت المرجع السابق ص ١٨٣.

(244) Whitelam, Keith. (1996) The invention of ancient Israel, The silencing of Palestinian history, N. Y.: Routledge, P. 79.

(٢٤٥) ألت المرجع السابق ص ٢٠٠.

(٢٤٦) دوثان المرجع السابق ص ١٣٩.

(٢٤٧) ألت المرجع السابق ص ٢٣٧.

(٢٤٨) دوثان المرجع السابق.

(٢٤٩) و(٢٥٠) و(٢٥١) وايتلام المرجع السابق.

(٢٥٢) ج. سوغن مقتبس في وايتلام ص ١٢٧.

(253) Bright, J. (1972) A history of Israel, 2nd edn, London: SCM P. 179, 197, 200, 207.

(٢٥٤) مارتن نوت المرجع السابق ص ١٧٨ ـ ١٩٥.

(٢٥٥) ألت المرجع السابق ص ٢٢٥ ـ ٢٣٧.

(٢٥٦) و(٢٥٧) و(٢٥٨) وايتلام المرجع السابق ص ٧١ و١٢٤ و١٢٩.

(259) Herrmann, S. (1975) A history of Israel in old testament times, London: SCM, P. 6.

(260) Aharoni, Y. (1982) The archaeology of the land of Israel: From The prehistoric beginning to the end of the first temple Period, London: SCM, P. 90.

(٢٦١) ألت المرجع السابق ص ١٩١.

(٢٦٢) نوت المرجع السابق ص ٧.

(٢٦٣) أهاروني المرجع السابق. وانظر كتابه الآخر: The land of the Bible, London 1962, Burns and Oates.

(٢٦٤) و(٢٦٥) و(٢٦٦) دوثان المرجع السابق.

(٢٦٧) و(٢٦٨) و(٢٦٩) وايتلام المرجع السابق ص ٤٣ و٥٦ و٥٧.

(٢٧٠) هيرمان المرجع السابق ص ٦.

(٢٧١) برايت المرجع السابق وانظر وايتلام ص ٤٥.

(272) Miller, J. M. and Hayes, J. (1986) A history of ancient Israel and Judah, London: SCM, P. 33.

(٢٧٣) وايتلام المرجع السابق ص ٤٥.

(274) Fabian, J. (1983) Time and the other. How Anthropology makes its object, N. Y. Columbia university press.

(٢٧٥) وايتلام المرجع السابق ص ٥٦.

(٢٧٦) المرجع السابق ص ١.

(٢٧٧) المرجع السابق ص ٣ وانظر: Olmstead, A. T. E. (1931) History of Palestine and Syria to the Macedonian conquest, N. Y.

Paton, L. B. (1901) The early history of Syria and Palestine, N. Y.

(٢٧٨) سميث المرجع السابق ص vii.

(٢٧٩) سميث المرجع السابق ص ٢١.

(٢٨٠) نوت المرجع السابق ص ٨.

(٢٨١) و(٢٨٢) و(٢٨٣) و(٢٨٤) وايتلام المرجع السابق ص ٥٠ و٥٤ و٣ و٥.

(٢٨٥) ف. بروديل مقتبس في وايتلام ص ٦٦.

(٢٨٦) و(٢٨٧) و(٢٨٨) و(٢٨٩) وايتلام المرجع السابق ص ١ و٤٢.

(٢٩٠) دوثان مقتبس في وايتلام ص ٥٦.

(٢٩١) نوت المرجع السابق ص ٥٥ و٢٢٣.

(292) Von Rad, G. (1965) The problem of The Hexateuch and other essays, Edinburgh: Blacc. P. 285.

(٢٩٣) أ. ألت المرجع السابق ص ١٣١.

(294) Albright, W. F. (1957) From The stone age to christianitg, N. Y. Doubleday. P. 284.

(295) Mazar, A. (1982) Three Israelite sites in the hills of Judah and Israel, Biblical archaeologist 45: 167 - 78. P. 32.

(٢٩٦) ويلز «معالم التاريخ» مرجع سبق ذكره.

(٢٩٧) جيفرز المرجع السابق ص ٩١.

(٢٩٨) نوت المرجع السابق ص ١٨٩.

(299) Herrmann, S. (1975) A history of Israel in old testament times, P. 157, London: SCM.

(٣٠٠) وايتلام المرجع السابق ص ١٤٧.

(٣٠١) ميلر وهايس المرجع السابق ص ١٤٩.

(302) Roger Garoudy, Palestine terre des messages divins, Paris Albatros 1986, P. 51.

(303) Anderson, G. W. (1979) A critical introdution to the old testament, London: Duckworth, P. 71.

(304) Alfred lilienthal, The other side of the Coin, N. Y. 1965.

(305) Hans Kohn, Zion and the Jewish national idea, N. Y. 1958, P. 18.

(٣٠٦) غوستاف لوبون «الحضارات الأولى» باريس ١٨٨٩ ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٧٠.

(٣٠٧) البرايت «آثار فلسطين» المرجع السابق.

(٣٠٨) لوبون المرجع السابق.

(٣٠٩) و(٣١٠) ويلز «معالم التاريخ» المرجع السابق.

(311) P. Hubac, carthage, Paris 1952.

(٣١٢) و(٣١٣) وايتلام المرجع السابق ص ١٦ و٤٦.

(٣١٤) ويلز «معالم التاريخ» مرجع سبق ذكره.

(٣١٥) موشيه منه ـ المرجع السابق.

(٣١٦) الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(٣١٧) ايغال الون «انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي» مرجع سبق ذكره.

(٣١٨) موشيه منه المرجع السابق.

(٣١٩) جيفرز المرجع السابق ص ٦.

(٣٢٠) و(٣٢١) عوز المرجع السابق.

(322) W. Laqueur, Histoire du sionisme, Paris 1973, P. 382.

(٣٢٣) هالسل المرجع السابق ص ١٤٥.

(٣٢٤) و(٣٢٥) و(٣٢٦) جيفرز المرجع السابق ص ٤ و٥ و٦.

(٣٢٧) موشيه منوحن المرجع السابق.

(٣٢٨) جيفرز المرجع السابق ص ١٦.

(٣٢٩) مقتبس في هالسل ص ١٧٦.

(٣٣٠) و(٣٣١) و(٣٣٢) جيفرز المرجع السابق ص ١٠ و١٥.

(٣٣٣) و(٣٣٤) وايتلام المرجع السابق ص ١ و٥٨.

(335) Aharoni, Y. (1982) The archaeology of the land of Israel, London: SCM.

(٣٣٦) سميث المرجع السابق ص ٤١.

(٣٣٧) نوت المرجع السابق ص ٨ و٧.

(٣٣٨) ويبرت المرجع السابق ص ٦.

(339) David Catarivas, Israel, Paris, 1964, P. 44, 50, 69.

(٣٤٠) و(٣٤١) وايتلام المرجع السابق ص ٨٩ و١٢٦.

(٣٤٢) برايت المرجع السابق ص ١٠٩ و١١٠ و١١٧.

(٣٤٣) و(٣٤٤) و(٣٤٥) وايتلام المرجع السابق ص ٩٧ و١٠٠ و١٤٢.

(٣٤٦) هذا التعليق لوايتلام ص ٩٧.

(٣٤٧) و(٣٤٨) و(٣٤٩) و(٣٥٠) وايتلام المرجع السابق ص ١٢٦ و١٢٨ و١٢٣ و٩٠.

(351) Albright, W. F. (1957) From the stone age to christianity, N. Y. Doubledday. P. 279.

(٣٥٢) وايتلام المرجع السابق ص ٨٢.

(٣٥٣) البرايت المرجع السابق ص ٤٠١.

(٣٥٤) و(٣٥٥) وايتلام المرجع السابق ص ٨٨ و٩٠.

(356) (357), (358) G. E. Wright and R. H. Fuller, The book of the acts of God, London 1960, P. 8, 109.

(٣٥٩) و(٣٦٠) و(٣٦١) وايتلام المرجع السابق ص ٥ و٢٢٣ و٢.

(٣٦٢) البرايت المرجع السابق ص ٤٠٠.

(٣٦٣) و(٣٦٤) سميث المرجع السابق ص ٢٩.

(٣٦٥) يديعوت احرونوت ١٧ تشرين الأول ١٩٦٩.

(٣٦٦) و(٣٦٧) موشيه سنه ـ الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(٣٦٨) مئير يعري ـ الأزمنة الحديثة العدد ٢٥٣.

(٣٦٩) و(٣٧٠) جيفرز المرجع السابق ص ٦.

(٣٧١) و(٣٧٢) كيث وايتلام ـ المرجع السابق ص ٣ و١٢٧.

(٣٧٣) الموسوعة الفلسطينية ـ بيروت ١٩٩٠ القسم الثاني، المجلد الثاني ص ١٢٠.

(٣٧٤) عبد الوهاب المسيري ـ موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. دار الشروق القاهرة ١٩٩٩.

(375) Soggin, J. A. (1984) A history of Israel, London: SCM P. 42, 44.

(376) Ahlstrom, G. W. (1993) The history of ancient Palestine, Sheffield: JSOT P. 454, 487.

(٣٧٧) د. الياس شوفاني «الموجز في تاريخ فلسطين السياسي» بيروت ١٩٩٨ منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

فهرست

لماذا مملكة الصعاليك؟

لأن ما يزيد على ألفي مليون مؤمن بالكتاب المقدس، لا يعرفون أن داود، ملك الملوك ونبي الانبياء ومسيح الرب، حين هرب من وجه شاول، عاش صعلوكاً في بلاد الفلسطينيين. «وكانت عادته كل ايام اقامته في بلاد الفلسطينيين، والتي جاوزت سنة واربعة أشهر، ان يضرب في الارض. فلم يستبق رجلاً ولا امرأة، ويأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ويرجع إلى سيده الملك الفلسطيني أخيش. سم١ ٢٧».

وفي هربه، وكان ملكا، من وجه ابنه ابشالوم. «صعد في الجبل باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافيا. سم٢ ١٥».

«ولما جاء الملك داود إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، يسب ويرشق بالحجارة داود الملك وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة، ويقول في سبه: أخرج يا رجل الدماء. سم٢ ١٦».

والأدهى أن تعرف الصورة التي ركبتها الدراسات التوراتية لهذا الـ«داود».

وأن تعرف أن ما يزيد على ست مائة ألف من القساوسة والوعاظ في الغرب الأوروبي والاميركي يجأرون بالدعاء إلى الله، صباح مساء، أم يمن على البشرية برجل آخر من طراز داود.

ومن جهتنا، لا نسأل: كيف يُركب التاريخ؟.

ولكننا نتساءل: كيف تقبل، بل تقدس هذا التاريخ المركب، جماهير عريضة تربو على النصف من سكان هذا الكوكب؟.

ربما لأنها تحمل في رؤوسها أذهانا مخصية، وعقولاً معطلة، وأدمغة فارغة كجرار الفخاري!. وربما..!

9.00 $